فلاديمير ميدفيديف

حكم العواجيز

اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتى



ترجمة

د. نبيل رشوان

دار الثقافة الجديدة

حكم العواجيز

اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي

حكم العواجيز

اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي

فلاديمير ميدفيديف

تقديـــم: د/ رفعت السعيد

ترجمة: د/ نبيل رشوان

• الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

الناشر/

دار الثقافة الجديدة

" شركة ذات مسئولية محدودة "

٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة

ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠

تصميم الغلاف/ أحمد مراد

e-mail: elguindimohamed93@gmail.com

http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

رقم الإيداع: ٢٠١٣/١٩٦٧١

الترقيم الدولي (I.S.B.N): 4 - 181 – 221 – 977 – 979

فلاديمير ميدفيديف

حكم العواجيز

اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتى

تقديم :

د/ رفعت السعيد

ترجمة :

د/ نبيل رشوان

دار الثقافة الجديدة

الفهرس

		ص
لماذا ؟ مقدمة للدكتور رفعت السعيد		٧
كيف ؟ مقدمة المترجم		١١
الفصل الأول :	صباح الحرية العابث	١٣
الفصل الثاني :	الطريق إلى القمة	١٩
الفصل الثالث :	محاولة اغتيال بريجنيف	٢٩
الفصل الرابع :	زاريتشى الكينونة والحياة	٣٧
الفصل الخامس :	من فوق ضريح لينين	٥١
الفصل السادس :	الصيد	٥٥
الفصل السابع :	الاستجمام.. مغارات الجبل	٦٥
الفصل الثامن :	زيارات الخارج	٨١
الفصل التاسع :	الزملاء العواجيز	٩١
الفصل العاشر :	بداية النهاية ــ حادثة طشقند	١٠٥
الفصل الحادى عشر :	وفاة بريجنيف	١٢٩
الفصل الثانى عشر :	بين جنرالين	١٣٧
الفصل الثالث عشر :	اختبار لتعيين جديد	١٤١
الفصل الرابع عشر :	درس للشعب ــ تشيرنوبل	١٥١
الفصل الخامس عشر :	ظهور متاعب جديدة	١٦٣
الفصل السادس عشر :	محاربة الامتيازات ــ فيلا القرم	١٧٧
الفصل السابع عشر :	فوروس ــ أغسطس ١٩٩١	١٨٧
الفصل الثامن عشر :	النهاية	٢٠٧
الفصل التاسع عشر :	بديل للخاتمة	٢١٩

مقدمة

لماذا.....؟

بقلم:

د/ رفعت السعيد

هذا السؤال الأبدي الإصرار يخيم ولم يزل على القلوب والضمائر قبل أن يأتي إلى العقول والأفكار. لماذا؟ تردد هذا السؤال طويلاً في أكثر من مكان وأكثر من زمان. لماذا تحقق الحلم سريعاً بانتصار الاشتراكية بهذه السرعة والسهولة؟ ولماذا انساقت الجماهير والجنود والبحارة والفقراء للمشاركة في بناء الدولة الاشتراكية؟ ولماذا حققت هذا النجاح العظيم فأصبحت القوة العالمية الثانية، إن لم تكن الأولى في بعض الأحيان؟ وتجسد الحلم حقيقة لامعة رائعة: خبز وفير، تعليم راق ومجاني، أسعار تدهش العالم بانخفاضها، كل شيء رخيص إلا حرية البشر فإنها كانت تكلف غالياً. ذات يوم تجاسرت فقلت للرفيق بوناماريوف مسئول العلاقات الخارجية بالحزب الشيوعي السوفييتي... أين حرية المواطن العادي؟ ابتسم في ثقة لا تهتز: عندما تكون شبعاناً طول الوقت فإنك ستنسى أن تفكر في الحرية. تجسد الحلم حقيقة رائعة وامتلأت سماء العالم بنجوم حمراء وتخيل الجميع، حتى الخصوم، أن النصر الاشتراكي النهائي آت سريعاً وحتماً. وتسارعت دول عديدة في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وهي تلهث لتكون جزءاً من المنظومة التي قيل أنها اشتراكية. وعندما زار قائد سوفييتي كبير كوبا الاشتراكية في أيامها الأولى قال: لو جاء ماركس هنا لما صدق عينيه. وذات يوم زرت أديس أبابا في زمن مانجستو هيلا ماريام ووقفت مأخوذاً أمام تمثال ضخم لرأس كارل ماركس منصوبا تحت واحد من روافد منابع النيل. تأملت ماركس في بهجة غامرة وهو يستحم دوماً بشلالات من مياه النيل، وفي المساء وجدت نفسي سجيناً في فندق شديد الأناقة، لأن حظر التجوال مفروض دائماً وأبداً. ودمجت المشهدين معاً.. وقلت لنفسي: لو جاء ماركس هنا لما صدق عينيه. ثم وفجأة تهاوت صروح الاشتراكية واحدة بعد الأخرى وفي المقدمة الدولة الأم.... وافترشت سماوات عديدة كلمة واحدة.. لماذا؟ وأتت عشرات الإجابات والاجتهادات والتحاليل (لم أقل تحليلات لأنها بالفعل كانت تحاليل المرضى بحثاً عن سبب المرض). وربما كانت كل الإجابات صحيحة جزئياً أو خاطئة جزئياً لكنني أعتقد أنها حتى لو جمعت مع بعضها جنباً لجنب ما قالت إجابة شافية وافية. لماذا؟ لأن كل الإجابات لم تمد أصابع الكتابة إلى التربة النظرية وتحفر، ثم تحفر، كي نبحث عن جوهر البذرة التي أنبتت وكان يجب لها أن تنبت أسباب النهاية المأساوية. ولست أزعم أنني كنت أمتلك رفضاً لما كان.. لكنني أزعم أن غيمة فكرية ما، كانت تحلق في السماء كلما نظرت إلى ما يجري. وذات يوم كنت في

فندق راسيا في الميدان الأحمر ومن النافذة شاهدت مبنى من القرميد الأحمر... المبنى قديم جداً وفوق هامته إعلان متحرك بالنيون يتحرك باستمرار ودون توقف تتشابه الحروف والكلمات. سألت المرافق فانتشى ومد قامته وقال هذه عبارة للرفيق لينين تقول: " الشيوعية تعنى السلطة الاشتراكية مضافاً إليها الكهرباء " وأفلت مني سؤال:" وحمار مين اللي سايب الجملة دي حتى الآن " وكاد الفتى أن يغمى عليه، ولم يتردد في نقل ما قلت وبسرعة إلى مسئوله، ثم كان عتاب من مسئول كبير. كيف يا رفيق؟ قلت: ألم يلاحظ أحد أن الاشتراكية أتت منذ سبعين عاماً وأكثر ومعها الكهرباء، ثم جاءت الطاقة النووية ولم تأت الشيوعية؟ ذات الابتسامة الباردة الواثقة أتت قائلة " يا رفيق شعبنا يقدس لينين ومن المهم أن نرسخ هذه القداسة في عقله "... ولم أقتنع. وفي عام ١٩٧٢ كتبت كتاباً بعنوان " تأملات في الناصرية " انتقد فيه المسلك السوفييتي الذي كان يمتدح عبد الناصر بينما كنا نعذب في سجونه تعذيباً وحشياً فاق في بعض الأحيان التعذيب في معسكرات النازي. ومرة أخرى جاء العتاب لكنه هذه المرة أتى من رفيق كنت أحترمه جداً هو الرفيق خالد بكداش. عاتبني برفق وأنا على مائدة طعام في بيته في ركن الدين بدمشق... قال " يا رفيق أنا أحترمك والرفاق في موسكو يحترمونك ولكن لاحظ عندما تنتقدهم إنهم أبناء لينين " فأفلت منى سؤال سيء وقلت " أليس في موسكو قوادين ولصوص وهم أيضاً يتصورون أنهم أبناء لينين " صمت أبو عمار لكن أم عمار صرخت في وجهي وكادت أن تطردني لولا لطف الرجل ومحبة دافئة كان يكنها لي.

***

وتكرست هذه المشاعر لتفلت في مقال أو كتاب أو أسطر في كتاب. وذات يوم دعيت لإلقاء محاضرات في أكاديمية العلوم السياسية في إحدى الدول التي أسميت بالاشتراكية في وسط أوروبا... وبدأت أتحدث عن ضرورة الرؤية الانتقادية لأية أفكار حتى لو كنا نثق في صحتها. وقلت عبارة لهيجل " أنت لن تعرف ما بداخل ثمرة الجوز إلا إذا طرقتها وكسرتها " وأدرك أحد الجهابذة الجالسين في الصف الأول ما أقصد فسألني بشكل مباغت " في رأيك متى يخون المثقف فكرته؟ " وأدركت أنه يتهمني، لكنني باغته بإجابة لم أفكر فيها من قبل " يخونها عندما يقدسها " وتكهرب الجو وقلت: إذا قدست الفكرة تجمدت، والماركسية ليست محل تقديس حتى لا تتجمد، وأسعفتني الذاكرة بقول "الماركسية تتغير مع كل اكتشاف علمي جديد" وازدادت شحنة الكهرباء وكأنني أقول شيئاً لم يسمعوا به من قبل بينما هم يرددونه كل يوم.... وتقرر إلغاء الكورس.

.... وهنا بعد هذه الأسطر أستطيع أن أقول شيئاً عن الأسباب.

فالماركسيون وعلى رأسهم رفاق الاتحاد السوفييتي قدسوا النظرية، كل حرف فيها قدسوه. ولكن المشكلة هي أنهم لم يحددوا بشكل دقيق ما يستحق التقديس وما يستحق النظر النقدي. والأخطر منه أنهم قدسوا كل عبارة، كل فكرة، كل سطر قاله مؤسسو

النظرية.. ماركس، إنجلز، لينين، ثم ستالين قبل أن يشطب اسمه من قائمة أصحاب القداسة. والمهم أن الأمر اختلط عند الكثيرين بين النظرية (القوانين العامة التي أثبت الاختبار التاريخي صحتها) وبين الافتراضات التي تتمثل في فكرة أو رؤية قد يثبت صحتها وقد لا يثبت، والتي تظل بحاجة إلى إخضاعها للتجريب، والبحث عن شروط تحققها وتحولها من افتراض إلى قانون عام. وهناك عشرات من الافتراضات والعبارات الأدبية والتعليقات منها على سبيل المثال:

- الرأسمالية تحفر قبرها بيدها. ومن ثم يأتي افتراض آخر هو: حتمية الحل الاشتراكي.
- الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية. أي وصولها إلى نقطة لا تعلو فوقها ومن ثم يبدأ الانحدار. ولكن ها هي تجدد قواها وتخلق مسارات جديدة لفرض استغلالها.
- التناقض بين دول المعسكر الرأسمالي بعضها البعض أكثر عنفاً منها بين المعسكر الرأسمالي والمعسكر الاشتراكي. وهذه العبارة أوردها ستالين في كتابه الأخير " قضايا الاشتراكية " متصوراً أن النزاع حول المستعمرات سيخلق نزاعات وحتى حروب بين الدول الرأسمالية... لكن الزمن أتى بمتغيرات وحدث رأس المال المالي والمصرفي ووحدت مثلاً الدول الأوروبية في مصالح ومؤسسات عملاقة عبر المحيط إلى أمريكا والعكس لتخلق منظومات رأسمالية أقوى بكثير من كثير من الدول.
- لا صراع طبقي في المجتمع الاشتراكي لأن المساواة بين الجميع تمنع ذلك. لكن المساواة كانت وسط القاعدة أما قمة القيادة فقد تمتعت بامتيازات لا حدود لها. وتمسكوا بمقولة لينين " إننا نعنى بالمساواة السياسية، الحقوق المتساوية وبالمساواة الاقتصادية إلغاء الطبقات، أما المساواة بين من يختلفون في القوة والقدرات الجسدية والعقلية والفكرية فالاشتراكيون لا يفكرون في ذلك أبدا "
- (لينين – المجموعة الكاملة للأعمال – الجزء الثاني – ص ١١٢)
- النزعة القومية المتعصبة لا وجود لها في طي الاشتراكية. ومع ذلك وفي ظل الحكم السوفييتي ظلت القضية الأرمينية موجودة وكذلك قضية التتار وقضية ناجورنو كاراباخ وغيرها من النزاعات القومية.

وعشرات من الافتراضات ظلت هي أيضاً مقدسة ولا تتحقق ولا يلتفت أحد إلى عدم تحققها.

ثم كان الانهيار المأساوي... غير المفهوم في تسارعه. فهل كان في الأمر مؤامرة. أم أنها طبيعة التداعيات؟

وتداعت مع الانهيارات انهيارات مماثلة في الفكر والموقف والانتماء. وبدا الحديث عن الماركسية مختلطاً. البعض تمسك بالقديم بل عاد إلى الستالينية باعتبار أن دفنها في الاتحاد السوفييتي كان بداية دفن التجربة كلها. والبعض تحدث عن ضرورة التجديد لكنه

قدم ذات الشراب القديم في زجاجات جديدة، والبعض قام بفعل استربتيز فاضح متخلياً عن كل شيء. والبعض، وهم قليلون، يحاولون إيجاد فهم متوازن يأمل في انبعاث جديد..

... ويأتي هذا الكتاب الذي ترجم بإتقان وحرفية ليضيف بعداً جديداً في فهم لماذا؟ وهو حكم العواجيز.

والاسم الحقيقي للكتاب " رجل في الظهر " أي " المرافق ". ولكن المترجم اختار عنوان أكثر إثارة هو " حكم العواجيز– اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي " وهو في اعتقادي يأتي مترتباً على أبعاد أخرى أسست له.

لكن الكتاب الذي كتبه جنرال في الكي جي بي (المخابرات السوفيتية) والذين يعرفون دقائق حياة الكبار وكبار الكبار، يأتي مليئاً بالمعلومات المثيرة للدهشة إلى درجة أنك تسأل نفسك مع كل صفحة كيف استمر الاتحاد السوفييتي كل هذا الوقت ولماذا لم يتحطم قبل ذلك بسنوات عديدة؟

المهم أن الدكتور نبيل رشوان استخدم إتقانه للغة الروسية ومعايشته عبر سنوات للتجربة السوفيتية التي كانت تتبدى وكأنها في أوج نضجها ونهوضها ثم ما كان من انهيار مفاجئ. استخدم ذلك كله في تقديم هذا الكتاب المليء بمعلومات غاية في الأهمية وغاية في الطرافة.

وهو جهد يستحق عليه د. نبيل رشوان التقدير... بأمل أن يتحفنا بمزيد من الترجمات.. لما نحتاج إلى فهمه من أسرار وخفايا كنا لا نتصور وجودها في دولة الاشتراكية.

د. رفعت السعيد
٢٠١٣/٥/١٦

مقدمة من المترجم

كيف....؟

بداية أود أن أقول أن شخصين أو وظيفتين في المجتمع الروسي يحظيان بالتداخل مع أسرة المدير أو الزعيم أو الرئيس وهما السائق و الحارس. في البداية ساورتني الكثير من الشكوك حينما بدأت في ترجمة هذا الكتاب، فالمذكرات كثيرة كتبها الزعماء بأيديهم، وكلهم بلا شك أظهروا أنفسهم كأبطال، وبرروا أخطاءهم وإخفاقاتهم وزلاتهم، لكن لم يقدم حارس شخصي على كتابة مذكراته وقصة حياته في دولة كانت محاطة بستار حديدي، والأهم أنه تعرض للسلوكيات الشخصية للزعماء، وتحدث عن نواقصهم التي لا يعرفها أحد، والأكثر أهمية أنه شهد فترة من أهم فترات التحول في الاتحاد السوفييتي السابق، وهي اللحظات التي سبقت انهيار هذه الإمبراطورية المخيفة.

تحدث مؤلف الكتاب فلاديمير ميدفيديف، وهو جنرال سابق في الكي جي بي، عن بريجنيف. وكان يعمل معه كنائب لرئيس حراسته، وحارس شخصي له. وكشف عن ضعفه وسقوطه الصحي والأخلاقي، حيث ظل يعمل معه حتى وفاته. كما تحدث الكاتب عن جورباتشوف وتردده وعدم حسمه، وعن هوائية زوجته. وعاش اللحظات الخيرة في حياة الاتحاد السوفييتي وشهد كيف لفظ أنفاسه الأخيرة بسبب رعونة وعدم حسم جورباتشوف.

تحدث المؤلف عن وفاة بريجنيف وعن الطريقة التي تعاملوا بها معه حينها، وهي تلقي بظلال من الشك حول هذه الوفاة. تحدث عن قيادات متهاوية متهالكة تيبست عقلياتها ولم تعد أقدامها قادرة على حملها ، فكان من الطبيعي أن تنهار الإمبراطورية.

وحتى عندما جاء سكرتير عام شاب نسبياً هو جورباتشوف، لم يعرف ماذا يفعل. وتميز عصره بالارتجالية وعدم القدرة على حل مشاكل الشعوب السوفييتية التي عانت كثيراً على مدى عشرات السنين، وظل يناور بين اليمين واليسار وكان كل هدفه في النهاية أن يبقى على السطح وأن يحصل على موطئ قدم في السلطة الديموقراطية الجديدة الصاعدة، لكنه في النهاية ونتيجة تراجعاته ومناوراته خسر كل شيء وسقط وسقطت معه الإمبراطورية.

عنوان الكتاب كما عنونه الكاتب هو " إنسان خلف الظهر " أو إذا أردنا اختصار العنوان سيكون " المرافق " لكنني بعد قراءة الكتاب فضلت أن أسميه " حكم العواجيز ... اللحظات الأخيرة من حياة الاتحاد السوفييتي " على اعتبار أن الكتاب ركز على سلوكيات القادة السوفييت منتهيي الصلاحية. ولك أن تتخيل أحد هذه القيادات وقد نام في دورة

المياه، واضطروا لكسر الباب ليوقظوه ويخرجوه! ويعتبر الكاتب أن السبب الرئيسي لانهيار الاتحاد السوفييتي هو القيادات التي تيبست عقولها وفقدت القدرة الجسمانية والعقلية على إدارة البلاد.

ويركز الكاتب على أن هم الحراسة الشخصية أصبح ليس حماية الحكام السوفييت من خطر خارجي، ولكن من أنفسهم بعد أن فقدوا العقل و التوازن واستسلموا لنزواتهم، وكيف تم جلب حبوب منومة مقلدة من الخارج خصيصاً لحماية بريجنيف من إدمانه عليها، وكيف كان الحراس يخلطون الفودكا بالماء حرصاً على صحة السكرتير لعام، وكيف أضيف إلى مهمتهم كحراس أن يدخنوا للسكرتير العام وينفثون الدخان في وجهه! أشياء كثيرة لم يعرفها أحد عن القيادة السوفيتية، أبسطها غرام بريجنيف بإحدى الممرضات، مما اضطر الكي جي بي ووزارات السيادة لوضع خطة لإبعادها عن بريجنيف. أسرار وفاة أندروبوف وتشيرنينكو- السكرتيرين العامين الذين خلفا بريجنيف- بسرعة وخلال فترة قصيرة .

في اعتقادي: الكتاب غير تقليدي، ويكشف الكثير من الأسرار التي لا يعرفها ولم يتحدث عنها أحد لأنها كانت تمس الحياة الداخلية للدولة العظمى الثانية في العالم والتي كانت محاطة بستار حديدي يصعب اختراقه، لكن الكاتب عايشها وتحدث عنها. مثل: محاولات اغتيال القادة السوفييت التي لم يعرف عنها أحد أي شيء، هوس بريجنيف وتخوفه الدائم من زيادة وزنه، حبه للهدايا والأوسمة، وخرف بريجنيف في أواخر أيامه وغيرها الكثير من الأسرار.

صدر هذا الكتاب عام ١٩٩٤ عن دار نشر " روسبوليت ".

الفصل الأول

صباح الحرية العابث

أصبحت كتابة المذكرات موضة بين القادة السوفييت. فقد تقاسم ذكرياتهم مع الناس كل من خروشوف وبريجنيف وجورباتشوف، وحتى رايسا زوجة جورباتشوف لم تترك فرصتها في كتابة مذكراتها كزوجة للرئيس.

وبدأ الموظفون من الدرجات الأقل يكتبون مذكراتهم الآن، على الرغم من أنهم لم يفعلوا أي شيء ذي قيمة لبلادهم أو لشعبهم الذي مازال يرزح تحت وطأة الفقر كما كان في السابق، والأدهى أن هؤلاء الموظفون ينشرون هذه المذكرات عديمة القيمة في الخارج.

وصار الكسول فقط هو الذي لا يكتب مذكراته ولا يتحدث عن نفسه الآن.

أنا واحد من أواخر الناس التي أخذت القلم في يدها لكتابة مذكراتها، وقمت بذلك عندما بدأت عملية التشويه والسخرية من بريجنيف وعصره تهدأ، وبعد أن أصبحت ثلاثة عصور سكرتيري عموم للحزب الشيوعي السوفييتي جزءاً من الماضي، وعندما اتضح أن عصورهم كان محكوم عليها بالعار، وعندما تغير النظام الديكتاتوري أخيراً بنظام ديمقراطي- لم يأت سوى بالمآسي- وعندما حدثت محاولة انقلاب (تمرد) وعندما أرادوا تشويه اسمي، واتهامي بالخيانة، والذي اتهمني ليس أي شخص بل جورباتشوف نفسه.

أنا لزمت الصمت كل هذه الشهور والأعوام الطويلة، لأني أعتقد بأن أي رد على لوم يوجه إلي قد يبدو وكأن الأمر هو دفاع عن النفس أو سيبدو الأمر وكأني أبرئ نفسي، وأنا أرى أن هذا يعتبر مهيناً بالنسبة لي.

لم تكن لي علاقة بالسياسة أبداً، وبشكل خاص بالدسائس والمؤامرات، لم أخن القسم الذي أقسمته أبداً، وأعتقد أن الزمن وحده هو الذي وضع كل شيء في مكانه الصحيح "من يكون من؟ "، وكما كان آخر سكرتير عام (جورباتشوف – المترجم) يردد دائماً "الآن اتضح كل شيء، والباقي مجرد تفاصيل ".

عشت وعملت تحت القسم، ولم أفارق سلاحي على مدار ٢٤ ساعة في اليوم طوال مدة خدمتي، عملت في الحراسة الشخصية لبريجنيف ١٤ عاماً، بدأت العمل في النصف الثاني من الستينيات، عندما كان بريجنيف في عنفوان قوته وشبابه، والبلاد والعالم كانوا يعلقون الآمال الكبيرة على ما يقوم به من أعمال مثمرة. أمام عيني حدث السقوط الأخلاقي ثم الجسماني لشخصيته، وفي عصر جورباتشوف عملت كرئيس للحراسة الشخصية له على مدى الست سنوات التي قضاها في السلطة.

لكن الذي دفعني لكتابة مذكراتي بالتحديد هو الكتب الغريبة التي ظهرت، فقد عرفت حياة الزعماء ورأيتها من الداخل، وعندما تعرفت على مذكرات الناس الذين كانوا على قمة هرم السلطة، رأيت تبريرات واضحة وأحياناً بلهاء لتصرفاتهم ولقراراتهم. والتبريرات كما هو معروف تختلف عن الحقيقة، فهي ليست نفس الشيء بالتأكيد.

أنا أتصور أن مذكرات قادة الدولة هي الحكاية الرسمية للحقيقة، لا أكثر. لهذا نادراً ما يعترف الزعماء بخطأ حساباتهم الفادحة، هزائمهم، ولا يعترفون على الإطلاق بأمراضهم أو حتى ارتكابهم للأخطاء وغالباً ما يخفون عيوبهم.

لكن من ناحية أخرى، هل من الضروري أن يعرف الناس البسطاء نقاط الضعف عند زعمائهم؟ عن اندفاع وعدم اتزان خروشوف، عن الانحطاط الصحي والأخلاقي لبريجنيف، وانعدام شخصية وتقلّب جورباتشوف؟ نعم. عندما يكون نظام الدولة شمولي أو شبه ديموقراطي، ويقود البلاد شخص واحد. فمن يحمى الناس حينئذ من أهوائه ونزواته. من رعونته، من شطحاته، من مرض هذا الشخص، من أنه بأي قدم استيقظ (في روسيا عندما يكون مزاج المدير أو الزعيم معكر يقولون: بأي قدم استيقظ؟ بمعنى أي قدم وضع أولاً على الأرض عند نزوله من السرير – المترجم) يعتمد مصير ليس فقط دولته، بل والعالم؟

على سبيل المثال ما جرى من أحداث في أغسطس عام ١٩٩١، وكيف عاش العالم أيام من التوتر، كل هذا حدث بسبب العيوب الشخصية لجورباتشوف والخلل في شخصيته وعدم الحسم، والذي كانت نتيجته أنه تردد وأخطأ وارتكب حماقة، وناور، وخان، بالإضافة لانعدام الرؤية لديه في العلاقات مع الناس الذين قربهم إليه.

لقد فكرت أكثر من مرة في فشل مؤامرة أغسطس، فهي شيء غريب لم أجد له اسم. هل هو تمرد؟ عصيان؟ انقلاب؟ أعتقد أنه لا توجد إجابة دقيقة لهذا السؤال حتى الآن. يلتسين أكد أنه انقلاب تم الإعداد له على مدار عام، فقد حذر الديموقراطيون من خطر سيأتي من الجيش، في نفس الوقت فإنه بعد تشكيل الحكومة الروسية ظل منصب رئيس لجنة الدولة للدفاع شاغراً لشهور طويلة. بماذا يفسر هذا؟ استهتار؟ وقد كان كذلك من المفترض أن يجهز للعصيان أعداء جورباتشوف. لكن لا، كان يقف خلف التمرد رفاق جورباتشوف وتابعيه بل وأصدقائه. وكان من المفترض أن يرحب بالعصيان أنصار القبضة الحديدية والستالينيين بزعامة نينا أندرييفا (سيدة ذات توجهات ستالينية عارضت جورباتشوف على هذه القاعدة – المترجم) لكن لا، فقد كانوا ضد الانقلاب.

أنا متأكد من أنه قبل بدء الانقلاب بلحظات كان الانقلابيون وجورباتشوف وحتى يلتسين نفسه يعرفون أنهم في حاجة لبعضهم البعض. وهذا هو السبب في أن الأحداث جرت بالغرابة التي جرت بها، وليس كما يعتقد الكثيرون من أننا لا نستطيع فعل شيء، ونفسد أي شيء نفعله. ولهذا كما يزعمون هناك مجموعة من الناس لم تستطع فعل أشياء بديهية كان يجب فعلها لإنجاح الانقلاب.

هذا خطأ كبير. بالتحديد نحن السوفييت لدينا خبرة ضخمة في التمردات الدموية والانقلابات، في هذا الأمر نحن نسبق العالم كله منذ ثلاثينيات القرن العشرين. فقد سحقت الآلة العسكرية البيروقراطية السوفيتية أكثر من نظام، وأراقت بحاراً من الدماء في أكثر من بلد. انظروا ماذا حدث، لقد قتلوا تروتسكي في الجانب الآخر من الكرة الأرضية، ويلتسين الموجود إلى جوارهم لم يستطيعوا اعتقاله! ألم تفهموا بعد؟

لا أستطيع على الإطلاق أن أوافق على أن قادة الجيش والمخابرات أشخاص على هذه الدرجة من الجهل. في الجيش- وخاصة في الكي جي بي- آلية الحركة راسخة، ولا تحتاج إلا إلى الضغط على الزر، وحينها فإن الماكينة التي تعرف طريقها ستعمل دون توقف.

لم يحاصر أحد الكرملين، أو ميدان مانيج القريب منه. التلفزيون كان يبث بهدوء خطابات يلتسين ومظاهرات الاحتجاج. ما هذا؟ إهمال من المتمردين؟ لو افترضنا أنه كذلك، فليس لهذه الدرجة.

مرت ساعات طويلة حتى تمكن المعارضون للانقلاب من تنظيم عملية الدفاع عن البيت الأبيض (مبنى مجلس السوفييت الأعلى "البرلمان"ـ المترجم)، فهناك في البداية سادت حالة من الفوضى، وكان من الممكن اعتقال منظمي الدفاع عن البيت الأبيض دون صعوبة (بدون إراقة الكثير من الدماء) كما يقولون. وحتى عندما أقام منظمو الدفاع عن البيت الأبيض المتاريس التي أصبحت مشهورة وأسطورية تقريباً، كان مسحها من على وجه الأرض كلعب الأطفال لا يشكل أي صعوبة. ولم تكن هناك أية حاجة للمروحيات التي تحدثوا عنها كثيراً. لقد كان يمكن لقوات الأمن الخاصة أن تقسم الميدان، وفي الممرات التي تخلو كان يمكن لقوات ألفا أن تملأها. ولم يكن الأمر ليستغرق أكثر من نصف ساعة وكل شيء كان قد انتهى. فأنا أعرف هؤلاء الشباب من ألفا (قوات على درجة عالية من الكفاءة تابعة للكي جي بي، هي التي قامت بالانقلاب ضد حفيظ الله أمين في أفغانستان ـ المترجم)، فهم من قوات الكي جي بي. نعم نصف ساعة. لكن الآن بعد المتاريس ومع المقاومة فإن الأمر ما كان ليمر دون إراقة دماء كثيرة ولما مر بسهولة.

كان الديموقراطيون الذين يقاومون الانقلاب يدعون الناس ليهرعوا للدفاع عن البيت الأبيض، وهم يعلمون أنهم يلقون بهم للموت المحقق؟ ربما بالنسبة للكثيرين كانت في الأذهان حاضرة حالة مشابهة. في يناير عام ١٩٩١ في استونيا، ظهر كذلك خطر اقتحام مقر الحكومة، وهناك تصرف إدجار سافيسار رئيس الحكومة على العكس من ذلك فقد طلب من المواطنين عدم التجمع في الميدان القريب من مقره وقال: واجب الحكومة توفير الأمن للمواطنين، لا أن تضعهم تحت رحمة الرصاص. على هذا النحو تصرف كذلك سلفادور الليندي عام ١٩٧٣ في شيلي.

ما الذي أجبر يلتسين على التصرف عكس ذلك؟ لا أستطيع تصديق أن بوريس يلتسين كان يريد أن يشعل معركة أمام نوافذه، ويحول الناس إلى مجرد جثث تحصدها الأسلحة. يبقى الاحتمال الوحيد وهو أن يلتسين كان يعرف بأنه لن يكون هناك اقتحام. من أين عرف؟ من أين ممكن أن يعرف إلا من قادة الانقلاب أنفسهم طبعاً.

من هنا يمكننا أن نفهم لماذا لم يقف يلتسين في مواجهة الانقلابيين بعد وقوع الانقلاب مباشرة، لكن بعد عدة ساعات من وقوعه، ولماذا أبقوا له الاتصالات الحكومية مفتوحة! وأخيراً لماذا لم تكن القوات التي دخلت موسكو مسلّحة، فقد كانت العربات المدرعة بدون ذخيرة، وحتى السلاح الشخصي للضباط كان بدون ذخيرة.

لعلكم تتذكرون المؤتمر الصحفي للمتمردين يوم ١٩ أغسطس والذي أعلنوا فيه أنهم عازمون على الاتفاق والتعاون مع يلتسين، والأخير أكد على هذا الكلام عندما قال فيما بعد أنه أجرى مباحثات مطولة مع المتمردين بهدف كسب الوقت.

بعد ذلك أعلن يلتسين أن قادة الانقلاب مجرمين. وهو الأمر الذي لم يكن متوقعاً بالنسبة للجنة الدولة للطوارئ (الانقلاب الذي حدث في الاتحاد السوفييتي كان محوره لجنة الطوارئ والتي كان المنوط بها إعلان حالة الطوارئ في البلاد لاستعادة الأمن وفرض النظام، ولذلك عند الحديث عن لجنة الطوارئ فإنها كانت تعنى قادة الانقلاب- المترجم) وحينما أرادوا بالفعل استكمال الانقلاب، كان الوقت تأخر بل نفد. والجيش وألفا لم يعودا تابعان للمتمردين أو للجنة الطوارئ. لقد خدعهم يلتسين.

الألاعيب السياسية للمتمردين توحي بأنهم لم تكن لديهم رغبة في إراقة الدماء، فالمقربون من جورباتشوف والذين خدموه بإخلاص نفذ صبرهم، والذيـن كانـوا مرتبطين بجورباتشوف بقضايا مشتركة وعلاقات قوية لم تكن عندهم قدرة على العنف والقتل.

هذا ما أدى إلى فشلهم. فلو كانوا قد تصرفوا بعنف وبدون تردد لما وقف الشعب ضدهم. فالشعب حينها في واقع الأمر لم يكن يدرى لمن ينحاز.

لم يكن كذلك بين قادة الانقلاب زعيم حقيقي، حتى ولو نصف يلتسين، وهذا أيضاً سبب آخر أدى لفشلهم.

لم تكن هناك أغراض شخصية عند أشخاص مثل يازوف (وزير الدفاع) وكريوتشكوف(رئيس الكي جي بي) وبوجو (وزير الداخلية) والذين يرأسون المؤسسات السيادية التي تمتلك وسائل القوة والقمع. فكل ما كان ضرورياً لهم شخصياً كانوا يمتلكونه. فقد كانوا يؤمنون فعلاً بقدرة إعلان حالة الطوارئ على إنقاذ الوضع المتدهور في البلاد، لكن الطريقة أمر مختلف ...

وماذا عن جورباتشوف في كل هذه الحكاية؟ في المؤتمر الصحفي المذكور، أعلن المتمردون أن جورباتشوف سيعود، وأنهم سيعملون معه. وأكد أناتولى لوكيانوف (كان رئيس مجلس السوفييت الأعلى آنذاك ـ البرلمان ــــ المترجم) بعد إطلاق سراحه من السجن أنه وحتى كريوتشكوف كان يأمل في أنهم سيتفقون مع جورباتشوف في نهاية

الأمر. ووصف عزل جورباتشوف في شبة جزيرة القرم بأنه "عزل ذاتي" أي أن جورباتشوف عزل نفسه ولم تفرض عليه الإقامة الجبرية كما ادعى.

الغريب أنه قبل هذا بفترة طويلة، قال شخص بعيد كل البعد عن الرئيس جورباتشوف هو جينادي بوربوليس "لا أعتقد أنه (جورباتشوف- المؤلف) لم يستطع الاتصال بالشخص الذي يريد، أحيانا يبدو لي الأمر وكأن عملية العزل كانت ضرورية له هو نفسه. فهو كان يريد إعلان الطوارئ بأيدي الانقلابيين دون أن يظهر له دور، وفي الغالب هو لم يكن يريد الانقلاب ولكنه دفع في اتجاه حدوثه ".

لكن في حالة ترتيب مثل هذا، يجب أن تكون التهم الموجهة للانقلابيين مختلفة. ما دخل خيانة الوطن هنا أو حتى الاستيلاء على السلطة؟ أنا لا أتحدث عن براءة لهم، ولكن أتحدث عن مستوى الاتهام.

والآن وصلنا إلى النهاية المنطقية، فعندما يتذكر المدافعون عن متاريس البيت الأبيض، كلمة " بطولي " توضع في الغالب بين قوسين. ربما كان هذا التصرف عبثي، فالناس لم تكن تعرف أي شيء عن الدسائس والمؤامرات السياسية، فهم كانوا يقفون بحق للدفاع عن الديموقراطية حتى الموت. والآن أصبحت كلمة ديموقراطية نوع من السباب.

أعتبر نفسي وقفت لحماية قادة نظامين متضادين: الشمولي والديموقراطى. أغسطس ١٩٩١ أظهر وأكد على أن الصراع كان بين جناحين لنفس النظام الشمولي، الأمر ببساطة أن جورباتشوف بدأ يلعب مع الديموقراطيين، وكما هي عادة القادة السابقين بدأ يتراجع، وكانت نتيجة التراجع أنه سقط، وسحبنا كلنا خلفه في هوة عميقة. المسألة ليست في أننا لم نعش بشكل سيء على هذا النحو أبدا - فشعبنا صبور، ولكن في أن الجميع فقد الثقة، الناس أرهقت ووهنت عزيمتها. وإذا كان الشعب لم ينتظر شيء من القائد السابق المريض والفاقد الأهلية، لكنه على الأقل عاش بشكل لائق، ولذلك فإنهم كانوا ينتظرون الكثير من القائد الحالي الشاب والنشط، فهو الذي وعدنا بكل شيء، كم من التصريحات، والنتيجة أننا وجدنا أنفسنا في حطام دولة. فقد تصاعدت الصراعات القومية والاجتماعية والدينية والعمرية إلى نقطة اللاعودة. الجميع يكره الجميع وكل شخص يكره الآخر.

علاقة الشعب بالقادة مقياس واضح، إذا كانت علاقة الشعب ببريجنيف حتى في أسوأ أعوام حكمه يشوبها السخرية والاستهزاء، فإن علاقة الشعب بجورباتشوف كان سمتها العداوة والضغينة والحقد.

١٩ أغسطس عام ١٩٩١ أصبح تتويج لصراع وصل لآخر مداه بين ديكتاتوريتين: الشيوعية والشيوعية السابقة.

في هكذا أيام دخلت إلى أحد المباني في الكرملين، وسحبت من أحد الشبابيك المكتبية أوراقي. لقد فصلوني من الكي جي بي.

في وقت ما آخر دخلت هذا المبنى لأول مرة، من نفس هذا المدخل، وبالتحديد من نفس النافذة الصغيرة مددت يدي بقلق بطلب قبولي للعمل. كان هذا منذ ثلاثين عاماً، وفي عصر آخر.

هل كل هذا حدث معي بالفعل؟!

الفصل الثاني

الطريق إلى القمة

ولدت عام ١٩٣٧ في قرية قريبة من موسكو تسمى بوبوفو، يوجد مثلها مئات الآلاف من القرى في القطاع الأوسط من روسيا، مجلس المنطقة بعيد عنا، قرية لا يوجد بها أندية ولا حمامات عمومية (في روسيا الحمامات العمومية يقصد بها أماكن الاستحمام العامة حيث الساونا والبخار والتي يرتادها الموطنون على الأقل مرة في الأسبوع – المترجم) ففي كل بيت حمامه الخاص به، كانت أمي تسخن الماء في جردل وتقول هيا استحم. كانت البيوت من الطين، وأسقفها منخفضة، أمام المنزل حديقة بها ورود وخلف المنزل مزرعة صغيرة.

الأغنياء من أهل القرية كان سقف منازلهم مصنوع من الإردواز أو حتى الحديد، أما منزلنا فقد كان مثل الغالبية من سكان القرية، السقف مصنوع من البوص الذي كان من السهل أن يشتعل إذا أبرق البرق في الصيف وكثيراً ما كانت تشتعل الحرائق فيه، من أكثر الأشياء التي أذكرها في فترة الطفولة هي أنه عندما تشتعل الحرائق تزداد سرعة الرياح على الرغم من هدوء الطقس، أتذكر كيف هرعت أختي إلى لتأخذ جردل بالرغم من أن به بعض الأعشاب المشتعلة لتملأه بالماء لإطفاء حريق أشتعل في زريبة الجيران وكنا أحيانا نهرع إلى قرى مجاورة لإخماد الحرائق بمجرد رؤيتنا للنار فيها.

والدتي يفداكيا فيودروفنا كانت تعمل في كولوخوز (مزرعة جماعية) يسمى دوياركا، والدي تيموفي فيودروفيتش، كان يعمل في نفس المكان في البداية نجاراً وبعد ذلك رئيس عمال.

كنت أساعد أمي في عملها، حيث كنت أضع الأواني التي تحتوى على الألبان فوق عربة يجرها حصان وأنقلها إلى سوفخوز (تعاونية يساهم فيها الفلاحون تعمل على تصنيع منتجات الكولوخوز– المترجم) يسمى "نوفي بيت" حيث يوجد مصنع لتصنيع الألبان، المسافة ذهاباً وإياباً كانت حوالي ١٠ كم، وكان الطريق يمر من خلال طريق عبر الغابات والمدقات والنهيرات الصغيرة. في هذا المصنع كانوا دائما ما يمنحوني الجبن والجبن القريش، ذات مرة وفي أعقاب هطول المطر، أصبحت الأرض وحلة فانزلق الحصان الذي يجر العربة وسقطت العربة في منحدر وكدت أصاب بإصابات خطيرة، ومرة أخرى كنت أعبر نهر ليوتوركا من المكان الذي لا تتجمد فيه المياه، وأفلت رباط العربة واضطررت تحت الماء شديد البرودة إلى ربطه من جديد، مرة أخرى سقطت تحت الثلج، ولحسن الحظ المكان لم يكن عميقاً، بالإضافة إلى أنني في ذلك الوقت كنت أكبر سناً فنجوت.

كنت أساعد أمي في الكولوخوز وفي المنزل حيث كانت لدينا مزرعة صغيرة ننتج منها احتياجاتنا من البطاطس والخيار والكرنب والبنجر وغيرها من المواد الغذائية. كل شيء كان من إنتاجنا حتى الخبز كانت أمي تقوم بخبزه في المنزل وسأظل أذكر ما حييت رائحة هذا الخبز الطازج.

كنا نذهب كذلك لصيد السمك وهى عملية لها خصوصية في الصبا، فقد كنا نذهب في الشتاء إلى النهر ونقوم بقطع جزء من الثلج بواسطة بلطة ثم نجمع الأسماك التي أفقدناها توازنها في البداية من خلال الدق على الثلج، وكنا نجمع الأسماك الصغيرة بأيدينا، أما الأسماك الأكبر فكنا نصطادها بواسطة حربة، وكان فصل الخريف هو أفضل الأوقات لمثل هذه العمليات، ففي نهاية أكتوبر حيث يتجمد الماء وفي الوقت الذي لم تسقط الثلوج بعد، فالثلج الشفاف يتحمل الضغط ولا ينكسر وكل شيء من تحته يمكن رؤيته. ذات مرة في أعلى وادي النهر انكسر الثلج، وجرفني التيار أسفل الثلج من أمام القرية وألقى بي في منطقة أحراش قرب شاطئ النهر.

أعتقد أنه خلال سنوات الطفولة اكتسبت قوة ومناعة من خلال العمل والكدح. كما أن الرياضة أعطتني الكثير فنموت شاباً قوى البنيان، حيث مارست الكرة الطائرة والتزحلق على الجليد وألعاب القوى والسباحة وكرة القدم في القرية ومع أطفال القرى المجاورة. كان الطلائع يرتدون ملابسهم الجميلة والأحذية ونحن نلعب حفاة على طريقة أبناء القرى، لكننا كنا دائما ما نفوز.

أثناء دراستي في المدرسة الابتدائية تشاجرت مشاجرة عنيفة فما كان من مديرة المدرسة السيدة ايكاترينا اليكسييفنا جورافليوفا إلا أن أخذت منى حقيبة المدرسة وطلبت منى استدعاء والدي، أحرجت أن أبلغ والدي، واستجمعت شجاعتي وقررت الذهاب إلى مديرة المدرسة في مقر إقامتها وكانت تعيش في نفس المدرسة وذلك لكي استسمحها، على عتبة الباب شاهدت منضدة وعليها مفرش، وفوقها مزهرية بها بعض الورود وبدا لي هذا المشهد وكأنه قمة الرفاهية والغنى.

انطبع عندي في الذاكرة شهر مارس عام ١٩٥٣ عندما دخلت الفصل مدرسة اللغة الروسية وهى تبكى وأخبرتنا أن مصيبة كبرى قد حلت بوطننا والعالم بأثره فقد مات المعلم والزعيم العظيم جوزيف ستالين، بكينا كلنا حينها في الفصل، وقمنا أنا واثنين من أصدقائي بالسفر إلى موسكو دون أن نخبر والدينا بذلك، فقد ذهبنا إلى محطة القطار التي تبعد حوالي ١٢ كم عن قريتنا، وركبنا القطار إلى العاصمة موسكو والتي تبعد ٨٢ كم عن قريتنا ومن محطة قطارات كورسك في موسكو إلى ميـــدان تروبني وصلنا بصعوبة بالغة، لقد كان ما يحدث في الشوارع والأزقة شيء فظيع حيث كانت مليئة عن آخرها بالناس. سيارات مقلوبة وجثث بشرية، وأكوام من أغطية الرأس ملقاه. استغرق وقت الذهاب نصف يوم مساء وليل، وللأسف لم نستطع الوصول إلى صالة الأعمدة في الكرملين حيث الصندوق الذي يرقد فيه ستالين لإلقاء النظرة الأخيرة عليه.

لم أقل لكم بعد أن والدي حارب في الحرب العالمية منذ أيامها الأولى ١٩٤١ (الحرب العالمية بدأت عام ١٩٣٩ ولكنها بدأت على الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤١- المترجم) وحتى نهايتها في شهر مايو عام ١٩٤٥، وقد أنهى الحرب في براغ برتبة شاويش آمر بطارية مدفع. وحدة الجيش التي كان يخدم فيها لبعض الوقت كانت قريبة من قريتنا وكان والدي يستطيع أن يأتي للمنزل ويأخذ بعض أدوات عمله كنجار مثل المنشار والرابوه والمثقاب، كان على ما يبدو في وقت فراغه بين المعارك يمارس أعمال النجارة المحببة إلى قلبه، وكان يجهز المخابئ، والدشم والحمامات.

لقد كانت أسرتنا محظوظة جدا بالطبع، فقد فقدت قريتنا نصف رجالها في الحرب، ولكن والدي عاد معافى. ففي صيف عام ١٩٤٥ وبينما كانت أمي تعمل في الحقل هتف أحدهم لأمي قائلاً لقد عاد رجلك! فهرعت تجرى، وكنت قد قابلت أبي عند مدخل القرية تحت الجبل.

مرت إحدى عشرة سنة وحان وقت الوداع لأداء الخدمة الإلزامية في الجيش، وقد تجمع أهل القرية عندنا وانبرى الجميع في النواح والبكاء على الرغم من أن الحرب العالمية قد انتهت وحرب أفغانستان لم تبدأ بعد في ذلك الوقت حيث وقت زهور التوليان الأسود وصناديق الزنك لم يحن (صناديق كانوا يحضرون فيها جثث الجنود الذين يقتلون في أفغانستان-المترجم)، ولم تكن هناك حرب كاراباخ ولا بريدنستروفيه ولا الحرب الجورجية- الأبخازية (حروب اشتعلت داخل الاتحاد السوفييتي أثناء وبعد انهياره، بالإضافة لحرب أفغانستان- المترجم) ولم تكن كذلك القسوة في التعامل العسكري والتي انتشرت في الجيش في الوقت الحالي والتي دفع ثمنها العديد من الجنود حياتهم في وقت السلم، والذين فاقت أعدادهم أعداد من ماتوا في حرب أفغانستان. رغم ذلك بكوا وناحوا، هكذا كانت العادة عند الوداع لأداء الخدمة الوطنية في الجيش، خاصة في القرى.

حملتنا سيارات مغطاة من تلك التي عادة ما تحمل الحيوانات (حتى الآن لم يتغير شيء - الكاتب) الطعام في الطريق كان غاية في السوء. هكذا بدأت حياتي المستقلة.

بعد تجنيدي في الجيش ودعت حياة وبيت الأسرة، وأصبحت أزوره مروراً بالطريق. وحالياً أقوم بزيارة والدي ووالدتي بقدر ما أستطيع وهما مازالا على قيد الحياة ويتمتعان بالصحة الحمد لله.

بعد الانتهاء من التعلم في مدرسة اللاسلكي بامتياز أرسلت إلى الطيران البحري في منطقة البلطيق بمنطقة كالينيجراد، في ذلك الوقت كنت مرافقاً لقيادة قاعدة البلطيق البحرية حيث تجولت معها من أقصى الشمال وحتى وسط آسيا، وبمبادرة شخصية منى قمت بالقفز بالمظلة لأكثر من عشر مرات.

أنا أشكر الجيش، فقد أعطاني الكثير. فقد نما عقلي وأصبحت أقوى جسمانياً، لكن الأهم أنني اكتسبت النظام الحديدي والاستقلالية وتحمل المسئولية، التي افتقدناها في الوقت الحالي، كنت موفقا كذلك في أن قادتنا في ذلك الوقت كانوا من الناس الذين مروا بالحروب وكانوا يتمتعون بصفات حميدة.

بعد الخدمة العسكرية قضيت بعض الوقت في منزلنا ثم سافرت إلى سيبوخوف حيث عملت في مصنع كخراط بمساعدة بعض الأصدقاء، كانت عندي رغبة جامحة في أن التحق بأحد المعاهد لكن لم يعد من الممكن أن أبقى عالة على والدي من جديد، خاصة وأنني كنت قد تزوجت وأصبح عندي طفلة.

في عام ١٩٦٢ فتح جهاز المخابرات الكي جي بي باب القبول للشباب من الذين أدوا الخدمة العسكرية. فتح باب القبول كان يجرى من آن لآخر للشباب الذين يعملون في المصانع، أو من خريجي الجامعات والمعاهد، القبول كان يتم على أساس المعلومات التي يكتبها الراغب في الانضمام للكي جي بي في استمارات التقديم.

من هذا المنطلق تم استدعائي إلى مركز التعبئة، وهناك وجدت شخصين بالملابس العسكرية جالسين إلى منضدة، أحدهم خرج لحظة دخولي وأجرى الثاني المقابلة معي، وسألني: كيف أديت الخدمة العسكرية؟ هل وقعت عليك عقوبة السجن أثناء الخدمة؟ كيف أحوالك حاليا في العمل؟ فيما يتعلق بمسألة السجن أثناء الخدمة والمعلومات الأخرى أعتقد أنه كان يعرفها سلفاً قبل أن يتم استدعائي، وعلى ما يبدو أنه لم يكن مهتماً بمضمون الإجابات بقدر اهتمامه بطريقة الإجابة، أجبت على الأسئلة باختصار ودون كلمات زائدة، أجبت بالطريقة العسكرية تقريباً، ثم تحدث إلى عن هدف المقابلة وقال: عندنا أيضاً خدمة عسكرية.

هذا الأمر لم يكن ملائماً بالنسبة لي، فمنذ وقت ليس بالبعيد كنت أرتدي ملابس البحارة والآن سيكون علي أن أغيرها بملابس الجيش العامة وهذا ما لم أكن أرغب فيه.

قال محدثي: لا تتعجل، اهدأ، ستكون بالزي العسكري فقط في وقت العمل أما باقي الوقت ستكون بالملابس المدنية. لاحظ ترددي: أضاف: الراتب سيكون ١٦٠ روبل في الشهر، على أية حال خذ رقم تليفوني، إذا قررت اتصل بي.

لم أكن أنتوي الذهاب إليهم أو حتى الاتصال بهم، لكن للحق أغراني الراتب، فقد كنت أحصل على نصف هذا الراتب الذي حدثني عنه، أي أقل من ٩٠ روبل، بالإضافة إلى أن العمل في المصنع بدون مستقبل. الرفاق بالمصنع أعربوا عن شكوكهم قائلين أن مثل هذا المبلغ لن يدفع من أجل سواد العيون وربما سيكون العمل شاقاً. وبعد ذلك توصلنا إلى حل وسط وهو أن أذهب وإذا لم يعجبني العمل يمكنني العودة للمصنع. وأشار علي الرفاق في المصنع بالذهاب، حتى زوجتي سفيتلانا أشارت علي بالذهاب وقالت:اذهب.

بعد عدة أسابيع اتصلت وقلت أنني موافق. جاءني صوت معروف بالنسبة لي ومليء بالرضا على الناحية الأخرى من الهاتف: جيد جداً، وأضاف: احضر عندي غداً، أنت تعرف بالتأكيد أين؟ أجبته بنعم وقلت: في مركز التعبئة حيث تقابلنا من قبل. فقال: لا، تعالى إلى الكرملين الساعة العاشرة، واعبر بوابة ترويتسكي وهناك ستطلع الأمن على هويتك وهم سيرشدونك إلى أين ستذهب.

أنا كنت قلق للغاية، إلى الكرملين! أنا لم أذهب إلى هناك ولا مرة في حياتي. انتابتني رغبة في ألا أذهب، لكني أدركت أن الوقت قد تأخر للتفكير في عدم الذهاب.

وصلت قبل ميعادي بساعة، عبرت عدة نقاط حراسة قبل أن أصل للمكتب المقصود، حيث التقيت نفس الشخص فهب واقفاً مرحباً بي وبادرني بالسؤال: قررت؟ فرددت بالإيجاب.

لماذا؟ سألني الرجل ذي الملابس العسكرية.

ومن جانبي لم أكذب، وقلت: الراتب...

فابتسم.

في الغرفة المجاورة جلست، وملأت العديد من الاستمارات والأوراق.

وبعد ذلك قال لي: اذهب واستمر في العمل كما كنت، ولا تتحدث مع أحد. عندما نحتاجك سأهاتفك، انتظر.

مر أسبوع، شهر، اثنان، ثلاثة. اعتقدت أنني غير مناسب لهم، لكن بعد نصف عام وفي شهر أغسطس بالتحديد رن جرس الهاتف، يبدو أنهم خلال هذا الوقت كانوا يدرسون الملف الخاص بي، وقاموا بعمل بعض التحريات، مدير المصنع الذي أعمل به عندما عرف رفض قبول استقالتي. مبرراً موقفه بأننا في أوج تنفيذ الخطة وقال: أنا مشنوق! ولابد أن تستمر في العمل.

ذهبت إلى نائب المدير مع طلب الاستقالة وقرأت له طلب "الاستقالة " أرجو قبول استقالتي من العمل نظرا لانتقالي للعمل في لجنة أمن الدولة كي جي بي " فوقع على الطلب دون أن يطرف له جفن.

الرفاق في الورشة كانوا يمزحون معي قائلين: إذا سارت الأمور معك على ما يرام استدعنا، نحن سنعمل بهذا الراتب حتى ولو في الكي جي بي.

في الكي جي بي وقعت على تعهد بعدم إفشاء أسرار الدولة أو الأسرار الوظيفية.

تم توزيعي على الإدارة التاسعة في الكي جي بي، وهى إدارة معروفة لدى الشعب "بالتاسعة"، إدارة تعتبر من إدارات النخبة، منوط بها تأمين قيادات الحزب والحكومة وكذلك رؤساء الحكومات الأجنبية الذين يزورون البلاد. نائب رئيس الإدارة التاسعة، لفترة طويلة، أقنعني بأهمية وعدم تقليدية عملي وأهمية اليقظة السياسية في فترة "الحرب الباردة"، كما تعرضت لجلسات نصح أخرى ذكرت فيها عبارات معروفة أصبحت فيما بعد مثار للفكاهة مثل" العدو لا يغفل" ومثل" كثير الكلام هدف سهل للجواسيس".

جهزت نفسي ليس لما هو مهم فقط بل لما هو أرفع من ذلك، لكن اتضح أن المسألة اعتيادية و" قدس الأقداس"– الحراسة الشخصية للزعماء– بقيت في الظل.

في عام ١٩٦٢ وهو العام الذي التحقت فيه بالجهاز الأمني أنشئ في الإدارة التاسعة بالكي جي بي قسم لحراسة المنشآت الخاصة، فألحقوني بهذا القسم، وكان على أن أدرس كما كبيرا من الوثائق التي يطلق عليها " سرية" بما في ذلك لوائح ووثائق خدمات أخرى مثل كيفية التصرف في حالة الإنذار عن وجود غارات جوية أو هجوم كيميائي أو حرائق أو هجوم عسكري وغيرها من أشكال الإنذارات. هذا من الناحية النظرية، أما الجزء

العملي فقد كان شيقا ومثيرا: فقد درسنا أساليب الاشتباك والدفاع عن النفس وضرب النار من المسدسات، وانتقلنا بعد ذلك للتدريب على ضرب النار خارج المدينة، وهناك تدربنا على استخدام البنادق الآلية، بالإضافة إلى ممارسة رياضات الجري والسباحة، كما تم اختبارنا في ألعاب القوى. في الشتاء كنا نمارس التزلج على الجليد، كما تعلمنا الإسعافات الأولية.

في رأيّ الشخصي كل هذه الأشياء التي تعلمناها في أول أعوام العمل لم نكن في حاجة إليها على الإطلاق، فقد كنا نقوم بحراسة "هدف"، يقع في مناطق سكنية عادية، من الممكن أن تطلق علينا مجرد حراس عاديين لإحدى المنشآت، لكن هذه المباني الخاصة أو الأهداف كانت عسكرية وينطبق عليها لقب سرية للغاية. وأنا الآن، حتى بعد مرور ٣٠ عام، لا أستطيع ذكر أسماءها فهي في ذلك الوقت كانت تحت الإنشاء وكنا نشعر بغبار ودخان ذي رائحة نفاذة وروائح سامة بقيت في ذاكرتنا لأعوام طويلة بعد ذلك.

كنا نعمل بنظام المناوبة أو الورديات، فقد كنا نقوم بالنوبتجية لمدة ٢٤ ساعة ونستريح يومين. بعد النوبتجية كنا نخرج إلى الشارع بوجوه شاحبة عفِرة. استمر هذا النوع من العمل لمدة خمس سنوات، وربما لم أكن لاستطيع الاستمرار في هذا العمل كثيرا، لكن كان عندي هدف أسمى وهو أن ألتحق بالقسم رقم ١٨ والذي كان يعتبر "زهرة" الإدارة التاسعة. هناك بالتحديد كان يتم إعداد الحراس الشخصيين، وهناك كان يتم إعداد فرق الحراس الذين يرافقون قادة الحزب والحكومة داخل البلاد أو في الخارج.

كنت أحسد زملائي الذين يعملون في الحراسات الخاصة، وكنت آمل في يوم ما أن أنغمس في هذا العمل ذي المسئولية العملياتية غير العادية، كما كنت أحلم بالسفر سواء داخل البلاد أو دول العالم. العظمة ليست فقط في مكانة العمل ولكنه أيضا فيه شيء من الرومانسية. هذا الحلم لم يكن يراودني وحدي بل كان كذلك مطمح لكل العاملين في الإدارة التاسعة.

في هذه الفترة استطعت تحقيق رغبة قديمة وهى الانتساب لأحد المعاهد، لقد أدركت أنه بدون مؤهل عال لن أصل إلى رتبة كبيرة كضابط. ولم يكن يسمح للعاملين في الكي جي بي بالدراسة في المعاهد المدنية باستثناء الحقوق والتربية الرياضية وأنا اخترت دراسة القانون، التحقت ودرست بسهولة.

لم يكن أحد يعلم بعملي في الكي جي بي سوى بعض الأصدقاء الذين فارقتهم إلى الأبد، بخلاف ذلك لم يعرف أحد بما في ذلك أبي وأمي.

أذكر ذلك الوقت الرتيب الممل من أيام خريف عام ١٩٦٤، حيث تمت عملية تنحية خروشوف عن السلطة ووصول بريجنيف للحكم، حيث أبقونا في المعسكرات في حالة الاستعداد القصوى وعلى أهبة الاستعداد العسكري لمدة ثلاثة أيام كاملة حتى اتضحت الأمور بأنه ليس هناك أية بوادر لاضطرابات لا في الجيش ولا في الأجهزة الأمنية، مرت الأمور بسلام، ولكن رغم هذا بقي رئيس الحراسة الشخصية لبريجنيف يبيت على باب شقته بالسلاح الآلي في يده.

في نهاية عام ١٩٦٧ تم نقلي إلى القسم ١٨ وهو الأمر الذي انتظرته طويلاً. مكافأة على ماذا؟ ليس مكافأة على شيء محدد، كل شيء تم لعدة أسباب: " ملف نظيف"، أوشكت على إتمام دراستي العليا، استقرار عائلي مثالي، في العمل لا توجد أية ملحوظات، كل اختباراتي سواء النظرية أو العملية كانت في مواعيدها، الحالة الجسمانية جيدة، قوي الاحتمال، لا أتعاطى الخمور ولا أدخن. ماذا أيضا؟ لا أدري، ربما أكون محظوظا، فقد كان هناك زملاء كثيرون مثلي.

في القسم ١٨ كان علي أن" أظهر". فهو مجرد مرحلة للانتقال إلى الحراسة الشخصية، وكنت أشعر أنها ستتحقق.

عدة أشهر وكنت في رتبة ملازم، كنت أشاهد ليونيد بريجنيف عن بعد، وكنت أرافقه من البيت الريفي في ضواحي موسكو من خلال السيارة الثانية عندما كان يذهب للعمل في الصباح، وعند عودته في المساء، ومن على بعد أيضاً رأيته وهو يتجول في حديقة البيت الريفي.

في العام التالي ١٩٦٨ أرسلت في مأمورية إلى القرم لتجهيز بلاج ليفادييسكي لاستجمام السكرتير العام بريجنيف، فقد فحصنا السقالات الممتدة في البحر والمرسى والشاطئ وقاع البحر، وكان من الضروري ليس فقط تأمين الشاطئ من احتمال وجود ألغام مغناطيسية ولكن تنظيفه أيضاً من الزجاجات الفارغة والزجاج المكسر وأية قاذورات.

بعد خمس سنوات وعلى شاطئ ليفادييسكي تم تعييني نائباً لرئيس الحرس الشخصي لبريجنيف، فقد كان رئيس الحرس الشخصي الكسندر ريابينكو، وكان قد التقى بريجنيف عام ١٩٣٨ قبل الحرب. ريابينكو كان سائقاً يقود سيارة "بويك" وشاءت الظروف أن يذهب إلى اللجنة الحزبية للمنطقة، خرج إليه شاب طاوياً أذرع قميصه وقال له: هيا لنذهب. رد: إلى أين؟ أنا أنتظر سكرتير لجنة المنطقة بريجنيف. فقال له: أنا بريجنيف. لابد أنك تمزح، بعد ذلك فرقتهم الحرب حيث ذهب ريابينكو للجبهة، وبعد الحرب التقيا مجدداً ولم يفترقا بعد ذلك أبداً وظلا كتفاً بكتف على مدى ٤٠ عاماً.

في ذلك الصيف وقبل أن يقوم الكسندر ريابينكو بتعييني نائباً له حدثت حكاية طريفة. في عام ١٩٧٣ دعا بريجنيف زوجة نجله لودميلا للاستجمام في نيجني أورياندا، وحضرت ومعها نجلها أندريه وكان يبلغ من العمر ستة أعوام، كان بريجنيف يحب حفيده جداً، فقد كان طفلاً كثير الحركة وفضولياً، وفي البيت الريفي الكبير والواسع كان كثيراً ما يختفي لساعات، مما كان يسبب قلقاً شديداً للأهل، وكانوا يبحثون عنه بواسطة الحراس، ولهذا كلف بريجنيف رئيس حراسته ريابينكو بتعيين شخص لمراقبة أندريه بصفة دائمة. ووقع الاختيار على.

. من الصباح الباكر وحتى قبل الإفطار، كان الطفل يبتعد وكنت مضطراً لمتابعته، وأخيراً أوضحت له بأن جده طلب منى أن أرافقه ولا أغفل عنه، وأنه لا يجب أن يذهب

إلى أي مكان بدوني، وافق أندريه لأنه كان يخاف جده، بالإضافة إلى أنه كان يشعر بالمرح بمرافقتي له.

اضطررت لترك مهامي المباشرة، ولم يبق لي وقت لممارسة الرياضة وحتى غسيل ملابسي وكيها كنت أقوم بهما بصعوبة. من الصباح الباكر كان أندريه ينتظرني على عتبة الباب، وما أن أجلس لتناول الإفطار حتى يسأل الحراس أين عم فولوديا؟ وإذا اضطرتني الظروف للتغيب كانوا يهاتفوني من كل نقاط الحراسة ويقولون أن الطفل يبحث عنك وينتظرك، لقد كنا نصطاد الكابوريا ونتجول في كل المنطقة المحيطة حتى الأماكن البعيدة، الطفل كان سريع التفاعل ومبهرا، كان يحكى لي أفلاما وكتبا، وكان يؤلف أشياء لم تحدث ويحكيها، باختصار أصبحنا أصدقاء.

ذات مرة تأخرت قليلاً وخرج أندريه بمفرده، ثم وجدته بين أحراش من أعواد البامبو وكان يكسر أشجاراً صغيرة، وكان عددها قليلاً من الأصل دون تكسير. فقلت له: أندريه ممنوع أن تفعل هذا، فأجاب آآآه ممنوع واستمر يكسر، في هذه اللحظة ضربته على مؤخرته، أحس الطفل بالإهانة وقال: سأقول لجدي وهو سيطردك. واستدار وذهب إلى المنزل.

ماذا كان من الممكن أن يحدث إذا حكى الحفيد لجده بأنني ضربته؟ فقد كنت مجرد حارس عادي ، وأي عدم رضا من بريجنيف كان كافياً لأن لا أكون في هذا المكان، لكن على ما يبدو أنني عرفت شخصية بريجنيف، والذي يحب حفيده بجنون وفي نفس الوقت يطلب منه الكثير من حيث السلوك القويم.

فيما بعد فهمت أن أندريه لم يخبر أحد عن شجاري معه بل أنه لم يذهب للمنزل أصلاً. حينها وبعد الغداء جاء إلي واعتذر.... واستمرت صداقتنا......... هو بالطبع كان فخوراً بسلطة وقدرة جده، هو كائن حسن النية وطاهر، كم تذكرته كثيراً فيما بعد عندما كانت السيدة رايسا زوجة جورباتشوف تشعر بالعظمة والقدرة وتشكوني كثيراً لجورباتشوف ولأسباب تافهة لم يكن لي علاقة بها أصلاً، عندما نهرت الخادمة حفيدة جورباتشوف تم طردها من العمل.... يبدو أني انشغلت عن المواضيع الأساسية.

مر بعض الوقت وفي ظروف لم تكن مرتبة سلفاً عند حمام السباحة أخبرني الكسندر ريابينكو بأنني عينت نائباً له.

سأحاول أن أكون عند حسن ظنكم. أجبته بطريقة عسكرية.

قبل هذا كان ريابينكو قد تحدث إلى بريجنيف، وقد وصفني رئيس الحرس كما هو معتاد في مثل هذه الظروف قائلاً: شخص يعرف مهام عمله جيداً، واضح متماسك لا يتعاطى الخمور وقليل الكلام.

سأل بريجنيف: أي فولوديا تقصد؟ فقال له ريابينكو: الذي كان يرافق أندريه.

نعم هو، وبالمناسبة منذ عامين يقوم بالعمل في مكان نوابي.

رد بريجنيف: لكنه مازال صغير السن؟

كان عمري آنذاك ٣٥ عاماً.

وهنا ذكره ريابينكو وقال له: عندما كنت أنتظركم عند اللجنة الحزبية للمنطقة لأول مرة، كم كنتم تبلغون من العمر؟

بعد ذلك انقطعت الأسئلة، لقد اندمجت في هذه الأسرة وكأنها أسرتي لدرجة أنني كنت أجهز حقائب بريجنيف وأرتب أشيائه عندما كنا نسافر، كما أن السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف كانت تطمئن على زوجها طالما أنا موجود بالقرب منه.

مازلت حتى الآن أعتقد أن الحراسة الشخصية تسمى كذلك لأنها في كثير من أمورها تعتبر أسرية.

الفصل الثالث

محاولة اغتيال بريجنيف

المتعارف عليه بين الناس أن مهنتنا تسمى" حارس شخصي" لكن علمياً تسمى" المرافق ". لا أستطيع القول بأنني حصلت على هذا العلم في مرحلة معينة، لكنني تعلمته على مدى حياتي كلها، مراحل مختلفة، أنظمة حكومية متباينة، وإذا أردتم أيضاً علاقات متفاوتة بين الشعب وقادته، كل هذا خلف ظروفا جديدة ومعايير جديدة لي وللعمل الذي أقوم به.

وكما هو الحال في كل الأعمال لم يخل الأمر أثناء إعدادنا من مصروفـــات وسخافات وبيروقراطية، كان إعدادنا يجرى في الكرملين في حديقة تاينينسكي، فقد كانوا يجبروننا على المشي بالخطوة المعتادة، وإن كان هذا الأمر قد توقف في أواسط السبعينيات، التفتيش على السلاح الشخصي المسدسات والبنادق الآلية كان يحدث ولا أدرى لماذا بالتحديد قبيل الأعياد الكبيرة كما لو أنه في الأيام العادية من الممكن عدم تنظيف السلاح.

بالطبع كل هذا كان يتم شكلياً من أجل تسديد الخانات، أحد الاختبارات مثلاً الإعداد البدني العام- مسابقة التزلج على الجليد كانت تتم في الربيع على الرغم من وجود الأمطار والثلوج تكون قد ذابت تقريباً، فكانوا بدلا عن ذلك يجبروننا على العدو- هكذا تقول الخطة! بالمناسبة كوسيجين، ديميتشوف، وسلومنتسوف (الأول رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي والآخرين أعضاء في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي - المترجم) وآخرين عندما كانوا أصغر سنا كانوا يجيدون التزلج على الجليد لدرجة أن حراستهم لم تكن لديهم القدرة على اللحاق بهم، أما الشخصيات التي كنت أقوم بحراستها: بريجنيف وجورباتشوف، فقد كانا جنوبيان لم يمارسا التزلج أبداً.

بالإضافة إلى ما سبق، تعلمنا الكثير من الأشياء الضرورية ليس فقط فيما يتعلق بالخدمة ولكن في الحياة اليومية العادية والشخصية. كيف تعمل جبيرة عندما يحدث كسر في الرجل أو اليد، كيف توقف نزيف الدم بواسطة الكي، كيفية إنقاذ شخص يغرق، الأدوية اللازمة عند الأزمات الصحية وفي حالة تطور هذا الأزمات. كل هذا عرفناه باحترافية ومهنية عالية. أليس مهماً معرفة هذا، ليس فقط نحن الحراس، ماذا تفعل إذا توقف القلب؟ لقد تدربنا على نماذج بشرية من الكاوتشوك، تنفخها وبيدك اليمنى تأخذها من منطقة الذقن وترفع الرأس، وباليد اليسرى تضغط على الأنف ومن خلال قطعة شاش تنفخ في فم المصاب، في الوقت الذي يقوم فيه زميل بالضغط على القفص الصدري ليدخل الهواء إلى الداخل، ثلاث أربع ضغطات شهيق، لقد تعلمنا هذا في القسم ١٨، بعد

ذلك طلبنا نحن الثلاثة نواب لريابينكو من ميخائيل كوساريوف الطبيب الخاص لبريجنيف أن يعين لنا مدربا لدراسات إضافية لعمليات الإنعاش.

من كان يعتقد أننا لن نستخدم هذه الأساليب ولو مرة واحدة في لحظات حاسمة، كل ما تعلمناه وعرفناه لم نحتج إليه أبداً، الحمد الله، مثل تغطية الشخص الذي نرافقه بالنيران وإخلائه من منطقة الهجوم النيراني، وهذا كان أحد أشكال إطلاق النار، وكم بقي من أنواع إطلاق النار غير مطلوب، الخروج من المباني المحطمة والاختفاء بسرعة رهيبة وسط الناس ووسط أهداف متحركة من أعلى ومن الشرفات أو النوافذ وهكذا. حتى إذا لم نستفد من كل هذا، فعلى الأقل كنا نقوم بعملنا الرئيسي بشكل جيد، سواء الوقائي أو النظري. فإطلاق النار هو بالنسبة لنا آخر شيء، هذا عمل للسينما وليس للحياة، إطلاق النار يعنى أننا أهملنا أو أننا نقوم بعملنا بشكل سيء.

العمل اليومي للمرافق أو للحارس الشخصي أدق مما يتصور البعض، وهو غير ملحوظ حتى للأشخاص أصحاب الملاحظة القوية، فيجب تغطية الشخص الذي ترافقه دون أن يشعر بأدنى تضييق أو محدودية في حركته ودون لمس ويجب كذلك الحفاظ عليه من أي أيدي قد تمتد إليه بشكل غير متوقع أو أيدي شخص مصاب بمرض الجذام مثلاً، وأن يتم ذلك بسرعة شديدة وفي لحظة، ويجب بنظرة واحدة ملاحظة التغيرات التي قد تطرأ على الطريق سواء ظهور مداخل منازل أو أسطح أو شرفات أو تجمهر، ما للناس منظر عادى بالنسبة لنا يسمى" الوسط المحيط".

ذات مرة في جيليزنوفودسك (مكان تابع للمكان الذي وفد منه جورباتشوف: ستافروبول، حيث يعرفونه ويتذكرونه) خرجنا من أحد المحلات، وكان الجميع يحييه ويصافحه، واحتضنه أحد المواطنين من رقبته وقبله بقوة. الجمهور بلديات جورباتشوف، وبالنسبة له كان شيء طيب أن يحتضنه ويقبله أحد المواطنين، لكن هذا يعتبر خطأ ارتكبته الحراسة.

كل عمليات تقوية ودعم الحراسة كانت تأتي بعد حادث ما حدث بصرف النظر عن مكان حدوثه، وهكذا في السبعينيات وفي أرخنجليسك (مدينة روسية شمالية – المترجم) وأثناء إحدى مسيرات الأعياد، حيث كانت القيادات المحلية على المنصة، انطلق مجرم وفتح النار من سلاح آلي مما أسفر عن مصرع عدد من الأشخاص وجرح عدد آخر كبير. ارتبك البوليس للحظات إلى أن قام رجل عسكري بإلقاء نفسه على المعتدي وأخذ منه السلاح. حينها بدأت الاجتماعات في موسكو لبحث الأمر، والتدريب على طرق منع والتعامل مع مثل هذه المواقف.

من الممكن أن يكون من المفيد تذكير الحراسة من وقت لآخر بلحظات معينة لحوادث، ولكن وكما قلت من قبل أن كل هذا كان يتم في الغالب من أجل "تسديد الخانات"، وهذا كان مثبط للعزيمة، لكن في المحصلة النهائية كانت الأمور تنتهي بأوامر قيادية حمقاء. في مينسك لقي السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي لروسيا

البيضاء بيوتر ماشيروف مصرعه، وكان محبوباً من شعبه وحاصل على لقب بطل الاتحاد السوفييتي وحاصل على أوسمة بعد الحرب وأثناء الحرب، وكان سائقه الخاص قبل مصرعه قد اشتكى له من أنهم يريدون إحالته للتقاعد، وهو يعمل معه منذ فترة طويلة منذ أيام الحرب. طمأنه بيوتر ماشيروف وقال له " لا تقلق، أنت ستعمل معي طالما أنا أعمل"، اتضح فيما بعد أن الحادث المروع الذي راح ضحيته ماشيروف، كان بسبب السائق الذي لقي مصرعه أيضاً.

بعد هذا الحادث تمت عملية تغيير كل السائقين الذين بلغوا ٦٠ عاماً من السيارات الخاصة. لقد كنت أعرف الكثيرين من هؤلاء السائقين، لديهم من الخبرة والحكمة الكثير، ولم يفقدوا لا سرعة رد الفعل ولا حدة البصر، ويتفوقون على بعض الشباب مائة مرة.

على طريق لينينجراد، اصطدمت سيارة زوبورجتس (ماركة نوع من السيارات الروسية الصغيرة– المترجم) بسيارة رئيس الوزراء أليكسي كوسيجين. سيارة كوسيجين لم تخدش، أما السيارة زوبوروجتس فقد تحطمت (نجا بأعجوبة سائق الزوبوروجتس ، طلب كوسيجين عدم معاقبة السائق قائلا: ماذا نفعل؟) في اليوم التالي تم قصر السرعة في كل الشوارع والطرق السريعة حتى الواسعة منها على ٦٠ كم في الساعة (كانت ٨٠ كم في الساعة) أليست هذه حماقة؟ على الطرق السريعة لو كانت ثقافة قيادة السيارات حاضرة وجيدة، من الممكن أن تكون السرعة ١٦٠ كم في الساعة دون مخاطرة، أما إذا كان هناك مخالفات لقواعد المرور أو من يقودون السيارات مخمورين فإنه حتى سرعة ٦٠ كم في الساعة من الممكن أن تؤدى إلى حوادث، وعلى ما أذكر في تلك الأيام تم إلغاء العلامات المميزة لكثير من السيارات وهذا قرار صحيح. في ذلك الوقت كان كثيرون ممن لديهم واسطة استطاعوا الحصول على سارينة ولمبة أعلى السيارة ومنهم مديري محلات ومديري مخازن ساووا أنفسهم بأعضاء المكتب السياسي: ضوء أحمر، وكلاكس حكومي وأرقام غريبة ومعقدة. فليس من المستغرب ألا يلفت كلاكس سيارة كوسيجين في تلك الأيام انتباه أحد، فالكثير لديهم نفس الكلاكس السارينا.

بسرعة تم اتخاذ "إجراءات شكلية" وأكرر، شكلية. وهو ما كان يؤدي إلى إفشال أي خطط هي جيدة في الواقع.

وكما في الدول المتقدمة، تقرر إنشاء قاعدة طائرات مروحية في موسكو. فرئيس الولايات المتحدة عنده إمكانية الهبوط بالطائرة المروحية في حديقة البيت الأبيض، نفس الأمر في فرنسا يستطيع جيسكار ديستان (الرئيس الفرنسي آنذاك) الهبوط بالمروحية عند القصر في رامبوي، نفس الشيء في ألمانيا الغربية. ونحن كيف؟ إما أننا لا نقدر وإما أننا لم نتخذ قرار لتعديل أرض الكرملين للهبوط والإقلاع، أو من الممكن أنهم كانوا ينطلقون من ظروف بريجنيف الذي كانت المسافة بين البيت الريفي الذي يقطنه في زاريتشي والكرملين عشر دقائق فقط بالسيارة. بقى الكرملين على هدوئه، إلى أن قرروا بعد ذلك إنشاء مطار للمروحيات بجوار البيت الريفي لبريجنيف في زاريتشي. ولكن الطيران إلى أين؟! كيف إلى أين؟ إلى زافيدوفو (منطقة كان يذهب إليها بريجنيف لممارسة القنص)

للصيد مرة في الأسبوع، ولم يستغرق الأمر كثيراً حتى اتضح أن الوقت المكتسب ليس كثيراً، فحتى زافيدوفو تبعد ١٥٠ كم أو ساعة ونصف بالسيارة، أو حتى أقل، بالمروحية: ٤٣ دقيقة. لكن لو حسبنا الوقت الذي سنستغرقه للوصول إلى المروحية وتحميل حاجياتنا وتشغيل المحرك، ثم تعديل اتجاه المروحية، واختبارها. التوفير في الوقت ليس كثيراً والأهم من هذا كله أن كل شيء يعتمد على حالة الطقس. ذات مرة ارتفعنا بالمروحية ودخلنا في قلب سحابة رعدية، قائد المروحية حاول تفاديها وارتفع لأعلى لكنه لم يوفق والمروحية اهتزت وصارت كما اللعبة تتقاذفها الرياح، فأحيانا كانت تسقط وكأنها حجر يسقط، ثم ترتفع إلى أعلى مع وميض البرق الذي ملأ المكان كما النيران حول المروحية، كانت الحالة صعبة للغاية وانتابنا القلق على بريجنيف، فقد كانت المروحية على ارتفاع ٢٥٠ متر.

بريجنيف في ذلك الوقت كان يجلس على مقعده في المروحية بهدوء، وكان ينظر باهتمام من الشباك لما يجرى، وكأنه يشاهد فيلم مغامرات في قاعة سينما. شخص مجازف فعلاً.

بعد هذا الموقف أصبحت قيادة الطيران المدني أكثر حرصاً، وكانت تخطرنا باحتمالات وجود جبهات من البرق في الطريق أو رياح قوية أو غيرها من المخاطر، عدة مرات انتظرنا طويلاً الطقس المناسب للطيران، في نهاية الأمر بصق السكرتير العام على فكرة المروحية ورفضها.

وأغلق ملف استخدام المروحية نهائياً بعد ما حدث مع عضو المكتب السياسي فوروتنيكوف، حيث واجهت المروحية التي تقله حزاماً ضبابياً، وعند الهبوط ارتطمت المروحية بقوة بالأرض، ريش المروحة احتكت بالأرض واستمرت في الدوران مما أدى إلى دوران كابينة المروحية معها، مما أدى إلى كسر أضلاع كثيرة لمساعد فوروتنيكوف، وقد حاول رجل الأمن في الطائرة أن يثبت فوروتنيكوف في المقعد عند ارتطام الطائرة بالأرض لكنه لم يتمكن وارتطم بجدار المروحية حيث توجد علاقة الملابس، وقد نجم عن ذلك أضرار بفقرات الرقبة عند رجل الأمن، بعد هذا الحادث تمت إحالته للتقاعد.

لم يصب فوروتنيكوف سوى بحالة الهلع الخفيفة التي أصابته، ولم يهتم أحد بمصير الشخص الذي أنقذه.

كان من الممكن ألا تحدث هذه الحادثة لو أن قائد المروحية طلب من فوروتنيكوف أن يسمح له بالهبوط في مكان آخر ليس فيه ضباب لكنه لم يستطع التحدث إلى عضو المكتب السياسي مباشرة، لأن هذا كان يعتبر مخالفة للأوامر أثناء الطيران بالإضافة إلى أنها مخالفة للوائح. بين عضو المكتب السياسي ومن يقوم على خدمته حائط لا يمكن تجاوزه، اللوائح أقوى من كل شيء.

وتخلينا عن فكرة "اللحاق" بالغرب، وانتهت فكرة استخدام المروحيات في نقل القيادات، لكن على ما يبدو أنهم عادوا للفكرة مرة أخرى منذ فترة قصيرة.

وإذا كانت الحوادث والحالات الطارئة لم يكن لها توابع سوى التهويل والنفخ فيها، فإن مصرع القادة أو محاولة اغتيالهم بصرف النظر عن مكان حدوثها فإنها كانت تؤثر بشكل كبير على عملنا.

ففي عام ١٩٦٨ وصلتنا معلومات عن أن رئيس وزراء استراليا اختفى أثناء قيامه بالسباحة في البحر، ولم يعرف ما إذا كان قد غرق أم أن غواصة تابعة لمخابرات دولة أجنبية قد اختطفته أثناء ممارسته للسباحة. بعد هذا الحادث قررت قيادة الإدارة التاسعة إنشاء قسم للغواصين. لجنة اختيار الغواصين كانت أقسى في معاييرها من لجنة اختيار طيارين للقوات الجوية في الجيش، حوالي أسبوع يقضيه المرشحون في اختبارات منها الدوران على عدد من الكراسي والكشف الطبي، في النهاية وقع الاختيار على عشرة من الشباب أقوياء البنية، وكنت واحد منهم.

بعد ذلك بدأت تدريبات عنيفة للغاية، فقد كنا نقوم بالسباحة في قاع حمام سباحة حتى الإعياء، وحتى يكون النفس قد انقطع تماماً فإنك تخرج للحظات تتنفس أوكسجين ومن جديد إلى القاع، فقد كانوا يعلموننا ألا نخاف الأعماق: كنا نغطس في ماسورة ضيقة بعمق ١٢ متر! مظلمة تماماً ومحيط مغلق، العمل صعب جداً وبعيد في القاع، وفي الظلام الحالك، كان علينا أن نعثر على غطاس ثم إلباسه ملابسه والخروج به.

لم يستطع الجميع أن يصمدوا لهذه الاختبارات القاسية. من عشرة أفراد تم استبعاد نصفهم، أنا وكما في النظم البرية كنت ضمن الأفضل، ولذلك بعد هذه التدريبات تم إرسالي عام ١٩٦٨ إلى ليفاديا لتجهيز البلاج لاستجمام بريجنيف.

الحراسة الشخصية ليست فقط علم ولكنها اختبار يومي جسماني ونفسي، هي مزيج من التفكير الهادئ ورد الفعل السريع الحاد. الأخلاق صفة ملازمة لها، الشخص عديم الأخلاق في عملنا أقل ما يقال عنه أنه يمثل خطورة.

أنا أحترم مهنتي قبل أي شيء وأكثر من أي شيء، لأنك لا تستطيع البقاء فيها بالمحسوبية، ففي بلدنا في ذلك الوقت، وفي الوقت الحالي خصوصاً، لعبت المحسوبية دوراً كبيراً. فعن طريق الرشوة وعن طريق الأصدقاء يمكن أن تدخل معهدا أو تحصل على عمل مربح ومريح، فقد شهدت المحسوبية ازدهاراً حتى في أعلى مناصب الدولة والسلطات الحزبية، وهكذا كان من الممكن أيضاً أن تدخل مجال الحراسة الشخصية، لكن لا أدري ما إذا كان من الممكن تحمّل ظروف عملنا، غير ممكن بالطبع. فقد حدث أن أشخاصاً لائقون بكل المقاييس لم يحققوا المتوقع منهم في عصر بريجنيف وتم طرد كثيرين بسبب تعاطيهم للخمور أو بسبب كثرة الكلام. في ذلك الوقت كان الطرد كذلك نتيجة القيام بأعمال تجارية أثناء المأموريات الخارجية، وكان هذا من سمات تلك الفترة، لكنني هنا أتحدث عن حالات فردية في عشرات السنين.

إلى هؤلاء الذين لا يصدقون الكلام ويعتقدون أنني أبالغ وأضفي صعوبة وأهمية على مهنتنا، يمكن أن أنصحهم باختبار صغير، عندما ترى سيارة الرئيس بسرعتها، جرب أن تجلس في " ذيل " سيارة التغطية، لو استطعت أن تتماسك لوقت حتى لو قليل فأنا

أضمن لك إحساسا حادا بالخطر الشديد. لكن بالنسبة للحراس هذه السرعة شيء مثل ألف باء المهنة فهم لا يشعرون بها، في كل ثانية يرون كيف يغطون الشخص الذي يرافقونه من الأمام والخلف ومن اليمين واليسار، رجال الحراسة يجلسون في السيارات كما هو المعتاد ومعهم البنادق الآلية جاهزة، على المقاعد الجانبية، نصف جلسة كما لو كانوا يجلسون على بطاطس في أي لحظة مستعدين للقفز.

كم من العرق أريق من أجل سرعة رد الفعل والقدرة على الدوران ١٨٠ درجة والقفز بين الحواجز بنظرة مدتها لا تتعدى الثواني، إخراج السيارة من الأماكن المتزلجة وقيادتها بنفس السرعة سواء كان الأسفلت مبتل أو عليه جليد. سائقو سيارات قمة في المهارة، معنا، مع الحراس، اجتازوا كل الاختبارات، ما وصفته هو القسم الجسور المغامر ويسمى " الحراسة الراكبة"، هي كما قسم الغطاسين ولدت ليس من فراغ ولكن بعد محاولة لاغتيال لبريجنيف.

حدث هذا في شهر يناير عام ١٩٦٩، بعد عام من بداية خدمتي في الحراسة الشخصية، وما حدث ليس أثناء نوبتجيتي أو مناوبتي لكنى عرفت تفاصيل تلك المحاولة.

كان هناك ضابط يدعى إلين يخدم في الجيش السوفييتي في وحدة عسكرية تقع بمنطقة لينينجراد، استولى على مسدسين من طراز مكاروف بخزنتين مملوءتين بالرصاص، ظهر في موسكو قبيل عودة رواد فضاء من رحلة فضائية، وفي العاصمة أقام عند أحد أقاربه– وهو رجل شرطة – وسرق منه زى الشرطة، وبهذا الزي ذهب إلى بوابة بوروفيتسكي في الكرملين. موسكو في ذلك الوقت وبمناسبة استقبال رواد الفضاء كانت مليئة بالأعلام، وكانت الموسيقى تصدح وعشرات الآلاف من سكان موسكو خرجوا للترحيب بأبطال الفضاء على طول الطريق من مطار فنوكوفو –٢. مذيع الراديو الذي كان يصف مراسم الاستقبال أشار إلى الطريق الذي سيسلكه طابور السيارات الحكومية، وتداخل إلين مع رجال الشرطة، وشارك في عملية حفظ النظام، فلم ينتبه إليه أي من رجال المخابرات. وعندما أعلنوا عن طريق الراديو أن رواد الفضاء سيكونون في السيارة الأولى، وفي السيارة الثانية السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي بريجنيف، عبر إلين إلى داخل الكرملين وانتظر الموكب عند المدخل، حساباته كانت صحيحة في كل شيء، ففي هذا المكان دائماً ما تخفض السيارات من سرعتها.

لكن حدث أن تأخرت سيارة بريجنيف، وأصبح ترتيب سيارته ليس الثاني ولكن الخامس. من الممكن أن يكون هذا هو ما أنقذ حياته.

عندما مرت السيارة الثانية من أمام إلين أمطرها بوابل من النيران وأفرغ خزنتي ذخيرة كاملتين، في هذه السيارة كان يجلس رائد الفضاء بيريجوفوي، وكان يشبه بريجنيف بالإضافة إلى تيريشكوفا (فالنتينا تيرشكوفا أول سيدة رائدة فضاء– المترجم) وآخر. عدد من الأشخاص أصيبوا بجراح خفيفة أما السائق فقد أصيب إصابة قاتلة وقد توفي في الطريق أثناء نقله للمستشفي، كما أصيب أحد سائقي الدراجات البخارية المصاحبة بجراح.

ألقى رجال الكي جي بي القبض على الإرهابي بعد أن فرغت ذخيرته فقط، بعد تقرير طبي عن صحة إلين النفسية تبين أنه مريض نفسياً وتم إيداعه مستشفى الأمراض النفسية، لكن لا أستطيع القول لأية درجة كان التشخيص صحيحاً، فكما هو معروف كان الطب النفسي الشرعي عندنا ليس فوق مستوى الشبهات.

من فترة ليست ببعيدة (الكتاب صدر عام ١٩٩٤– المترجم) في تليفزيون لينينجراد ظهر إلين في مقابلة تليفزيونية، لم أفهم حينها إن كانوا أفرجوا عنه من المستشفى أم مازال فيها، لم أفهم لأنني لم أحضر المقابلة من بدايتها، لكن ما فهمته بوضوح شيء آخر، أنهم يصنعون من إلين بطلا، وضحية، وهو ما استدعى عندي اعتراضا داخليا، فمهما كانت علاقتك بنظام المجتمع والحكومة في الدولة ومهما كان رأيك في قائد الدولة، وفي كل الأحوال، الرصاص ليس هو الطريقة، لا أحد يمكن أن يعطى الحق لأحد أن ينهى حياة إنسان.

قبل هذا الحادث كان لدى عضو المكتب السياسي رئيس حراس ونائبين له، وعند العضو المرشح للمكتب السياسي حارسين، وعند سكرتاريي اللجنة المركزية حارس واحد، لكن بعد الحادث تم زيادة عدد الحراس.

لكن بريجنيف، حتى بعد محاولة الاغتيال، رفض استخدام السيارة " زيسكوم ١١٠ " الضخمة المصفحة والتي لا يخترقها الرصاص.

الحراسة الراكبة التي تحدثت عنها مكونة من عشرة أفراد يعملون على ثلاث ورديات، وفرد احتياطي في كل وردية. الحارس الشخصي يعتبر نائب مدير الحراسة الشخصية.

و سأعرض الآن وتيرة عملنا حسب درجة التعقيد:

١– الأيام الصعبة من الناحية العملية، هي أيام الأعياد وأماكن تكدس الناس. هذه الأيام مدعاة للتوتر. ففي أماكن تجمع آلاف من الناس، دائماً ما يكون شخص عنده شيزوفرينيا أو مدمن مخدرات أو على الأقل شخص مشحون بالعدوانية. قبل ١ مايو و٧ نوفمبر تعقد اجتماعات كثيرة، لإعطاء التعليمات وإعداد " الخطط والتدابير". كل هذا كان يتكرر كل عام بنفس الإجراءات، في المحصلة النهائية تراكم نوع من التوتر البغيض.

٢– تحتل السفريات للخارج المرتبة الثانية من حيث الصعوبة، أناس آخرون، لغة أخرى، أراضي غير معروفة. الصعوبة هنا ليست من الناحية العملياتية بقدر ما هي نفسية.

٣– السفر داخل البلاد: هنا كل شيء يعتمد على المكان الذي ستذهب إليه، ففي المدن الكبيرة الأمر أصعب من زيارة كولخوز (المزارع الجماعية) الصعوبة تزداد عند السفر شمالاً لسيبيريا، حيث نسبة الجريمة عالية فيها.

٤– المصانع والشركات في موسكو: هنا الأمور أبسط، كل شيء تحت يدك، كل شيء يمكن عمل حسابه بأدق التفاصيل.

٥ـ أنا أضع رحلات الصيد في الدرجة الخامسة. لا تستغربوا، المخاطرة موجودة بدرجة كافية، سأحكي عن هذا فيما بعد.

٦ـ في زمن جورباتشوف أثناء الاستجمام لم تكن هناك مشاكل تذكر أكثر من الملل، أما في زمن بريجنيف اللحظات الحرجة كانت كثيرة.

المذكرات بالطبع ليست تعليمات للاستخدام في الوظيفة، ونظام الترقيم الذي ذكرته لا أتمسك به، هذا مجرد حديث حر، وجهة نظر.

زاريتشي الكينونة والحياة

يبدأ يوم العمل في زاريتشي بالبيت الريفي للسكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي الساعة الثامنة والنصف صباحاً. أستلم مناوبتي، ونتوجه مع بريجنيف إلى موسكو بالسيارة الرئيسية (في السابق كانت من طراز تشايكا، فيما بعد زيل (ماركات سيارات روسية لم تكن منتشرة على المستوى الشعبي-المترجم) كان بريجنيف يجلس في الأمام بجوار السائق وفي المقعد الخلفي نجلس أنا والكسندر ريابينكو رئيس الحرس، وخلفنا سيارة "الحراسة الراكبة"، ومن الخلف والأمام على بعد ٣٠٠ متر تسير سيارات لاستكشاف الطريق. بالنسبة للخلف العمل ليس كثيراً، بخلاف منع التخطي لا شيء، أما الأمام فمجال اهتمامهم أكثر: الازدحام والتوقف، الجليد، سقوط فجائي لشجرة. باختصار، كل ما يمكن أن يحدث على الطريق.

من خلال بوابات بوروفيتسكي ندخل عبر المدخل الثاني للمبنى الأول، في العاشرة صباحاً يكون بريجنيف في مكتبه. بالإضافة إلى قاعة الاستقبال، والمكتب الذي كان يستقبل فيه زواره، كانت هناك غرفة صغيرة مريحة مساحتها حوالي ١٠ متر مربع، حيث كان يتناول غذائه، في الغرفة مكتب عليه أجهزة اتصال،أحيانا كان يمارس عمله من عليه في هدوء، ثم تأتي غرفة الراحة وهي بنفس المساحة وفيها كنبة ومرآة وحوض لغسل الأيدي، وغرفة حمام بها علاقة ملابس، وتواليت. كنا ندخل لغرفة الحمام عن طريق مدخل خاص.

أبدأ بمساعدة بريجنيف في خلع المعطف، وأدخل عبر ممر لقاعة الاستقبال حيث توجد غرفة المناوبة والتي تبلغ مساحتها ٤ متر مربع، بها اتصال مباشر. وعند مدخل الغرفة يجلس في الخدمة أحد رجال "الحراسة الراكبة".

المباني الخاصة باللجنة المركزية في الميدان القديم كانت أكثر تواضعاً: المكتب الرئيسي بالإضافة إلى غرفة فيها كنبة وكراسي، مع أرفف عليها كتب. في بعض الهيئات الأخرى كانت المكاتب أوسع، وأنا هنا بالطبع لا أقارن هذا بمقرات الرؤساء الأمريكيين، حيث يشغل مكتب الرئيس الأمريكي الدور الثالث من البيت الأبيض بأكمله، لكن الحديث هنا ليس عن مكاتب العمل فقط ولكنه يستخدم أيضاً كمسكن حيث يعيش الرئيس وأسرته، وأنا كنت قد درست الدور الثالث هذا بالتفصيل أثناء فترة حكم الرئيس نيكسون.

بريجنيف كان يعمل غالباً في الكرملين، بمجرد أن نصل يخرج رئيس الحرس وأبقى وحيداً، أحياناً أجلس في غرفة الاستقبال، لأن بريجنيف كثيراً ما كان يستدعيني، إذا رن التليفون رنة واحدة يعني أنه يستدعي السكرتير، وإذا رن رنتين فهذا معناه أنه يستدعيني.

نظام اليوم لم يتغير لسنوات طويلة، بعد الساعة الواحدة ظهراً يستدعيني (من خلال السكرتير أو يتصل بنفسه بغرفة المناوبة)

– فولوديا أنا ذاهب للغداء الآن. أعطني ما عندك.

أنا كنت أضع الأوراق على المكتب، السفرجي يحضر الطعام على عربة متحركة يدفعها بيده. بالنسبة للسكرتير العام وأعضاء المكتب السياسي والمرشحين للمكتب السياسي الغداء والعشاء موحد من حيث النوعية، أو ما يسمى المطبخ الخاص، حيث يحاول طبيب التغذية أن ينوع قائمة الطعام، إلا أن بريجنيف الذي كان يحاول خفض وزنه، لم يأخذ محاولات طبيب التغذية تلك بعين الاعتبار، فكان يطلب ما يعتقد أنه يحتاجه، وهو عادة قليل ومكون من سلاطة الكرنب، وملعقة شوربة خضار، وفطائر من الجبن الطري، أو جبن قريش وكوب عصير أو كمبوت. بعد الغداء ينام لمدة ساعة ساعة ونصف، هذه العادة استمرت معه منذ أن كان شاباً.

كان يستدعي الحلاق مرتين في اليوم، في الصباح كان يحلق ذقنه ولو استدعت الحالة يقص شعره، وبعد راحة الظهيرة تصفيف للشعر مع تدليك فروة الرأس، وهي عملية تستغرق على الأقل نصف ساعة.

في حوالي الساعة السادسة يرن الجرس عند السكرتير مرتين، أنا المطلوب: نهاية يوم العمل. يشير السكرتير العام برأسه للمكتب، آخذ بيدي اليسرى حقيبة ودوسيه وأعود من خلال غرفة الاستقبال ثم الممر من خلال المدخل الخاص في غرفة الاستراحة. أساعد بريجنيف في ارتداء معطفه. عندما كان أصغر سناً كان يستطيع العمل حتى التاسعة والعاشرة مساءً.

كان يخرج من السيارة مرهقاً قبل البيت الريفي بحوالي كيلو متر، ويمشي حتى المنزل على قدميه واضعاً يديه خلف ظهره، وكان يوجد حارس من الخلف وآخر من الأمام، الحارس الشخصي إلى جانبه مع التأخر قليلاً، الناس في هذا الجزء كانوا قليلون، لم يكن من الممكن أن يكون هناك خطر.

هذه التمشية اليومية استمرت معه حتى أواخر أيامه، ولم يتوقف عنها إلا عندما تدهورت حالته الصحية بشدة.

في البيت الريفي في الدور السفلي أساعد بريجنيف على خلع معطفه. والمعطف الخاص بي أعلقه على الشماعة، ثم نصعد للطابق الثاني حيث غرفة النوم من أمام غرفة السفرة حيث تشاهد السيدة فيكتوريا (زوجة بريجنيف – المترجم) التليفزيون. أضع الدوسيه على المكتب وإلى جواره الحقيبة وأخرج إلى المكان المخصص لي، وأقوم بالاتصال بالتليفون لإخطار المسئول النوبتجي في الكي جي بي " بأننا وصلنا للمنزل ".

واحد من الحراسة يذهب إلى موقع الحراسة عند الباب الرئيسي والآخرون يستعدون لنوبة الحراسة الليلية.

في الساعة الثامنة والنصف تهاتفني السفرجية " فلاديمير تيموفيفتش يدعونكم للعشاء". بريجنيف يجلس إلى السفرة ينتظرني، لم يحدث أن تناول بريجنيف وزوجته عشاءهما بدوني، ولم يحدث أنهم وضعوا الطعام على السفرة قبل حضوري.

في صدر شبابه كان بريجنيف متناسق الجسد جميلا. كان حريصاً جداً على الحفاظ على وزنه، ومع تقدم العمر واعتلال جسده بالأمراض أصبحت مكافحة الوزن الزائد بالنسبة له نوع من الهوس وأخذت الطابع المرضى، فقد كان يتابع كل ملعقة طعام يتناولها، حتى لا يأكل أكثر من اللازم، وامتنع عن أكل الخبز على العشاء. كرنب وشاي فقط أو جبن قريش وشاي، وفي أحسن الأحوال يسمح لنفسه بفطيرتين من الجبن الطري، ونظراً لأنه كان يأكل كميات قليلة كان يعتقد أن هذه الكميات كافية للآخرين، بعد الطعام يسألني: ها كيف؟ فأجيبه بأنه مع هذا العشاء حتى سحب رجليك لن تقدر عليه.....

آه، يرد هو ويبدي دهشته ويسألني: تخرج جوعان؟ فأجيبه: بالطبع لا.

وهنا ينادي على زوجته فيتيا (اسم الدلع لفيكتوريا-المترجم) احضري له بعض السجق، فتقوم السيدة فيكتوريا بالنداء على الفتيات اللاتي يعملن في المطبخ: كاتيا، آنيا. أحياناً تقوم بنفسها للثلاجة وتحضر بعض اللحم المدخن أو بعض المقانق. ويحاول بريجنيف بعد أن آكل الإضافات أن يعرف ويسألني: ها والآن؟ يقصد هل شبعت.

ـ سأذهب إلى مكاني في غرفة النوبتجية وآكل بعض السجق والخبز.

من حيث المبدأ كان يحب نوعا من حساء الخضار الأوكراني (يسمى بورش) والسيدة فيكتوريا كانت تحب شوربة السمك الخفيفة، أحياناً كان يقوم الطباخون بإعداد أكلات مشبعة ولذيذة، لكن يتضح أن وزن بريجنيف زاد ٥٠٠ جرام، ويتم تغيير كل قائمة الطعام.

ـ خمسمائة جرام؟ – بتوتر وغيظ – هذا غير ممكن، أنا آكل قليلاً. يقول بريجنيف.

و كان يصدر أوامره بتغيير الميزان، غيرناه، ثم قام بوزن نفسه من جديد مرة ثانية: ٥٠٠ جرام زيادة.

ـ هذا الميزان غير دقيق كما يجب........ يجب تغييره.

موازين من كل الماركات والأنواع، محلى ومستورد، كانوا في البيت الريفي في زاريتشي وفي زافيدوفو حيث يذهب للصيد وفي المكتب في الكرملين، كان بمجرد أن يستيقظ من النوم في الصباح يذهب مباشرة إلى الميزان، وصل للشغل من المدخل مباشرة على الميزان، قبل النوم يقوم بوزن نفسه من جديد، أعضاء المكتب السياسي يحاولون تهدئته قائلين له: الوزن لا يعنى شيء، الوزن شيء جيد إنه يعنى طاقة.

ـ لا لقد قالوا لي إنه حمل على القلب. كان يرد عليهم بريجنيف.

أحيانا يقوم بوزن نفسه في الصباح: الوزن كويس في المعدل، أو حتى أقل. يكون سعيدا.

أترى– ويبتسم– سأكون أقل وزناً، وسأمشي أكثر. يردد بريجنيف بسعادة.

طوال اليوم تكون حالته المعنوية مرتفعة. والمحيطين، سواء في البيت أو العمل، الجميع راض وسعيد. ثم وقوف على الميزان مرة ثانية: زيادة ٥٠٠ جرام، ونغير الموازين مرة ثانية. بالإضافة إلى أن زملائه المقربين كانوا يستفزونه عند اللقاءات وهو يشكو من زيادة الوزن وهم متعجبين يقولون له: ما هذا الذي تقول يا ليونيد أليتش (هكذا في روسيا ينادون الرؤساء أو الأكبر سناً أو من تريد أن تحترمه في التعامل حيث ينادى باسمه واسم والده معاً – المقصود هنا بريجنيف – المترجم) أنت تبدو بشكل جيد منتصب القامة ومنتعش. فيرد: الوزن هو الوزن.... وهم يردون: كل شيء لديكم على ما يرام الميزان، عندكم ليس دقيقاً.

و يعقب ذلك نصائح بأن يتحرك أكثر ويمشى أكثر، ثم يقوم بريجنيف بسؤال أحدهم: ماذا تأكل على الإفطار؟ وتكون الإجابة بيضة واحدة وشاي. وهو بالطبع من الممكن أن يكون قد تناول عشر بيضات على الإفطار ولكنه لا يستطيع قول هذا فيقول: " بيضة واحدة"! في صباح اليوم التالي يسأله الطباخ: ماذا أعد لكم على الإفطار؟ فيرد بريجنيف: بيضة واحدة وشاي. كل الموازين وعددها بالعشرات كان يجب أن تكون سليمة تماماً، وربنا ما يجيب خطأ في قراءتها.

في زافيدوفو في الماضي في أيام الصيد، كانت السفرة دائماً ما تكون مليئة بالمزات والأطعمة. والسكرتير العام كان أصغر سناً وكان يأكل بشهية، والمحيطين أيضاً لم يكونوا أقل منه في شهيتهم. المساعدون، ودليل الصيد المرافق لنا، الحراسة،الأطباء، كل السفرجية (كانوا من الكي جي بي من الإدارة التاسعة) كانوا كلهم يسعون لإرضاء السكرتير العام. وفي منتصف السبعينيات عندما أصبح بريجنيف يكافح زيادة الوزن وتحول إلى أكل الجبن القريش والكرنب والبنجر، حوّل الجميع إلى قائمة طعام مشابهة لما يأكله.

حدثت حادثة طريفة عندما بدأ العمل بقائمة الطعام الجديدة، اندمج مدير منطقة الصيد وهو جالس على السفرة وبدأ يأكل الكافيار الأسود بالملعقة، بريجنيف ظل يراقبه وعندما انتهى قال له: هذا كافيار وليس حنطة سوداء مغلية بالماء فرد مدير منطقة الصيد: ماذا تقولون! ولم يشعر بأي حرج وقال: أنا لم ألاحظ أنه كافيار.

بعد ذلك أعطى بريجنيف أوامره أن يتم تقليل قوائم الطعام، وأنا أعتقد أنه في وجود الطعام المتواضع كان الأمر أسهل على بريجنيف أن يسيطر على شهيته للطعام.

موقف الكافيار الأسود كان بريجنيف يحب أن يتذكره عندما يجلس لتناول طعامه.

طول بريجنيف كان ١٧٨ سم في حين كان وزنه ما بين ٩٠-٩٢ كيلو جرام.

معرفتي بالبيت الريفي في زاريتشي بدأت عندما انتهوا من بنائه، وبالأحرى إعادة بنائه، ولم يكن بريجنيف قد سكنه بعد، أنا فحصت كل المنظومة الكهربائية، وصنابير إطفاء الحرائق ومواقع الحراسة وأي أشجار تنمو تحت النوافذ، وكل مساحة البيت الريفي والمنطقة المحيطة حتى معسكرات الطلائع المجاورة.

المكان في حد ذاته رائع مريح، بجوار غابات كثيفة على الشاطئ الأعلى لنهير سيتون. كل هذه الروعة والجمال في هذه المحمية الطبيعية يقعان على بعد عشر دقائق بالسيارة من الكرملين، طرق أسفلت وحدائق تفاح كانت محل اهتمام بريجنيف، بالإضافة لهذا تم إحضار شتلات الكريز وتوت العلّيق وعنب الديب بناء على طلب بريجنيف من مولدوفيا (إحدى الجمهوريات السوفيتية كانت تشتهر بهذه المزروعات – المترجم) صوّب زراعية ومصادر تدفئة، حمام سباحة مفتوح بطول ٢٥ متر وعرض ١٢ متر، لم يستخدمه بريجنيف (ربما يكون قد استخدمه مرتين طول الوقت) ولذلك كان حمام سباحة غير معتنى به ومهمل، كانت أوراق الشجر في الخريف تغطى سطح الماء فيه، والبلاط تخلع، طول الوقت كانوا يصلحونه لكن دون جدوى.

الجراجات ومكان الحراسة كانت تقع خارج المنزل الريفي، الذي كان محاطاً بسور من الأشجار الخضراء. كان بريجنيف يحب الحمَام حبا خاصا، عشرين حمَامة جميلة (الصغار منفصلين عن الكبار) وأحيانا كان يقوم بإطعامهم بنفسه. ذات مرة كان السائق يراقب بريجنيف وهو يطعم الحمَام، فسأله بريجنيف: أتفهم في الحمَام؟ فرد: أفهم. فقال له: هيا اطعمهم.

بصراحة، البيت الريفي هذا لم يكن محل إعجابي من البداية، فقد كان يشبه قصر ثقافة أو مبنى إداري، المساحات المفيدة قليلة، صالات ضخمة، ممرات، سلم رخام ضخم بعرض مترين يؤدى إلى الدورين الثاني والثالث كان يوحى بالبرودة، النوافذ كبيرة، الأبواب زجاجية، فترينات حديثة أعطته مظهرا أشبه بالمتحف، لم يكن فيه الدفء وروح الحياة.

في الدور الأول بالإضافة للسفرة كان يوجد قاعة سينما وحمام سباحة شتوي بطول ١٤ متر وثلاث ممرات، هنا كان يسبح بريجنيف كل يوم صباحاً، درجة الحرارة ثابتة عند ٢٧-٢٨ درجة مئوية، وعندما تقدم العمر ببريجنيف رفعوا درجة حرارته إلى ٣٠ درجة مئوية. في الأسفل كانت توجد غرفة للعاملين في الخدمة والمطبخ وأماكن للمساعدين. كان هناك مخرج خاص للعاملين إلى أرض الفناء المحيط بالبيت الريفي، لكن بريجنيف أيضاً كان يستخدمه. المدخل الرئيسي للبيت كان يفتح عند حضور زائرين أو مدعوين، وهذا لم يحـــدث كثيراً.

في الطابق الثاني غرفة نوم بريجنيف والسيدة فيكتوريا زوجته، بالإضافة إلى ذلك كان هناك أربع غرف نوم أخرى للأطفال والأحفاد، في الطابق الثالث يوجد مكتب حيث كان بريجنيف يعمل، كما توجد مكتبة على أرففها إصدارات للكثير من دور النشر.

كانت توجد منضدة بلياردو، لكن لا صاحب المكان ولا زواره مارسوا اللعبة عليها قط.

حكومية وبرودة المبنى كانا يعكسان شعور الوحدة الذي كان يعيشه زوجين طاعنين في السن، يقضيان معظم الوقت معاً. لك أن تتخيل كم كان منظرنا غير مريح وغريب لو نظرت إلينا نحن الثلاثة ونحن نجلس لنتناول طعام العشاء: غرفة سفرة رحبة، ترابيزة

كبيرة لعشرة أشخاص، وكنا نجلس ثلاثتنا: بريجنيف وزوجته السيدة فيكتوريا وأنا كما لو كنا لا نجد مكانا نجلس فيه.

بعد العشاء العائلي كنت أقوم قائلاً: شكراً، كان بريجنيف عادة ما يقول: أبقى لنشاهد " فريميا" (نشرة الأخبار الرئيسية في التليفزيون السوفييتي آنذاك وكان يحين موعدها في التاسعة مساءً بالتوقيت المحلي- المترجم) ناحيتنا كان يوجد تليفزيون سوفييتي ماركة " روبين " وفي الجهة الأخرى من الغرفة كان يوجد جهاز تليفزيون آخر ياباني بالإضافة إلى جهاز فيديو وعدد من شرائط الفيديو، لكن بريجنيف لم يكن يقترب من هذا المكان، فقد كان كل هذا للأبناء والأحفاد، نحن كنا نجلس أمام " روبين" (ماركة تليفزيونات سوفيتية كان شهيرة في ذلك الوقت - المترجم).

نجلس ثلاثتنا وعندما يظهر بريجنيف على الشاشة تنتعش السيدة فيكتوريا قائلة: كم أنت جدع!" كانت تتملقه، فيما بعد عندما بدأ يتمتم ويغمغم أثناء الكلام بدأت تسخر منه. في الأعوام الأخيرة كان الحديث حول التليفزيون يدور حول موضوع واحد، عندما نشاهد أحد من الشخصيات الأجنبية أو المحلية كانت السيدة فيكتوريا تعلق: "أنظر كم يبدو مظهره جيداً "أو " يبدو مرهقاً ".

بالإضافة إلى الأخبار، كان بريجنيف يحب برنامج "فيتيل" لم يترك ولا حلقة منه (برنامج نقدي كان ينتقد تصرفات الحكومة السوفيتية-المترجم) الأخبار وهذا البرنامج كانا يمثلان مصدر المعلومات لشخص بريجنيف المنقطع عن الحياة. ذات مرة عرضوا في برنامج "فيتيل" كيف تم إنشاء مصنع أسمنت في منطقة تسمى نافوي والخامات اللازمة للمصنع يتم إحضارها من مكان ما في الشمال على بعد آلاف الكيلومترات.

سألت بريجنيف: ما هذا الاقتصاد!!! السيدة فيكتوريا أبدت دهشة، فرد بريجنيف: هكذا أنتم، تريدون كل شيء مباشرة ومرة واحدة. ليس مباشرة، ولكن كيف يحدث هذا؟! نرد نحن، أنا والسيدة فيكتوريا، دون توقف وبإصرار. فيسكت بريجنيف ولا يتكلم.

في الأعوام الأخيرة حدث أنه لم يشاهد الأخبار وصعد للنوم. فقالت له السيدة: اذهب، أنا سأشاهد الأخبار وآتي. وكانت تذهب إليه حوالي الساعة الحادية عشرة مساءً.

من البرامج التي كانت تحبها السيدة فيكتوريا الرقص على الجليد. رؤساء التليفزيون عرفوا ذلك، وطوال فترة السبعينيات كانوا يبثون هذا النوع من الرياضة. فكانوا يبثون مباشرة بطولة العالم وأوروبا والاتحاد السوفييتي والألعاب الأوليمبية وكأس صحيفة أنباء موسكو. وهكذا....

بريجنيف نفسه كان يشاهد كرة القدم والهوكي بشغف، ولم يكن يحب المشاهدة بمفرده، وكان يقول لي: هيا نشاهد الهوكي.

كان بريجنيف بالطبع يعاني من نقص العلاقات الإنسانية التي ليس فيها تملق أو خنوع، لم يكن بريجنيف مشجعاً لنادي بعينه ولكنه كان يفضل نادي تسيسكا (نادي الجيش السوفييتي – المترجم). في المكتب السياسي كان كثيرون يشجعون نادي سبارتاك ولهذا

عندما كانوا يجلسون في المقصورة معاً، كان بريجنيف يشجع سبارتاك، وكان يدعو جروميكو- الذي لم يكن يفهم في الرياضة على الإطلاق- إلى مشاهدة المباريات خاصة الهوكي، لكنه كان يأتي في الاستراحة، وكانوا يسمحون لأنفسهم بتناول كأس أو اثنين من المشروبات الكحولية.

الحضور الرياضي إلى الملاعب بدأ في عهد خروشوف، حيث كانا مع بريجنيف يحضران مباريات كرة القدم والهوكي كثيراً، خروشوف بالمناسبة كان يشجع " نادي سبارتاك".

أحياناً بعد العشاء كان يذهب إلى صالة السينما التي تتسع لعدة أشخاص، بريجنيف كان يحب الأفلام البوليسية، وكان يحب أكثر أفلام الجاسوسية، وأفلام الحرب. كان يتذكر أيام عندما حارب وما قبل أيام الحرب ولذلك كان أحياناً يشاهد أفلام عن الكولوخوزات (المزارع الجماعية ــ المترجم) عندما تدهورت حالته الصحية بدرجة كبيرة، كان يشاهد الأفلام ويبكي. من الأفلام الوطنية كان يعشق فيلم "إنجاز جاسوس" بطولة كادوتشينكوف، ومن الأفلام الأجنبية: " سيرينادا وادى الشمس "" فتاة أحلامي" يشاهد ويشهق ويقول: في السابق كانوا يعجبوني أكثر. ويتذكر أيام الشباب.

أحياناً كان يطلب "ثلاث أفلام تسجيلية " لنادي السينمائيين الرحالة، لكن لم يصل الأمر إلى طلب الأفلام السينمائية العادية.

من الممثلين أحب الفنانة أندرييفا وبيرنيس (عدة مرات شاهد فيلم "اثنين محاربين") كريتشكوف، ماتفييف، جليبوف، تيخونوف، ومن الفنانين الاستعراضيين رايكين.

شاهد بريجنيف فيلم "سبعة عشر لحظة في الربيع" (فيلم عن جاسوس روسي تم زرعه في القيادة الألمانية ويحوز هذا الفيلم على نسبة مشاهدة عالية عندما يعرض على شاشات التلفزة الروسية حتى الآن- المترجم) بعد عرضه على الشاشات بفترة. الممرضة التي كان لها علاقة خاصة ببريجنيف (سنحكي عنها فيما بعد) قالت له أن رجل المخابرات إسايف (في المسلسل المذكور - المترجم) شخصية واقعية وهو على قيد الحياة حتى الآن والكل تناساه، ما حدث بعد ذلك أصبح مثاراً للفكاهة والسخرية من بريجنيف، فقد كلفنا بريجنيف بأن نعرف ما إذا كان هناك جاسوس سوفييتي باسم إسايف وما مصيره الآن؟

قلنا له إنه لا داعي للسؤال لأنه لم يكن هناك جاسوس سوفييتي بهذا الاسم من الأصل، هكذا أجبناه وقلنا له إنه شخصية اخترعها المؤلف لزوم الحبكة الدرامية، أي شخصية خيالية.

الحديث عن هذا الموضوع دار أكثر من مرة، وأخيراً هاتف أندروبوف (رئيس الكي جي بي في ذلك الوقت - المترجم) أندروبوف أجابه بنفس الإجابة التي أجبناها بأنه لا يوجد شخص بهذا الاسم في الواقع، لكن بريجنيف كان قد قرر منح وسام مستحق لشخص تم نسيانه، وأصدر مرسوماً بمنح الممثل الذي لعب دور إسايف وسام النجمة الذهبية، وأصبح بطل الفيلم فياتشسلاف تيخونوف، وكان شاباً وجذاباً، فنان القصر والحزب

المعتمد. كان يقرأ كتاب "الأرض الصغيرة" (الكتاب من تأليف بريجنيف – المترجم) بإحساس وحماس شديدين على شاشة التليفزيون، ومع كل حفلة حكومية في ٧ نوفمبر (عيد الثورة – المترجم) وبعد الاستعراض الأول يبدأ الجزء الاحتفالي بالإنشاد الحماسي الذي يمجد الحزب، وكان يقوم بهذا الممثل فياتشسلاف تيخونوف.

في الوقت الحالي من الممكن أن يكون هذا الأمر مثاراً للسخرية، لكن لو نظرنا إلى كل هذا، لكن من زاوية أخرى، ماذا يعني عمل الخير الذي كان السكرتير العام بريجنيف يقوم به؟ فهو كان يحب عمل الخير بصفة عامة. ثم يأتي من يقول: إنه يعمله ليس من جيبه، وعلى حساب الدولة من السهل أن تكون فاعل خير. أجيبهم: هناك آخرون لا يفعلون الخير لا من جيوبهم ولا من جيوب الآخرين. على سبيل المثال ما السيء في أن يمنح الفنان بيوتر جليبوف (الممثل الذي قام بدور البطولة في فيلم الدون الهادئ) وساما (شاهد بريجنيف "الدون الهادئ" ثلاث مرات) وبعد أن لف النسيان هذا الفنان بدأ يظهر من جديد على شاشة التليفزيون. أن يحدث الشيء متأخراً أفضل من عدم حدوثه على الإطلاق. وكذلك منح فياتشسلاف تيخونوف وساما ليس فيه ما يشين، المأساة في أنه وفق قانون عبادة الفرد، فإنهم لم يجدوا شخص غيره في هذا الفيلم متعدد الحلقات يستحق الوسام، وهل من فضل على إخراج هذه الملحمة السينمائية أكثر من مخرجتها السيدة تاتيانا ليزانوفا، التي كانت وراء كل شيء في هذا العمل؟، لكن المخطئ هنا هم مستشاري الثقافة المتخصصين في السينما، فقد كانوا ينظرون إلى الأفواه ويتصيدون أي هواء، وخاصة المخيب للآمال.

قال بريجنيف: القيصر ليس معتوها، لماذا هكذا؟ وكان يعلق على فيلم "سكرة الموت"، وتم منع الفيلم، وكان لا يحب القبلات في الأفلام كما لم يكن يحب الجنس والخلاعة.

يبدو أن هذه المعايير لم تصل للمسئولين عن السينما، وإلا لكانت كل القبلات التي في أفلامنا والأفلام الأجنبية قد تم حذفها عملاً بمبدأ اليقظة أفضل من الغفلة.

من المطربين أحب أوتيسوف وجولجينكو وشتكولوف ومجميايف، ولم يحب الذين كانوا في الموضة في تلك الأيام مثل بوجاتشيوفا وفيسوتسكي. المستشارين كانوا يلتقطون كل شيء، ولا شك في أن الموقف من فيسوتسكي لعب دوراً في مصير مطرب رائع (بسبب عدم حب بريجنيف لفيسوتسكي، أصبح منبوذاً، وكانت أغانية توزع سراً ممكن القول أنه كان الشيخ إمام بالنسبة للاتحاد السوفييتي – أصبح الآن متاحا للجميع وتم عمل فيلم سينمائي عن حياته ويجرى الاحتفال بفنه كل عام – المترجم) ما كان يعرف بفترة الركود في عهد بريجنيف كان صنيعة المحيطين، وكان بريجنيف مجرد غطاء، سأتحدث عن هذا فيما بعد.

في البيت الريفي سارت الحياة بصفة عامة على وتيرة واحدة: كسولة مملة وفي وحدة. كثيراً ما كان يجلس بريجنيف مع زوجته فيتيا – هكذا كان يدلل السيدة فيكتوريا - في ليالي الصيف في غرفة الجلوس وفي أيديهم مجلة " التمساح" (مجلة كاريكاتير ساخرة

كانت مشهورة في الاتحاد السوفييتي – المترجم) وكانوا يناقشون المحتوى، على ما يبدو " التمساح" مثل "فيتيل" كان من خلالها يتعرف على الواقع.

كان بريجنيف لا يحب التأخر على المراسلات التي يحضرها البريد، كنت أفتح المظاريف مقدماً، وكان يفتح المظروف بسرعة ويوقع القرار ويرسله لمنفذه في موسكو، كان أحياناً يبقي بعض الأوراق لا يوقعها حتى الصباح، ويأخذها معه للعمل، إذا حدثت اتصالات من أندروبوف (رئيس الكي جي بي– المترجم) أو جروميكو (وزير الخارجية – المترجم) رجاء، عاجل. كنت أقول لبريجنيف في أي مكان حتى أثناء ممارسته لرياضة المشي اليومية، فيقول: "وصلني به" أو يقوم هو بالاتصال بنفسه. الأشخاص الذين كانوا يستطيعون طلب السكرتير العام بشكل "عاجل "كانوا قليلون، حوالي خمس أو ستة أشخاص، الباقون يطلبون ويقولون " الأمر ليس عاجلا، أبلغه عندما تسمح الظروف"

أحد الأطباء أوهم بريجنيف أنه يحتاج لأن ينام تسع ساعات على الأقل في اليوم ليلبي هكذا احتياجاته الجسمانية، ولِذلك كان يذهب للنوم مبكراً، وكان ينام بصعوبة ويعانى من الأرق، وقد كان يحدث أن يحضر البوسطجي البريد عندما يكون السكرتير العام بريجنيف قد توجه للنوم، وكما هي العادة يخبرني أن بعض المراسلات عاجلة، فأقول له: إنه نائم. فيطلب أن أوقظه؟ فأرفض: لا لا.

أحياناً كان يتصل متأخراً وزير الدفاع أوستينوف، الذي كان يعمل حتى منتصف الليل: عاجل، أوقظه؟ نعم، حسناً ولكنكم ستتحملون المسئولية عن ذلك إذا أيقظته. على الجانب الآخر صمت، يبدو أن وزير الدفاع يتشاور مع أحد، ثم يأتي الجواب: لا داعي، ممكن الانتظـــار للغد.

أحياناً وعلى فترات متباعدة كان يأتي الأبناء والأحفاد في عطلة نهاية الأسبوع يومي السبت والأحد، كانوا يقضون وقتهم متفرقين. الصغار يتنزهون والكبار يجلسون وأحياناً العكس، الشباب يذهبون إلى قاعة السينما ويشاهدون فيلما عاطفيا. كان بريجنيف أحياناً ينظر خلسة ويقول: إتفو، معبراً استيائه مما يشاهدون ويخرج. وإذا كان هو يشاهد فيلم "إنجاز جاسوس" يخرجون هم من قاعة العرض السينمائي.

كان هناك إحساس بالجمود والتوتر بين الأب والأولاد، أحياناً كان الأولاد يذهبون إليه في زافيدوفو، حينها كانوا يشعرون بالسرور والمرح.

ذات مرة قال بريجنيف بحزن، وكان يعنى أبنائه: إذا أتوا إلي فهذا يعنى أنهم يحتاجون شيئا ما أو سيطلبون شيئا.

جالينا، الابنة، كانت مصدر تعكير دم بريجنيف وزوجته، لم تكن هناك سيطرة عليها، كانت تفعل كل ما تريد، وقد كُتب الكثير عن مغامراتها والسبب أن شخصيتها مثل والدها، وحاولت والدتها تربيتها، حيث كان بريجنيف مشغولاً طوال الوقت، لكن ماذا تفعل السيدة فيكتوريا اللينة الطباع أمام ابنة صعبة ومعقدة للغاية؟ في الكي جي بي كانوا على علم بكل تصرفاتها وحفلات السُكر والعربدة، مع الأزواج وغير الأزواج، لكنهم لم يجرؤوا على إخطار بريجنيف بذلك.

الابن يوري كان يشغل منصب النائب الأول لوزير التجارة الخارجية، كان هادئاً منظماً، وكانت علاقته بوالديه يكتنفها الاحترام، لكن كما بدا لي أنه كان كثيراً ما يأتي إلى البيت الريفي "مخموراً".

العلاقة بالأحفاد كانت أكثر طبيعية وبساطة، بريجنيف وزوجته السيدة فيكتوريا كانا يحبان فيكتوريا ابنة جالينا وكان اسمها فيكتوريا (للدلع فيتوسيا) وقد قام بتربيتها عملياً جدها وجدتها. كانت تعيش عندهما في البيت الريفي أغلب الوقت. أما ابني يوري (نجل بريجنيف – المترجم) ليونيد وأندريه، فقد عاشا مع والديهما، ولم يكن حضورهما إلى البيت الريفي كثيراً.

كان بريجنيف يخص بالاحترام والحب امرأتين: أمه وزوجته، الوالدة كانت امرأة نحيفة جافة كبيرة السن، كانت تأتى لتعيش فترات طويلة في البيت الريفي في زاريتشي. كانت تجلس عادة عند المدخل، تذهب في الصباح وتجلس وفي المساء تعود وتجلس كما لو كانت لم تتحرك من مكانها. هكذا كانت تودع ابنها وتستقبله كل يوم، كان بريجنيف أحياناً يعود في منتصف النهار أثناء العطلات وكان يقول لها: ماما انظري أشعة الشمس حارقة اذهبي إلى الظل.

كان ابنا عطوفاً وكان مهتماً بوالدته، وعندما ماتت بكاها بحرقة، كان ذلك في منتصف السبعينيات، كان يتناول المنومات وحالته النفسية أصبحت مهزوزة. حضر دفن والدة بريجنيف عدد كبير من الأقارب، من طرف السيدة فيكتوريا زوجته حضرت أختاها اللاتي كان لديهن الكثير من الأولاد. تم دفن والدة بريجنيف في مقبرة نوفوديفيتشي، وهو مكان غير بعيد من ممرات خضراء، وعندما كانوا يحملون النعش وأثناء عملية الدفن كان بريجنيف يبكى بشدة.

العلاقة بين بريجنيف وزوجته السيدة فيكتوريا يمكن بدون مبالغة أن نسميها رقيقة بأخلاقيات ذلك الوقت، إلا أنه إذا تعلق الأمر بالعمل تحول إلى إنسان قاسي وبلا رحمة. ذات مرة قال الكومندان للسيدة فيكتوريا أن هناك مكانا شاغرا لمساعد الكومندان، في إدارة الشئون الاقتصادية، ونصحها بأن يأخذ بريجنيف أحد الحراس لهذا العمل، على اعتبار أنه يعرف في الاقتصاد والحالة اليومية بصفة عامة. فقامت السيدة فيكتوريا بعرض الاقتراح على بريجنيف أثناء مرورهما بأحد الممرات دون أن تذكر من صاحب الفكرة. وهنا انفجر بريجنيف: هذا ليس شأنك! ولا تقتربي ممن يعملون في الحراسة، فالحراسة معينة لي وليست لك. أنت زوجة وربة بيت وأم للأسرة، هذا كل محيط اختصاصك. هذا الخط كان ينفذه دون أن يحيد عنه، لكن سلفه – خروشوف كان يحب السفر للخارج مع زوجته وأحياناً كل الأسرة (أشهرها السفر بالمركب) والذي أتى بعده – جورباتشوف كان لديه ولع وشغف بالسفر للخارج مع زوجته. بريجنيف في هذا الخصوص كان عنده مبادئه. نادراً جداً ما كانت السيدة فيكتوريا ترافقه في سفرياته الخارجية، فقد كان بريجنيف محق في أن الزيارات الرسمية للخارج ليست فسحة، ولم يكن يحب الوفود الكبيرة وكان يراجع قائمة المرافقين بالاسم، وكثيراً ما يتبين أن وزارة الخارجية ومساعدي السكرتير العام كانوا يحشرون أصدقاءهم في السفريات " للفسحة "، وكان

بريجنيف يقوم بشطبهم بيده. أحيانا أنا وريابينكو كنا نعطى إشارة، وكان ريابينكو يقول لبريجنيف: " انظر يا ليونيد إليتش في أي شيء نحتاج هؤلاء المتطفلين؟ سيخلقون أعباء إضافية على عمل الحراسة ".

لم تكن السيدة فيكتوريا تطمح في شيء، هكذا عاشا هي لم تتدخل في السياسة وأمور الدولة، وهو لم يتدخل في شئون البيت، كل حياة ونظام المنزل كان من شأنها.

كانت السيدة فيكتوريا تعاني بشدة من مرض السكر وهو كان قلقاً عليها وكان يقول: يا ريت نجد وسيلة لعلاج فيتيا وكان يقصد فيكتوريا زوجته. مرت الآن (عند صدور هذا الكتاب- المترجم) أكثر من عشر سنوات على وفاته وهى مازالت على قيد الحياة.

بعد العشاء معاً ومشاهدة التليفزيون أو السينما كنت أخرج للنوبتجية، كان عندي غرفتين، الأولى ليست كبيرة وفيها تليفزيون وتليفون، والثانية غرفة للنوم، وفيها تم تركيب ديكتافون متصل مباشرة بغرفة بريجنيف.

كنت أجلس لا أخرج إلى أيّ مكان حتى الثانية عشرة أو الثانية عشرة والنصف حتى أتلقى إشارة من نقطة الحراسة المواجهة لشبابيك السكرتير العام بريجنيف تشير إلى أن " النور انطفأ " في غرفة نوم بريجنيف. هنا أقوم باستدعاء النوبتجي "احضر إلي بسرعة" وأجلسه بجوار التليفون لحين القيام بالمرور على نقاط الحراسة وأقوم بتفقد كل نقاط خدمة الحراسة، وأقوم بملء استمارة الخدمة اليومية وأعود.

أرقد وأغمض عيني، لكن لا أنام، فالنوم ممنوع خلال النوبتجية حسب التعليمات، كما أنني أعرف أن بريجنيف لا ينام بصورة جيدة، وخلال الليل من الممكن أن يتّصل بي مرتين قائلاً: فولود (اسم الكاتب فلاديمير ويمكن على سبيل التبسط أن ينادى بفولوديا أو فولود ـــ المترجم) أنت نائم؟ كم الساعة الآن؟ وغالبا كان يتّصل لسبب آخر ويقول: تعالى للتدخين، "التدخين" هنا ممكن أن نضعها بين قوسين، حيث كنت أنا الذي أدخن، فقد كنت أدخن وهو يستنشق الدخان الذي أنفثه من السجائر.

في السابق كان بريجنيف مدخناً شرهاً، وكثيراً ما كنا نقوم بتنظيف مبسم تدخين السجائر له، وكان يغير أنواع السجائر التي يدخنها، وكان أحياناً يسأل السكرتير أو المساعد أو عضو مكتب سياسي : أنت تدخن؟ فيعطيه سيجارة من النوع الذي يدخنه، كان بريجنيف يشد نفس ويقول: نوع جيييييد. وفي الصباح عندما كنا نسلم الورديات يطلب إحضار سجائر، من نفس نوع الســــــجائر الذي تذوقه أو غيره.

في النصف الأول من السبعينيات منع الأطباء بريجنيف نهائياً عن التدخين، ولكنه كان يدخن في السرّ، كان يدخن حتى في مقصورة القصر الرياضي، نحضر ويجلس وينظر، ويسحب سيجارة في نفس الوقت الذي ينطلق فيه تحذير من خلال الميكروفون بالإذاعة الداخلية للقصر الرياضي بالصوت العالي" الرفاق المحترمين! في قصر الرياضة ممنوع التدخين"، فأقول له: هل تسمع يا ليونيد إليتش؟ فيرد: هذا ليس لنا. ويقوم بإخفاء السيجارة بين أصابعه ويدخن في السر بحيث لا تظهر السيجارة.

توفي طبيب بريجنيف السابق روديونوف، والطبيب الجديد ميخائيل كوساروف كان أكثر صرامة ومبدئية من الطبيب السابق رغم أنه كان أصغر سناً، أحيانا في زافيدوفو وأثناء الراحة، يسحب بريجنيف سيجارة ويسأل بدون حذر- الصوت يبدو له بأنه خافت ولكن صوته جهوري- ويقول: سأدخن، الدكتور غير موجود. الطبيب يجيب من الغرفة المجاورة رافضاً: لا لا. نفس الشيء كان يتكرر في زاريتشي، كان يأتي إلي ويسأل عندك سجاير ندخن؟ فأجيبه: هيا، ويقول: وفيكتوريا، يقصد زوجته، لن ترانا. فترد السيدة فيكتوريا من غرفة الجلوس ضاحكة: لا لا، لن أرى. وكانت أحياناً تسألني: أنظر كيف يشعل، قل له ألا يدخن إنه يسمع كلامك أنت فقط. كنت أحياناً أقول له: حقيقي ممكن إزالتها لا داعي للتدخين، وكان يطيع مستسلماً ويقول: لا داعي إذا لا داعي.

في نهاية الأمر حذره الأطباء من النهاية المأساوية في حالة استمراره في التدخين، وفي ١٩٧٥ امتنع عن التدخين، لكن بسبب الامتناع عن التدخين أضيف للحراسة عمل إضافي. هو التدخين للسكرتير العام.

ذات مرة أثناء مرورنا بالسيارة أمام شقته في شارع كوتوزوف بموسكو، فوجئت به يقول لي: فولوديا أنا سوف أعينك مدير حراسة الشقة؟ وستحصل على نفس الراتب الذي تحصل عليه الآن. أنا كنت نائب رئيس الحرس الشخصي له، وشعرت بأن في صوته سخرية، فسألته " ماذا حدث"؟ فرد: أي فائدة ترجى منك؟ تركب معي ولا تدخن. فأرد عليه بضحكة: سأدخن، سأدخن يا ليونيد إليتش إذا كان هذا ضرورياً، لا توجد مشكلة.

التهريج يبقى تهريج، لكن في الواقع أصبحنا ندخن للسكرتير العام بقوة رهيبة، نكون في السيارة، أنا وريابينكو وأحد الحراس وكنا ندخن بالدور دون انقطاع، وقد حاول بريجنيف بنفسه أن يدخن ولكننا أثنيناه عن ذلك وقلنا له "أفضل أن ندخن نحن كلنا مرة واحدة " وكان يوافق. وعند الوصول وبمجرد فتح أبواب السيارة تتصاعد منها قباب الدخان كما لو كانت هناك حريقة في داخل السيارة (كان بريجنيف يجبر حراسه على التدخين ويستنشق الدخان سواء بالجلوس في مكان مغلق كالسيارة أو المنزل - المترجم)

في الشهر الأول كانت رأسي تؤلمني جداً، ذات مرة في البيت الريفي في غرفة الجلوس طلب مني التدخين، فأخذت سيجارة وكنت أنفخ الدخان باتجاهه، وكان ينظر إلي ويقول: أنت لا تدخن، أنت تتدلل. فأرد عليه: كيف لا أدخن؟ أوليس هناك دخان؟ فيرد: صح. حتى في اجتماعات المكتب السياسي كان يستدعيني ويقول: اجلس بجواري ودخن.

بالطبع هذا الأمر لم يكن يعجب كل أعضاء المكتب السياسي وكان معظمهم من كبار السن، وكان منهم من لا يدخن، لكن لا أحد منهم واتته الشجاعة ليعترض.

كل "الحراس الشخصيين" كانوا يفعلون هذا، أنا وسوباتشينكوف وفيدوتوف، حتى رئيس الحرس نفسه ريابينكو. فيما يتعلق بتسرب معلومات عن هذا الموضوع، نحن كنا مضمونين وأمناء أكثر من أي عضو مكتب سياسي.

هنا الجميع كان يعرف كل شيء، في اجتماع- سواء جيش أو حزبي- أو اقتصادي لإحدى الجمهوريات. الصورة كانت مدهشة لمن يشاهدها، القيادات الحزبية المحلية وكل المسئولين يجلسون بوجاهة، ونحن الحراسة وفي وجود السكرتير العام وخلف ظهره

مباشرة ندخن، الجميع كان يبدى اندهاشه من المشهد ولسان حالهم المفزوع يقول: ماذا يفعلون؟ هؤلاء مغامرون، لا شك إنهم سفلة.

لقد كانت هذه نقطة ضعفه الكبيرة، فقد كان يطلب هذا من أي عضو مكتب سياسي ويقول دخن يا كولا أو يا ميشا... أما نحن، فكان يطلب منا في كل مكان، حتى في حمام السباحة يعوم حتى الحافة ويقول: دخن. لقد أجلسنا عند حافة حمام السباحة شباب من الخارج، مدخنين حقيقيين، وبريجنيف لا يخرج من حمام السباحة وهو في الماء يستنشق الدخان ويكون راضياً ويقول للشباب: جدعان إنكم تدخنون جيداً. ويسبح مرة أخرى.

أحياناً كان يدخن بنفسه في هدوء، وكان يرجونا قائلاً: إياكم أن تبلغوا الطبيب.

ولكنه في كل الأحوال كان يخشى على صحته، أي أن التأثير عليه كان ممكناً، أنا أكتب عما كان يحدث في وقت ســابق، ستأتي أوقات يبدأ السكرتير العام في تناول كميات مهلكة من الأدوية، ولا يستطيع أحد أن يوقفه عن هذا، لا القيادة الطبية ولا الأطباء.

في منتصف الليل كنت أرتدي بدلة رياضية، وأدخل عنده على أطراف أصابعي، في إحدى اليدين سجائر وفي الأخرى قداحة، وكان يرقد على جانبه ووجهه ناحيتي، السيدة فيكتوريا كانت ترقد وظهرها إليه وتكون نائمة أو على الأرجح تتظاهر بالنوم، وأنا أجلس القرفصاء وأدخن وأنفخ الدخان في وجهه وكان يشعر باللذة. كنت أدخن له سجائر " مارلبورو" كانت تحترق بسرعة وكنت أعرف أنه لن يجبرني على تدخين سيجارة أخرى وكان يقول: لماذا تنتهي السجائر عندك بسرعة؟ فأرد: لا أعرف. فيقول: على أي حال شكراً، سأكمل نومي.

أخرج وأقوم بالمرور على نقاط الحراسة، أحياناً أقوم بهذا مع الكومندان، وأتحدث مع من يقومون بالخدمة حتى ولو بكلمتين، مع الشباب عن المزاج والحالة النفسية، عن وجوب اليقظة، ويكون حديثي مع الحراس الأقدم عن الأسرة وعن الحياة.

بعودتي في الثالثة بعد منتصف الليل، أحيانا أشرب شاي – فنحن لدينا السكر والبسكويت والحلوى متاح لكل الحراس الشخصيين– لكن في الغالب كنت أرقد، وأحاول أن أتكئ لبعض الوقت، أنام ولكنى أشعر بكل شيء وأسمع الخطوات على الإسفلت، أو صوت الخطى علــى الجليد – خروب، خروب– هذا يعنى تغيير الحراس في نقــاط الحراسة. أثناء الليل ممنوع أن يتسامر الحراس بلقاء بعضهم البعض والتزاور في نقاط الحراسة، كنت أقوم في منتصف الليل وأراقب كيف يلتقون فأقوم بالاتصال بنقطة حراسة الحارس الذي ترك مكانه فيعود جرياً إلى مكانه، فقد كنت أشاهد كل شيء من النافذة، كان الشخص الذي ترك مكانه يعود إلى كشك الحراسة فيكون جرس الاتصال قد انقطع، أكون أنا قد وضعت السماعة، يقف، كانوا شباب صغار السن ويصابون بالملل، ثم من جديد يحاول أن يلتقي زميله، وهنا أتصل بالآخر فيجري على نقطة حراسته. وهكذا ليظلوا في أماكن خدمتهم.

في الصباح أقول لهم: ها لقد قمتم بالعدو كثيراً ؟ فتكتسي وجوههم باللون الأحمر خجلاً. وفي الصباح تمارين رياضية، حلاقة ذقن، شاي، فالإحساس بالتعب والتوتر يتراكم خلال الليل.

في الساعة الثامنة والربع يأتي الشخص الذي سيتولى المهمة بدلاً عني ويطلع على دفتر الأحوال الليلي وأنا أحكي له كيف مر الليل في كومندانية البيت وعند الحراس. أعطي تقرير عن الحالة الصحية والمزاجية لبريجنيف، عن الاتصالات بموسكو ومن موسكو. ثم تأتي تكليفات ذات طابع شخصي، مثل يجب التحدث إلى الحلاق أو الذهاب لعمل بروفة لبدلة، تسلم نظارات طبية جديدة عند محل النظارات، استدعاء طبيب الأسنان، إرسال مغانم الصيد، أي شيء آخر مثل طرود شخصية لهذه الوزارة أو تلك، وإذا ما كان بريجنيف قد " اقتنص" سيجارة من أي شخص وأعجبته، ولكي لا أخذل البديل الذي سيقوم بالوردية أنبهه بأن يشترى من هذا النوع من السجائر منذ الصباح.

و يقوم بديلي بتقديم تقرير لي عن الطريق الذي جاء منه، وأحوال الاتصالات، وكيف كان عمل رجال التدخل السريع على الطريق.

الحديث هذا يستغرق نصف ساعة لا أكثر، لا يوجد توقيع أو محاضر تسليم وتسلم للنوبتجية، يوقع فقط مديري الحراسة في البيت الريفي.

تتصل بي السفرجية وتقول: "بريجنيف في غرفة الطعام" نستدعى السيارة للمدخل، أنا أدخل للمنزل يقوم بريجنيف بتنظيف أسنانه وأنا اتبعه آخذاً الأوراق والحقيبة، وننزل معاً في المصعد، وفي الأسفل أساعده على ارتداء المعطف وأرتدي معطفي على عجل وألحق به، أضع الأوراق على المقعد الخلفي للسيارة مع رئيس الحرس. وإلى الأمام نتجه إلى الكرملين.

نصل في حوالي التاسعة، التاسعة والنصف، الوردية انتهت وأنا مرهق ٢٤ ساعة دون نوم، لكن التوتر يصبح أقل، كل نقاط الحراسة على الطريق لديها أوامر: أية سيارات أخرى تستبعد أو تستوقف، الطريق يكون خاليا، ونحن نسير بسرعة ١٢٠ كم في الساعة، في شارع كوتوزوف نقلل السرعة إلى ١٠٠كم في الساعة.

السير في هذا الطريق كما في طريق زافيدوفو ممتع، كل شيء معروف، بأي منحنى ستمر وأي شجرة صنوبر سترى، كل شيء قريب منك.

مرة واحدة فقط جرت حادثة عندما توقف محرك السيارة، فاضطررنا لنقل بريجنيف بواسطة سيارة الحراسة المرافقة. وبصفة عامة عبر هذا الطريق المؤدى للضواحي لم تحدث على مدى عشرين عاماً سوى حادثة واحدة، وكانت بدون بريجنيف. في بداية النصف الثاني من السبعينيات، تم تغيير الحراسة الخاصة في زافيدوفو، وانطلقوا عائدين إلى موسكو، قابلتهم سيارة نقل أتت مسرعة من شارع جانبي، الجندي السائق لم ينظر ناحية اليسار، سائقنا تمكن من تفادى الصدام المباشر، لكن السيارة "الزيل" انقلبت وارتطمت...... كان في السيارة ستة أفراد من العاملين في الحراسة الخاصة، تم إخراجهم.وكانت إصاباتهم طفيفة، أحدهم كسر له ست ضلوع وآخر ضلعين، والآخرين كسور وكدمات وخدوش، وفولوديا يجوروف كان نائماً، تضررت رأسه. حدث هذا في الصباح حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، كانت الرؤية واضحة، كان فولوديا على مشارف الثلاثين من العمر.

من فوق ضريح لينين

عادة ما تشدد إجراءات الحراسة قبل ١ مايو (عيد العمال) و٧ نوفمبر (عيد الثورة) وتقوم وردية الحراسة التي أنهت نوبتجيتها، وتلك التي ستتسلم منها، بمرافقة السكرتير العام إلى الميدان الأحمر، فقبلها عادة ما يتصل رؤساء حراسة أعضاء المكتب السياسي ويسألون: ماذا سيرتدي بريجنيف؟ فقد كانوا يخافون أن يكونوا مميزين عنه، فأرد عليهم: من أين لي أن أعرف حالة الطقس غداً التي على أساسها سيرتدي بريجنيف ملابسه؟

٧ نوفمبر كثيراً ما يكون الطقس بارداً، وفي الفترة الأخيرة كنت أساعد بريجنيف في ارتداء ملابس ثقيلة تحت الجاكت، بلوفر وأحذية ثقيلة، وكنا ننطلق بالسيارات بحيث نكون في العاشرة إلا عشر دقائق على ناصية المبنى الحكومي الأول، بالقرب من برج السينات في الكرملين، الضريح قريب. هناك يكون أعضاء المكتب السياسي قد اصطفوا، الأحاديث في كل مرة هي نفسها لا تختلف. كيف الصحة؟ كيف حالك؟ أنت اليوم تبدو بحالة جيدة يا ليونيد أيليتش، وهو بدوره بكل سعادة يحكي لهم ماذا يأكل في الإفطار وفي العشاء لكي يحافظ على وزنه، لأن الأطباء ينصحونه بأن يقلل وزنه، وأن الوزن الزيادة هذا شيء سيئ. وينظر بريجنيف إلى الجميع ويقول: متعجباً: أوووه كلكم ترتدون البرنيطة وأنا أرتدي غطاء الرأس الشتوي! فيردون: صحيح صحيح يا ليونيد إليتش، على المنصة برد ورياح. فيرد: أنتم ترتدون قبعات، وأنا أرتدي غطاء الرأس الفرو الشتوي، فيقولون: ونحن يا ليونيد إليتش سنرتدي غطاء الرأس الشتوي. وأرى زملائنا من الحراس الذين يقومون بحراسة أعضاء المكتب السياسي يمسكون بغطاء الرأس الشتوي مخبأ خلف ظهورهم، وفي لحظة يكون الجميع مرتديا غطاء الرأس الشتوي، كما السحر في السينما.

وأحياناً كان يحدث العكس عندما يكون الطقس دافئا. بريجنيف يضع برنيطة على رأسه، حينها يخرج أعضاء المكتب السياسي إلى منصة الضريح مرتدين برانيط شكلها موحد.

يتمكن بريجنيف من الاستفسار عن بعض قضايا الدولة، فيسأل اندروبوف (رئيس الكي جي بي): كيف الحـــــال يا يورا (اسم أندروبوف الأول يورى، ومن الممكن مناداته يورا) فيرد عليه: لقد استوضحت الأمر يا ليونيد إليتش وكل شيء على ما يرام.

في العاشرة إلا دقيقتين نتحرك، في البداية نحن الحراسة في الأمام أثناء الصعود للضريح، ثم نسمح بمرور بريجنيف أمامنا إلى المنصة التي تعلو ضريح لينين حيث يقف إلى جواره أعضاء المكتب السياسي، يليهم المرشحون لعضوية المكتب السياسي، ثم يأتي بعدهم سكرتاريّ اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ومن بعدهم القادة العسكريون. ويتوقف الميدان عن الحركة، فقد بقيت ثواني قليلة لبدء العرض.

أحدهم لم يتمكن من الحديث إلى بريجنيف، فيسأله: كيف صحتك يا ليونيد إيليتش؟

وهنا يتظاهر بريجنيف بالشجاعة ويحاول أن يظهر نفسه في أحسن أحوالها، تنظر إليه ولا تعرفه، منذ ساعة مضت كان يتحرك بصعوبة في البيت الريفي، هنا هو منتعش، ويبدو أصغر من سنه، لقد كان يبدو أن لديه مخزون ضخم من القوة والطاقة، قدرته على التحول أثناء وجود الناس كانت تدهش حتى الأطباء.

الحراسة تتمركز إلى اليسار وإلى الخلف من بريجنيف، من الميدان لا يرانا أحد، توتر شديد، فعلى مدى عدة ساعات لا يغيب عن عيني الشخص الذي أحرسه، حتى لو كنت أنظر في جهات أخرى، لابد أن أراه، وإذا شغلني أحد عنه فإن بريجنيف لا يجب أن يغيب عن عين الحارس الثاني..

إذا تبين أن الطقس بارداً، في حوالي الساعة ١١ يحضر النادلون ترموس وأكواب بلاستيكية ناصعة البياض (إذا كان الطقس غير بارد يحضر النادلون في وقت متأخر) في الترموس نبيذ ساخن مع بعض الإضافات الأخرى اللذيذة، عرض الممر فوق الضريح حوالي متر ونصف ليس أقل من ذلك، ولهذا عندما يمر النادل أو الحراسة فإن أحداً من الميدان لا يراه، ومن سور الضريح يوجد بروزان يستخدمان كمنضدة. كراسي مثبتة مغطاة بالخشب ومغطاة بالقماش تستخدم كمقعد، خطوة واحدة للخلف بريجنيف يجلس إلى المنضدة، يشرب ويستريح ويعود إلى الصف من جديد في واجهة المنصة، نفس الشيء يفعله الآخرون من أجل بث الدفء في أجسامهم، اختفائهم لفترة قصيرة لا يلحظه الآلاف في الميدان ولا من يشاهدون التليفزيون.

يحدث أحيانا أن تقوم الحراسة بتذوق أول نبيذ، وأطلب من النادل أن يقدمه إلى "اللجنة الحزبية للمدينة" وعادة ما يكونوا أسفل قليلاً جهة اليسار، وفي العادة يهزون رؤوسهم لي شاكرين.

خلف الضريح وأمام برج السينات يوجد مبنى ملحق بسور الكرملين، مدخله لا يلاحظ بسهولة. يوجد به بوفيه في صالة بسفرة كبيرة تتسع لكل أعضاء المكتب السياسي والمرشحين للمكتب السياسي. من فوق المنصة يعطيني بريجنيف الإشارة لأرافقه لهذه الغرفة حيث يجلس يستريح لبعض الوقت ويشرب كأسا. كما يوجد بالقرب من منصة الزوار بوفيه خاص بالزوار.

في السابق كان الاحتفال يستمر حتى الساعة الثانية ظهراً، فوق المنصة برد ورياح، أربع ساعات عيني لا تبتعد عن بريجنيف، بمجرد أن يدير رأسه تجاهي أذهب إليه فيقول: فولوديا استدعي..... أو ادع......، وكان أحياناً يطلب ذلك من أندروبوف الذي يقف إلى جواره، أنا أستدعي أحد أعضاء مجلس الوزراء أو أحد من اللجنة الحزبية للمدينة أو أحد الأشخاص من منصة الزوار. الناس كثيرة، ملل، لكن المدعو بسرعة وسعادة وتحت أنظار المحيطين يعبر إلى المنصة الرئيسية. أما إذا أراد شخص ما بمبادرة شخصية وبدون دعوة الاقتراب، فإنني أعدل من وضعي بحيث أبقى قريباً.

الدعوات كانت تتم بعد انتهاء العرض العسكري مباشرة وقبل بدأ المسيرات، أما إذا كان الحديث عن دعوة زائر أجنبي، فقد كنا نستدعيه قبل العرض العسكري (في الأعياد سواء عيد الثورة ٧ نوفمبر أو عيد العمال ١ مايو، يقام احتفال كبير يبدأ بعرض عسكري وينتهي بمسيرات تشارك فيها كل فئات الشعب حاملين اللافتات المؤيدة للحزب الشيوعي، ومعددة إنجازاته– عادة ما تجرى هذه الاحتفالات في الميدان الأحمر، ويتابعها قادة الحزب والدولة من فوق منصة تعلو ضريح لينين حيث يصطف السكرتير العام للحزب الشيوعي وقياداته وزوار أجانب يدعون خصيصاً لحضور هذه المناسبات– المترجم).

عندما يقوم آخر صف من المسيرة بالتلويح بأياديه، يقوم بريجنيف بالتلويح مودعاً. ينزل الجميع من فوق المنصة، ويحدثهم قائلاً: " إلى اللقاء، نلقاكم في حفل الاستقبال " يتفرق القادة والرفاق إلى مكاتبهم، يغيرون ملابسهم ويتحررون من الملابس الثقيلة الدافئة.

حفل الاستقبال يجرى في صالة مخصصة لمثل تلك الاحتفالات في قصر الكرملين للمؤتمرات، قادة الحزب والحكومة يحضرون مع زوجاتهم، وكما هي العادة قبيل حفل الاستقبال يتصل بي رؤساء حراسة زملاء بريجنيف، وسؤال واحد يقلقهم: هل ستحضر السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف؟ وماذا سترتدي من ملابس؟

كان يتجمع حوالي ٢٥٠٠ شخص، موائد فخمة: كونياك ونبيذ من ماركات مختلفة، الفودكا، المزات. في البداية كان بريجنيف يلقى كلمة مقتضبة بمناسبة العيد تستمر لحوالي عشر – خمس عشرة دقيقة، تنتهي عادة بنخب " من أجل ثورة أكتوبر الاشتراكية العظمى " (أو لو كان الاحتفال بأول مايو يكون النخب عنوانه " من أجل اليوم العالمي لتضامن العمال")، كان بريجنيف يرفع كأسه وكل من هو بجواره يحاول أن يصطك كأسه بكأس بريجنيف.

تُزال الميكروفونات ويبدأ المرح، ونحن نبدأ في الاقتراب من بريجنيف، ويبدأ الجميع في الاصطفاف لمصافحة بريجنيف: ممثلي الكنيسة، القادة العسكريين، الكتّاب، رجال أعمال، فنانين، والدبلوماسيون الأجانب كانوا يقتربون وفي أيديهم الكؤوس ويقرعونها مع كأس بريجنيف، كانوا يتصرفون" براحتهم" فمنهم من استقبل بريجنيف في وقت ما أو في مناسبة ما ومنهم من شارك في توديعه بعد زيارة ما.

في آخر حفل الاستقبال وقبل تناول الحلوى، يقام حفل موسيقي لمدة أربعين دقيقة، لابد أن يشتمل على فقرة باليه، وفقرة غناء أوبرالي، ثم غناء استعراضي، وشعر. كان يغنى يوسف كوبزون، ومجومايف وروديتكو وسينيفسكايا وتولكونوفا، ولابد أن تغنى المطربة الشعبية زيكينا.

السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف لم تكن تحضر الحفلات كثيراً، وإذا حضرت تكون متواضعة، وكانت تتحدث عادة مع السيدة آنا زوجة تشيرنينكو (تولى منصب السكرتير العام للحزب بعد أندروبوف – المترجم) أو مع السيدة ليديا زوجة وزير الخارجية جروميكو، كما أنها احتفظت بعلاقات طيبة مع زوجة السيد تيخونوف (رئيس وزراء في

عهد بريجنيف- المترجم) السيدة فيكتوريا كانت امرأة بسيطة وشخصيتها رقيقة، وكانت تجتذب الناس بثقافتها فهي كانت تشبه في صفاتها السيدة نينا زوجة خروشوف.

حفل الاستقبال كان يستمر لمدة ساعتين، أصحاب الحفل يذهبون ويبقى الزوار الفنانين والكتاب والعسكريين. في بداية حكمه كان بريجنيف يتحمل البقاء لمدة ساعة ونصف لكن مع الوقت اقتصر بقائه في الحفل على نصف ساعة فقط، كما أصبح فيما بعد يقلل من زمن تظاهرة الميدان الأحمر، حيث اختصروا طوابير المسيرات، وكانوا يخرجون لحفل الاستقبال!

رسميا، تم اختصار وقت العرض والمسيرات لسبب بعينه. ذات مرة خرجنا من البيت الريفي في زاريتشي للاحتفال بعيد أول مايو. في السيارة كما هي العادة بريجنيف في الأمام وأنا وريابينكو في الخلف. فجأة أثناء الطريق هبطت أمطار ثلجية، وعند مرورنا بشارع كوتوزوف شاهد بريجنيف طوابير من البشر في الشارع وقد أصابها البلل والانكماش وهى تستعد لمسيرات الاحتفال بالعيد. فسألني أنا وريابينكو: لماذا يتعذب الناس هكذا، ها؟ الأطفال يرتعشون وهم مبتلون يحملون المظلات، سأتشاور مع الرفاق الآن ومن ممكن أن نلغى الاحتفال. وعند برج السينات بعد أن حيا الرفاق ونظر إلى السماء حيث الطقس السيئ سأل: ما هذا، هل لابد أن نحتفل اليوم؟ فأجابه الجميع: لا لا، ولو قال "أيها الرفاق بالرغم من الطقس السيئ سنحتفل " لقالوا في نفس واحد بالطبع بالطبع! بعد هذا تقرر اختصار زمن الاحتفال لينتهي في الثانية عشرة والنصف.

في زمن جورباتشوف تم اختصار العرض العسكري والمسيرات لتنتهي في الثانية عشرة تماماً. في مثل هذه الأيام من الأفضل أن تسلم الوردية عن أن تبدأ الوردية، حينها يكون عدد المساعدين أكثر ولا أكون بمفردي مسئولاً عن سلامة الزعيم وأتابع الأمور من الخارج. وما يبعث الدفء في نفسي أنى سأنهي عملي بعد أربع ساعات وأكون حراً.

الفصل السادس

الصــــــيد

في وعي الكثيرين كان الصيد رمزاً لسُكر وعربدة وعبث بريجنيف، وقد انعكس هذا في أساطير ونكت وخرافات أخرى عنه، وكانت تعكس القدرة الرهيبة وضعف السكرتير العام. فمثلاً كانوا يقولون أن الخنازير البرية كانوا يربطونها له في الشجر (ليطلق النار عليها وكأنه أصطادها – المترجم) وأن الطيور كانت تطلق في الهواء ليصطادها، وحتى صيد السمك كان الغواصين يعلقون له الأسماك في السنارة.

فيما يتعلق بصيد الأسماك، لم يكن بريجنيف عاشقاً له، نبدأ من هذا. أما فيما يتعلق بصيد الحيوانات البرية، فكان يجبِ معرفة شخصية بريجنيف، وعشقه للسرعة الشديدة، والسباحة لساعات طويلة في بحر عاتي الأمواج، وعشقه للمغامرات إلى حد المخاطرة، فهل كان سيستثني نفسه في هواياته المفضلة؟

يبدو لي أن اهتمام غير صحي كان يؤجج وسائل الإعلام المطبوعة على موضوع الصيد، أذكر في الأخبار الغير سياسية كانوا يتحدثون عن كيف قام خروشوف بالصيد مع تيتو، الذي كان يقوم بزيارة للاتحاد السوفييتي، وكانت تتحدث عن الحيوانات التي اصطادوها في الغابات.

لا أدري ما إذا كان بريجنيف قد مارس القنص في دنيبرودزيرجينسك أو دنيبروبتروفسك أم لا (مناطق عمل بها بريجنيف قبل أن ينتقل إلى موسكو– المترجم) يبدو لي أن حبه لصيد الحيوانات ربما يكون قد ورثه عن خروشوف، الذي كان يقوم بدعوة بريجنيف بصفة دائمة في العطلات لرحلات الصيد إلى زافيدوفو.

زافيدوفو منطقة غابات تابعة للإدارة الاقتصادية بوزارة الدفاع السوفيتية في فترة حكم خروشوف. المنشآت كانت صغيرة ومتواضعة: منزل صغير للقناصة، وعدة منازل صيفية سابقة التجهيز للحراسة، وكانت شديدة البرودة في الشتاء لدرجة أن المياه كانت تتجمد في الجرادل. للحق مساحة الغابات كانت حينها ضخمة، وكانت ممتدة وتشغل مساحات من منطقتي موسكو وكالينين، ولم يكن في هذه الغابات طرق إسفلتية أو مدقات، السير بالسيارات في الشتاء كان غير ممكن، كنا نستخدم الزلاجات التي تجرها الجياد للتنقل بها، وفي الصيف كنا نستخدم السيارات.

في فترة حكم بريجنيف قامت الدولة بتجهيز أماكن الصيد وأصبح بها مباني، وأصبحت الأكبر في البلاد من حيث المساحة ومن حيث التنظيم،وأصبحوا يرعون فيها جياد وأبقار ونعاج وبط وطيور، وكانت منتجاتها من لحوم الدواجن تباع للمواطنين، أنشأوا كذلك مزارع سمكية، ومزارع لتربية المنك أو النمس والاستفادة من فرائه بالبيع، بمعنى أنه وجد شكل من أشكال تغطية التكاليف، مجموعة العمل تم اختيارها من أشخاص محترمين، لا يقل عددهم عن خمسين هذا بخلاف الحراس.

للحق بريجنيف كان قناصاً ماهراً، كان محترف إطلاق رصاص، وبدون مبالغة كان ذو خبرة في أنواع كثيرة من الأسلحة، وكان الرفاق والزملاء سواء السوفييت أو الأجانب يعرفون مدى ضعفه أمام الأسلحة، لذلك كانوا يهدونه في أعياد ميلاده أو أية مناسبة أخرى أفخم أنواع الأسلحة. في البيت الريفي القريب من المنزل الذي يعيش فيه توجد غرفة مخصصة للأسلحة كان يحتفظ فيها بداخل ثلاث خزانات كبيرة حوالي تسعين قطعة سلاح ناري! والسلاح الجيد في ذلك الوقت كان غالي الثمن، وحينها عندما كان للنقود ثمن كان يساوي ليس أقل من ٥٠ ألف روبل. السلاح المحبب من هذه المجموعة كان ثلاثة أو أربع قطع سلاح ناعمة الماسورة (غير مششخن – المترجم) وكانت صناعة أجنبية، لقنص البط والإوز وكائنات أخرى من ذوات الريش، أو الحيوانات الصغيرة مثل الأرانب البرية والثعالب وما شابه ذلك. وثلاث أو أربع قطع سلاح مششخنة منها ما هو صناعة أجنبية ومنها ما هو إنتاج مدينة تولا الروسية، وهذه لصيد الحيوانات الأكبر مثل الخنازير البرية والغزلان والأيائل.

كان دورنا نحن الحراسة هو الحفاظ دائما على كل هذه الأسلحة على أهبة الاستعداد للعمل خوفاً من يختار أي منها ليستخدمه، فقد كنا ننظفها عدة مرات في السنة، ونقوم بمسحها على الناشف وبالزيوت المخصصة، كثير من العمل لأربع حراس، فقد كان العمل المرتبط بالسلاح وحده في كل مرة يستمر لنصف أسبوع.

كان بريجنيف قد منحني قطعة سلاح تحمل خزنته ثماني طلقات بماسورة بدون ششخانات من إنتاج شركة " كوسمي"، وذخيرته تشبه طلقات البندقية الآلية! شيء جميل لكنها متقلبة، مجرد أن يلحق طلقاتها بلل: انتهى، لا تعمل، بالإضافة إلى أن الطلقات ثقيلة من حيث الوزن وكبيرة الحجم.

بريجنيف كان يقوم بقنص الأيائل والغزلان، في أماكن الصيد كانوا يرعون غزلان من تلك المبرقشة، لدرجة أن اليد تعجز عن أن ترفع لإطلاق الرصاص عليها من فرط جمالها ورشاقة حركتها، كثيراً ما كنا في أحراش الغابة حيث كان هذا النوع من الغزلان يسمحون لنا بالاقتراب منهم، وبأناقة كانوا يتنزهون أمامنا في خيلاء، ذات مرة سأل بريجنيف الدليل عما إذا من الممكن أن نطلق عليها الرصاص للصيد، فقال له الدليل ممكن فلدينا الكثير منها لقد تكاثرت، لكن بريجنيف قال له: لا فمثل هذا الجمال لا يجب أن يقتل.

أكثر ما كان يحب بريجنيف صيده هو الخنزير البرى، هذا الحيوان كان عدده كبيراً جداً، وصيده كان بمثابة عيد، الجميع كانوا يلتفون حوله، فهو مغامرة رياضية ومخاطرة واستمتاع وحظ وتوفيق.

في الشتاء يخرج الخنزير البري إلى المعلف للطعام بعد الرابعة مساءً، وفي الخريف في الساعة الثامنة – التاسعة مساءً. نحضر بالسيارات إلى المنطقة التي توجد بها الخنازير البرية في وقت مبكر، وفي كل مرة يحذرنا الدليل من أنه يجب علينا الخروج من السيارات بانتظام، وبدون ضوضاء، وعدم غلق أبواب السيارات بعنف، ويجب أن نتحرك

بحذر لكي لا تعلق أرجلنا بجذور النباتات، ولكي لا يحدث الاحتكاك بفروع الأشجار جلبة وضوضاء، بهذه الطريقة نسير كيلومتر- كيلومتر ونصف، حيث المعلف الخاص بالخنزير البري، في نفس المكان تتنزه الغزلان المبرقشة بالبقع الداكنة، قائد القطيع يشعر بوجودنا فيصدر صفيرا قوياً حاداً، فنتوقف بشكل خارج عن إرادتنا، وتسمع أصوات هروب الخنازير البرية، يشهق الجميع كتعبير عن خيبة الأمل، وأحيانا يكون الضحك هو المعبر، وأحيانا تخرج من فم البعض كلمة بذيئة كنوع من التعبير عن خيبة الأمل، نستدعى السيارة عن طريق جهاز اللاسلكي، نجلس ونذهب لمكان آخر، وكل شيء يبدأ من جديد ومرة أخرى يحدونا الأمل.

عندما يحالفنا الحظ ونوفق ونتمكن من الاقتراب دون أن تلحظنا الخنازير البرية، فإن طرقنا بعد ذلك تتفرق، بريجنيف يصعد مع الدليل إلى أعلى برج، بدون حراسة، كنا نتوتر فهذه مخالفة فجة من جانبنا كحراس، لكننا كنا ملتزمين بفحص البرج في وقت سابق كما كنا نرافق بريجنيف إليه، لكن المشكلة في أننا رغم كل حرصنا فإننا أثناء عملية فحص البرج ورغم الحرص الشديد فإننا أحياناً كنا نفزع الخنازير البرية، نحن لسنا قناصين محترفين، بريجنيف والدليل كانوا يجلسون ينتظرون في البرج ساعة، اثنين، ثلاثة.... ثم يسأل بريجنيف الدليل: لماذا لا توجد خنازير؟ فيرد الدليل: من أين نحضرهم إذا كان حراسكم جاءوا إلى هنا؟ وهذا يثير حنق بريجنيف ويصب جام غضبه علينا بالتوبيخ والتعنيف ويمنع أي فحص للبرج بعد ذلك. استمر هذا الأمر لفترة طويلة بما فيه الكفاية، وكما كان يحدث كثيراً حدث موقف ساعدنا على تغيير هذا الوضع. بينما كان سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بوريس بونوماريوف ومعه الدليل يقتربان من البرج أطلق مجهولون عليهما الرصاص من تحت البرج، رقدا على الأرض.... اتضح فيما بعد أن بعض القناصة المتسللين هم من أطلق الرصاص، لم يتم العثور عليهم فيما بعد، بحثوا عنهم في كل مكان ولم يعثروا لهم على أثر، فالأشجار في المكان كثيفة، والمساحة ضخمة وليست محاطة بسور، كما أن الحراسة كتيبة جند خاصة حوالي ٢٠٠ – ٣٠٠ جندي، هؤلاء القناصة تسللوا من بينهم كما لو كانوا قد تسللوا من بين فتحات شبكة. تسللوا وخرجوا، وعلى الأرجح هم من سكان المنطقة ويعرفون طرقها ومسالكها.

ذات مرة شاهد مدير منطقة القنص أحد هؤلاء القناصة المتسللين فوق البرج وأخذ منه السلاح بصعوبة، على العموم أبلغنا بريجنيف بأنه لو كانت عملية فحص البرج قبل ذهابه إليه ستكون ممنوعة فإنه لابد أن يرافقكم أحد الحراس،بعد ذلك كنا نجلس في البرج ثلاثتنا أنا وبريجنيف والدليل في حالة ترقب، المكان ضيق، ويبدأ الانتظار ساعة، اثنين، ثلاثة، في مكان ما نسمع خرخشة أغصان شجر، بصمت نشير إلى اتجاه الصوت، التوتر يتصاعد، أحيانا تريد أن تسعل، حتى اللعاب ممنوع أن تبتلعه للحفاظ على السكون، ولو لم تستطع السيطرة على نفسك تأخذ غطاء الرأس وتتنفس فيه. أخيراً يظهر بحذر قطيع من الخنازير البرية، في الأمام الصغار- عدد صغير- ثم الإناث، وبعدهم فقط تأتي الأمهات، أصحاب القطيع، الأمهات لا يتعجلون ويتركون الصغار يقتربون من المعلف وعندما

يبدأون في الأكل يحدثون ضوضاء ويهربون خوفاً من الضوضاء التي أحدثوها، ثم يعودون إلى المعلف من جديد، ويبدأون في التهام الحبوب، تخرج الإناث بهدوء إلى الساحة، تتلصص في البداية ثم تهدأن وتبدأن في الأكل أيضاً، بعد ذلك يخرج ذكر ضخم، بحرص شديد وبرأس مرفوعة يشم ويلتقط الحبوب بحذر من الحافة إلى الوسط دون تعجل، وهو عادة ما يتحرك دائما بخيلاء في اتجاه الصياد أو القناص.

لو أفزعته بشهيق غير مقصود أو بحركة خفيفة انتهى الأمر، اجلس وانتظر ساعتين أخريين.

مدهش بالفعل إحساس هذا الحيوان (الخنزير البري – المترجم) للحفاظ على نفسه، فتراه يمشي ورأسه إلى الأمام ولا يعرض صدغه للرصاص أبدا بالرغم من أنه لا يرى القناصة ولا حتى يشك في وجود الخطر. ولو جرح الخنزير البري فهو يجري في الغابة، ولابد أن يدير رأسه في اتجاه من يطاردونه حتى وهو يحتضر.

الخنزير البري الجريح خطير جداً، فقد كانت هناك حوادث كثيرة عندما استدار الخنزير البري وانقض على من يلاحقه وهو جريح، يقال عنه أنه ضعيف النظر، ولكن عندما ينقض عليك وجهاً لوجه فإنه مثل الطوربيد، يجب أن تتفاداه بالابتعاد إلى أحد الأجناب بسرعة، حينها فقط سيخطئك الحيوان، ولفعل هذا يجب أن تكون متماسك وعندك سرعة رد فعل.

بريجنيف كان يحب أن ينزل من البرج ويقترب من الخنزير البري الذي قنصه أو أصابه، ويبحث بنفسه عن مكان الإصابة وكان يستمتع بالنتيجة. ذات مرة قنص بريجنيف خنزيرا بريا وكما هي عادته هبط من البرج واتجه نحوه، وعندما وصل إلى مسافة حوالي ٢٠ متر من الحيوان، نهض هذا الأخير وهم بالانقضاض على بريجنيف، فقد تبين أنه جريح وكان يرقد في حالة صدمة، كان مع الدليل بندقية قصيرة فأطلق عليه النار مرتين، فلم يصبه، وانتقض الخنزير وغير اتجاهه ولف لفة كاملة. كان المرافق هو الحارس جينادى فيدوتوف يقف إلى جوار بريجنيف وفي يده اليمنى سكين طويل وفي اليد اليسرى بندقية قصيرة، فرمى السكين وغرسه في الأرض وأخذ البندقية في يده اليمنى، لكنه لم يتمكن من إطلاق الرصاص حيث انقض عليه الخنزير، ضارباً السكين بقدمه فانحنى، بينما ارتبك نائب رئيس الحراس حينها بوريس دافيدوف، ورجله تشابكت وتعقدت مع الحشائش ووقع في الوحل، الخنزير قفز من فوقه وتخطاه، وخرج إلى الغابة، بريجنيف وقف بالقرب من الأحداث وشاهد كل ما حدث، ولكن للحق لم يتغير وجهه ولم تظهر عليه علامات الهلع وظل متماسكا.

بوريس فيدوتوف نهض من البركة التي وقع فيها وفي يده مسدس، المياه القذرة تتساقط منه والطحالب عالقة به، بريجنيف اقترب منه وبفكاهة سأله: ماذا كنت تفعل هناك يا بوريس؟ فرد قائلاً: كنت أدافع عنكم يا ليونيد إليتش. وتبادلا الابتسام بشكل تلقائي، أما الخنزير البري الجريح فلم يجده أحد رغم البحث المضني عنه في كل الدائرة المحيطة.

شيء مشابه لهذا حدث مع وزير الدفاع السوفييتي المارشال جريتشكو، حيث انقض خنزير برى جريح عليه، فهرع هو والحارس يعدوان في اتجاه البرج. الصورة كانت رائعة: المارشال مازال يجرى، بينما سبقه الحارس المرافق وصعد إلى البرج، فسأله وزير الدفاع: كيف كما هو واضح وصلت للبرج قبل وصولي؟! فقال له الحارس: لقد أسرعت قبلكم لكي أرشدكم للطريق إلى البرج أيها الرفيق مارشال، فابتسم المارشال ولم يطرد الحارس من الخدمة ولا حتى عاقبه.

حدث معي حادث أسوأ، حيث كان علي القضاء على خنزير بري بيدي عاريتين، فكما هي العادة بريجنيف أطلق النار، ومن البرج لم يكن الأمر واضحاً هل قتل الخنزير أم لم يقتل خاصة وأن الطقس حينها كان ضبابياً، فالخنزير سقط وانتهى الأمر أو هكذا بدا، بريجنيف طلب منى أن أنزل، وأذبح الخنزير، أو كما يقال "أصفي دمه" أخذت البندقية والسكين وتوجهت إلى الخنزير، وضعت البندقية على الأرض وغرست السكين في رقبته، فجأة وبصورة حادة وغير متوقعة نهض الخنزير مرتكزاً على قدميه الخلفيتين، السكين كانت طويلة، وفي نفس اللحظة زرّعت رأسه في الأرض، وكان ذكرا ضخما يزن أكثر من مائة كيلوجرام، ولكي يتخلص مني أصبح يلتف حول محور السكين، ووقف مرة أخرى على قدميه الخلفيتين واستدار بشكل حلزوني، لا أدرى كم من الوقت استمرت هذه الأرجوحة الدوارة، تبللت بالعرق، وعندما شعرت بأن الخنزير البرى بدأ يضعف، تركت السكين وأخذت البندقية، وبطلقة في رأسه أنهيت حياته. بريجنيف استقبلني غاضباً وسألني: على ماذا أطلقت النار هناك! لقد أزعجت الخنازير الذين كانوا قريبين. ولم يدرك أنني تعرضت للموت بسببه، أنا أيضاً بغضب وبنفس اللهجة أجبته: يجب أن تتعلم إطلاق النار، حينها ما احتجت أنا لإطلاق النار.

شعر بريجنيف بالإهانة وسألني: أنا لا أجيد إطلاق النار؟! فهو بالطبع لم ير صراعي مع الخنزير بسبب الطقس الضبابي، فحكيت له، فابتسم وقال: ماشي، اهدأ ولا تقلق. أنا لم أتوقف عن الدهشة من نشاطه وطاقته وقوته الجسمانية، فهو كثيراً ما كان يتعقب خنزيرا جريحا لعدة كيلومترات دون قفازات في الوقت الذي تغطى فيه الثلوج المكان، وفي أوقات أخرى وسط الأحراش الموجودة في الغابة.

كانت تعتبر بادرة على حسن علاقة السكرتير العام بشخص ما، هي دعوته لرحلة صيد، وكان يحظى بهذا الأشخاص المقربون أو الزوار المهمون. من السياسيين الأجانب حضر إلى زافيدوفو كيسنجر، كيكونين، تيتو، راؤول كاسترو ومعه زوجته. وقد صعدت إلى البرج مع الآخرين وكانت تنتظر الخنازير، ويجب القول أنها قناصة ماهرة تتفوق على رجال كثيرين. من السياسيين المحليين بالإضافة لجريتشكو كان يحضر إلى زافيدوفو: بودجورني، بوليانسكى، تيخونوف، كوسيجين قبل أن تتدهور صحته. آخر شخصين من الممكن أن يهتما برحلات الصيد من المحيطين ببريجنيف في الغالب هما تشيرنينكو وجروميكو.

بالنسبة لبعض الأشخاص المقربين من السكرتير العام تطورت الأحداث بشكل حزين، بل يمكن القول بشكل تراجيدي. كل واحد منهم كان يفهم من الدعوة للصيد بأنها

علامة تقارب، أو ثقة خاصة، كان الكثير من الأشخاص مرضى ومتدهورين صحياً، لكنهم لا يستطيعون رفض التقرب إلى السكرتير العام من خلال رحلات الصيد، وكانوا يخفون عدم قدرتهم، أو رفض الدعوة للظروف الصحية.

كان بريجنيف يقول لي: هاتف كوستا (يقصد كونستنتين تشيرنينكو، جاء سكرتيراً عاماً للحزب بعد أندروبوف وقبل جورباتشوف ــ المترجم) وأبلغه بأننا غداً ذاهبون (يقصد للصيد) ويحدد الساعة. فأقوم بالاتصال بتشيرنينكو، ترفع سماعة التليفون زوجته وترد: فلاديمير تيموفيفيتش، تشيرنينكو مريض جداً، حاول إبلاغ بريجنيف بطريقة ما.....، بعدها يأخذ السماعة تشيرنينكو نفسه ويقول: أيوه يا فولوديا أشعر بأني متوعك، فأقول له أنا سأبلغ بريجنيف بأن الطبيب يجب أن يحضر إليكم وأنكم لا تستطيعون..... فأبلغ بريجنيف بأن تشيرنينكو كان يعمل طوال الليل وهو متعب ولا يستطيع، حينها يهاتفه بريجنيف من السيارة في الطريق ويقول له: كوستا اترك العمل، أنت يجب أن ترتاح، هيا اركب وتعالى أنا منتظرك.

تشيرنينكو الذي كان يعاني من الربو المزمن كان يترك فراشه ويستقل السيارة ويحضر. فوق البرج، الجلوس صعب: برد ورطوبة. كل مرة كان تشيرنينكو يصاب بالبرد وكان يعود إلى بيته مريض ودرجة حرارته مرتفعة ويرقد في الفراش، أما بريجنيف فكان يعود بعد رحلة الصيد نشيط وفي حالة مزاجية عالية. بقدر ما أضافت رحلات الصيد لبريجنيف القوة وأمدت في حياته، وبقدر ما أخذت من أعمار زملاء بريجنيف المرضى وكبار السن.

ذات مرة ذهب إلى زافيدوفو: سوسلوف. الأيديولوجي الرئيسي للبلاد (فيلسوف الحزب- المترجم) بمجرد خروجه من السيارة، شم الهواء وقال: رطـ ــ وبـــة، ودخـل السيارة مرة أخرى عائداً، لم يدخل حتى البيت المخصص لمن يأتي للصيد حيث كان بريجنيف بداخله.

بعد عملية قنص ناجحة وعندما يكون الخنزير البري ميتا تحت أرجلنا، كان بريجنيف يسمح لنا أن نتناول كأس من الفودكا، وهذا أصبح فيما بعد من الطقوس، ونهنئ بعضنا البعض "بالرصاصة" التي قتلت الخنزير.

مع انتهاء رحلة الصيد هناك طقس آخر، يطيل من عمر الشعور بالسعادة الناتجة عن القنص، كان بريجنيف يكلف رئيس الحرس بأن يقطع لكل واحد قطعة اللحم التي يريدها كهدية، كما كان يرسل لبعض أعضاء المكتب السياسي والوزراء كمية من اللحوم، كان في السابق يرسل لهم اللحوم عبر حراسهم لكن فيما بعد أصبح يرسلها من خلال السعاة، ثم يتابع طرود اللحم بأن يهاتفهم ليحكي لهم بفخر عن تفاصيل عملية الصيد، ويقدم لهم نصائح عن كيفية إعداد قطع اللحم، الأضلاع... وهكذا.

كان بريجنيف يحب صيد البط مع حلول المساء أو في الصباح الباكر. كنا نشحن له الطلقات والسلاح والطعام والماء في قارب، ثم يقوم ومعه الدليل بالتوجه إلى أغوار بحر موسكو، حيث تعبر هذه الأماكن العجيبة عشرات الآلاف من الطيور، خاصة في الخريف

حيث تنمو أشجار الصفصاف والحور الرومي بطول نهر موش. إنها متعة فقط تتخلص خلالها من التوتر بعد العمل، البط كان كثيراً فقد كانت مؤسسة الصيد هي التي تربيه، الطيور تتجمع في أسراب، في الخريف تطير إلى المناطق الدافئة، وفي الربيع يعود الكثير منها مرة أخرى.

كل عام كان سكرتير اللجنة الحزبية في منطقة استراخان بورودين، يدعو بريجنيف لصيد الإوز. كنا نذهب بالطائرة إلى هناك لمدة يومين أو ثلاثة، من موسكو أو من القرم بعد الاستجمام الصيفي. نطير إلى استراخان ونحن في طريق عودتنا إلى موسكو، ومن استراخان بمروحية إلى مكان الصيد، عادة ما كان يحدث هذا في نهاية أغسطس، عندما كان تبدأ عودة الإوز.

لابد أن تحب الصيد جداً لكي تستيقظ مبكرا في الثالثة بعد منتصف الليل، في طقس دافئ، وترتدي ملابس ثقيلة حارة، لكي لا تتعرض للدغات البعوض، الذي كان يطير في مجموعات بكميات تشبه الغيوم، كبيرة وشرسة ، كما كنا نقول كنوع من المبالغة المضحكة إنه بعوض قادر على اختراق جلد الحذاء السميك، لكي تجلس في هذه الأماكن التي تملأها أحراش البامبو الكثيفة والتي يستغرق المرور عبرها لساعات، ثم التربص بالطيور القادمة .

عندما كان بريجنيف يستجم، كنا كما لو كان ليس هناك ما نقوم به، ملل. في الصيف في القرم تنظر أحياناً إلى البحر، وتفكر، آه لو يتجمد. في أستراخان يضاف إليك شعور بعدم القوة والقلق، لم تشعرنا ممرات الخنازير البرية بهذا القدر من الشعور بالخطر مثل الصيد في أستراخان، عند اللنش كنا نضطر إلى أن نترك بريجنيف، لكي ينطلق هو والدليل، ثم ينتقل إلى قارب يدفعه ست أشخاص، ظلام، نهر، أحراش..... لا توجد حراسة ولا طبيب، في زافيدوفو كنا نعرف المكان ونعرف الدليل، وجنودنا من الكتيبة الخاصة من حولنا.

بحار القارب والدليل يقتربون بهدوء من الجسر حيث تحط أو تتوقف الطيور للراحة، كل إوزة كان يصوب إليها السكرتير العالم سلاحه كان الدليل ذي الخبرة يعتبرها هدفاً له أيضاً فإذا جرحت فقط ، قضى هو عليها بدون أن يخطئ ولهذا كمية الصيد كانت مهولة، ولذلك وخلال فترة الصباح الباكر يبلغ عدد الإوز أو البط الذي اصطاده حوالي عشرين، يعود بريجنيف سعيداً بما اصطاده ونحن بالتالي نستطيع التقاط أنفاسنا بهدوء.

كان بريجنيف يعود في حوالي الساعة الحادية عشرة، أي حوالي ثماني ساعات كاملة، الرجل الذي نرافقه كان خارج متناول أيدينا.

عن عشق بريجنيف للصيد والقنص كان العالم كله يعرف، ولذلك كان قادة الأحزاب الشيوعية في دول المعسكر الاشتراكي ينظمون رحلات الصيد الفخمة للسكرتير العام (بريجنيف) لكي يقيموا علاقات قوية معه أو لتوثيق عرى الصداقة والثقة. حدث هذا في بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وألمانيا الديموقراطية، كان الصيد يتحول إلى طقوس

احتفالية، فعلى سبيل المثال في ألمانيا الديموقراطية بداية رحلة الصيد كانت تبدأ بالإعلان عنها بواسطة الأبواق، وكان الموسيقيون يعزفون مارش موسيقى إيذاناً بالافتتاح.

وعندما كان يقوم بريجنيف بإطلاق رصاصة تصيب الهدف يقوم هونيكر (حاكم ألمانيا الديموقراطية آنذاك) بالتصفيق أكثر من أي شخص من الموجودين.

بعد انتهاء رحلة الصيد يعلن النفير عن توقف عمليات الصيد، ثم يقومون بإشعال النار، حيث يقف حولها الصيادون كل إلى جوار ما غنمه من صيد، كل يعرض ما اصطاده، بعد ذلك يتم الإعلان عن لقب ملك الصيد في ذلك اليوم، بدون أن أقول طبعاً، دائماً ما يكون بريجنيف، وتحول الصيد من مجرد وسيلة للحصول على اللحوم إلى منافسة رياضية مثيرة.

بالطبع كانت هناك خدمة تقدم لبريجنيف لتسهيل عمليات الصيد، فقد اختاروا طريق مضمون للخنازير البرية لابد وأن تمر منه، لو صعد للبرجِ فقريب منه معلف الخنازير، بما يعنى أن الخنزير سيخرج بلا شك، فيما عدا ذلك لم تكن هناك تجهيزات خاصة، أو خداع، وأكرر: بريجنيف كان قناصاً لا يعيبه شيئاً.

في الغرب، كانت الحراسة أهدأ حيث مساحات مناطق الصيد هناك صغيرة مقارنة بما لدينا، ولم يحدث أن قمنا بعمليات صيد في دول رأسمالية ولا مرة.

انتصارات القادة في الأشياء الصغيرة مثل الصيد دائماً ما كانت تؤثر على الحالة المزاجية لهم على الرغم من أنهم يدركون أن الظروف الخاصة ساعدتهم على التميز أثناء عملية الصيد، حب الذات والتكبر والغرور هذا الأمر لم يكن مقصوراً على بريجنيف فقط الذي كان يحقق ذاته أثناء عملية الصيد. لكن نرى شخص مثل اليكسي كوسيجين (رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي ـــ المترجم) شخص يتمتع بأخلاق عالية، ولا يحتمل البهرجة بالقرب منه، انصاع أيضاً لمثل هذه الهدايا. فقد حُكي لي أنه كان يعالج في مصحة في مدينة جيليزنوفودسك، وكانت رياضة البلياردو تمارس بحماس كبير في هذه المصحة للترويح عن المقيمين، وقد كان معروفاً أن أحسن لاعب بلياردو سيدة تعمل مديرة مكتبة بالمصحة، وكانت قد فازت على جميع الرجال المحليين والوافدين تقريباً بصورة أدهشت كوسيجين والمحيطين به باحترافيتها، وعندما لعبت مع كوسيجين فازت عليه بسهولة ٧ / صفر، ثم سمحت له بالتعادل ٧/٧، ثم خسرت في الدور الفاصل، وكانت إذا سمحت لنفسها بالفوز في دور واحد، فقد كانت تخسر له في الدورين التاليين، كوسيجين كان يخرج من المباراة سعيداً، وعندما غادر المصحة أهدى ساعات تذكارية لمدير المصحة وكبير الأطباء ومديرة مكتبة المصحة التي كانت تتعمد بالتأكيد أن تسمح له بالفوز عليها في البلياردو.

من ناحية هذا يبدو شيئاً مضحكاً،فاللعب كان فيه تنازل وانصياع، ثم شكر حكومي على هذا، ومن ناحية أخرى هذه السيدة مديرة مكتبة المصحة رفعت من حالة كوسيجين المزاجية والمعنوية والتي أثرت بلا شك على حالته الصحية بصفة عامة وعجلت بشفائه. أليس هذا في صالح البلاد؟

في نهاية السبعينيات ساءت صحة السكرتير العام، لدرجة أنه أثناء التهاني لم تلامس شفتيه كأس الخمر، وفي وقت إطلاق النار في رحلات الصيد لم تعد يداه الضعيفتين قادرة على أن تضغط بإحكام على البندقية المعروفة بالتليسكوب إلى الكتف، مما أدى إلى أنه بعد إطلاق النار ونتيجة رد فعل البندقية أصيب في وجهه، وعاد إلى موسكو مضرجاً بالدماء التي سالت من أنفه وحاجبه وجبهته، مما تسبب في مشكلة للأطباء وللممرضات ولنا فيما بعد، ويجب علاجها دون إبطاء. حاول الأطباء معالجة الجروح بالدهان وإخفاء الجروح، ولكن بريجنيف كان يقف أمام المرآة ، ويتفحص نفسه، ويشكو كما الأطفال، غير معروف لمن، ويقول: هاهي مرة أخرى، الآن كيف سأذهب للعمل بعيني المصابة ؟.

حاول الأطباء منعه من الصيد، ونحن حاولنا أن نثنيه عن ذلك، ولكنه كان عنيداً ولم تكن لديه رغبة في أن يحرم نفسه من ما يمكن أن يكون آخر شيء يسعده في الحياة. ذات مرة وفي أول اليوم لرحلة الصيد كان يطلق النار من السيارة وجرح حاجبه نتيجة لذلك، وفي اليوم التالي أطلق النار من البرج فكسر قصبة الأنف، الجرحان كانا خطيرين وداميين، أسوأ ما في الموضوع أنه خلال يومين كان من المفترض أن يقوم بزيارة لبراغ وبراتسلافا (تشيكوسلوفاكيا السابقة – المترجم) عمل الأطباء لفترة طويلة على معالجة وجهه، واستمروا في علاجه حتى أثناء الزيارة، لعدة مرات في اليوم كانوا يدهنون الوجه بالكريمات لإخفاء الجروح.

بعد هذه الحادثة استوعب بريجنيف نفسه، وفهم بحزن: أنه ليس قناصاً. لكنه لم يرفض الصيد بصفة عامة، فقد كان يجلس في البرج أو في السيارة انتظارا للخنازير البرية ولكنه لم يكن يطلق النار، حيث كان يعطي السلاح للحراسة، نحن نطلق النار وهو يجلس إلى جوارنا في حالة ترقب وقلق.

آخر يوم ذهب فيه لرحلة صيد قبل يوم من وفاته، وكما هو معروف بعد موت أي زعيم اي شيء يذكّر به يحاولون التخلص منه، كما يلقى بمن كانوا محيطين به إلى الظل، لكي لا يذّكروهم بالزعيم " السابق"، هذه كانت إحدى وسائل الاسترضاء للقيادة الجديدة من الرعية الجديدة.

من الذي أزعجه شيرباكوف؟! دليل غابات كبير السن ولديه خبرة، كان مخلصاً في عمله بصدق وبأمانة على مدى عشرات السنين، كان يعرف مناطق الصيد كما يعرف أصابعه الخمسة، وكان يعمل ويعيش بعيداً عن كل الأحداث؟ وكان يهاتفني أحياناً.

ذات مرة قال لي: أعتقد أنهم يعدون الأوراق لإحالتي للمعاش، وكان قد أكمل عامه الستين منذ فترة قصيرة فقلت له: انتظر سأستوضح الأمر. حافظت وزارة الدفاع على الاتصال بي، وبالصدفة في هذا الوقت اتصل بي مساعد وزير الدفاع فقلت له: ماذا سيحدث مع منشآت الصيد وهل ستتبعكم أم سيأخذونها؟ وتوجهت بدوري لجورباتشوف بهذا السؤال فقال: دعوها تبقى كمقر ريفي خارج المدينة. اتصلت بمساعد وزير الدفاع

على أثر ذلك، وذكرته بشيرباكوف مرشد الغابات وقلت له: هل من الممكن الإبقاء عليه كمستشار؟ فهو يعرف كل شيء. فقال لي: ممنوع لأن زملائه العاملين لا يرغبون في استمراره، واعتذر مساعد وزير الدفاع وأنا بدوري اعتذرت للدليل، فقد كنت أعرف أن الزملاء ليسوا ضده، ولكنه المدير الجديد " مكنسة جديدة " يكنس من كان يعمل مع القيادة السابقة، واتصلت بالدليل وقلت له أنا آسف لم أستطع عمل شيء لك.

الفصل السابع

الاستجمام... مغارات الجبل

لا أدرى لماذا كان بريجنيف يحب أن أصحبه في رحلات الصيد، عند عودتنا من الغابة إلى مكان المعيشة كان يقول لي: هل تستطيع أن تأتى معي للصيد غداً؟ فأقول له: الموقف محرج بالنسبة لي غداً نوبتجية فولوديا سوباتشينكوف. فيقول: لا تقلق أنا سأطلب منه. ما المشكلة؟ السكرتير العام يصدر قرار، ويتصلون بسوباتشينكوف " لا تحضر غداً " وهذا كل ما في الأمر، لكن بريجنيف يشعر بالحيرة وأنه وربما سيكون غليظاً وقاسياً إذا قال له ذلك، وفي صباح اليوم التالي يحلق ذقنه وأنا أقف إلى جواره، يحضر فولوديا سوباتشنيكوف، فيقول له بريجنيف: فولوديا، لن يكون لديك اعتراض على أن يصحبني فولوديا إلى رحلة صيد؟ فيرد سوَباتشنيكوف: ماذا تقولون يا ليونيد اليتش، بالطبع لا. ويستمر بريجنيف في الشعور بالحرج فيقول لسوباتشنيكوف: تعرف، أنا سأتركك بمفردك لتصيد بنفسك وهذا بالنسبة لك سيكون أكثر متعة، وخذ الدليل معك. هذا المشهد يجسد بدقة علاقة السكرتير العام بريجنيف بالمحيطين به ممن هم أقل في الدرجة، كان يتعود على الناس ويرتبط بهم، وكان يسمح لهم بالاقتراب ولم يكن يسمح لا بالغطرسة ولا التعجرف، وبساطته في التعامل كانت أكثر من طبيعية، هذا الاقتراب والارتباط بالناس العاديين كان له إيجابياته، وللغرابة: سلبياته أيضاً.

كان لدى بريجنيف ثلاث ورديات من السائقين، اثنان منهم كبار السن والثالث شاب، هذا الأخير ذات مرة أسرف في شرب الخمر وفقد الإدراك وتخيل أنه قبض على جاسوس في الشارع، فألقت الشرطة القبض عليه وتم حبسه. بعد مرور عدة أيام لفت نظر بريجنيف غياب السائق بوريس فسأل: أين بوريس لماذا هو غائب؟ (اسم السائق المقبوض عليه – المترجم) فقلت له: أنه تم فصله من العمل. وشرحت له الحكاية بالتفصيل. فطلب مني: استوضح الأمر، فقلت له: أستوضح ماذا؟ كل شيء واضح. فقال: لو لم يحدث أكثر مما حكيت، اتصل بهم واجعلهم يعيدونه للعمل. بعد عدة أيام عاد بوريس للعمل من جديد، سأله بريجنيف: أنت قبضت على جاسوس أو شيء من هذا القبيل؟ فرد السائق نعم حدث شيء من هذا القبيل، ثم سأله بريجنيف من جديد: ربما تكون تعاطيت قليلاً من الخمر، فرد السائق: نعم حدث...، فقال بريجنيف: كما ترى اضطررنا للاتصال بك لتأتي للعمل، فأجاب السائق: شكراً يا ليونيد إليتش، لن يتكرر هذا الأمر مرة أخرى، فوضع بريجنيف يده على كتفه وقال له: حسناً..... حسناً.

أن يقوم السكرتير العام بحماية سائقه، ليس فيه مأساة، خاصة وأن السائق أخطأ لأول وآخر مرة، كما أنه بصفة عامة لم يرتكب أي شيء خطير، لكن عندما تحدثت عن سلبيات الارتباط بالناس كنت أقصد حقائق أخرى. على سبيل المثال الطبيب الخاص ببريجنيف نيكولاي روديونوف كان إنسان – كما اتضح – أبعد ما يكون عن النظام، وكان

كسولاً في عمله، والأهم أنه كان يكذب بدون أدنى خجل، فمثلاً يسأل عنه بريجنيف، وهو غير موجود، ونبحث عنه في كل مكان ممكن يتواجد فيه ولا نجده، فقد كان لديه أقرباء ومعارف كثيرين. اذهب واعثر عليه هناك، نهاتف يفجيني تشازوف (طبيب سوفييتي شهير اشترك في علاج عبد الناصر وبومدين وكان مسئولاً عن المنظومة الطبية للكرملين، أو ما يسمى بالإدارة الطبية الرابعة ــ المترجم) ونسأله: روديونوف عندكم؟ مدير الإدارة الرابعة يجيب: ليس موجوداً؟ أخيراً يحضر ودون أن يطرف له جفن يقول لبريجنيف: كنت عند والدتكم (والدة بريجنيف – المترجم)، فيرد بريجنيف: ولكني اتصلت بك هناك ولم تكن موجوداً. ويتعجب.

هذا الأمر كان يتكرر دائماً ولدهشتنا لم يتخذ ضده أي إجراء، روديونوف ربط بريجنيف به بأنه كان يعطيه المنومات وأدوية أخرى بكميات غير محدودة أو بالكميات التي يطلبها رغم حظر الإدارة الطبية لذلك، لدرجة أن ريابينكو على سبيل الفكاهة قال: "من الأفضل أن نستبدله بممرضة".

ما كان يقال على سبيل الفكاهة تحقق في الواقع، فقدت أخذت الممرضة " ن " السلطة كاملة على بريجنيف، وبذلك تنحى روديونوف وترك الأمور كلها للممرضة، وهذا كان مناسباً للدكتور فقد أصبح متحرراً من أي قيد.

لكن المثال الصارخ كان الحلاق الذي يقوم بحلاقة ذقن وشعر بريجنيف. كان اسمه تولا (الاسم الكامل أناتولي– المترجم) وكما سبق أن قلت في السابق كان يجب أن يحضر إلى بريجنيف مرتين في اليوم، في الصباح وبعد الغداء، لكنه كثيراً ما كان يتأخر وأحياناً لا يأتي بالمرة، لأنه كان يتعاطى الخمور بكثرة. بريجنيف ينتظره، لكنه لا يأتي فيغضب ويوبخنا ويشتمنا نحن الحراس ويقول: حذروه إذا ما تكرر هذا الأمر فإن....

الحلاق كان يتبع إدارة الخدمات في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، اتصلت بپافلوف رئيس هذه الإدارة، لكن شيئاً لم يتغير، يغضب بريجنيف ثم يقول: سأتصل بپافلوف بنفسي لكي يفصلوه من العمل! كان بريجنيف يغضب ولكنه يهدأ بسرعة، وكثيراً ما كان يداعب تولا قائلاً: كيف قضيت العيد؟ فيرد تولا: لا بأس تجمعنا و"انطلقنا" فيقول له: قلبت لك كأس؟ فيرد: نعم... أكثر.

لكن المأساة الرئيسية ليست في أنه كان سكيراً ويتأخر، ولكنه كان يأتي في الصباح ولم يفق بعد من الخمر، وكان يحلق ذقن بريجنيف بشفرة ولك أن تتخيل ما يمثله هذا من خطر على حياة بريجنيف، كان من الممكن أن تنتهي الأمور نهاية سيئة وفظيعة!. نحن نتحدث هنا عن الشخصية الأولى لدولة عظمى ومستوى العلاقات وعدم المسئولية، إن ما كان يحدث عندنا أسوأ مما هو موجود في إدارات الأحياء.

هذا على المستوى الحياتي الشخصي، نفس الشيء كان يحدث بالضبط على مستوى البلاد، لين وعفو رأس الدولة أديا إلى تدهور الأوضاع وبداية الفوضى في عموم الدولة، ولهذا فإن بعض القيادات الحزبية مثل رشيدوف وميدونوف (سكرتيري عموم الحزب في جمهوريتي أوزبكستان وطاجيكستان السوفيتيتين، وكانوا مشهورين بفسادهم الذي كان

يزكم الأنوف في ذلك الوقت ـ المترجم) وآخرين(كان أندروبوف رئيس الكي جي بي في ذلك الوقت قد قدم تقارير عنهم تشهد بفسادهم ـ المؤلف) كانوا يشعرون بالأمان والحصانة.

هل حدث وكان بريجنيف قاسي وصارم؟ حدث. وكما كل مسئول على مستوى عال، ليس لديه الوقت والأسباب للتعمق في التفاصيل، كما حدث أيضاً أنه لم يكن على حق في بعض التصرفات والقرارات.

ذات مرة كان عند إحدى الفتيات اللاتي يعملن في البوفيه في الكرملين مناسبة عيد ميلاد، وصادف هذا اليوم أنه لم تكن وردية عملها، طلب بريجنيف أن تأتي للعمل بصرف النظر عن أن هذا اليوم يفترض أنها لا تعمل، أبلغت السكرتير بذلك، ولكنه لم يجدها، زميلتها التي تحل محلها في العمل قالت له " أنتم لن تجدوها في يوم كهذا " السكرتير توقف عن البحث والأهم أنه لم يبلغني، بمجرد أن وصلنا الكرملين، وأثناء مرور بريجنيف في الممر شاهد الفتاة التي تعمل وقال: لا ليست هذه. وسأل: أين تلك؟ فقلت: لا أعرف، ولم تكن هناك إجابة أخرى مفترضة لأقولها، فقال: لا أعرف، لا أعرف، تمتم بريجنيف ودخل إلى مكتبه، بعد عدة ثواني رن الجرس رنتين فدخلت عليه، وانفلت موبخاً: أنت أيه؟ لماذا؟! ولمدة ثلاث دقائق توبيخ، لدرجة أن ظهري تصبب عرقاً، خرجت لالتقطت أنفاسي ومن جديد رنتين فدخلت عليه ومن جديد توبيخ: لماذا أهملت أوامري؟! انحلال، إهمال! أنت كذبت علي ولم تبلغني! لقد كنت أريد تهنئتها بعيد ميلادها بشكل شخصي إنساني!، لقد حاولت أن أشرح له لكنه لم يستمع وقال: أنت ليس لديك معلومات أنت لا تعرف شيء!

في جوهر كل هذا كانت الإرادة الطيبة، يبدو أنه أعد هدية لعاملة البوفيه لكنها فجأة لم تكن موجودة......

كان بريجنيف أحيانا يسب سباباً قذراً، لكن عندما كان يسب ليس مقرباً منه، فإنه كان يحافظ على الرسمية حتى في هذا،حيث كان يتوجه بالكلام ببرود ويناديه باسم العائلة ويحافظ على صيغة الاحترام في التوجه إليه، لكن إذا أحس بأن الشخص قريب منه فإنه يحدثه باسمه ويسبه بأمه.

لكنه لم يكن يحمل ضغينة لأحد، والأهم أنه كان سريع العفو والتسامح، وفي نهاية هذا اليوم المشئوم الذي وبخني فيه بسبب عدم حضور عاملة البوفيه وقبل أن ننطلق للبيت الريفي عائدين بعد العمل، أحضرت له ملفا فسألني: كيف حالك؟ فرديت عليه: صعب يا ليونيد إليتش لقد كان الأمر صعباً على... صعب، فقال: لقد احتددت عليك لتتعلم. قالها بلهجة تنم عن المصالحة.

كان بريجنيف أيضاً يهتم بمشاكل الآخرين، إذا كنا سنحكم بقضايا محددة، من الممكن أن يكون لم يفعل لمرؤوسيه الكثير، لكن في الواقع لم يطلب منه أحد أن يفعل شيئاً، المهم كانت مشاركته الوجدانية. كان دائماً ما يسأل عن الأحوال في بيوتنا، وعن كيف نعيش، لدرجة أنه طلب عمل قائمة بمن يحتاج خدمات وما هي؟ اهتم بريجنيف

بنفسه بهذا الموضوع من خلال رئيس الحرس. لا أعرف ما إذا كان هذا أدب أم تربية، لكن الجميع أجاب: شكراً عندنا كل شيء لا نحتاج لشيء.

بصفة عامة الشعب عندنا لديه كرامة، وليس متسولاً. على سبيل المثال تولا الحلاق في هذا الخصوص كانت ظروفه متواضعة للغاية، فقد كان يقوم بقص شعر بريجنيف منذ نهاية الستينيات، وطوال هذا الفترة لم يلمح حتى ولا مرة إلى أنه يحتاج لشيء، على الرغم من أن راتبه كان صغيراً (كان يحصل على راتبه من مكان عمله الأصلي من اللجنة المركزية – المؤلف) وهو الذي لو عمل في صالون حلاقة عادى، لكانت الإكراميات التي سيحصل عليها أكثر من راتبه، وأسرته كانت مكونة من ثلاثة أطفال وزوجته ووالديه وكانوا يعيشون في شقة مكونة من ثلاث غرف (بالمفهوم المصري غرفتين وصالة – المترجم)، ولم يكن يمتلك لا بيت ريفي ولا سيارة. بريجنيف ذات مرة اتصل بباڤلوف المسئول عن تولا في اللجنة المركزية وطلب زيادة راتب تولا وبالفعل زودوا له الراتب.

أعتقد أن بريجنيف هنا لم يناقض نفسه بشكل حاد، بالطبع كان يجب طرد تولا بسبب غيابه وتأخره، لكن مادام بريجنيف قرر أن يبقي عليه، فإن ذلك لم يكن لقلة الراتب الذي يتقاضاه.

فيما يتعلق بإحضار طلبات من الخارج، كنا ننقده من هذا الموضوع، وكل الخطابات كنا نرسلها إلى اللجنة المركزية "تسليم" و"تسلم" فقد كان بريجنيف لا يحب مثل هذه الطلبات حتى من أولاده.

لو طلب أحد الزملاء أو أقاربه مني دواء معين مثلاً، كنت أحاول مساعدتهم عن طريق الطبيب الخاص لبريجنيف، بريجنيف مثلا أصدر قرار بمنحي شقة ثلاث غرف في شارع كريلاتسكي مساحتها ٤٥ متر مربع لأربع أفراد، وعندما توفيت سفيتلانا – زوجتي– عام ١٩٨٠، ساعدني بريجنيف في تنظيم مراسم الدفن.

يبدو لي أن الشيء الوحيد الذي لم يكن بريجنيف يتسامح فيه هو النميمة سواء عنه أو عن أسرته، كما لم يكن يحب كثيري الكلام والثرثارين.

قبلي كان يعمل حارس شخصي برتبة عقيد اسمه بوريس دافيدوف وكان نائباً لرئيس الحراسة الشخصية، كان رجلاً محترفاً عمل طوال حياته في الحراسة. شخص ما– كما سمعت– وشى لبريجنيف به، بتعبير آخر شخص ما ألب بريجنيف عليه، السكرتير العام لم يتحدث حتى إليه، وعلى ما أعتقد لم يستفسر أو يستوضح وأصدر قراره بإبعاد هذا العقيد وقال: " لا يدخل المنشأة". في ذلك الوقت كنت ضابطا في الحراسة الشخصية ولا أعرف التفاصيل، لكن يبدو أن شخصاً ما لعب على الأوتار الضعيفة لبريجنيف، فقد أخبروه أن هذا الضابط ينشر الشائعات عنه، هل كان هذا الأمر حقيقة أم مجرد افتراء لا أعرف، لكن بلا شك كان يجب استدعاء الشخص والاستماع إليه.

لم يكن بريجنيف يحب النميمة. والفكاهات والنوادر التي كانت تحكى عنه، وخاصة الخفيفة منها والتي لا تحمل إساءة، كان يستمع لها من أقربائه والمقربين منه، وكان يتقبلها إلى حد ما بشكل عادي.

للأسف بريجنيف لم يترك السلطة في الوقت المناسب، لقد أصبح في ذاكرة العالم شخص هرم ومنهار ومهترئ. أهم صفات هذا الشخص كانت للغرابة الجسارة والتهور والفتونة، ومع كل هذا كان مهتماً بزيادة الوزن، وفي الوقت الذي كان فيه هرماً حافظ على شخصية المتهور المقدام، فنتج عن هذا تناقض واضح بين المظهر الخارجي والمحتوى الداخلي.

عندما كان بقوته، كان يطارد الحيوان الجريح لعدة ساعات في البرد القارس وعبر انهيارات الثلوج، ولم يرتد القفازات قط. حتى في الكبر وفي الخريف كثيراً ما كان يخرج في الطقس السيئ دون أية ملابس ثقيلة، يطلب منه الطبيب أن يرتدي معطف، فيرد عليه بريجنيف: لو لديك رغبة ارتد أنت معطف. فيرد الطبيب: أرجوك ارتد المعطف، الطقس بارد. فيرد بريجنيف: ابتعد عني. أو في القرم الطبيب يحاول أن يثنيه: رجاء اليوم لا داعي للسباحة، البحر مضطرب والطقس بارد. فيرد بريجنيف: حسناً لا تقلق، ويذهب ويقوم بالسباحة لمدة ساعة ونصف تقريباً.

عندما كان يجلس خلف عجلة القيادة في السيارة، لم تكن عنده حدود للسرعة، رئيس الحراس يجلس في الكرسي الخلفي للسيارة معي، كان يقول له: ليونيد إليتش ممكن أن تقود السيارة بسرعة أقل؟ فيرد: ماذا دهاك، أنت خائف؟!

منذ أيام الحرب العالمية الثانية قاد بريجنيف سيارات من ماركات مختلفة وكان يحب القيادة السريعة، ذات مرة قاد السيارة حتى زافيدوفو (المنطقة التي كان يذهب للصيد فيها - المترجم) حيث المسافة ١٤٨كم قطعها في ٥٠ دقيقة!!

عندما بدأت الأمراض تهاجمه وتداعت عليه بسرعة، بدأ بريجنيف يفقد قوته، ويفقد كذلك سرعة رد الفعل، لكنه رغم ذلك لم يأخذ كل هذا في الحسبان، واستمر كما في السابق يجلس إلى عجلة القيادة. وبالنسبة للحراسة كانت تأتي دقائق يصعب وصفها. عند ريابينكو وعندي كانت ظهورنا تتصبب عرقاً بسبب القلق والتوتر الذي يسببه لنا عندما يقود سيارة. ذات مرة بعد الصيد في زافيدوفو جلس بريجنيف إلى عجلة القيادة وقاد السيارة بسرعة كبيرة، وفجأة قال: لا أدري لماذا أنا مشدود للانعطاف يميناً، والسائق يجلس إلى جواره ويقول له: السرعة، السرعة، اخفض السرعة. لكن السيارة تنعطف بقوة إلى اليمين ثم إلى اليمين! تبين أن العجلة اليمنى الأمامية انفجرت، كيف استطاع وهو يسير بهذه السرعة أن يسيطر على السيارة؟ شيء لا يتصوره عقل.

مرة أخرى في القرم استيقظ بريجنيف، وكان لا يزال تحت تأثير الحبوب المنومة التي كان يتناولها، وأجلس إلى جواره امرأتين من الأطباء وقاد السيارة من نيجنى اوريادندا إلى منطقة الصيد، هذا حدث بدوني، أؤكد لم يكن استيقظ من النوم بعد، وفي أحد

المنحنيات الصعبة والحادة لم يستطع السيطرة على السيارة، لكنه في الوقت المناسب ضغط على الفرامل، وأصبحت العجلة الأمامية معلقة فوق منحدر.

قادة الدول كانوا يعرفون عشق بريجنيف للسيارات، ولذلك تكدس عنده عدد غير قليل من السيارات الممتازة، السيارة الانجليزية السوداء من طراز "رولزرويس"، وكانت أكثر سيارة يحبها (أهديت إليه من زمن بعيد قبل تعييني) وكانت هناك سيارتان: ألمانية لونها أزرق من طراز "مرسيدس" ويابانية " من طراز " بريزدنت "، و"الكاديلاك" وسيارة من طراز " لينكولن" – خفيفة–كما كان يقول بريجنيف، ماذا كان يعني بهذا؟ لا أعرف.

من كل هذه الأنواع كانت سياراته الشخصية، ولكي لا تتعطل وتصدأ السيارة بالتوقف طويلاً كان يقود هذه السيارات بالتناوب، فقد كان يعتقد كرجل عسكري أنه ليس له حق الجلوس إلى عجلة قيادة السيارة الحكومية المخصصة له، لأنه يعتقد أنها ليست ملكه، وكان يقول: تريد أن تقود سيارة خذ سيارتك، لذلك عندما يكون الطقس سيئا والطريق متزلجا بسبب الثلوج، كنا نكذب عليه ونقترح السيارة الحكومية " زيل" وكنا نعرف أنه لن يقدم على قيادتها، أحياناً كان يرفض ويحدد سيارة ماركة أجنبية من سياراته ويقودها. وكان يسأل: في المرة السابقة استقلينا أية سيارة؟ "لينكولن"؟ إذا سنستقل "المرسيدس".

عندما كنا نستقل السيارة الحكومية كثيراً ما كان بريجنيف لا يدع السائق في هدوء ويوجهه كثيراً ويقول له: أسرع، زيد السرعة! أنت في نهاية الأمر لا تحمل حليباً.

قبل أسبوع من توجه السكرتير العام إلى القرم للاستجمام كان يتم شحن السيارات إلى الجنوب في وقت مبكر "زيل " والسيارات من طراز "فولجا" (كان هذا يحدث في أثناء حكم بريجنيف وفي وقت جورباتشوف)، لكن في فترة حكم بريجنيف كانوا يشحنون سيارتين إضافيتين من الماركات الأجنبية: من بينهما لابد أن تكون "الرولزرويس" السوداء وسيارة أخرى إضافية. أحيانا عقب وصوله إلى مطار سيمفاروبل مباشرة (سيمفاروبل عاصمة جمهورية القرم التي تتمتع بالحكم الذاتي – تقع في أوكرانيا – المترجم) يقوم بريجنيف بقيادة سيارته.

لو كان خلف عجلة القيادة سائق فإننا كنا نصل يالطا في حوالي ٤٠ دقيقة وحتى نيجنى أورياندا في حوالي ساعة وعشر دقائق، إذا كان خلف عجلة القيادة بريجنيف وإلى جواره السيدة فيكتوريا حرمه، فإنه كان يحرص على ألا يغامر وغالباً ما كان يصل في ساعة ونصف إلى ساعتين.

أتذكر السفريات الأولى للقرم، كانت أيام رائعة، أو ربما كانت تبدو كذلك لأننا كنا شباباً.

كان بريجنيف عادة ما يسافر للاستجمام في القرم مع بداية شهر يوليو من كل عام، في الأيام الأولى تعقد اللجان المختلفة اجتماعا، يقدمون فيه تقارير عن الحالة الأمنية: كم

عدد جرائم القتل، السرقة بالإكراه، الاغتصاب، مدى انتشار الأمراض الجنسية وهكذا..... التعليمات كما هي العادة: لا داعي للتعامل مع أهل المنطقة، ومن الأفضل عدم الاختلاط بالفتيات من المناطق المحيطة.

في الحراسة، تم انتقاء شباب صغار السن أصحاء، وكانت ملابسهم شكلها أنيق، في وقت الفراغ من النوبتجيات يذهبون معاً في مجموعات للرقص في مصحة النقابات المجاورة، كانوا يدعون الفتيات للرقص ويتعارفون، ويقدمون أنفسهم على أنهم منقذين على الشاطئ أو بنائين عسكريين أو مسّاحين..... أو يقدمون أنفسهم على أنهم مصطافون من مصحة رجال حرس الحدود.... لكن الفتيات بمجرد النظر إلى مجموعة من الشباب القوى الممشوق كن يخمن من يكون هؤلاء الشباب، فقد كانوا يرون كيف كنا ننسحب في مجموعة حيث يجب علينا أن نكون في الموقع في الساعة الحادية عشرة مساءً. أعود والزملاء الصغار يلاحقونني جرياً فهم يعرفون أن التأخر يعنى حرمانهم من الأجازات لمدة أسبوعين. في اليوم التالي كنا نضحك: من كنت بالأمس؟ عسكري بناء. وأنت: منقذ مراكب.

كنا نحاول تجنب الاختلاط بشباب المنطقة والمصطافين، سواء كانوا مخمورين أو عاديين، فقد حدثت أثناء فترة حكم خرشوف معركة عنيفة بين الحراس والشباب المحليين، فرقتهم الشرطة وفيما بعد أصبحت فضيحة. معنا أيضاً حدثت حادثة، تعاركنا، شجار كما هو متعارف عليه لم يحدث، فقد ضايقنا البعض ومنعونا من المرور، لكن نحن انهينا الموضوع وتمت تسويته بسرعة، كل واحد أخذ ما يستحقه، من بعيد ظهر الموقف مؤثرا.

في اليوم التالي أبلغت الإدارة في القرم السكرتير العام بريجنيف: الشباب التابعون لكم تشاجروا مع الشباب المحليين.... اعتقدنا أننا وقعنا في شر أعمالنا أمام بريجنيف، لكنه ابتسم وقال: لا بأس. وبدا لي الأمر وكأنه كان سعيداً بأننا دافعنا عن أنفسنا.

نعم كانت أوقات جميلة، لم أكن وقتها نائب رئيس الحرس، كنت شاباً، الالتزامات لم تكن كثيرة، في وقت الفراغ من النوبتجيات كنت أسمح لنفسي بشرب بعض البيرة أو النبيذ.

هذا ما كان يحدث في فترة الشباب، في الأيام الأخيرة على مشارف التسعينيات كنت أريد الجلوس في حانة في ليفادي وأنسى حتى ولو لعدة دقائق القلق، أشرب كوباً من النبيذ الجيد. لكن لا نبيذ جيد يصب ولا بيرة، لا يوجد شيء، كل شيء اختفى ، تبخر، وأرض القرم نفسها الآن غير معروف من له السيادة عليها، يقسّمون ولا يستطيعون التقسيم (شبه جزيرة القرم كانت تابعة لروسيا إدارياً لكن خروشوف منحها لأوكرانيا عام ١٩٥٤، وكان يعتقد أن الاتحاد السوفييتي باق إلى الأبد لكن بعد انهياره بقى القرم ضمن الدولة الأوكرانية كجمهورية تتمتع بحكم ذاتي – المترجم).

كان أعضاء المكتب السياسي يحصلون على أجازات مرتين في العام: شهر في الصيف وفي الشتاء نصف شهر. كانت بيتسوندا حيث يوجد عدد من الفيلات إحداهم الفيلا التاسعة المخصصة للسكرتير العام مكان جاذب لقضاء الإجازات. جورباتشوف كان

يستجم هناك كل شتاء في يناير، خروشوف كان يذهب إلى هذا المكان في الصيف (بيتسوندا في نهاية الأمر أصبحت مصيدة له حيث كان يستجم في الوقت الذي انعقدت فيه اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وأقالته من منصبه وتولى بريجنيف من بعده – المؤلف) لخروشوف تحديداً في منتصف الخمسينيات وفي بيتسوندا تم إنشاء حمام سباحة فريد من نوعه يعبأ بماء البحر، تضغط على زر فتنفرج جدران الحمام المصنوعة من الألومونيوم الخفيف ويظهر منظر البحر والأفق أمامك، وعندما تسبح في حمام السباحة هذا تشعر وكأنك تسبح في مياه البحر المفتوح، من أين أتوا بهذا التصميم؟ لا أعرف، لقد سافرت كثيراً ولم أشاهد شيئا مشابها لهذا.

تم إنشاء حمام سباحة آخر مشابه لخروشوف أيضاً في نهاية الخمسينيات في نيجنى أوريآندا.

بريجنيف على ما يبدو لي استجم في بيتسوندا مرة وحيدة شتاءً، لكن ظل المكان المحبب له في القرم نيجنى اوريآندا: مكان مدهش ليس بعيداً عن يالطا ، حوله غابات الصنوبر والأشجار ذات الأوراق الصنوبرية والأرز والتنوب والبلوط والصنار والدردار والاسفندان. الزهور والشجيرات دائمة الخضرة، حتى عندما تصل درجة الحرارة ٣٠ درجة مئوية يكون الطقس لطيفاً وبارداً كواحة زكية الرائحة.

الفيلا كانت مكونة من طابقين، متواضعة إلى حد ما مقارنة بفيلات حزبيي المستقبل والقادة العسكريين المنادين بالديموقراطية وإعادة البناء (البريسترويكا) في الدور الأول ثلاث غرف وحمام سباحة صغير للأطفال، في الطابق الثاني غرفة نوم للزوجين وغرفة مكتب وغرفة سفرة وغرفة استقبال، إلى الشمال والجنوب شرفتين مساحتهما ليست كبيرة، في الطابق الأول كان سكان الفيلا يتناولون الإفطار وفي الثاني الغداء.

الفيلا كان يربطها ممر بمبنى مخصص للخدمة حيث توجد غرفة رئيس الحرس ونائبه ومكان النوبتجية ومطبخ حيث كان الطعام ينقل منه على عربة يد إلى المبنى الرئيسي.

بقية الحراسة كانت تعيش على مسافة بعيدة إلى حد ما، في الأعلى منفصلة. كان عند الشباب هناك المطعم الخاص بهم، وصالة عرض سينمائي، وساحة لممارسة الرياضة، وكانت تنظم لهم جولات في يالطا وسيمفاروبل (يالطا مدينة في القرم مشهورة بلقاء ستالين مع روزفلت إبان الحرب العالمية الثانية وسيمفاروبل عاصمة القرم – المترجم).

ورغم ذلك كانت حياة الحراس تمر بوتيرة واحدة مملة، مع الأعوام عند الجميع يتراكم الإرهاق، البعض كان يسافر قبل ميعاد انتهاء المأمورية، ونظراً لأن السكرتير العام كان يمدد فترة الاستجمام، فإن المأمورية عند الكثيرين من الحراس كانت تمتد إلى شهرين أحياناً.

على شاطئ البحر كان يوجد بيتين أيضاً، في أحدهما كان يقيم مساعد بريجنيف الذي كان بريجنيف يصحبه للقرم معه للعمل، البيت الثاني كانت قوات خفر السواحل

تتخذه مقراً، وكانت تراقب البحر، قريباً منه توجد محطة زوارق - بها أدوات تزحلق على الماء، وأطواق نجاة وضفادع بشرية، وكان يقوم بنوبات الحراسة في هذا المكان رجال الضفادع البشرية من ذوي الخبرة.

في منتصف النهار يعملون له مساج.

من الساعة ٤ إلى الساعة ٦ مساءً كل يوم كان بريجنيف يستدعي مساعده للعمل. وكان بريجنيف يسبح كثيراً ولفترات طويلة، ذات مرة استمر في السباحة لمدة ساعتين ونصف، نحن الحراسة كنا نشعر بالبرد في الماء بينما يستمر هو في السباحة. الدكتور روديونوف كان يتوسل إلى بريجنيف أن يخرج من الماء، لكن الرجاء كان له تأثير عكسي وكان بريجنيف يقول له: إذا كنت تشعر بالبرد أخرج، أنا سأستمر في السباحة.

كان روديونوف يخرج إلى الشاطئ ونحن كنا نستمر في البحر.... خطورة أن يعانى بريجنيف من تأثير تقلص عضلي أثناء السباحة لم تكن موجودة، أنا وزميل لي من الحراس كنا نسبح بالقرب منه على بعد عشرة - خمسة عشر متراً، وكان زورق يتحرك وعلى ظهره اثنين من الحراس، وفي الخلف على بعد حوالي خمسين متر يوجد لنش به ضفادع بشرية وطبيب عناية مركزة.

نحن كنا نشعر بالبرد في البحر لدرجة أننا بمجرد وصولنا للسقالة على الشاطئ كنا نطلب من الدكتور بعض الكحول، ليونيد إليتش كانت تضربه الرعشة، وكان يذهب إلى دوش ساخن أو إلى حمام السباحة حيث الماء أدفأ بكثير.

كل النداءات في البحر عن أن المياه باردة، والموج عال وما شابه ذلك كانت تذهب أدراج الرياح بالنسبة لبريجنيف، كان يحب دائماً أن يدخل في أي مغامرة. ربما كان من الممكن أن تجرى مفاوضات معه في الطريق إلى البلاج: "يمكن اليوم من الأفضل أن نسبح في حمام السباحة؟ " ساعتها يوافق أن البحر به نوة والموج عال، وفي نفس الوقت كان يصرّ ويقول: "هيا نذهب إلى البحر وهناك نستوضح حالة البحر " وكان بالطبع ينزل البحر للسباحة في أي طقس.

عادة كان يسبح إلى نهاية المنطقة حتى المجرى الملاحي - حوالي ٨٠٠ متر بعيد عن الشاطئ- وبعد ذلك كان يسبح بمحازاة الشاطئ، عندما كان يشعر بالتعب كان يسبح إلى القارب يمسك بسلم القارب، يستريح، أو يمسك بالقارب ويقول: "هيا يا شباب أظهروا لي قوتكم " فيسحبونه في الماء، أحياناً يصمد ضد التيار، ويعود بنفسه سابحاً.

ذات مرة في فترة السباحة الصباحية، كانت التيارات المائية والرياح قوية فأبعدا السباح (بريجنيف ــ المترجم) عن الشاطئ، اقترحت على بريجنيف أن يصعد إلى القارب أو يمسك بالقارب لكي يسحبه الشباب إلى الشاطئ، ولكنه رفض، التيارات جرفتنا أبعد وقد حان وقت الإفطار ونحن وبريجنيف نتخبط في الماء نصارع التيارات المائية، هو بضعف تدلى فوق الماء كغطاء، في النهاية أمسك بسلم القارب وقام الشباب بسحبه إلى الشاطئ وعلى بعد حوالي ٤٠٠ متر من الشاطئ ترك سلم القارب وبدأ يسبح من جديد، التيارات كانت لا تزال مستمرة وشديدة في هذا المكان أيضاً ولكنها حملته هذه المرة

بمحاذاة الشاطئ، تجاوزنا سقالتنا الرئيسية، ثم سقالة النساء ومحطة القوارب وفي نهاية الأمر كل أراضي الفيلا الحكومية وسحبتنا أبعد فتركنا مصحة " رجال الحدود" ووصلنا لمصحة النقابات.... بريجنيف عنيد رفض كل مساعداتي ونصائحي، كان لدي في يدي ساعة مضادة للماء، الساعة التاسعة والنصف، فقط تمكنا من الوصول إلى الشاطئ، ومشينا على أرجلنا عبر بلاجات غريبة وعدنا، المواطنون الذين كانوا يستجمون في المصحتين المجاورتين كانوا ينظرون إلينا بدهشة، كيف حدث هذا، أن يمشي على شاطئهم السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي محاطاً بالحراس.

العنيد بريجنيف، حتى بعد هذا الحادث كان يعتقد أن المشكلة ليست في الرياح والتيارات، ولكن الأمر ببساطة انه سبح لمكان أبعد في البحر أي تعمق، ثم أن الأمر ببساطة كان في أن القدرة الجسمانية لم تكن كافية، بعد هذا فكر في مناورة لتجنب مثل هذا الموقف، حيث كان يمسك بسلم اللنش ويسمح بأن يأخذه إلى مكان بعيد في البحر لحوالي كيلومتر ومن هناك كان يسبح بمحازاة الشاطئ.

حدث هذا في النصف الأول من السبعينيات قبل بداية المرض، كان قوياً جداً وممتلئاً بالحيوية، لكن فيما بعد وحتى في العام الذي توفي فيه كان يسبح بعيداً أيضاً. في عام ١٩٨٠ قطع إجازته وطار إلى موسكو، ألقى خطاب في افتتاح الأولمبياد، تحدث بطريقة كانت فيها مخارج الألفاظ غير مفهومة، ولكنه كان مازال قوياً، وبعد ذلك عاد إلى القرم مرة أخرى، إلى البحر.

نعم كان يسبح بعيداً ولفترات طويلة، لكن ببطء، كان يختنق عندما تغطيه الأمواج، أنا كنت أرتدي زعانف فكنت آخذه تحت إبطي وأرفعه فوق الماء، والأمواج موجة وراء الأخرى تغطينا معاً من جديد، بالقرب منا كان يسبح العاملون في الحراسة الخاصة، كان يصاب بالإرهاق في الماء عدة مرات، فكان يرقد على جانبه فوق الماء وكان يفقد اتجاهه. وحدث ذات مرة أن فقد الوعي، حدث هذا حتى في حمام السباحة، ولذلك صنعنا شبكة مثل الهاموك ودفعناها تحته وكنا نخرجه عندما يشعر بالإرهاق وكنا نرفعه إلى القارب.

ذات مرة كان الموج عالياً جداً وكانت العاصفة شديدة من الدرجة الرابعة على الأقل، دخل بريجنيف للبحر، عملياً كانت السباحة تحت الماء لأن الأمواج كانت تغطيه بصفة دائمة، بهذا الشكل سبح حوالي ١٥ دقيقة. أنا وزميلي وكنا نرتدي الزعانف وقفزنا إلى الماء وحاولنا الإمساك به تحت من تحت إبطيه لنرفعه فوق الأمواج، دقائق غير طيبة ورهيبة في نفس الوقت. بعد ذلك – كان المشهد أفظع: الموج صعد للسقالة، وبمرونة انحسرت، نحن بصعوبة أمسكنا بدرابزين السقالة، حمينا أنفسنا بالسلم الحديدي، ثم بإحدى اليدين أمسكنا بالسلم وباليد الأخرى بريجنيف، وهكذا أخرجناه من وسط الرذاذ وريم البحر الناجم عن الأمواج بصعوبة بالغة. إنها لعبة الموت دون مبالغة. هذه الحادثة حدثت قبل الوفاة بعام.

لم يحدث أبداً أن تم عمل تجهيزات صحية خاصة لبريجنيف أثناء الاستجمام، كما حدث فيما بعد في سبتمبر ١٩٨٣ عندما أتى لنفس "الفيلا الأولى" في القرم أندروبوف وقد

أصبح سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي، حيث أحضروا له " كلية صناعية"، غرف مجهزة له وللطاقم الطبي مما أدى في النهاية إلى تحول الفيلا إلى عنبر في مستشفي.

في كل الأعوام التي أتى فيها بريجنيف للاستجمام، مرات معدودة شعر بآلام في الأسنان وكنا نستدعي الطبيب وهذا كل شيء.

لكن للحق، على أعتاب أعوامه السبعين، خضع بريجنيف لعملية جراحية خطيرة إلى حد ما، على ما يبدو أنها مرتبطة بجرح أصيب به أثناء الحرب على الجبهة. الأطباء طلبوا منه أن يخلد للنوم مبكراً لتجهيزه للعملية، لكنه سهر ولم يستمع لأوامرهم، ونام قبل العملية مباشرة تقريباً، كما خرج من المستشفي قبل الموعد المحدد، ولم يشك للأطباء من شيء بعد العملية.

يبدو لي أن القدرة الجسمانية لبريجنيف كانت مبرمجة لكي يعيش حتى تسعين عاماً، لكن ما أتلفه هو كثرة استخدام المنومات، وحادثة طشقند هي التي أجهزت عليه نهائياً.

أحد المزارات الهامة في المكان الذي تقع فيه الفيلا كان المغارات الجبلية، مكان مريح وبه أشكال فنية طبيعية رائعة. وعلاوة على الجمال الطبيعي، أبدعت يد الإنسان أيضاً. فقد أحضروا تربة خصيصاً لها، وزرعوا نبات الصبار،والأجافا، ووضعوا جلاميد ناعمة من الصخور وسط أحجار بحرية صغيرة. وكانت تنقسم إلى ثلاث أماكن: مطبخ صغير لعمل الشاي أو القهوة، غرفة للراحة ليست كبيرة يوجد بها سريرين، كومودينو، كراسي، مرايا، بالإضافة إلى صالة للاجتماعات، حيث كان بريجنيف أثناء فترة الاستجمام يلتقي مع بعض رؤساء دول أوروبا الشرقية، وبعض هؤلاء الرؤساء كانوا يستجمون في القرم، كانوا ينظمون وقتهم ليستغلوا فترة الاستجمام، فكانوا يقومون بزياراتهم في تلك الفترة، وبرنامج الزيارة كان يتم إعداده منذ فترة من استجمام بريجنيف، وحتى عندما كان يشعر بريجنيف بالتعب صحياً يقولون له: "ليس ضرورياً القيام بمباحثات" كان يرد "مادام الرفاق يطلبون فهذا يعنى أنه ضروري ". المقابلات كانت اعتيادية ودورية كل عام.

السيارات كانت تأتى من الناحية الجنوبية للفيلا، وكان بريجنيف بصحبة زوجته السيدة فيكتوريا يخرجون للترحيب بزوارهم الكبار، في كل مرة قبل دعوة الزوار إلى المغارة الجبلية كان بريجنيف ينظم لهم جولة ويزورون حمام السباحة وأحياناً يضغط على الزر فتنفرج جدران الحمام، ليظهر منظر البحر في الأفق، لكن الأمر لم يصل إلى السباحة ولا مرة.

كل زائر (من رؤساء الدول الاشتراكية – المترجم) كان يأتي ومعه مساعده وممثل للجنة المركزية للحزب، عادة ما يكون من قسم الدول الاشتراكية في الحزب. لا أعتقد أن قضايا هامة تمت تسويتها في هذا المكان، خاصة في الأعوام الأخيرة من حياة بريجنيف، ببساطة المسألة دخلت في إطار الحفاظ على التقاليد. لكن في حقيقة الأمر هذه اللقاءات كانت تمثل أهمية ليست بالقليلة لمن يدعى إليها، وخاصة إريك هونيكر (حاكم ألمانيا

الشرقية آنذاك – المترجم) وزعماء آخرين أيضاً من هؤلاء الذين وصلوا للسلطة حديثاً حيث كانوا يحاولون أن يظلوا قريبين من الزعيم السوفييتي. هونيكر كان يصفق لبريجنيف أعلى من الآخرين، وعندما كان الجميع يصطفون لالتقاط الصور التذكارية كان هونيكر يسعى قبل الآخرين لأن يقف إلى جانب قائدنا. كان يريد أن يعرف الجميع في بلده كم هو قريب من زعيم دولة عظمى.

كانوا يذهبون إلى المغارة بعد الخامسة مساءً، حيث تكون درجة الحرارة انخفضت والشعور بالحر أقل، وبدأت تهب من البحر رياح خفيفة لطيفة، نحن الحراس مع حراس الزوار كنا نجلس بجوار حمام السباحة – على بعد حوالي ٢٠ متر من المغارة – لم يكن يتنامى إلى مسامعنا أحاديث القادة، كنا فقط نسمع بعض أصوات ضحكاتهم، ولكي لا نجلس مثل المكاوي كنا نتحدث لبعضنا البعض " كيف الأسماك عندكم في بلغاريا؟ تُصطاد أو لا تصطاد؟ وكيف الطقس؟"، "كيف الأسعار في تشيكوسلوفاكيا، كيف المواد الغذائية وهل السلع متوفرة ؟"

لم نكن نتحدث في الأمور المهنية، كل هذه الأمور كان يتم مناقشتها على مستوى رؤساء الإدارات في موسكو، وبالطبع لا نتطرق للحديث عن الأشخاص الذين نرافقهم أو نحرسهم.

على المنضدة أمام بريجنيف كان يوجد زر جهاز لاسلكي، كان يضغط عليه فيستقبل الجهاز الذي أحمله الإشارة وأدخـــل، إذا كان يتحدث أقف خلف ظهره صامتاً حتى أرى أنه انتهى من حديثه، أنحني: نعم يا ليونيد إليتش فيقول: أحضروا لنا القهوة أو الشاي، أو دعهم يحضروا لكل منا كأس من الكونياك. أحياناً وفي حالات نادرة كان يطلب قنينة كاملة، لكن ليس من خلالي وإنما من خلال عامل البوفيه.

بعد الجلسة في المغارة كان بريجنيف وزوجته السيدة فيكتوريا يدعوان الضيوف على العشاء، وكان من الطبيعي أن يتقبل الجميع الدعوة بكل سرور.. إلا شاوشيسكو، كان يقول: شكراً بيتي قريب!. كان يعنى بقرب بيته أنه كان على بعد أقل من ساعة طيران بطائرته الخاصة للعاصمة الرومانية بوخارست، الآخرون أيضاً كانوا ليس بأبعد كثيراً. القضية كانت في العلاقات المشدودة والمتوترة، أثناء اجتماعات اللجنة الاستشارية لقادة دول حلف وارسو كان كل قائد يلقى كلمته في فترة لا تستغرق أكثر من نصف ساعة، إلا شاوشيسكو يلقى كلمته في ساعة ونصف أو حتى ساعتين لتستغرق وقتاً أكثر من بريجنيف. الجميع يخرج من القاعة وهو مستمر في إلقاء خطابه، أحياناً يكون من الصعب التنبوء بتصرفاته، كان يحاول التأكيد على استقلاليته ويظهر نفسه كقائد لدول الكتلة الشرقية، وهو الأمر الذي كان مدعاة للسخرية من الآخرين، وكانت علاقتهم به كعلاقتهم بصبي طائش، لم يغضبوا قط بسبب تصرفاته، ورغم ذلك كانوا يشكونه لبريجنيف.

يتنزه القادة في ممر تحيطه الأزهار من جانبيه، أحد القادة لابد أن يبدأ الحديث، ثم يدعمه آخر: مرة ثانية نيكولاي (شاوشيسكو) قال كلاما غير صحيح.... تدخل فيما لا

بعنيه، مرة ثانية تصرف بالخطأ. بريجنيف بصوته الأجش وأنا أسير خلفهم أسمعه يقول لهم:حاضر أنا سأتحدث إليه.

قام بريجنيف بتوبيخ شاوشيسكو توبيخاً شديداً مرتين. حدث هذا في سوسنوفكا في ضواحي يالطا، حيث كان قادة الدول الاشتراكية يعقدون اجتماعاتهم أحياناً، هناك كانت الأرض مفروشة بنايلون مقطرن وفوقه ممر من السجاد، كراسي ترابيزات. ذات مرة هطل المطر بشدة، فهرول الجميع إلى بيت خشبي كان الزعيم السوفييتي الأسبق ستالين يستخدمه وكان يقع إلى جوار مكان الاجتماع. حدث هذا في بداية السبعينيات، بعدها تم تجهيز قصر على شكل سرادق، بسقف قوى، بجدران يمكن إزالتها عند اللزوم وتمت تسميته بالشادر، مكان مريح. وعندما يكون الطقس مشمسا يتم إزالة الجدران،وفي الطقس السيئ يتم إنزال الجدران. مطبخ تواليت، مكتب لبريجنيف، صالة ترجمة فورية. في هذا الشادر انفرد بريجنيف مرتين بشاوشيسكو، وسمعت صوت بريجنيف العالي، فقد كان تقريباً يصيح فيه معنفاً له..... بينما كان صوت شاوشيسكو منخفضاً، وكان يجيب: لا أعرف، لا أعرف. بالطبع بريجنيف لم يكن يوبخ هذا الضيف المتمرد بالأصالة عن نفسه بقدر ما هو بالنيابة عن الآخرين، بعد ذلك يجتمع الجميع للتنزه في ممرات الأزهار، فيحكى بريجنيف بضحكة خفيفة كل ما حدث وماذا قال "لنيكولاي شاوشيسكو " وماذا كان رد فعله.

كان شاوشيسكو، حتى إذا جاء في زيارة تستغرق نصف يوم، يصطحب معه طباخيه ومواده الغذائية وحتى الماء كان يحضره معه. لم يحدث مرة أن بقي للعشاء. الكثير من قادة دول أوروبا الشرقية كان يعرف اللغة الروسية، لكن جيفكوف (سكرتير عام الحزب الشيوعي البلغاري ــ المترجم) إذا كان الحديث هاماً فإنه كان يفضل الحديث من خلال المترجم، فالجميع كانوا يحضرون مع مترجمين باستثناء جوساك (زعيم تشيكوسلوفاكيا السابقة)الذي كان يجيد اللغة الروسية إجادة تامة. كان شخصية مثقفة ولطيفة، ومريح، وكانت السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف معجبة به جداً.

بقدر الود الإنساني الذي يكنه بريجنيف للقائد التشيكوسلوفاكي فإنه كان يشعر بمسئولية تجاه مصيره. وعلى أية حال، الأعمال الدموية التي حدثت عام ١٩٦٨ (عرفت فيما بعد بربيع براغ ــ المترجم) تم تعليقها في رقبة بريجنيف، أي تحميله مسئوليتها.

لأعوام كثيرة من حكمه بقي جوساك بالنسبة لبريجنيف هو الرفيق الأقرب والموثوق به بين كل قادة دول أوروبا الشرقية. وبريجنيف كذلك بقي مخلصاً له في ظروف حرجة قليل من يعرفها الآن.

ففي النصف الثاني من السبعينيات لقيت زوجة جوساك مصرعها في حادث، الأمر الذي أثر عليه بشدة، كل المعلومات التي كانت تأتى من براغ إلى موسكو أن جوساك أدمن الخمر، فقام بريجنيف كما حكى هو فيما بعد، بالجلوس معه عدة مرات ووعده جوساك بأنه سيسيطر على نفسه ويمتنع عن تناول الخمور، ولكن مع مرور الوقت، استمر ورود الأنباء المزعجة من براغ.

في نهاية الأمر. اضطر بريجنيف للتوجه إلى براغ، حيث كانت هناك مناسبة للزيارة فجمع بريجنيف بين الشخصي والعام، كان ذلك عام ١٩٧٨، وبالتحديد قبل هذه الزيارة بيوم أو يومين، كان بريجنيف أثناء رحلة صيد قد أصاب نفسه بتليسكوب البندقية مرتين، حيث أصيب بجروح عميقة. سال منه الدم وكسر الحاجب، ثم عظمة الأنف، ورغم دهان الجرح عدة مرات في اليوم إلا أن آثار الجروح والكسور ظلت كما هي.

في الطريق إلى الطائرة حكى بريجنيف للمرافقين له عن حالة جوساك، لا أذكر الكلمات ولكني أذكر النبرة والمشاطرة والرغبة في المساعدة، لم تكن هناك كلمات عن الخذلان.

في المطار كما هو معروف استقبل جوستاف جوساك ولفيف من رجال الدولة بريجنيف، وقد بدا لي أنه أصبح أكبر في السن وانحنى ظهره، ووجهه أصبح معتما، ونظاراته الطبية السميكة أضفت عليه مظهراً بائساً. في السابق كان معروفاً أنه ضعيف النظر فقط، لكن أضيف لهذا أنه أصبح عندما كان يخطو يبدو غير واثق من نفسه. كان يسير بخطوات قصيرة وببطء وبحرص، ورأسه مطأطئا في الأرض ناظراً تحت قدميه.

من حيث ترتيبات الزيارة كان كل شيء كما العادة. على طول الطريق إلى مقر الوفد السوفييتي إلى براجسكي جراد وقف الكثير من الشعب لتحية الضيف السوفييتي، وتم استعراض قوات حرس الشرف. بعد الاحتفال في قصر براجسكي جراد دخل الجميع إلى المقر، حيث التقط الوفد السوفييتي الصور مع جوساك في غرفة خاصة. من ناحية اليمين أماكن إقامة الوفد المرافق لبريجنيف، ناحية اليسار المقر الشخصي لبريجنيف والمحيطين المقربين منه. قبل هذا انفرد صاحب المكان والزائر ببعضهما البعض في غرفة من غرف الوفد. جلسا يشربان الشاي أو القهوة، وربما أيضاً مشروبا كحوليا. بعد نصف ساعة ودع صاحب المكان جوساك زائره إلى غرفته ليستريح من عناء الطريق، وكانا يودعان بعضهما إلى لقاء قريب.

هذه المرة المقابلة استمرت لعدة دقائق فقط. بريجنيف ودع جوساك بسرعة، فقد كانا يعرفان أن عليهما عقد لقاء محتوم لا مفر منه حول أسوأ الموضوعات. كانا يشعران بأنهما مقيدين، ومحرجين. من الخارج للمحيطين لم يكن الأمر ملحوظاً، نفس القبلات والأحضان، ولكني كإنسان عنده خبرة وأعرفهما كليهما رأيت اصطناعية في الجلسة القصيرة. إنهما حتى لم ينظرا في عيون بعضهما البعض، الجلسة الشخصية المرتقبة أثقلت كلاهما.

في اليوم التالي وفق برنامج الزيارة، كان من المفترض أن يزور وفدنا مترو براغ. في الصباح كانت الشمس مشرقة والطقس دافئا، والحالة المزاجية عند الجميع عالية.

ذهبنا بالسيارات وكان جوساك في انتظارنا في المكان المحدد عند مدخل المترو، وعندما خطا عدة خطوات ليستقبلنا، كلنا لاحظنا أنه مخمور جداً، الحارس الشخصي له، والذي أعرفه منذ سبع أو ثماني سنوات، همس في أذني قائلاً: فولوديـا، أمنّه مـن فضلك.

قبّل بريجنيف جوساك، وبصعوبة حافظ عليه في الوضع واقفاً. يجب أن نعطي بريجنيف حقه، فلم يظهر على الإطلاق أنه لاحظ أن جوساك مخموراً، بل كما هي العادة عند اللقاء كان ينكت وتحدث مع جوساك، واهتم بمشاهدة محطة المترو التي يزورونها.

تخيلوا بأنفسكم قائدين من القادة الشيوعيين، قبّلا واحتضنا بعضهما البعض، أحدهما مخمور، والآخر لديه جرح قطعي في الحاجب وموضوعة له قنطرة في الأنف. هل كان بالقرب منهما مصورو تليفزيون أو صحف؟ لا أذكر، يبدو أنه لم يكن أحد من الصحفيين بالقرب. ولا أذكر كذلك ما إذا كانت هناك صور نشرت في الصحافة بعد ذلك أم لا، وإذا نشرت فإنها ربما كانت ملتقطة عن بعد ومن زوايا محددة بريئة لا تظهر شيئا.

وفق البرنامج كان يجب أن يستقل الوفد المترو لمحطة واحدة، وعندما بدأنا النزول على السلم كاد جوساك أن يسقط على الأرض، وطلب بريجنيف أن نساعده. سرت أنا قريباً من جوساك ممسكاً إياه من يده من ناحية دون أن يلحظ ذلك أحد ومن الناحية الأخرى قاده زميلي التشيكي. شعرت كيف كان زميلنا محرجا وهو ينظر في أعيننا، وعندما حانت اللحظة همس في أذني محاولاً تبرير الموقف قال لي: عندنا مصيبة، بعد المأساة العائلية، لا يستطيع بأي حال أن يتحكم في نفسه. فقلت له بمشاطرة: نعم أنا أتفهم الموقف.

في نفس اليوم بعد الغداء التقى القائدان للاجتماع الشخصي الذي كانا محرجين منه، التقيا على انفراد، جوساك أصلح من وضعه ووصل لبراجسكى جراد كما هي العادة دون مترجم.

انفردا ببعضهما لفترة طويلة، لحوالي ساعتين، ليس أقل. وأخيراً خرجا، كما لو كان كل منهم قد نزع عن نفسه قيودا كانت تكبله. كانا مبتسمين، كما لو لم يكن هناك توتر على الإطلاق، لكن فقط من كان يعرف الزعيم التشيكوسلوفاكي كان يستطيع ملاحظة زيادة كم التملق المصحوب بالعرفان بالجميل، فقد كان يذوب لطفا وودعنا بسرعة وبوجه تبدو عليه علامات التركيز اتجه إلى المخرج، وذهب بريجنيف إلى مقره وقال أثناء مروره في الممر: الجلسة حققت الغرض، الحديث كان دافئاً، ولطيفاً.

هل أثر الحديث على جوساك، أم استطاع جوساك السيطرة على نفسه دون حديث بريجنيف؟ لا أعرف، لكن المؤكد أنه لم تأت أية أنباء مزعجة من براغ بعد ذلك. بعد مرور عدة أعوام سألت زميلي التشيكي: كيف الحال؟ فقال لي: لقد امتنع تماماً عن شرب الخمر، يحتسي البيرة فقط.

وجاء الوقت الذي أصبحت أعاني فيه من الحرج أمام زميلي التشيكي، كأننا تبادلنا الأدوار. جوستاف جوساك شفي من إدمان الخمور، وفي المقابل وعلى الجانب الآخر تدهور بريجنيف لدرجة كبيرة وبلا عودة.

في عام ١٩٨١ ألقى بريجنيف خطاب في المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي، الجميع كان متوتراً من الأمور المقلقة التي حدثت في بولندا. أخطأ السكرتير العام الصفحات وبدلاً من الحديث عن الوضع في بولندا أصبح يكرر ما سبق أن

قراءه من سطور. من بعده تحدث جوساك، بدأ الحديث بلغته الأصلية، ولكنه أنهى الحديث باللغة الروسية " يا ليونيد إليتش (بريجنيف) أقول باللغة الروسية،نحن سعداء لأنكم حضرتم مؤتمرنا أشكركم جداً" وبدلا من أن يقوم بريجنيف بأي رد، استدار ناحية المترجم، وبصوت مرتفع ينم عن إحساس بالإهانة: لماذا لا تترجم لي؟ وهنا خيم على القاعة صمت القبور. بعد عام في صيف ١٩٨٢ التقى بريجنيف وجوساك للمرة الأخيرة في القاعة الجرانيتية في موسكو قبل عدة أشهر من وفاة بريجنيف، وقف جوساك وتوجه إلى الحاضرين بنخب للرفيق الأخ الحزبي الأكبر. فجأة في منتصف النخب توجه بريجنيف إلى نيكولاي تيخونوف رئيس الوزراء الذي كان يجلس إلى جواره " نيكولاي لماذا لا تمزّ؟" سأله بصوت جهوري بحيث سمع كل من في القاعة . جوساك أصيب بالحرج وقطع النخب الناري الذي كان يقوله، العجوز تيخونوف مال على بريجنيف وقال: نعم. الجميع في القاعة كانوا مندهشين من فظاظة السكرتير العام غير المتوقعة، وجوساك وقف صامتاً، وبريجنيف أو بمعنى أدق ومعه تيخونوف، استمرا بصوت جهوري " هذا أنا لا يجب أن آكله، ممنوع منه. هيا يا نيكولاي تناول السلمون "

في عام ١٩٧٨ عندما ذهب بريجنيف لتشيكوسلوفاكيا لكي ينصح الزعيم التشيكوسلوفاكي، كانت حالته سيئة. هذا الأمر إذا لم يتنبه له الجميع فإن الكثيرين لاحظوه، وقد أرسلت خطابات ليست قليلة إلى سفارة الاتحاد السوفييتي في تشيكوسلوفاكيا مفادها " كيف لا تخجلون أن يكون لديكم قائد كهذا؟ أنكم في منتهى القسوة أن تستغلوا إنسانا مريضا بهذا الشكل المهين"، في إشارة إلى بريجنيف.

من مهام السفارات أن تجمع ردود الأفعال من الدول التي قام السكرتير العام بزيارتها، لكن الخطابات من هذا النوع لم تخرج خارج أسوار السفارة، وكانوا يرسلون خطابات أخرى تتسم بالابتهاج، والحماس. وكما يعرف الجميع تنظيم مثل هذا العمل لا يحتاج ذكاء.

زيارات الخارج

كلما ابتعد بنا الوقت عن تلك الفترة، كلما بدا لي لو أن بريجنيف ترك منصبه في منتصف السبعينيات، لحافظ على انطباع جيد في الذاكرة. كل التراجوكوميديا في السنوات الست أو السبع الأخيرة من حكمه كانت مرتبطة به. قد أكون شخصا حسن النية أو ذاتي الحكم، جائز، لكن على الأقل في عهده: تم العمل بنظام خمسة أيام عمل في الأسبوع، تم تحديد سن المعاش للرجل والمرأة (٦٠ و٥٥ على الترتيب) أصبح العاملون في الكولخوزات يحصلون على نقود مثل سكان المدن، وتم تحديد معاش تقاعدي لهم، ارتفعت الرواتب وانخفضت الأسعار. الآن يقولون إن هذا كان على حساب استنزاف الثروات القومية، الذهب والنفط والغاز، لكن أليس تنمية واستيعاب هذه الثروات في مناطق سيبيريا والشرق الأقصى: أورينجوى، ناديم، سورجوت. كل هذا بدأ تحديداً في عهد بريجنيف وكذلك تمت عملية مد خطوط أنابيب الغاز والنفط إلى أوروبا في عهده، ومصانع السيارات فاز وكاماز وأخرى عملاقة أيضاً أنشئت في عهده. والفضاء، والقوات المسلحة الجبارة والقدرات النووية، نحن كنا بالفعل دولة عظمى كان يعمل الجميع لها ألف حساب.

على الصعيد الدولي: اتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية (١ و٢)، تقوية العلاقات مع ألمانيا الغربية وفرنسا والولايات المتحدة.

كانت سمعة البلاد قد تدهورت جداً بعد أغسطس ١٩٦٨ (قمع الثورة في تشيكوسلوفاكيا أو ما عرف بربيع براغ – المترجم)، لكن مع قدوم السبعينيات تم نزع فتيل التوتر، وأصبح رأس الدولة السوفيتية مرحبا به في دول العالم المختلفة بما في ذلك الولايات المتحدة.

تميزت الفترة من ١٩٦٩ ــ ١٩٧٥ بأنها أكثر الفترات نشاطاً لبريجنيف على صعيد السياسة الخارجية، فقد حفلت بالزيارات إلى دول أوروبا وزيارات للهند والولايات المتحدة، مقابلات مع رؤساء دول ورجال أعمال ومثقفين. في هذه الفترة دب الدفء في العلاقات مع الولايات المتحدة والدول الأعضاء في حلف الناتو، أعتقد أن هذا كله كان بمثابة نهاية "الحرب الباردة". المقابلات والاجتماعات على مستوى القمة – مع رؤساء الولايات المتحدة وزعماء الدول الأوروبية – أظهرت أنه من الممكن إدارة حوار سلمى بعيداً عن تهديد السلاح، في ذلك الوقت تم وضع أساس اتفاق هلسنكي للأمن والتعاون في أوروبا عام ١٩٧٥.

أكثر ما أتذكره في هذه الفترة أول زيارة لي للولايات المتحدة، في منصب نائب رئيس الحرس الشخصي لبريجنيف. خلال شهر يونيو عام ١٩٧٣ وصلت لهذه القارة لأول مرة، كان كل شيء بالمعنى الحرفي للكلمة مثيراً للاهتمام.

بمجرد أن هبطت الطائرة وخرجنا منها هطل مطر شديد، أصابنا البلل حتى آخر فتلة في ملابسنا، وبعد خمس دقائق أشرقت الشمس من جديد وأصبح الطقس حاراً وخانقاً مثل حمام البخار، درجة الحرارة كانت أكثر من ثلاثين درجة مئوية، وبدا الأمر كما لو كانوا خصيصاً وعن عمد أرادوا أن يغسلوا كل ما أحضرناه معنا من موسكو ومن الممكن أن يكون زائداً.

في حديقة البيت الأبيض تم إقامة حفل استقبال للزعيم السوفييتي، وعزف السلام الوطني للبلدين، لقد استمعت للسلام الوطني السوفييتي بشيء من التوتر والإحساس بالفخر ببلدي، بعد المباحثات انطلق بريجنيف ونيكسون إلى كامب ديفيد، حيث المقر الريفي للرئيس الأمريكي، الطرق مستوية بدون عيوب وكأنها منضدة، مدن منظمة، قرى، غابات، مروج، حقول، كأننا نشاهد نموذج دعاية، كان هذا أول تعارف لي مع أمريكا، ولذلك فإني دون إرادة مني قارنتها ببلادنا، المقارنة للأسف كانت بعيدة عن أن تكون لصالحنا بالمرة.

أدهشني كامب ديفيد، فهو إلى حد ما بسيط المظهر من الخارج: ألوان البيوت عادية لونها أخضر داكن، مغطاة بالخشب، إلا أنها من الداخل مريحة جداً كما اتضح وتغري بالراحة بالإضافة للبساطة والذوق في التصميم. بجوار كل بيت توجد سيارة تعمل بالطاقة الكهربية بحيث يمكنك أن تذهب في لحظة إلى أي مكان داخل المنطقة.

كان يحرس المقر الريفي للرئيس مشاة البحرية، الذين يعيشون في نفس المكان، حراستنا كانت تعيش في مكان مجاور، وكان من المثير للاهتمام بالنسبة لنا متابعة زملائنا الأمريكيين في الحراسة، وكيف يقومون بخدماتهم وكيف يستريحون وماذا يأكلون، مرة أخرى المقارنة ليست في صالحنا. غذاؤهم مكون من قطع اللحم والعصائر، الماء، الفيتامينات. الفرق بين طعامنا وطعامهم فرق السماء من الأرض.

وفق التقاليد أثناء الزيارة فإن مخابراتهم هي التي كانت تقوم بحراسة سكرتيرنا العام.

بعد كامب ديفيد عدنا من جديد إلى واشنطن، حيث تم تنظيم مقابلة لبريجنيف مع رجال أعمال وآخرين من الشخصيات العامة، دارت أحاديث كثيرة حول ما يسمى المسألة اليهودية، هذه المشكلة في ذلك الوقت كانت شائكة وعلى ما يبدو مساعدو السكرتير العام استعدوا لها مبكراً، لأن بريجنيف تحدث عن وضع اليهود في الاتحاد السوفييتي بوضوح، والانتقادات التي وجهت إليه لم تسبب له أي حرج.

في نهاية الزيارة دعا الرئيس نيكسون ضيفه بريجنيف إلى مزرعته في سان كليمنت، مكان ليس بعيداً عن لوس أنجلوس، على شاطئ المحيط الهادي. يوم ٢٣ يونيو ١٩٧٣ عدت بسيارة " شيفروليه " يقودها سائق أمريكي إلى كامب ديفيد لأخذ الأشياء الخاصة ببريجنيف والتي بقيت هناك بعد المباحثات مع الرئيس الأمريكي، مرة أخرى استمتعت بالنظر إلى الأفق الريفي الممتد، والمنشآت الريفية المبنية بشكل مريح، وفكرت في أن الأرض والطبيعة عندهم مثل ما عندنا، متى أخيراً سنعيش بدون فقر مثل شعوب

العالم الجديد؟. أخذت أشياء بريجنيف وعدنا إلى واشنطن، وهناك من مطار عسكري طرنا إلى كاليفورنيا، ثم كان علينا خلال حوالي ٤٠- ٤٥ دقيقة أن نكون على طائرة الرئيس، ليطيرا معاً، نيكسون وبريجنيف.

في مطار كاليفورنيا مع العاملين الأمريكيين قمنا بنقل الأشياء إلى المروحية التي طارت إلى المزرعة، المروحية كانت كبيرة وقوية، عند الطيران ارتفع الحائط الخلفي للطائرة بحيث ظهرت الأرض والسماء، كما لو كنا نطير على بساط طائر وهبطنا في حقل صغير بالقرب من المزرعة.

بعدها بوقت قصير وصل الرئيس الأمريكي والسكرتير العام. خرجا من المروحية مبتسمين وسعيدين، يبدو أن علاقة صداقة وود شخصية ربطت بينهما، بعد وقت قصير في إحدى الغرف بالبيت الريفي للرئيس الأمريكي عقد اجتماع امتد حتى منتصف الليل. في هذا الوقت كنت قد تعرفت على المنطقة، الشقق الشخصية الخاصة بنيكسون، لم تترك لدى انطباع محدد، فقد كانت متواضعة تماماً، بيت من طابق واحد بأحواش داخلية.

في المساء وفي سابقة نادرة من نوعها. قام حراس الرئيس الأمريكي بعمل حفل استقبال على شرف العاملين في الكي جي بي. المقابلة تمت في مطعم وفي أجواء مرحة وبدون قيود، ربما لم يحدث مثل هذا على مدى تاريخ العلاقات لا من قبل ولا من بعد، أن جلس رجال المخابرات في البلدين الأعظم في العالم إلى مائدة بود كهذا.

أنا لم أحضر هذا اللقاء، ولكني عرفت ما جرى فيه خلال الأحاديث، فقد تركوني باعتباري الأصغر سناً في النوبتجية في ذلك المساء، قبيل منتصف الليل عاد بريجنيف بعد عشاء عمل مع نيكسون، وأنهى التواليت المسائي وخلد للنوم بينما بقيت في نوبة حراستي عند باب غرفة نومه. غرفة نوم الرئيس الأمريكي كانت تقع تقريباً في المواجهة، هناك أيضاً كان يحرس الغرفة اثنان من الحراس. كانا يسيران بالممر، في حوالي الساعة الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل فتح باب غرفة نوم نيكسون عن آخره وخرجت منه زوجة الرئيس الأمريكي باتريسيا، الحراس الأمريكيون كانوا يتنزهون في مكان ما، باتريسيا مرتدية قميص نوم طويل وبدون حذاء تحركت في اتجاه غرفة نوم بريجنيف، يداها الاثنتين كانتا مشدودتان إلى الأمام، باختصار كانت تسير في الظلام دون خوف من أن تصطدم بشيء، خطوت إليها في مواجهتها ورأيت أن نظرة عينيها موجهة إلى مكان غير محدد لأعلى، من الواضح أنها كانت في حالة إنهاك كامل، حاولت الحديث إليها فلم ترد، وتحركت إلى الأمام في اتجاهي، ولم يكن لديها نية أن تتفاداني، كان يجب أن أفعل أي شيء بسرعة. ماذا؟ لقد أوقفتها لبعض الوقت، ووقفنا في مواجهة بعضنا البعض، ولم أستطع أن أجعلها تستدير للعودة.

رفعت باتريسيا وحملتها بيدي إلى غرفة النوم. كان ضوء الغرفة خافت، يبدو أنه مصباح ليلي، السرير كان في وسط الغرفة، سرير يشبه الأنواع الخشبية العادية، الغطاء كان ملقى على الأرض. نيكسون نفسه لم يكن موجوداً في الغرفة، يبدو أنه نام في غرفته. اقتربت للسرير من ناحية الشمال لكي أتمكن من وضع زوجة الرئيس على السرير بشكل

مريح ورأسها على المخدة. كان تهذي بكلمات غير مفهومة، وضعتها بحرص وحركت المخدة تحت رأسها ورفعت اللحاف من على الأرض وغطيتها باللحاف وطوال هذا الوقت كنت أطلب منها بلطف أن تنام. بالفعل أغلقت عينيها وغطت في نوم عميق، وخرجت على أطراف أصابعي حرصاً على ألا أزعجها.

جاء الحارسان الأمريكيان مهرولين إلي، فأشرت إليهم بيدي " أوك "، توقفا وابتسما واتجها ببطء إلى باب غرفتها.

الساعات المتبقية مرت بالنسبة لي في قلق شديد، فليس كل ليلة كنت أحمل زوجة من زوجات الرؤساء الأمريكيين. وما العمل إذا تكرر الأمر من جديد؟.

في الصباح في الميدان أمام المزرعة، جرى احتفال توقيع البيان المشترك السوفييتي- الأمريكي، بعد ذلك أقيمت مأدبة غداء في الهواء الطلق على شاطئ المحيط، وكنا محاطين بالأشجار المزهرة والحشائش. كان ضمن المدعوين رجال سياسة ورجال دولة أمريكيين مشهورين، رجال أعمال، ممثلين من هوليود ولوس انجلوس.

أثناء حفل الاستقبال، كنا نقف أنا وريابينكو رئيس الحرس في مكان متطرف، وبالطبع حدثته عن مغامرتي الليلية، والآن لفت نظري أن باتريسيا أثناء حديثها مع ابنتها طول الوقت كانت تنظر تجاهنا، كان لدي إحساس أكيد بأن حادث الليل كان في مخيلتها كحلم..... وأنها في الحلم رأت شخص ما يشبهني إلى حد كبير، وافقني ريابينكو الرأي قائلاً: أكيد.

في هذا اليوم عدنا إلى موسكو.

دعا بريجنيف الرئيس الأمريكي إلى منزله الريفي في القرم، في العام التالي زار نيكسون موسكو والقرم.

حينها في كامب ديفيد أهدوا بريجنيف وأهدونا جواكت عليها شعار الرئاسة الأمريكية، مازلت أحتفظ بهذا الجاكت كتذكار على أول زيارة صداقة، بحق، للولايات المتحدة.

في عام ١٩٧٤ جرت قمة في فلاديفستوك بين السكرتير العام والرئيس الأمريكي الجديد جيرالد فورد، لم نكن نريد أن يكون وجهنا في الوحل أمام رئيس دولة عظمى، فجهزنا المكان بشكل جيد، لقد كان مكاناً مريحاً يستجم فيه قادة لجنة منطقة بريموريا (بريموريا هي المنطقة التي تقع بالقرب من اليابان على المحيط الهادي في أقصى شرق روسيا ــ المترجم) الحزبية، كل الفيلات حولت إلى جنات، تم دهانها وإصلاحها وأعيد بنائها من جديد وتم رصف الطرق. العمل كان يجرى بإشراف مباشر من السكرتير الأول للجنة الحزبية للمنطقة. وصل بريجنيف إلى فلاديفستوك مبكراً لكي يطمئن على الإعداد الجيد للمكان، قام بنفسه بفحص الفيلات وأماكن الخدمات الأخرى، أبدى اهتمام خاص بالفيلا التي كان من المفترض أن تجرى فيها المباحثات.

في يوم وصول الرئيس فورد تجمع في المطار عدد كبير من المراسلين، الطقس كان مشمساً، على الرغم من أنه كان بارداً إلى حد ما فقد كان ذلك في شهر نوفمبر. قابل بريجنيف الزائر الكبير مرتدياً معطفا شتويا وغطاء رأس من الفراء. خرج فورد من الطائرة مرتدياً ملابس خفيفة بعض الشيء: بالطو صيفي. لم يمر كثير من الوقت حتى اضطر إلى ارتداء غطاء رأس روسي من الفراء، والذي على ما يبدو لم يرتده من قبل على الإطلاق. بعد كلمات الترحيب والمراسم الدبلوماسية تحرك ركب السيارات إلى محطة السكك الحديدية، ومنها بالقطار توجهوا إلى فلاديفستوك، حيث اصطف عدد كبير من المواطنين على جانبي الطريق للترحيب بالضيف.

المحادثات تناولت موضوعات هامة: كيفية التخفيف من المواجهة العسكرية بين القوتين الأعظم. كانت المباحثات تتقدم بصعوبة، بريجنيف كان في حالة توتر وعصبية، لكن على ما يبدو انتهت الأمور إلى حد ما بشكل مرضي. من جانبنا حدث خطأ صغير: سقطت الثلوج فجأة واستمرت دون توقف، الجندي سائق السيارة التي تقوم بتنظيف المطار من الثلوج غفا أثناء القيادة، فاصطدم بجناح طائرة الرئاسة الأمريكية، مما اضطر الرئيس الأمريكي لأن يتأخر عن الطيران لبعض الوقت.

تم إصلاح العطل. ليونيد إيليتش بريجنيف، كان في المطار لوداع الضيف الكبير، بعد الوداع بدأ فورد في صعود سلم الطائرة واضعاً على كتفه بالطو من فراء الذئب. بريجنيف مبتسماً صاح في أثره: الفراء لديكم جيد، من الجيد أن ترتديها عندما تذهب للصيد، تمت ترجمة حديث بريجنيف للرئيس الأمريكي على وجه السرعة، فما كان من الرئيس الأمريكي إلا أن توقف على سلم الطائرة ثم هبط وخلع معطف الفراء الذي كان يرتديه عن نفسه وأعطاه لبريجنيف وصعد مسرعاً على سلم الطائرة، ملوحاً بيده مودعاً واختفي داخل الطائرة، كل شيء تم بسرعة وبشكل مفاجئ حتى أن السكرتير العام ارتبك، وبعد برهة قال: حسناً!...

مرت عدة أعوام وبالتحديد في يونيو ١٩٧٩، جرت مقابلة في فيينا مع الرئيس الأمريكي التالي جيمي كارتر.

هذه كانت ثلاث مقابلات لبريجنيف مع رؤساء أمريكيين، في الأولى كان شاباً قوياً جذاباً. الأخيرة - بعد مرور ست سنوات من يونيو ١٩٧٣ حتى يونيو ١٩٧٩، مريضا، ضعيف الذاكرة، عجوزا، لقائه مع فورد بين اللقاءين كان مرحلة انتقالية. تحديداً هذه المرة في خريف ١٩٧٤ ظهرت أول بوادر جدية على إصابته بالأمراض.

بعد وداع الوفد الأمريكي توجه بريجنيف لزيارة منغوليا، في القطار حدث خلل في الدورة الدموية للمخ، وسقط بريجنيف في حالة عدم إدراك، رآه في هذه الحالة الحراسة والأطباء فقط، لكن كل الاتحاد السوفييتي عرف بما حدث.

الأطباء بقيادة يفجيني تشازوف استطاعوا إخراج المريض من هذه الحالة، تقريباً بعد منغوليا مباشرة قام بريجنيف عام ١٩٧٤ بزيارة لفرنسا انتهت بنجاح، لكن عداد الأمراض بدأ الحساب، ورقاص الشؤم دخل في اللعبة....

في نوفمبر ١٩٧٤ أصبح عام انتقالي، ليس فقط في الحالة الصحية للقائد، ولكن في حالته المعنوية المنهارة التي بدأت تظهر بشكل تدريجي. من الممكن أن يكون هذا من تأثير الأمراض. لكن منذ ذلك الوقت ظهر عنده ضعف أمام الهدايا (ليس فقط أمام السيارات المستوردة أو أسلحة الصيد الغالية، ولكن أمام الحلي والزينات- المؤلف) والنياشين.

وبدأت تزدهر الرشوة والسرقة والغلظة من قمة هرم السلطة منذ منتصف السبعينيات تحديداً، وانتزاع بالطو الفراء من فوق أكتاف الرئيس الأمريكي كان تدشيناً لهذه الفترة الانتقالية.

اللقاء الذي ذكرته لبريجنيف المريض مع الرئيس الأمريكي كارتر في فيينا في يونيو عام ١٩٧٩، والذي كان الهدف منه التباحث حول اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية - ٢. في هذه القمة حضر مع رأسي الدولتين مرافقون كثيرون، والمخابرات النمساوية كانت تعمل وهي مشدودة الأعصاب وبتوتر شديد. أصحاب المكان أعطونا حراسهم لمساعدة الوفدين.

ضمن برنامج لقاءات القادة، كان من المفترض أن يتم لقاء في البداية في السفارة الأمريكية، ثم لقاء آخر في سفارتنا، لكن حدثت واقعة غير مفهومة وغير طيبة في العلاقات بين أجهزة المخابرات الأمريكية والنمساوية ومخابراتنا، حيث لم يسمحوا لحراسنا بدخول السفارة الأمريكية . قمت أنا بإدخال زميل لي بصعوبة وبشكل غير رسمي... لكن الأهم أن الأمريكيين لم يسمحوا بدخول المخابرات النمساوية للسفارة، وأوصدوا الباب في وجه أصحاب الأرض وتركوهم خلف الأبواب مقدمين لهم بعجرفة عدة زجاجات من الكوكاكولا، بالطبع المخابرات النمساوية رفضت الهدية وخرجت من المبنى ووقفوا نوبتجية بالقرب من السيارات.

ترك هذا التصرف أثرا غير طيب، فأصحاب المكان بذلوا مجهوداً كبيراً، ساعدوا الأمريكيين وساعدونا.

لكن عندما جاء دورنا سمحنا لجميع من يرغب ومن له الحق بالدخول، الحفل كان لا تشوبه شائبة: حفاوة وخبز وملح.

قمة اللقاءات، توقيع وثائق اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية – ٢. في قاعة كبيرة جلس أعضاء الوفدين الأمريكي والسوفييتي. على المسرح الرئيس الأمريكي والسكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي. أنا كنت أراقب كارتر بانتباه وبفضول. من ناحية حركته ومشيته تشعر بأنه يستحق أن يكون زعيما لدولة عظمى، وعلى الجانب الآخر هناك الاحترام الزائد الذي أبداه لزعيم الدولة السوفيتية والذي ظهر حتى في التفاصيل الصغيرة، فقد قدم بريجنيف عن نفسه في الصعود إلى المسرح، وجلس على الكرسي بعده، أثناء الكلمة التي ألقاها بعد توقيع اتفاقية الحد من الأسلحة الاستراتيجية، بنصف دورة من رأسه وجسده كان ينظر إلى بريجنيف، وقبّله بشكل خاص ولمدة طويلة. لقد نظرت مليا لهذا الإنسان الذي يحمل في داخله مخزونا ثقافيا ضخما. أعتقد أنه لم يفكر

خلال هذه الساعات في طموح قائد دولة كبيرة وغنية، ولا في من وكيف يقيّم السلوك، ففي كل ما قام به أكد فقط على أهمية اللحظة التي يجب أن تدخل التاريخ.

أثناء إقامة بريجنيف في فيينا قرر أن يتجول في المدينة ليشاهدها. الزعيم العجوز اعتقد أن فيينا كما في موسكو ستغلق الشوارع، وفي كل مكان لون الإشارات سيكون أخضر. لكن اتضح أن فيينا لها قواعد مرور صارمة خاصة بها ولها نظام حياة خاص بها. عند ركوب السيارات لأي شخص حتى لو كان رئيس أي دولة مهما كانت فإن الشوارع لا تفرغ من المواصلات العامة، ولا أحد يوقف أحدا ويدخله في شوارع جانبية. تجول بريجنيف بالسيارة في عدة أحياء، وكان يتوقف عند كل إشارة مرور وقتا غير قليل، فقررنا رفض الفكرة والعودة إلى مقر الإقامة، وبريجنيف وافق بإذعان.

مرة أخرى تفرض المقارنة نفسها مع بريجنيف قبل المرض. منذ ست سنوات، في مايو ١٩٧٣، كان في زيارة لألمانيا الغربية. مستشار ألمانيا آنذاك فيلي برانت أهدى بريجنيف سيارة مرسيدس. أحضروا السيارة إلى الفندق الذي يقيم فيه بريجنيف، والاختصاصيون الألمان بدأوا يشرحون له كيفية استخدام السيارة: أين أي يد وأي أزرار وكيف تتحرك السيارة من مكانها وكيف تتوقف. استمع بريجنيف باهتمام ثم جلس إلى عجلة القيادة في السيارة، وفجأة ضغط على البنزين بشكل حاد ومفاجئ.... واختفي عن الجميع، وليس معه لا حراستنا ولا أحد من المخابرات المحلية وابتعد منفرداً! أحد رجال الشرطة هرع إلى التليفون وأبلغ عن ما حدث، فقامت الشرطة بإغلاق الشارع في طريق منحدر بتصدير سيارتين بعرض الشارع لوقفه. أضطر بريجنيف للتوقف وعاد إلى الفندق، خرج من السيارة وهو يضحك: ها، أرأيتم كيف جريت منكم جميعاً؟ لقد فزعتم ؟! لا تخافوا كل شيء على ما يرام. هذه القيادة المتهورة والآن هذه الرزانة في فيينا...

شاء القدر بعد عدة أعوام أن أكون في ألمانيا الغربية مرة أخرى، لكن هذه المرة مع جورباتشوف. إقامة الوفد الروسي كانت بنفس الفندق " ريترسبيرج " وهو يقع في منطقة الطبيعة فيها جميلة وعلى قمة مرتفعة وتحتها نهر الراين. حينها في وقت بريجنيف كان الفندق حصنا قديما، بهدوء داخلي متشبع بعبق التاريخ، تتذكره دائماً بأنه ليس له شبيه، له روعة خاصة.أما الآن فقد تغير الفندق لدرجة أني لم أعرفه، فقد تم إعادة بناء الفندق عملياً من جديد. تغير، وأصبح منظره الخارجي حديثا، السكن الداخلي على أعلى مستوى من الفخامة: السلم ضخم والصالات والقاعات مجهزة لحفلات استقبال الزوار الكثيرين، غرف درجة أولى على أعلى مستوى، دهانات الحوائط رائعة والسقوف، حتى مقابض الأبواب كانت تثير الاهتمام وتلفت نظر العين.

فندق رائع، والفنادق الرائعة في العالم كثيرة، لكن هذا الفندق فريد من نوعه.

في كل السفريات سواء داخل البلاد أو للخارج، كان بريجنيف يلقى خطاباته من ورقة مكتوبة، وكان كل شيء يكون معد سلفاً حتى أدق التفاصيل بما في ذلك الأسئلة التي من الممكن أن توجه إليه والإجابة عليها، مجموعة الإعداد التي كان يعتمد عليها نجاح الزيارة أو عدم نجاحها كانت تعمل بضمير، حتى في صدر شبابه لم يستغن بريجنيف عن

الورقة حتى في بعض الحالات التي تعتبر بسيطة بما فيه الكفاية، وهنا يوجد فرق مبدئي، وهو أن بريجنيف في السابق كان يشارك في إعداد الكلمات التي سيلقيها، في أواخر أيامه كان ببساطة كما يقول مذيعو التليفزيون، أصبح مجرد "رأس متحدثة ".

المحاضرات التي كان يلقيها كثيرة. فمثلاً: زيارة لألمانيا الشرقية بمناسبة عشرين عاماً على تأسيسها، محاضرة أثناء زيارته لبولندا بمناسبة ٢٥ سنة على قيام جمهورية بولندا الشعبية، محاضرة مخصصة لجمهورية المجر الشعبية، مرة أخرى محاضرة (في دورة اجتماع من اجتماعات الدولة). تقريباً كل زيارة داخل البلاد لابد من أن يلقى خطابا، وأحياناً كان الخطاب يستغرق عدة ساعات. على سبيل المثال الحديث أثناء الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد لينين والذي أقيم في قاعة المؤتمرات بالكرملين. عدد كبير من الخطب والمحاضرات في مؤتمرات الحزب والمؤتمرات العامة للحزب والمؤتمرات بصفة عامة.

مساعدو السكرتير العام – ج. تسوكانوف وأ. الكسندروف – اجينتوف وأ. بلاتوف – أنشأوا مجموعة لإعداد الأحاديث. كان ضمن هذه المجموعة ج. أرباتوف وأ. بوفين وف. زاجلادين – متوفي و ن. إنوزيمتسوف وكثيرون كثيرون آخرون، عندما تكون الخطبة مكتوبة في مرحلة المسودة، يقوم بريجنيف قبل ١٥ – ٢٠ يوم قبل إلقائه بالسفر مع كاتبي الخطاب إلى زافيدوفو حيث مكان الصيد هناك وتتم عملية مراجعة دقيقة لكل صفحة، في الدور الثاني من البيت الريفي فوق غرفة السفرة كانت توجد حديقة شتوية حوالي ٧٠ متر مربع بها طاولة اجتماعات تسع عشرين شخصاً. هنا كان العمل يسير بالنظام التالي: في التاسعة إفطار، ثم العمل حتى الغداء معاً في الواحدة ظهراً، بعد ذلك راحة، ونزهة قصيرة وإلى العمل من جديد.

بريجنيف نفسه كثيراً ما كان يخرج للصيد في الصباح الباكر، وكان يعود في المساء متأخراً في حوالي الساعة العاشرة، أثناء العشاء يسأل عما تم إنجازه من عمل. لم يكن هناك نظام صارم، من يرغب كان بإمكانه أن يسترخي ويشرب مشروبا كحوليا على العشاء، والبعض كان يسمح لنفسه بتناول الكحوليات على الغداء. إلى حد ما تحدث لحظات حادة عندما يقود بريجنيف صراعا حاسماً مع الوزن الزائد. كل العاملين على كتابة الخطاب كانوا من ذوي الأحجام الكبيرة، بعضهم أثقل من بريجنيف بمرة ونصف. فجأة كان يجبرهم أن يأكلوا مثل ما يأكل من قائمة طعامه القليلة، وكانوا يقولون له بهذا الطعام لن نستطيع تحريك حتى أرجلنا فكان يبتسم ويقول: لا بأس، لا بأس، هذا مفيد لكم. شيء مضحك لكنهم كانوا يطلبون في الخفاء طعاما إضافيا من السفرجية.

كلما بقي وقت أقل على موعد إلقاء الخطاب، كلما كان جدول العمل أكثر توتراً، وكانوا يضطرون للعمل إلى ما بعد منتصف الليل، في هذه الحالة كان الموظفون يسمحون لأنفسهم بالاسترخاء مع شرب الكونياك.

عندما تكون هناك محاضرات كثيرة والوقت قليل، كان المختصون يعملون بآخر من عندهم من قوة. ذات مرة تسوكانوف لم يحتمل وقال هذا لبريجنيف، إلا أن الحديث لم يكن له أي أثر، وكان نفس الأشخاص يستمرون في العمل دون راحة وبنظام دقيق.

عدم قدرة بريجنيف على أن يلقى خطابه بدون ورق، كانت تضعه في مواقف محرجة سواء داخل البلاد أو في الخارج. ذات مرة كان يخطب في باكو (عاصمة أذربيجان – من دول الاتحاد السوفييتي السابق – المترجم) وفي وسط الخطبة انتقل لموضوع آخر، ثم أدرك أن في الأمر شيء ما غير طبيعي، وبدأ يبحث في الأوراق ويقلبها، ثم استدعى رئيس الحرس، ومال عليه وهمس في أذنه. ريابينكو ظل يبحث عن أحد مساعديه، الكسندروف، وبمجرد أن لمحه ذهب إليه، لكن مساعد بريجنيف أدرك أين المشكلة بسرعة وبدأ يبحث بارتباك عن الصفحة الناقصة في النسخة الاحتياطية، لكن للأسف كل الحضور فهموا المشكلة.

من المتسبب فيما حدث؟، لا أعرف، لكن السكرتير العام وبخ بشدة فيما بعد مساعده.

وقعت حادثة مثل هذه في الخارج، في المجر. في الصباح ألقى بريجنيف خطابا وأعاد الأوراق إلى ك. روساكوف، الذي كان يعمل حينها في الجهاز المساعد. في الساعة الثانية عشرة كان بريجنيف من المفترض أن يلقى خطابا أمام البرلمان المجرى. قبل عدة دقائق من خروجه لإلقاء الخطاب، أعطاه الكسندروف وروساكوف النص وخرجا في هدوء إلى الغرفة المجاورة لشرب القهوة. وبينا هو في الطريق لإلقاء الخطاب اكتشف أن ما بيده الخطاب الذي ألقاه في الصباح. استدار بريجنيف بارتباك، وعندما شاهدني، استدعاني بإشارة لكي أذهب إليه، في لحظة كنت إلى جواره، قدم إلى الأوراق التي كانت معه ونطق بكلمة واحدة: أين؟.

أنا مررت بعيني سريعاً على السطور الأولى، وفهمت فظاعة ما حدث، وانطلقت من المكان فوراً بحثاً عن المساعدين، وبمجرد أن رأياني كلاهما فهما ما حدث. سألتهما " أين الخطاب "؟، مع بريجنيف أجاب روساكوف.فقلت له " ابحث عندك " قام روساكوف بيدين مرتعشتين يبحث في جيوبه، وأخرج من جيبه أوراقا. خطفت من يده الأوراق ونظرت إلى النص وجريت بسرعة عائداً إلى بريجنيف. كانت جلسة البرلمان قد بدأت والأبواب أغلقت. من حسن الحظ أن الحراس المجريين كانوا يعرفونني، وبمجرد أن دخلت للقاعة أعلن رئيس جلسة البرلمان عن خطاب بريجنيف السكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفييتي.

لحظة كانت شديدة التوتر، فلو تأخرت لوقف بريجنيف على المنصة مسلوب الإرادة، كما الأطرش والأخرس، لحسن الحظ لم يلحظ هذا الأمر أحداً من المحيطين.

بالطبع هذه المواقف الطارئة لم تمر هكذا دون أن تترك أثرا على صحة المساعدين وصحتي شخصياً، فقد كانت الأعصاب تتوتر إلى أقصى درجة.

الفصل التاسع

الزملاء العواجيز

ذات مرة اتصل اليكسي كوسيجين (رئيس الوزراء السوفييتي آنذاك ــ المترجم) ببريجنيف أثناء تواجده في البيت الريفي في زافيدوفو. بريجنيف في هذه اللحظة كان يتنزه، والضابط النوبتجي أخبره بأن: بريجنيف ليس في نطاق منطقة الاتصال.

بعدها بقليل اتصل كوسيجين مرة ثانية، وبطريقة تحمل روح الفكاهة حكى لبريجنيف عن محاولة الاتصال الأولى الفاشلة، وبدا من طريقة الحديث كما لو كان يتهم السكرتير العام بأنه لا يرغب في الحديث مع رئيس الوزراء.

بعد الحديث مباشرة استدعى بريجنيف رئيس الحراسة الكسندر ريابينكو وعنفه بشدة: لماذا توقعون بيني وبين الناس الذين يديرون الدولة؟ عملكم ليس الأمن الجسدي فقط، ولكن العلاقات المتبادلة داخل القيادة. من هؤلاء الأغبياء الذين يتعاملون مع التليفون؟

ووجه له سبابا قذرا.

في نفس اليوم تمت السيطرة المباشرة على مثل هذه الأمور من قبل ريابينكو ومن قبل نوابه، وأصبح من يعمل على التليفون ضابط حراسة خاصة، وأعطى بريجنيف لنا تعليمات: إذا اتصل رئيس الوزراء كوسيجين، أو رئيس الكي جي بي أندروبوف أو وزير الدفاع أوستينوف أو سكرتير اللجنة المركزية أيديولوجي الحزب سوسلوف، يجب أن توصلوني بهم على وجه السرعة سواء في الليل أو في النهار. وقال: هؤلاء الناس لا يتصلون لأمور تافهة.

في الحقيقة اليكسي كوسيجين عندما يكون بريجنيف في رحلة استجمام كان نادراً جداً ما يهاتفه، بين هذين الشخصين العلاقات كانت غير بسيطة ، كوسيجين بطبيعته غير المندفعة وشخصيته الجافة، كان بعيداً عن بريجنيف، لكن السكرتير العام كان يقدر ويحترم شخص رئيس الوزراء كمهني وعلى دراية بالأمور الداخلية والاقتصاد، فقد كان مهنياً بحق. لو أبلغنا بريجنيف بأن كوسيجين على التليفون كان بريجنيف يترك القضايا الأخرى ويمسك بسماعة التليفون. وفي أسوأ الأحوال كان يهاتفه بنفسه فيما بعد، كان بريجنيف يدرك أنه أقل معرفة من كوسيجين بأمور الدولة، وبالتالي كان حديثه معه بعدم ثقة وبخجل. أحياناً يكون الحديث بينهما بدون قيود فيلقون النكات، لكن رغم هذا يكون التوتر محسوساً. بمجرد أن يضع بريجنيف السماعة تشعر وكأنه استرخى وتخلص من عبء ثقيل.

كوسيجين كان يعرف قدر نفسه، كان يتحدث بكرامة، ولعله الوحيد من القياديين الكبار المحيطين ببريجنيف الذي لم يتملق بريجنيف ويصفه بالحكمة والرشاد.

اليكسي كوسيجين كان يحب جداً التنزه في الهواء الطلق. ومرات كثيرة كان يمشي
على قدميه جزءا من طريق العودة لمنزله من الكرملين إلى بداية شارع لينين. في
الطريق يعرج على شارع ديمتروف ويدخل السوبر ماركت. بعد أول زيارة له لهذا المحل
أصبحوا يحضرون كل السلع إليه، وأصبح واحداً من أحسن محلات موسكو.

كان كوسيجين يحب رياضة التجديف. ذات مرة وأثناء قيامه بنزهة في قارب
بمفرده، انقلب بالقارب في المياه وأصبح هو والقارب في المياه الباردة، كان رد الحراسة
سريعاً ولحظياً فقد هرعوا لإنقاذه بسرعة، وقد حصل فيما بعد أفراد الحراسة على أوسمة
تقديراً لدورهم.

بعد وفاة كوسيجين تم تسمية الشارع الذي كان يقيم فيه باسمه، والمحل الواقع في
شارع ديمتروف، أصبح من جديد عاديا ككل المحلات الموجودة في العاصمة.

كذلك كان ميخائيل سوسلوف بعيداً بشخصيته عن بريجنيف. كان حتى وفاة
بريجنيف يعتبر عملياً الرجل الثاني في الحزب، وكان شخصية مفرطة في الحرص،
مدققا، ذو عقيدة متحجرة في كلماته وتصرفاته، كما أنه كان شخصاً عنيداً جداً. فهو كان
الأيديولوجي الرئيسي في الحزب وكانت تخشاه طليعة المثقفين والمبدعين في أوساط
القيادة العليا. شخصية هذا الإنسان وعاداته كانت مدعاة للسخرية، فكم يساوي هذا الحذاء
المطاطي (الحذاء المطاطي يرتدى فوق الحذاء العادي لحمايته من المطر والبلل –
المترجم) فقط والذي لم يفارقه أبداً، حتى عندما يكون الطقس صحواً، وأصبح مثل بطاقة
التعريف به، كيف؟!. على أية حال ليس هذا هو العلامة المميزة فقط، كان كذلك المعطف
القديم الذي يرتديه منذ عشرات السنين إحدى العلامات المميزة، والذي كان بريجنيف
بشيء من التندر والفكاهة يقترح على سبيل الدعابة أن يجمع أعضاء المكتب السياسي
من بعضهم نقودا لشراء معطف جديد لسوسلوف. فيما بعد اقتنى سوسلوف معطفا
جديداً.

عندما كنا نسير في اوتوستراد موجاى، تقلل السرعة إلى حوالي ٦٠ كم في الساعة
ويكون أمامنا تكدس سيارات. فيقول بريجنيف بسخرية: ربما ميخائيل (يقصد سوسلوف)
في السيارة التي أمامنا !.

بريجنيف كان يتحدث للجميع بصيغة المفرد" أنت " ولو كان الحديث ليس أمام
أشخاص غرباء كان ينادي الشخص بالاسم يورا، كوستا، نيكولاي. أما سوسلوف فلم
يستطع أن يناديه باسمه إلا إذا كان غير موجود، وكان يناديه فقط باسمه واسم أبيه مثل
كوسيجين (في اللغة الروسية لا توجد ألقاب إنما صيغة الاحترام هي أن تنادي الشخص
باسمه واسم أبيه معاً، بريجنيف كان يقولون له ليونيد إليتش، والمخاطبة بصيغة الجمع –
المترجم) يبدو لأن السكرتير العام كان يشعر بثقة أقل في نفسه أمام سوسلوف كما أمام
كوسيجين من الآخرين، لأن هذا وذاك كانا أحياناً يعترضان عليه. حدث أن كان الجميع
"موافق" باستثناء سوسلوف "ضد" وعندما تتخذ قرارات بخصوص أوسمة أو جوائز، كانت
الأمور تسير كما السكين في الزبد، وهنا كان دائماً ما يخرج شخص ويقول " كيف ينظر

إلى هذا ميخائيل أندرييفتش (سوسلوف)؟ فيرد بريجنيف "اشرحوا له" ثم يصمت برهة ويقول "أنا بنفسي سأتحدث إليه".

أقرب إنسان لبريجنيف من القيادة العليا المحيطة به كان بلا شك يوري أندروبوف رئيس الكي جي بي، كان مهما بالنسبة له بشكل غير عادي، فقد كان أندروبوف على رأس أكبر مؤسسة ليست تحت سيطرة أحد عملياً وهي الكي جي بي فقد كانت على علم ليس فقط بكل ما يدور في البلاد، وليس فقط بالفساد والجريمة والمؤامرات المحتملة بل وبحالة الاقتصاد أيضاً والعلاقات بين القوميات وقضايا العلاقات الدولية والمزاج العام عند الشعب. كان أندروبوف إنسانا مثقفا للغاية متعلما منزها عن الأغراض، شريفا، يؤمن بالقيم الاشتراكية. كان يذكرني ببلاشفة بداية القرن. مع وجود شخص على علم ومخلص مثل هذا كان بريجنيف في أمان من أي مفاجآت غير سارة. أنا سمعت أن بريجنيف كان يعد أندروبوف لتولي منصب الرجل الثاني في الحزب بعد وفاة سوسلوف، لكن لشيء ما فشل.

أندروبوف كان على درجة عالية من الأدب في كل الأحوال في علاقته ببريجنيف. بدون اتصال تليفوني مسبق لا يحضر أبداً، ولا يزعج السكرتير العام بأمور تافهة أبداً، ولم يكن يزعجه لا بالاتصال ولا بالزيارات على وجه الخصوص. يتصل مساعده – كريوتشكوف– وهو أيضاً مثل رئيسه، وكلاهما شخصان مدنيان وكلاهما لديه لباقة في التعامل، وأجيبه: "فلاديمير الكسندروفيتش (كريوتشكوف) (شغل بعد ذلك منصب رئيس الكي جي بي وانتهت حياته الوظيفية باشتراكه في انقلاب أغسطس وحوكم وسجن، ثم أفرج عنه ــ المترجم) عنده ضيوف الآن". فيجيب إذا كان الأمر عاجلا: "ابلغه في كل الأحوال"، أو" ابلغه بمجرد أن ينتهي ". وعندما كان يتصل أندروبوف بنفسه، في البداية كان يسأل عن صحة بريجنيف أولاً، فأجيبه: عنده الآن فلان وفلان، وبعد ذلك فلان وفلان. أسأل "هل أبلغه الآن؟" فيقول: "لا، لا داعي لست مستعجلاً. عندما يكون غير مشغول اتصلوا بي ".

تشيرنينكو وكيريلينكو وتيخونوف ويمكن آخرين كانوا يتصلون ببريجنيف مباشرة. أندروبوف فقط من خلالنا (الحراسة – المترجم) أو من خلال السكرتارية. كيريلينكو كان يستطيع أن يهز بريجنيف من أكتافه ويقول له " آآ يا لونيا"، لم يكن هناك تكليف بين بريجنيف وبودجورني (كان رئيس مجلس السوفييت الأعلى – المترجم) فكان أحياناً يقول له " ليونيد أنت....". أندروبوف كانت علاقته بالسكرتير العام تتسم بالاحترام دائماً، ويتحدث إليه باسمه واسم الوالد (دليل على الاحترام وحفظ المقام والمسافة في اللغة الروسية – المترجم).

أعتقد أن أندروبوف كان بالنسبة لبريجنيف جليس طيب حتى عند مناقشة القضايا المعقدة، وفي حالة استفسار بريجنيف عن أي شيء كان أندروبوف بنفسه يقول النصيحة بشكل ليس فيه فرض للرأي، ويجاوب بحيث لا يضطر بريجنيف للتفكير، كأنه كان رحيماً ببريجنيف، آخذاً في الاعتبار انشغاله، ثم مرضه. هذا السلوك في الحديث مع القيادات

العليا كان من تقاليد الجهات الأمنية، حتى على مستوانا نحن، إذا توجه أي منا إلى جنرال في مشكلة ما فإنه كان يتعمق في جوهرها ويحللها "مع " و" ضد" ويحفظ في رأسه رد القيادة المتوقع.

أكثر من مرة كنت شاهداً على أحاديث بريجنيف مع أندروبوف. كان أندروبوف يدخل هادئاً حصيفاً ويقول: " عندي يا ليونيد إليتش عدة مشاكل ". كان يقدمها بوضوح وباختصار، ويتحدث وكأنه يعتذر عن أنه يشغل وقت السكرتير العام عن قضايا أخرى مهمة. عادة يصمت بريجنيف قليلاً مفكراً، فيملأ أندروبوف هذا الفراغ بحرص قائلاً: أعتقد أننا يجب أن نتصرف بهذا الشكل، ما رأيكم؟".

كل المشاكل كانت تحل بنفسها دون جهد، وتنتهي المقابلة إذا لم يسأل بريجنيف فجأة: " يوري ماذا تأكل في وجبة العشاء؟ وكيف تقاوم زيادة الوزن؟"، فيرد أندروبوف: أنا لا أقاوم الوزن الزائد"، نفس الأسئلة كان يسألها بريجنيف لتيخونوف (رئيس وزرائه قبل وفاته) وكان نحيفاً، وكان يستمع ثم يستدعي ريابينكو ويقول: أريد على الإفطار والغداء والعشاء ما يأكله تيخونوف، أنظر كم هو نحيف!

السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف كانت تحترم أندروبوف وزوجته جداً، حيث لم تكن زوجة أندروبوف تهتم بالسياسة ولا تتدخل في شئون زوجها في إدارة الدولة شأنها في ذلك شأن السيدة فيكتوريا.

حالة الثقة التي غمر بها بريجنيف زملائه أدت للأسف إلى أنه لم يتعمق في جوهر المشاكل، والآن بعد وفاته بأعوام تبين أن هذه المشاكل مرت عليه دون أن يلحظها. هل هذه أخطاء أم عدم مسئولية الذين كانوا ينفذون التعليمات؟ لا أدرى،لكنها في كل الأحوال أصبحت فيما بعد بقع سوداء على ثوب السكرتير العام. نعم، صحيح هو الذي كان يقود البلاد، وهو المسئول عن كل شيء.

بالتحديد في عصر بريجنيف اندلعت حركة المنشقين، والرافضين، والذين كانوا مضطرين لترك الوطن أو الذين تم إبعادهم للخارج أو المنافي أو معسكرات الاعتقال. الأمر المثير للدهشة الشديدة أن بريجنيف شخصياً كان ينظر للمنشقين بهدوء ودون قلق، لكن أندروبوف كان يأتي وكشيوعي مخلص ثابت على طريق الاشتراكية ويخبره، وكان يعطى بنفسه الردود على الأسئلة التي يطرحها وكان بريجنيف يجيبه: هيا اشتغل، لو الكي جي بي يعتقد.....

ساخاروف، سولجنتسين، جالاسكوف، دانييل، سينيافسكي، مكسيموف، بوكوفسكي ..... عن كل هؤلاء بالاسم أخبر أندروبوف بريجنيف!

ناهيك عن الحرب في أفغانستان، أتذكر جيداً وأثناء زيارة لبريجنيف لإحدى الدول الاشتراكية، هاتف أندروبوف السكرتير العام بريجنيف وأخبره بأن حفيظ الله أمين قتل نور تراقي واستولى على السلطة في أفغانستان. توتر بريجنيف وغضب، وتحدث عن تراقي كشاعر قومي وكاتب، وكإنسان. تذكره بالخير. ولم يتحدث أحد حينئذ عن التدخل العسكري على الإطلاق.

لكن فيما بعد كل أعضاء المكتب السياسي أصبحوا عملياً يجتمعون يومياً في الغرفة الجوزية (الغرفة كل أثاثها من شجر الجوز في الكرملين لذلك هكذا سميت – المترجم) واستمرت هذه الاجتماعات لعدة أشهر. أندروبوف رئيس الكي جي بي ودميتري أوستينوف وزير الدفاع وأندريه جروميكو وزير الخارجية أوهموا بريجنيف بخطورة مجاورة قوات دول حلف شمال الأطلنطي لحدودنا الجنوبية، وعلى هذا الأساس قرروا التدخل " بعدد محدود من القوات " وأن كل شيء سيعود إلى أصله، ولم يفكروا في أن الحرب ستستمر لعشر سنوات وأن خمسة عشر ألفا من شبابنا سيموتون هناك، وأن بلادنا ستوصم بالعار.

للحق أقول، لم تكن هناك حاجة لإقناع بريجنيف بالتدخل في أفغانستان، فهو في هذا الوقت كان قليل الاستيعاب.

الآن يتحدثون عن أن أندروبوف قاد حرباً حاسمة ضد الجريمة والفساد. نعم عندما أصبح سكرتيراً عاماً، لكن أين كان في السابق؟ كل المعلومات كانت لديه وبين يديه، هل من المعقول تكون محاربة الجريمة ضرورية وأنت فقط على رأس الدولة؟ (بالمناسبة كل المعلومات عن شيلكوف وشوربانوف وجالينا وصلت إليه ولكنه لم يتخذ قرار تقديمها لبريجنيف – المؤلف). لقد كانت هناك محاولات لكنها لم تكن جادة وعلى استحياء.

ذات يوم كنت متواجداً في مكتب بريجنيف عندما هاتفه أندروبوف، الاتصال انتقل من سماعة التليفون إلى الميكروفون، كل شيء كان مسموعاً، هممت لكي أخرج من المكتب، لكن بريجنيف أشار إلى بيده أن أبقى. أندروبوف أبلغ بريجنيف عن ميدونوف السكرتير الأول للحزب في منطقة كراسنودار، وتحدث عن أن جهات التحقيق لديها معلومات مؤكدة وأدلة على أن الزعيم الحزبي يقوم باستغلال سلطاته، وفي هذه المنطقة الفساد مزدهر ومتنامي.

و كما هي العادة كان بريجنيف ينتظر اقتراحا محددا: ماذا سنفعل؟ فرد أندروبوف: نقيم دعوى جنائية ونعتقل ميدونوف ونقدمه للمحاكمة.

بريجنيف الذي عادة ما يوافق على كلام أندروبوف، لم يرد على اقتراح أندروبوف لبرهة من الوقت، ثم أخذ نفساً عميقاً ثقيلاً وقال: يورا لا يجب أن تفعل هذا، فهو يرأس منظمة حزبية كبيرة والناس وثقت به وسارت خلفه، ونحن الآن نقدمه للمحاكمة؟ ناهيك عن أن الأمور في المنطقة بصفة عامة تسير بنجاح، ونحن بسبب شخص واحد عديم ضمير نسيء لمنطقة بأكملها.... انقله لمكان آخر في أول فرصة وبعدها سنبحث ماذا سنفعل معه.

فرد أندروبوف: إلى أين ننقله يا ليونيد إليتش؟ فرد بريجنيف: إلى أي مكـــــان، نائب وزير أو شيء من هذا القبيل. وانتهى الحديث الذي استمر حوالي عشر دقائق عند هذا.

كان بريجنيف يشعر بالأسى فقد كان ميدونوف من اختياره ولكنه خذله، ولم يكن لدى بريجنيف أي شك في أن ما قاله أندروبوف حقيقة.

ميدونوف لم يسقط من دائرة القيادة بدعوى عدم تفشي الشائعات واللغط وانتشار أحاديث كثيرة، وحتى لا تتسرب معلومات.

أحياناً كان بريجنيف لا يرغب في تصديق التقارير. على سبيل المثال كان بريجنيف يعرف من قادة الكي جي بي وتشوربانوف الذي كان يذهب كثيراً لأوزبيكستان، الكثير عن تصرفات ومخالفات السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوزبيكستان رشيدوف. وكان يعرف الكثير أيضاً من خلال " فاعلي الخير"الذين ينقلون إليه ما يحدث في أوزبيكستان، لكن بريجنيف استمر محافظاً على صداقته مع رشيدوف، وقد حضرت نصردينوفا رئيسة مجلس السوفييت الأعلى في أوزبيكستان إلى موسكو خصيصاً لكي تشكو رشيدوف لبريجنيف، وحاولت مقابلة بريجنيف، لكنها فشلت في ذلك، فقد تواترت عنها أحاديث سيئة كثيرة، وكان من الواضح هنا أن الأمر تحول إلى صراع بين العشائر في أوزبيكستان.

الكثير من الشكاوى من القيادات الحزبية المحلية كانت تقدم إلى السكرتير العام أثناء تجواله في البلاد، لكن لم يكن لها أي أثر، لا أثناء حكم بريجنيف ولا أثناء حكم جورباتشوف. أتذكر الشكاوى الكثيرة التي قدمها الناس إلى جورباتشوف ضد السكرتير الأول للجنة الحزبية لمنطقة نوفوسيبيرسك، وفي تشيورنى: السكرتير الأول للجنة الحزبية لضاحية خاباروفسك. الشعب كان يقول كل ما كان يفكر فيه بشكل مباشر ودون مواربة، لكن لم يكن هناك أي رد فعل.

"استقرار الكوادر – ضمانة للنجاح" هذا الشعار رفعه سوسلوف، وبريجنيف تلقفه ونفذه بحذافيره على أرض الواقع، فقد كان بريجنيف يعتقد أن استمرارية الكوادر في أماكنها أحد ضمانات استقرار حياة الدولة وتماسكها. وكان بريجنيف فخوراً بأنه أثناء فترة قيادته كل الكوادر الحزبية القيادية كانت راسخة على كراسيها، ولم تكن هناك أي تغييرات تذكر.

هكذا نشأت ما عرف " بفترة الركود ". الكثيرون في أماكنهم كانوا يشعرون بأنهم محصنون، أصبحوا يعملون لصالح أنفسهم فقط، ومن القادة الحزبيين انتشر الفساد والرشوة والسرقة انتشاراً سرطانياً في البلاد.

كان السكرتير العام يستقبل السكرتاريين الأوائل القادمين من الجمهوريات المختلفة في أي وقت، أثناء المؤتمرات الحزبية، والمؤتمرات العامة حيث كانوا يتجمعون في مجموعات من ١٥ – ٢٠ شخص. بريجنيف أو مساعده كان يقترح عليهم أن يدخلوا معاً، إلا إذا كان لدى أي منهم مشكلة شخصية فإنهم يدخلون فرداً فرداً. دخلوا معاً، من أراد منهم أن يبقى في المكتب العالي بقى. بعد مثل هذه المقابلات، كان مزاج السكرتير العام يتحول إلى الأحسن: فقد رأى الناس وحصل على شحنة من النفاق والمداهنة، والجميع نظروا إلى فمه (تعبير روسي ينم عن النفاق، بادعاء الاهتمام والسماع لكلمات ممن هو أعلى في المنصب – المترجم).

" فريق العمل " كان يتشكل بمبدأ الولاء الشخصي، ببساطة لم يكن هناك نظام آخر لاختيار وانتقاء الكوادر، بالطبع حتى في الدول الديموقراطية توجد المبادئ التي بمقتضاها يعين الناس في الدائرة المحيطة بالرئيس، منها أنه معروف جيداً، لكن بالدرجة الأولى يجب أن تكون لديه الكفاءة العلمية. عندنا الأمر مختلف: فدائماً وحتى قبل مجيء بريجنيف للسلطة بفترة طويلة، العنصر العشائري بل وحتى نظرية المؤامرة هي العامل الحاسم.

أن تتواجد في دائرة السكرتير العام، وأن تحوز اهتمامه العالي أصبح هدفاً في الحياة. ذات مرة وأنا في غرفة الاستقبال لمكتب بريجنيف، سمعت رنين التليفون فهرعت إلى المكتب بسرعة. كان بريجنيف يجلس إلى المكتب ويتحدث مع شخص ما بالتليفون، أومأ إلى بصمت وبابتسامة خفيفة مد يده بسماعة التليفون إلى، سمعت صوت كابيتانوف الذي كان يبلغ السكرتير العام بنفاق عن لقائه الممتاز مع الناخبين، وعن أن هذا اللقاء أكد كيف أن شعبنا يحب قائده الحكيم ليونيد إليتش بريجنيف، وقلق على صحته، وأن الشعب يحلم بلقائه.. وهكذا. استمعت لعدة دقائق لهذا البركان الكلامي من المديح، وعندما انتهت وصلة النفاق استعاد بريجنيف سماعة التليفون.

و بعد الحديث ضحك بريجنيف وأشار إلى التليفون الذي لم يبرد بعد وقال: عنده رغبة شديدة لأن يكون عضوا مرشحا للمكتب السياسي .

وفي نهاية المطاف لم يصبح مرشحا لعضوية المكتب السياسي.

حالة وحيدة صادفتها لرفض التعيين في منصب، للدقة محاولة رفض.

كنت في مكتب بريجنيف عندما دخل إليه سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بيوتر نيكولايفيتش دميتشوف. وكما هي العادة أردت الخروج لكن بريجنيف استوقفني، كان من المفترض أن يصادق المكتب السياسي على تعيين دميتشوف وزيراً للثقافة، وجرت العادة أن يأتوا في مثل هذه الحالات، لشكر السكرتير العام على الثقة التي منحها، والوعد بأن يبذل قصارى جهده لتحقيق..... الخ. بدلاً من هذا جاء بيوتر نيكولايفيتش دميتشوف ليرفض المنصب ويقول إنه لا يمكنه قبول هذا المنصب وأنه غير مستعد، وليس لديه خبرة في هذا المجال، وقال شيء آخر لا أذكره.

لم يكن بريجنيف يحب الرفض ممن هم في مستوى سكرتيري اللجنة المركزية، لكن الرفض هذه المرة لم يستدع عنده لا غضب ولا حتى ضيق وكل ما في الأمر أنه أجابه بحسم: هذه الأسباب غير مقنعة، المسألة ستحسم الآن في المكتب السياسي.

بريجنيف كان جالساً بينما ديميتشوف واقفاً، كل الحديث استغرق دقيقتين – ثلاثة، خرج ديميتشوف معكر المزاج بعدها.

الأهم أنه في المكتب السياسي لم يكن لدى أحد أي شك في أن هذا الشخص ليس له علاقة بالأمور الثقافية على الإطلاق، وهو نفسه اعترف بعدم وجود خبرة لديه بها لكي تكون منه فائدة ترجى في المكان الجديد. من المعروف أن بريجنيف كان يعتقد بأن السياسي الذي يدخل في زمرة القيادات الحزبية الكبيرة يستطيع أن يرأس أي شيء.

و لو دار الحديث عن الحلقة المقربة، فإن كل الأمور المتعلقة بمن يقرب ومن يبعد، كان بريجنيف يقررها بنفسه، المرشحين الأقل أهمية كان يختارهم له مساعدوه. وإذا دار الحديث عن السكرتارية الأولى لمنطقة أو ضاحية، فإنه كان يتعين على كل واحد منهم أن يدخل إلى السكرتير العام في مكتبه للمقابلة.

نظام التعيين والفصل لم يتغير، لكن كانت هناك لحظة عندما أحس بريجنيف بأنه غير مرتاح. أتذكر جيداً كيف كان قلقاً قبل أن يحيل ك. مازوروف للتقاعد، فقد كان يشغل منصب النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء السوفييتي وعضو المكتب السياسي ونائب في مجلس السوفييت الأعلى وحاصل على لقب بطل العمل الاشتراكي، وكل مجموعة الأوسمة والألقاب التي من الممكن الحصول عليها آنذاك، فقد قدم لبريجنيف مساعدات مباشرة كثيرة، وأشرف بنفسه علي تنفيذ عملية براغ في أغسطس عام ١٩٦٨ (غزو تشيكوسلوفاكيا لإجهاض الثورة) ماذا حدث في أعلى هرم السلطة أدى لقرار مثل هذا؟ لا أدرى! بينما كنا عائدين بعد رحلة صيد من زافيدوفو قام بريجنيف بالاتصال بتشيرنينكو من السيارة قائلاً: كوستا (يقصد تشيرنينكو – المترجم) سيكون عندي حديث مع مازوروف عن إقالته.... كيف يمكن عمل ذلك؟ من الأفضل أن أستدعيه إلي أم ماذا؟....

السكرتير العام كان قلقاً: مازوروف إلى حد ما ليس شاباً، ولكن لديه طاقة وقدرة على العمل، من الممكن أن يرفض الإقالة! ولهذا قبل المؤتمر العام وفي قاعة الاجتماع مباشرة، جلس بريجنيف مع مازوروف، وأقنعه بأن يتوجه للمؤتمر العام بطلب استقالته. وكما هي العادة كل شيء سار على ما يرام.

وماذا إذا لم يوافق مازوروف؟ ورغم أن هذا عملياً مستبعد، فإن السلطة لديها وسائل كثيرة لمعاقبة غير المرغوب فيهم، والعكس مكافأة المطيع، حتى لو كان مقالاً من منصبه الرفيع. مثلاً تعيينه سفيراً مفوضاً فوق العادة، هذه ممكن أن تكون مكافأة وعقابا في نفس الوقت. الأمر يتوقف على الدولة التي سيعين فيها سفيراً. أو التعيين في مجموعة التفتيش الشهيرة بوزارة الدفاع. هناك الكثيرون أنهوا حياتهم محتفظين بكل المزايا والإعفاءات، وعملياً لا يفعلون شيئاً.

أنا لا أستبعد أن تكون إحالة مازوروف للتقاعد كانت بتلقين من شخص ما، ليونيد إليتش ربما أراد أن يؤمن نفسه من جهة ما. على سبيل المثال كم وثق بريجنيف في أندروبوف، وكم استمع لآرائه، لكن نائباً له عين الأكثر وفاءً: س. تسفيجون، والذي كان يعرفه منذ أمد بعيد عندما كان يعمل في مولدافيا. تسفيجون كان يتسلى بتأليف الكتب، وكانت موضوعاته الرئيسية يقظة الكي جي بي، ورجال حرس الحدود. بريجنيف طلب مني: وصلني يا فولوديا (اسم مختصر لفلاديمير – المترجم) بهذا، ما اسمه؟... فسألته مع من؟ فقال مع هذا الكاتب... فقلت: مع تسفيجون؟ فرد: نعم. نعم.

تسفيجون مع نهاية كل حديث وهو يودع بريجنيف كان يقول ضاحكاً لبريجنيف: ليونيد إليتش! الحدود مغلقة بقفل!...

هكذا كانت الفكاهة!

أحد الأشخاص المقربين ومن زملاء بريجنيف كان كونستنتين تشيرنينكو، فقد عملا معاً في مولدافيا، ومنذ ذلك الوقت رافق تشيرنينكو بريجنيف حتى نهاية حياته.أنا عاصرت كونستنتين تشيرنينكو عندما كان يرأس القسم العام في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، نفس المنصب كان يشغله في مولدافيا، أي أنه كل حياته كان في جهاز الحزب. بريجنيف كان يخاطب الكثيرين بصيغة المفرد " أنت"، لكنه على الأقل في وجود آخرين كان ينادى زملائه بالاسم واسم الأب دلالة على الاحترام. لكن تشيرنينكو كان يناديه في وجود الجميع " كوستيا أنت" في دلالة على حميمية الصداقة.

الخدمة في الجهاز لم تكن تحتاج إلى عقلية خاصة أو معرفة، الخبرة هي الأهم. وعلى الرغم من حكومية هذا الجزء من العمل إلا أنه كان مهماً، فالقسم العام للجنة المركزية كان يعد كل الأوراق الخاصة باجتماعات المكتب السياسي والسكرتاريات، والاجتماعات واستقبال ووداع الوفود، وعملياً كل أيام عمل السكرتير العام كان يعدها القسم العام. وكان العاملون في هذا القسم يمكثون في أماكن عملهم حتى الساعة ١١ – ١٢ ليلاً.

بالطبع تشيرنينكو كان يعرف مهام عمله، وعندما كان بصحته كان يستطيع هضم حجم كبير من المعلومات، وكان يتميز بحب العمل والضمير الحي والقدرة على التنفيذ، لكنه عندما ضعف جسمانياً بدأت الأخطاء وكان بريجنيف يوبخه ويقول له: ماذا حدث لك يا كوستيا؟ هل نسيت؟ أو يقول له: يجب أن تفكر وتستوعب!

تشيرنينكو كان يخرج من المكتب في حالة يرثى لها: وجه أحمر ويدان ترتعشان.

من المحيطين بالسكرتير العام من الصعب إغفال أندريه جروميكو وزير خارجية الاتحاد السوفييتي. لقد كان دبلوماسياً ليس فقط بمنصبه، ولكن بطبيعته الإنسانية، لا أتذكر أنه حتى ولو مرة واحدة اختلف مع السكرتير العام في أي شيء. جروميكو من وجهة نظري كان مناسباً للجميع.

اوستينوف، جروميكو، أندروبوف، تشيرنينكو، تيخونوف، كولاكوف، كيريلينكو: في الأعياد كانوا يذهبون إلى البيت الريفي في زافيدوفو. أحيانا كان يذهب بوجايف، الطيار الخاص السابق لبريجنيف، وأصبح وزيراً للطيران المدني فيما بعد. عندما كان بريجنيف أصغر سناً كان يستقبلهم بنفسه عند مدخل البيت في الأسفل، فيما بعد كانت السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف تطلب منى: فولوديا ساعدهم على خلع المعاطف.

كنت أساعدهم في خلع معاطفهم وهم يساعدون زوجاتهم في نفس المهمة. وعندما يلتئم الشمل كنت أصعد لأعلى وأبلغ بريجنيف: ليونيد إليتش الجميع وصلوا.

حدث وأن حضر جيدار علييف (فيما بعد رئيس أذربيجان ـــ المترجم) مرتين إلى البيت الريفي في زيارة عمل بمفرده، منفصلاً عن الآخرين.

أنا لا أستطيع أن أسمى أي من هؤلاء الأشخاص رفيق. على هذا المستوى لا يوجد رفاق. رفاق في الحزب نعم، بمعنى زملاء.

أسمح لنفسي أن أؤكد أن بريجنيف كان يميز البشر جيداً بما فيه الكفاية، على أية حال لم يتعرض للغدر به من رفاقه، كما حدث مع سلفه خروشوف، ومن بعده جورباتشوف.

في إطار نظام اختيار وتعيين القيادات الذي كان موجوداً قبل بريجنيف بزمن بعيد، الكوادر التي كانت تختار كانت قوية: كوسيجين، أندروبوف، أوستينوف كانوا شخصيات بارزة. الأمر اختلف في أنهم تقدموا في العمر، وفقد الكثيرون منهم ليس القدرة على العمل فقط ولكن العقل أيضاً مع عدم الرغبة في ترك مواقعهم، وحرصوا على بقاء السكرتير العام نفسه في موقعه، والذي كان فاقداً للعقل معهم.

خضوع وطاعة تشيرنينكو أخذت شكل التقليد. ذات مرة في مكتب بريجنيف دار حديث عن أن بريجنيف لا ينام جيداً، فأجابه تشيرنينكو كما هي عادته والتي أصبحت عبارة مشهورة فيما بعد: " كله جيد، كله جيد ". بريجنيف كرر: " لا أستطيع النوم في الليل "، تشيرنينكو الذي كان يتناول كمية كبيرة من المنوم في ذلك الوقت والمتدهور صحياً مثل السكرتير العام، من جديد أجاب كما لو كان لم يسمع أو ربما لم يفهم: " كله جيد"، عندها استشاط بريجنيف غضباً وصرخ بصوت عالي: ما الجيد هنا؟ أنا لا أستطيع النوم وأنت "كله جيد؟ " .

حينها استيقظ تشيرنينكو فجأة وقال: آه هذا ليس جيداً!

عندما كنت استمع لحوار سخيف، كنت أمسك نفسي عن الضحك بصعوبة، بالرغم من أن الأمر يدعو للحزن أكثر من الضحك. تشيرنينكو كان سكرتيراً للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، إلا أن علاقة بريجنيف به كانت كما لو كان موظفا في القسم العام، لقد كان المشهد محزنا، عندما كان تشيرنينكو يخرج من مكتب بريجنيف يطلب منى أن أدخل وأبلغه معلومات إضافية عن أمور ناقشها معه بالفعل ".

كنت أدخل، وبطريقة حسيسة أدقق نظام اليوم التالي: الاستيقاظ الساعة كم.... بريجنيف كان ينفجر غضباً ويقول: الآن ذكر تشيرنينكو ميعاد آخر متأخر ساعتين. ثم نستدعي السكرتيرة جالينا دوروشينا ونستوضح منها الأمر، أيّ من فاقدي الذاكرة العواجيز أخطأ ؟!.

المشكلة الأهم ليست حتى في الأمراض وتداعي القادة، ولكن في أنهم كانوا يحاولون إخفاء هذا، تشيرنينكو كانت رئتيه ضعيفتان جداً، كان يلهث، ولا يمشي بصعوبة فحسب، ولكنه كان أيضاً يتكلم بصعوبة، كان يخرج للعمل وهو مريض. من يستطيع أن يحسب الآن كم يوم وكم شهر ويمكن كم من الأعوام اختصر من حياته، بخروجه مع بريجنيف للصيد وانتظاره ساعات طويلة في البرد، خوفاً من أنه إذا رفض الخروج للصيد أن يؤدي هذا لعدم رضاء رئيسه عنه، ولذلك أخفى مرضه.. في الحقيقة، الكرسي أغلى من الحياة. لقد كانوا يحاولون إخفاء ما أصبح إخفائه غير ممكن.

لا أتذكر على وجه الدقة أين حدث هذا، يبدو أنه في بولندا، نعم في بولندا. بعد مباحثات كان وفدنا يهبط سلم كبير شديد الانحدار. أنا غالباً أحسست أكثر من أني سمعت

نظرت وشاهدت رئيس مجلس الوزراء السوفييتي تيخونوف يقع بطريقة خرقاء، كتفه إلى الأسفل، لا أدري انزلقت قدمه من على درجات السلم أو زلت، لكنه سقط بعجز شديد، وتدحرج إلى أسفل على جانبه على درجات السلم على الأرض واستمر يتدحرج حتى اصطدم في النهاية بأقدام جروميكو وزير الخارجية. بريجنيف نظر متأخراً وقال: ماذا حدث ؟ فقلت له تيخونوف "سقط" فرد بريجنيف: هيا هيا لا تلتفت. قالها بسرعة. إلى جوار تيخونوف الراقد على الأرض وقفت الحراسة، من حسن الحظ أنه لم يكن هناك مرافقون من الصحفيين والمصورين.

عندما قام واستعاد توازنه، سأل تيخونوف الحارس الشخصي، والذي حسب التعليمات كان يسير خلفه: أين كنت؟! وعند العودة لموسكو وفي اجتماع عام للقسم الأول للإدارة التاسعة في الكي جي بي تم توبيخ الحارس " للخطأ أثناء العمل"، وانتهى الأمر عند هذا فقد أبقوا عليه في العمل. وفي رأيي الشخصي لماذا يطردوه؟ هل لأن تيخونوف ليس قوياً؟ لم يكن هناك اعتداء علِى رئيس الوزراء حتى يتصدى الحارس له،بل التوت قدم رئيس الوزراء فقط.

لم يعد بريجنيف لهذا المشهد بعد ذلك ذوقاً وتأدباً.

ذات مرة بعد اجتماع اللجنة السياسية الاستشارية لدول حلف وارسو، حيث كانوا يعملون ويعيشون في صوفيا في مجمع فيلات حكومي، وفي المساء كان وفدنا يتنزه بين الزهور، حيث أعمدة الإنارة والطريق منير. جروميكو كان يسير بجوار بريجنيف، وفجأة وفي مكان مستو تعثر والتفت رجليه حول بعضهما ووقع وإلى حد ما بقوة أصيب بسحجات في يده، حسناً إن كان بريجنيف قريباً فقد استطاع بريجنيف أن يلتقطه ويمسك به، الأثر كان من الممكن أن يكون أسوأ. عجوز ساعد عجوزاً.

تعرض وزير الخارجية أندريه جروميكو لعدة حوادث مختلفة في عدة مناسبات. في نهاية السبعينيات تم منح بريجنيف وسام النجمة الذهبية ووسام بطل الاتحاد السوفييتي وهو الوسام الذي حصل عليه من قبل. كل الزملاء والمؤمنين بالشيوعية كانوا واقفين على مسافة مناسبة، وكانوا يتقدمون على التوالي إلى الميكروفون، وكانوا يصفقون معاً لكل مديح لزعيمهم، فجأة، يبدو أن جروميكو شعر بالإرهاق، وبدأ يسقط، من ناحية سنده أندروبوف وكان يقف إلى جواره، وشخص آخر من الناحية الثانية، والاثنين ضغطوه بينهما حتى لا يسقط وحملوه نصف مغمى عليه وأخرجوه من القاعة.

تعرض كذلك لحادث آخر مشابه لهذا بالضبط، ومن جديد حملوه إلى خارج القاعة...

مرتين ثلاثة هرع إلي حارس فوروشيلوف (أحد القادة العسكريين العظام في الحرب العالمية – المترجم) ليسأل: أين جدي؟ ألم تراه؟

فوروشيلوف أثناء المؤتمرات الحزبية كان يحيط به معارفه من لوجانسك (مدينة مناجم في شرق أوكرانيا – المترجم) وكانوا يأخذونه إلى الخارج بعيد عن الجميع وحتى عن الحراسة، زميلي اعتراه القلق لأنه يعرف أن فوروشيلوف كان يستطيع المشي بشكل

طبيعي ودون مساعدة، لكن فقط في الطرق المستقيمة، وعند المنحنيات كان ينحرف عن خط سيره ومن الممكن أن يسقط، ومن الممكن أن يسقط كذلك على السلم. هكذا كانت الحالة " الصحية عملياً " لقائد جيش سابق، والذي بقى في ذاكرة الشعب فارس جبار جسور.

أرجلهم لم تعد قادرة على حملهم.

نعم لكن هل المشكلة في الأرجل فقط....

واحد من قادة البلاد الرئيسيين في الاستراحة أثنا مؤتمر حزبي على مستوى الاتحاد السوفييتي، دخل التواليت وجلس و... نام هناك إلى أن قام الحراس بكسر الباب وأيقظوه! أنا لا أستطيع ذكر لقبه منعاً للإحراج، فهذا أمر محرج للبلاد وللدولة العظمى.

أندريه كيريلينكو الذي خلف بريجنيف في منصب السكرتير الأول للجنة الحزبية لمنطقة دنيبروبتروفسك، ويعتبر في الواقع الشخصية الثالثة في الحزب مما يعنى في الدولة أيضاً، بدأت عنده حالة ضمور في المخ، ولكنه استمر في العمل. ذات مرة في المستشفى قابلنا أندريه كيريلينكو وقال لنا أنه يستعد للاستجمام، سأله تشازوف: إلى أين ستذهبون للاستجمام؟ فقال: نعم مم.... وفكر وهو موجود كما بدا لي في حالة إنهاك: نعم ممم... إلى مكان ما على البحر. لكن الشيطان تملك لساني. وكنت أقف إلى جواره فقلت " ملقناً " إياه: ربما ستذهب إلى المكان الذي سيحملونك إليه. الجميع ضحك، لكن كيريلينكو لم يكن له أي رد فعل، ربما لم يسمع أو لم يفهم. كنت شاهد على محادثات تليفونية بين كيريلينكو وبريجنيف، كيريلينكو يتصل: ليونيد أهلا! يرد بريجنيف: أهلا. فيقول هذا. أنا أندريه. فيقول بريجنيف: أسمعك أسمعك يا أندريه. ثم يبدأ كيريلينكو: هل تعرف.... ثم يصمت، وتبدأ وقفة طويلة، بريجنيف جالس يبتسم وينتظر فيقول كيريلينكو: آسف طارت من رأسي . بريجنيف بابتسامة ورضا يقول لي: هاهو أراد أن يقول شيئاً ونسى.

بريجنيف في هذا الوقت كان قد ضعف بشكل ملحوظ واتصالات مثل هذه كانت تجلب له الشعور بالرضا، وتبعث فيه روح التفاؤل: هاهم كيف حالهم وأنا، أنظر مازلت في حالة لا بأس بها. بجانب هؤلاء الناس المرضى فاقدي الأمل، كان يشعر بأنه قوى وبصحة جيدة.

ورغم أن الأمر كان صعباً، إلا أن بريجنيف كان مضطراً لإحالة كيريلينكو للتقاعد. في أحد الأحاديث التليفونية، بطريقة ذوقية تحدث إليه بريجنيف في هذا الموضوع، كيريلينكو أجاب بأنه مازال لديه القوة ومستعد لأن يكون مفيداً للوطن، لكن بريجنيف قال له: أسترح يا أندريه، أنت عملت بشكل جيد على مدى حياتك، وتستحق الراحة..

كتب كيريلينكو بعد ذلك خطاباً لبريجنيف يرجوه أن يبقيه في العمل..

لقد خرج كيريلينكو للتقاعد في أول أيام وصول أندروبوف للسلطة، لكن مصيره كان قد تحدد في فترة حكم بريجنيف وقبل وفاة بريجنيف بفترة قصيرة.

الكثير من القيادات الحزبية الذين ماتوا وحتى هؤلاء الذين لقوا مصرعهم نتيجة حوادث، في واقع الأمر ماتوا نتيجة أن الروح بالكاد كانت ممسكة بالجسد.

كوسيجين لم يستطع استعادة صحته بشكل كامل بعد أن انقلب به القارب أثناء ممارسته رياضة التجديف، فقد ابتلع مياه، أخرجوه فاقداً للوعي من الماء، وأفاقوه بصعوبة، ثم تبين بعد ذلك أنه انقلب بالقارب نتيجة انفجار وعاء دموي في قشرة المخ، وهو ما أدى إلى خلل في الدورة الدموية للمخ وبالتالي فقدان الوعي وهو في القارب قبل أن ينقلب به في الماء.

أندروبوف السكرتير العام الذي خلف بريجنيف في منصبه أصيب بنزلة برد، في يوم حار كان يجلس في الظل على دكة مصنوعة من الحجر وأصيب ببرد شديد، وأجريت له عملية جراحية لكن الصحة لم تعد له بعد ذلك. يمكن القول أين كانت الحراسة والأطباء؟! لكن أليس الناس يبحثون عن الظل في الطقس الحار، ويستريحون على المقاعد، أو يسبحون وما إلى ذلك؟ هنا لا علاقة للأمر بالحراسة أو الأطباء، وكل ما في الأمر أن أندروبوف كان قلبه مريض، الكليتين عنده كانتا تعملان بصعوبة وكان من الممكن أن تصابا بالبرد بسهولة في أي مكان، كل الجسم مخلخل، فقد كان أندروبوف من الممكن أن يتعثر وينكفئ في أي مكان حتى ولو كان ممهداً.

و في نهاية عام ١٩٨٣ كان كونستنتين تشيرنينكو الذي أصبح سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعي السوفييتي بعد وفاة أندروبوف يستجم في القرم، أرسل له وزير داخلية القرم آنذاك ف. فيودرتشوك، الذي كان يستجم في القرم في مكان بالقرب منه هدية عبارة عن سمكة مدخنة تم إعدادها في المنزل. عادة الهدايا من هذا النوع مهما كان مصدرها يتم فحصها بدقة في معامل خاصة في موسكو وفي القرم، حتى الهدايا البسيطة التي تهدى للسكرتير العام أثنا استجمامه في القرم، يقوم شخص مراسلة بتوصيلها إلى موسكو للفحص. هذه السمكة لم يتم فحصها (على الأقل هذا ما أكده القادة المسئولين عن الشئون الطبية في الكرملين) وتبين أنها فاسدة. شعر تشيرنينكو بتدهور صحته، وبشكل حاد تدهورت حالة القلب والرئتين. وتم إرسال تشيرنينكو على وجه السرعة إلى موسكو، حيث اجتمع أفضل الأطباء برئاسة يفجيني تشازوف، وقد تمكنوا من إنقاذ المريض، لكن استعادة الصحة كانت غير ممكنة.

ممكن بالطبع أن نتهم مرة أخرى الحراسة التي أغفلت إرسال السمكة للمعامل، والتي تجاهلت إجراءات كثيرة كان يجب أن تتبعها . لكنني أعتقد أن الأمر الأهم كان في جسم تشيرنينكو الضعيف والذي كان مهيئاً لكي يتوقف عن المقاومة لأي سبب حتى ولو كان بسيطاً. أنا لا أعتقد حتى أن السمكة كانت فاسدة. لقد دخنوها في المنزل وربما أكل منها وزير الداخلية نفسه وأقاربه والمحيطين به، لكن الذي تضرر فقط هو تشيرنينكو المريض أصلاً، وبسبب حالته الجسمانية المتداعية شأنه في ذلك شأن أندروبوف، فالجسد كان لديه قابلية لأن يمرض من أي شيء.

مع كل ما يبدو من أسباب مثل عدم الفحص أو أي حديث آخر إلا أنهم ماتوا نتيجة الهرم وكبر السن، لقد كانوا متمسكين بالكرسي العالي حتى النهاية.

بعد وفاة السكرتيرين العامين واحداً وراء الآخر في فترة زمنية قصيرة انتشرت الكثير من النكات. مثلاً قبل عيد ٧ نوفمبر (عيد الثورة – المترجم) اجتمعت منظمة الحزب في أحد المصانع لكي تقرر من سيحمل العلم في المسيرة التي ستمر بالميدان الأحمر وهنا ارتفع أصوات " أنت يا إيفانوف ستحمله ". في العام التالي وقع اختيارهم كذلك على إيفانوف وبعد خمس سنوات قالوا له أنت ستحمل العلم يا إيفانوف، فرد إيفانوف وقد شعر بالظلم: أنا كل مرة، ألا يوجد أحد غيري، أنا في وقت بريجنيف وأنا في وقت أندروبوف، وأنا في وقت تشيرنينكو، كل عام أنا أنا ". فقالوا " احمله احمله، إن يدك خفيفة " في إشارة إلى رحيل السكرتيرين العامين الواحد وراء الأخر في فترات وجيزة.

نكتة خبيثة وليست جيدة. لكن في نهاية الأمر هؤلاء الذين ماتوا واحد وراء الآخر كانوا ضحايا النظام الذي كانوا يحرسونه هم أنفسهم.

نكتة خبيثة لكنها كانت في موضعها لأن المعاناة الرئيسية كانت من نصيب الشعب وضحيتها الرئيسية كان هو الشعب الذي تعب ولم يعد يؤمن بأي شيء. كان ينتظر أن يقف في نهاية الأمر على الدفة في القيادة شاب قوي وذكي ونظيف.

بداية النهاية – حادث طشقند

كان الهدوء في حياتي منعدم تقريباً، أنا دائماً في حالة ترقب، حتى في الطائرة حيث الحراس والمساعدون والسكرتارية والأطباء وكاتبو الآلة الكاتبة، العدد الكلى ٣٢ شخص.

يرن جرس الاستدعاء ترن – ترن، انهض وبسرعة أذهب إلى السكرتير العام، أمر خلال ذلك على صالون صغير في الطائرة مخصص لأعضاء المكتب السياسي يتسع لثماني أشخاص، وبوفيه، وغرفة يستريح فيها السكرتير العام. في صالون العمل يوجد من جهة اليمين كنبة ومكتبين، وكنبتين إلى اليسار.

حتى عندما كان يستدعي أحد مساعديه فهذا يتم في كل الأحوال من خلالي، فيما بعد كنت أنهض لرنات رايسا جورباتشوف الصارمة.

في السفريات الخارجية الطويلة كنا نستخدم طائرة من طراز " إلـ – ٦٢ "، لأن هذا الطراز مناسب ومريح، وفي السفريات الطويلة داخل البلاد كان بريجنيف يستخدم طائرة من طراز " تو – ١٥٤ " هذا النوع من الطائرات كبير وثقيل، ولا تستطيع استقباله كل المطارات، لهذا في السفريات ذات المسافات القصيرة داخل الاتحاد السوفييتي كنا نستخدم الطائرة من طراز " تو ـــ ١٣٤ ". كان يوجد ثلاث ــ أربع طائرات من كل نوع من هذه الأنواع عليها شعار الاتحاد السوفييتي، ومستعدة للطيران الفوري في أية لحظة.

" تنظيف " المطارات وتعبيد الطرق المؤدية إليها ومنها يتم مثل أي مدينة في الدولة، وفي أية دولة في العالم. على الطريق من المطار للمدينة يجب أن يوجد قسم بوليس، وأماكن للاتصال ووحدة صحية مع أماكن لإيواء المرضى والتي يجب أن يكون فيها غرفة خاصة جاهزة لاستيعاب الحالات الطارئة، هذا في أي مدينة كبيرة سواء كان هذا في الخارج أو داخل البلاد. على الطرق الطويلة يجب إعداد ثلاث أماكن لإسعاف الإصابات: في البداية والمنتصف وفي نهاية الطريق، في المدن الصغيرة مكان واحد.

وبالإضافة للطريق الرئيسي يجب إعداد طريقين أو ثلاثة احتياطيين، ليس فقط في طريق المطار ولكن في حالات السفر من مكان لآخر.

أثناء حكم ستالين كان العاملون على الطريق يعرفون ليس فقط المداخل والمخارج، ولكن كل عمال النظافة كانت وجوههم معروفة، ومن خلالهم يمكن التعرف على كل سكان المنطقة ومن منهم سافر ومن عاد، في ذلك الوقت كان الموضوع أبسط، فلم يكن ستالين عنده طرق كثيرة، وموسكو لم تكن بالكثافة السكانية الحالية.

في فترة حكم بريجنيف كل شيء بني على أساس الحديث الشفهي والخطط والرسوم. الآن الأمر أبسط وأكثر أمناً، ففي خدمة المخابرات شريط الفيديو كاسيت لأي طريق وأي اتجاه.

ذات مرة قبل وفاة بريجنيف بفترة قصيرة، حدث أنهم خلال الليل قاموا ليس فقط بتجهيز طريق ولكنهم أنشأوا طريق جديد تماماً، هذا الأمر حدث في الربيع، بريجنيف سافر إلى بلغاريا للاستجمام، لكن الطقس لم يكن على ما يرام فقد سقطت أمطار ثلجية، وطلب أن يعرفوا حالة الطقس في سوتشي (مدينة روسية على البحر الأسود – المترجم)، وطرنا إلى الفيلا الحكومية رقم واحد هناك..

بعد انتهاء الاستجمام، لا أتذكر ربما كان الطقس سيئاً أو غير مناسب للطيران أو السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف كانت مريضة ولا تستطيع السفر بالطائرة. السبب بالضبط لا أتذكره لكن على العموم قرروا العودة لموسكو بالقطار، ولكي لا نلفت أنظار الناس. في ليلة واحدة! أنشئ طريق جديد بطول ١٥٠ متر على الأقل، من الفيلا الحكومية حتى رصيف محطة السكك الحديدية، حيث كان ينتظر الزائر الكبير قطار خاص مكون من: العربة الأولى: صالون لبريجنيف، والعربة الثانية: للحراسة، بعد ذلك إدارة الاتصالات الحكومية، وعربة مطعم، وعربة مولدات طاقة، وعربتين للوقود.

وفي كل مكان كان من المفترض أن نمر به أنشأوا طرق جانبية، وتم دهان الواجهات، ورش الأسوار. رفضنا المرور على المنشآت غير المستعدة، ولم نمر بالكولخوزات الفقيرة، نفس الشيء كان يحدث في الكثير من الدول الاشتراكية، ففي المجر على سبيل المثال زرنا قرية بوتيمكين، وهي على أية حال لم تكن أسوأ من القرى عندنا.

حتى حراستنا كانت تشعر في الدول الاشتراكية كأنها في بلدها، فقد كانت تشعر باستقلاليتها وكانت تفرض شروطها ومبادئها. في الدول الرأسمالية وأيضاً في ألمانيا الشرقية كحالة استثنائية، كانوا ينظرون لنصائحنا وطلباتنا بتحفظ. " مقر إقامتكم افعلوا ما يحلو لكم – هكذا كانوا يقولون لنا – انقلوا الكراسي والمناضد وغيروا الستائر، لكن في الحراسة لا تتدخلوا، "الأمن قضيتنا". لكن إذا تواجدنا في فعالياتهم، فإن لنا حق التصويت. يجب هنا أن أقول بأنه لم تكن هناك أية أخطاء جسيمة فيما يتعلق بقادتنا على مدى طوال فترة خدمتي.

حدث وأن عملت في طواقم الحراسة المتحركة مع الأمريكيين والألمان والإيطاليين والأسبان، ورأيت كثيرا من المحترفين الأقوياء في أعمال الحراسة. نعم شباب ممتاز ولكني لا أستطيع الحكم عليهم حكما نهائيا، فلم أر كيف يتصرفون في حوادث كبيرة. شيء ما أخذناه عنهم –على سبيل المثال– تزويد سيارات عمليات الحراسة الشخصية بمعدات معينة، وهم أيضاً أخذوا عنا تقوية المرافقة مع الحافلات الخاصة. لكن هذه أمور جزئية، من حيث المبدأ: الخدمة عندهم تشبه الخدمة عندنا في الكثير. أقصد مستوى الإعداد والأهداف والمهمات، وفي النهاية الطرق الكثيرة لتحقيق هذه الأهداف.

لكن حراسة المخابرات الغربية من حيث العدد أكبر بكثير، والأهم أنه عليهم التزامات مختلفة تماماً عما هو عندنا.

أنا أحسد الحراس الشخصيين الأمريكيين، إنهم يمارسون عملهم المباشر الذي تعلموه. زملاؤنا الأمريكيون ما كانوا ليقدروا على ما نقوم نحن به من التزامات.

لقد علمونا في قسوة وأحياناً في نظام حراسة قادة الحزب والدولة. إعداد قاس كان مكرسا لهذا الهدف وهو حماية رجال الحزب والدولة.

عندما تدربنا على الرماية، والاشتباك بالأيدي، وعندما رفعنا أثقالا لتكوين العضلات، وعندنا مارسنا السباحة والجري ولعبنا كرة القدم والكرة الطائرة، حتى عندما يكون هذا شكلياً من أجل تسديد الخانات، فإننا ننفذ خطة بيروقراطية. من غير المناسب أن نسير على زحافات على أرض الخريف المبتلة، كنا نعد أنفسنا بذلك لحماية القادة. وحتى عندما كانوا يخرجوننا أثناء الاجتماعات الحزبية أو الاجتماعات الخاصة، حينها أيضاً كانوا يعدوننا. نظام عسكري ولكنه ليس ذكياً دائماً، وفي النهاية كانوا يعتقدون أنهم أعدوا كل شيء لحراسة قادة البلاد. في نهاية الأمر تبين أن قادة البلاد ليسوا بحاجة لحراستهم من خطر خارجي، ولكن يجب حمايتهم من أنفسهم، وهذا ما لم يأخذه قادتنا في حسبانهم أبداً أثناء تدريبات إعدادنا.

حسب التعليمات يجب أن أخرج من الباب قبل السكرتير العام، وأقوم بعمل تقييم للحالة في الشارع، سواء من ناحية الناس أو الأشجار، أو الشوارع الجانبية الصغيرة، المرور من ناحية الأبواب تحسباً لمرور أحد أو أن يغلق الباب على الشخصية التي أرافقها. أثناء الصعود على الدرج يجب أن أكون إلى الخلف من الرئيس بقليل، لكن- مخالفة للتعليمات- كنا عندما ينزل قادتنا كبار السن: أمامهم بقليل، وعندما يصعدون: من خلفهم بقليل.

نظرية مرافقة الشخص وحراسته موجودة لحراسة شخصيات قيادية عادية من الأصحاء، أما نحن فكنا حاضنين ونحرس كبار سن متدهورين مهمتنا ألا ندعهم يسقطون ويتدحرجون إلى الأسفل من فوق الدرج.

كنا في ألمانيا الشرقية في برلين حيث نظموا موكبا حكوميا ومظاهرة احتفالية، الورود واللافتات. كان بريجنيف يقف إلى جوار هونيكر (حاكم ألمانيا الشرقية ــ المترجم) في سيارة مكشوفة وسط ترحيب سكان برلين وتواجد لمصوري التليفزيون وكاميرات السينما، لكن لم يكن أحد يعرف ولا أحد يرى أنني انبطحت في قاع السيارة ومددت يدي أثناء سيرها بسرعة ممسكاً بجانب بريجنيف بكل وزنه وحمله حتى لا يسقط.

أين وفي أي تعليمات تعمل حساب شيء مشابه، تقريباً نمرة في سيرك !

أنا تحدثت عن تشابه مستوى إعدادنا مع مستوى خدمة الحراسات الغربية، عن وحدة الأهداف والمهمات. لكن في الممارسات عندهم مدرسة أخرى. في واشنطن وأثناء احتفال طلب جورباتشوف مني أن أناوله نص الخطاب الذي سيلقيه من دوسيه كنت ممسكاً به.

وأنا أمسك في يد الدوسيه وفي اليد الأخرى قبعته. ماذا أفعل؟ عدسات العالم مسلطة علينا، العالم كله يشاهدنا. توددت إلى زميل أمريكي كان يقف إلى جواري: أن يمسك بالقبعة لمدة دقيقة؟.... لكنه حتى لم يلتفت إلي، وكان اهتمامه بي صفر، نحن ضيوف، بالإضافة إلى أني أكبر منه في الرتبة.. مرة أخرى طلبت، فقام بإعطاء إشارة لأحد الموظفين كان يقف خلفه فحررني من هذه القبعة المنحوسة....

لم يأخذ الحارس الأمريكي القبعة! لأن يدي الحارس يجب أن تكون حرة.

نعم كنت دائماً أحسد زملائي الأمريكيين. إنهم لم يمسكوا أبداً أثناء الاحتفالات قبعة أو حقيبة أو أوراق رئيسهم، وليس من الضروري أن يتابعوا دقة الموازين العديدة لرئيسهم أو أن ينظفوا له أسلحة الصيد الكثيرة، وينظفوا مباسم السجائر، وفي الليل يدخنون له، ولا داعي لأن يملأوا جيوبهم بعلب السجائر التي أعجبت رئيسهم، ولا داعي عند الحارس الأمريكي لأن يملأ جيوبه بنظارات طبية احتياطية مختلفة.

بريجنيف كثيراً ما كان يفقد نظاراته. ذات مرة وأثناء خطاب على المنصة سقطت النظارة، وصار يخطو باحثاً عنها في هذه الأثناء حطمها بقدميه، في هذه اللحظة شعر بالحرج لأنه هو المخطئ، وهنا، كما الأطفال، توجه للقاعة: أيها الرفاق! لقد كسرت نظارتين اليوم، من عنده أي نظارات؟

رئيس الحراسة كان يسمح لنا بحمل احتياطي كامل من النظارات من أنواع مختلفة، وكنا نلصق ورقا على كل جراب تحفظ فيه هذه النظارات، هذه " للمشي "، وهذه " للقراءة "، و تلك " للتقارير " وكنا نملأ بهم جيوبنا، كان مدير الحراسة فقط يحمل ثلاث نظارات للقراءة..

عند الحكام الروس دائماً وحتى قبل حكم عائلة رومانوف (سلالة رومانوف هي سلالة القياصرة التي كانت تحكم روسيا حتى قيام الثورة البولشفية عام ١٩١٧ - المترجم) بكثير، كان الحراس الشخصيين يعتبرون في نفس الوقت" دادات" (جمع دادة).

أثناء زياراته للدول الاشتراكية كان بريجنيف يهدى القيادات الحزبية في هذه الدول ساعات مذهبة. شاهدته يهدى يانوش كادار (الزعيم المجرى - المترجم) وجوستاف جوساك وآخرين، وهذا كان يعتبر علامة اهتمام خاص، فقد كان على الساعة نقش بارز عبارة عن صورة بريجنيف.هذا النوع من الساعات عندي، عموماً احتفظ بهدايا بما فيه الكفاية، وشهادات، ووثائق شكر موقعة من أشخاص خلدت أسماءهم في التاريخ، لدى من المقتنيات ما يمكن أن يكون متحفاً صغيراً.

في صف خاص، الأوسمة الحكومية الرفيعة: "وسام النجمة الحمراء"، "وسام العمل" "الراية الحمراء" و "وسام الشرف" وفي نفس الصف معهم ميدالية "رجل مخابرات شرف" الأوسمة سلمها لي بريجنيف وأندروبوف وجورباتشوف. وفي كل مرة كنت أهتف: في خدمة الاتحاد السوفييتي!

في الواقع أي واحد من زملائي ممن خدموا في الحراسة يستحق وساما رفيعا، فلم يصب أي من السكرتيرين العامين بأي خدش، لكن لحمايتهم من أنفسهم لم تكن هناك أية

إمكانية. خلف هذه الأوسمة تقف السخرة القسرية والالتزامات المذلة، التي لا يشك في وجودها أحد لا السذج ولا حتى هؤلاء المحيطين الكبار. أتذكر بمرارة كيف كان كل منا يتقى للسكرتير العام حبوب الدواء، محاولين أن نقلل من الضرر الذي من الممكن أن يلحق بصحته، وكنا نتعرض لغضبه ومقاومته الشديدة، وكنا نخاطر ليس فقط بمنصبنا ومستقبلنا المهني ولكن أيضاً بالتعرض للمسئولية الجنائية، كيف كنا نضيف ماء للفودكا التي تعود أن يبتلع بها بريجنيف حبوب الدواء بهدوء وبعيداً عن أعينه.

في أي بلد متحضر في العالم الحراسة الشخصية لقائد بلد تمارس هذا العمل؟!

الكثير من الذكريات المختلفة بقيت في الذاكرة نتيجة القرب والتواصل مع بريجنيف، بما في ذلك تلك المرتبطة بالاستجمام في القرم، السباحة وسط الأمواج العالية في الصباح، مغامرة قيادة السيارات من الماركات الأجنبية في منتصف النهار، لعب الدومينو في المساء، في كل مكان وحيثما وجد كان دائماً على وتيرة واحدة: مغامرا. كان يلعب الدومينو حتى ١٩٧٧ – ١٩٧٨ فقد كان يلعب لساعات متأخرة مخالفاً بذلك نظام حياته القاسي، يلعب حتى الساعة الواحدة وأحياناً حتى الثانية بعد منتصف الليل. كانت تأتي السيدة فيكتوريا زوجته وتقول: توقفوا، أية لعبة هذه؟ فكان بريجنيف يجيبها في صوت يدعو للمصالحة: ماذا تعنين؟ لعبة عادية. اجلسي.

كانت تجلس وتجتذبها اللعبة، فكان يلعب اثنان مقابل اثنين: بريجنيف ومعه ريابينكو ضد السيدة فيكتوريا ومعها الطبيب، وأحياناً كان يختار الطبيب ليلعب إلى جانبه.

أحياناً المنافسين دون أن يلحظ أحد كانوا يسلمون بالهزيمة وكان يفوز بريجنيف ويقوم للنوم وهو مرتفع الروح المعنوية.

ذكريات كثيرة، أذكر كل يوم قضيته بالقرب منه. لكن أكثر شيء وأوضح شيء أذكره ذلك الصباح عندما كنت مجرد فرد حراسة شخصية، لأول مرة في حياتي أرى بريجنيف عن قرب، هناك في القرم، كان يسبح في البحر، وكان يلاحق الدكتور روديونوف، ويصيح فيه: الآن سأغرقك! وكان الدكتور يجيبه: لا داعي، لا داعي لهذا، محاولاً الابتعاد أكثر. فيقول بريجنيف: ستعطيني نوكسيرون (دواء منوم)؟ يكون بريجنيف قد قصر المسافة فيجيب الدكتور: سأعطيك، سأعطيك، سأعطيك، لكن لا تغرقني.

في ذلك الوقت لم أدرك أن اللعب في البحر له توابع خطيرة، ولم أكن أعرف حينها ماذا يعني نوكسيرون، نيمبوتال وغيرها من العقاقير. تذكرت كثيراً فيما بعد هذا المشهد. خلال عام ١٩٦٩، بريجنيف كان شاباً قوياً،احتياطي من القوة والطاقة بدا وكأنه لا ينضب على الأقل لعشرين عاماً قادمة. لكنه في ذلك الزمن الجميل دأب على تناول المنومات بكميات أكثر من المقرر، أهلك نفسه حينها في زمن الشباب والقوة، وبدأ العد التنازلي.

خلال عدد قليل من السنين كل العالم شاهد إنسانا متداعيا.

عن أية خصوصية لجسم إنسان أنه يجب أن ينام ليس أقل من تسع ساعات في اليوم، فقد قال هذا أحد الأطباء في دنيبروبتروفسك لبريجنيف (دنيبروبتروفسك مدينة

بشرق أوكرانيا ينحدر منها بريجنيف) منذ فترة طويلة. أنا سمعت هذا على الأقل من ريابينكو. واستسلم بريجنيف لهذا الوهم، وقد حاول أن ينفذ هذا التشخيص منذ فترة زمنية كبيرة، الأمر الذي انتهى بحالة إدمان المنومات.

وفي الوقت الذي أصبحت فيه قائما بأعمال نائب رئيس الحراسة الشخصية، كان بريجنيف قد تعود على الأدوية لدرجة الإدمان، وعندما كان جسمه يتعود على دواء معين، كان يغير الحبوب بأخرى. أذكر فقط نوكسيرون فقد كان يتناول حتى ثماني حبوب في اليوم. في منتصف السبعينيات أثبت العلماء الأمريكيون أن هذا العقار مضر نظراً لآثاره الجانبية. وقد بذل الأطباء محاولات بطولية بحق لكي يخرجوا هذا العقار من قائمة أدوية بريجنيف. لكن كم استطاع أن يتناول من هذه الحبوب، فحتى لو كان الجسم صحيحاً لما استطاع أن يتحمل هذا العبء.

القضية في أنه كان يعالج نفسه عملياً بدون إشراف طبي.

الأطباء الخاصون للسكرتير العام: في البداية روديونوف، وبعده عندما توفي فجأة في منتصف السبعينيات، كوساروف، كانوا يعطوننا حبوب الدواء، ونحن حسب وصف الطبيب نقدمها لبريجنيف. كان روديونوف الطبيب الكريم يعطي بريجنيف دون تردد كمية أدوية كبيرة للاحتياط، وهو ما سهل الأمر. وكان بريجنيف يقول له: اعط دواء زيادة احتياطي للشباب لكي لا نستدعيك مرة أخرى....

بهذا الشكل ورطونا في هذه الدائرة.

في منتصف النهار كان بريجنيف يشعر بأنه نائم، وفي الليل لا يستطيع النوم، بالطبع الجسم تعود ويبدو أن رد فعله كان أسوا مما يجب، لكن عندما يشرب حفنة من الحبوب، كان يرغب في النوم في لحظتها وكان يشكو: أنظر كم أتناول ولا أستطيع النوم، ويوجه حديثه إلى: فولوديا، عندك احتياطي أي حبوب زيادة؟

السيدة فيكتوريا تحدثت معي ومع الدكتور قائلة: ما هذا، إنه ينام طوال الوقت؟ وكانت تقول له: لا داعي لما يعطيك الشباب، كفي .

ولكي لا أغضب السيدة فيكتوريا كنت أخفي كيس فيه منوم في الكومودينو قبل العشاء لبريجنيف، وأحياناً عندما تكون السيدة فيكتوريا منهمكة في مشاهدة التليفزيون، كنت أدس له الحبوب ونحن جالسين إلى السفرة، لكنه كان يحتاج المزيد، فقد كان يبحث في الكومودينو وفي الدولاب وفي الحقيبة لعله يجد ما يمكن أن يكون قد حجب عنه.

كنا نفهم أن الكثير من التنازلات والزيادة مسألة تؤدى للمحاكمة: ربنا يستر ولا يحدث مكروه.... كنا نبلغ الطبيب الشخصي بكل شيء، وعن كل حبة دواء أعطيت له في الليل أو في منتصف الليل، وكان يسجل كل هذا في تاريخ المرض، نحن الحراس كنا نتحدث عن زيادة عدد حبوب الدواء مع ريابينكو وتشازوف وكان كلاهما يجيب: هذا ليس من شأننا.

رئيس القسم الطبي في الكرملين تشازوف يقول " هذا ليس من شأننا، هو من شأن الحراسة ".

"من شأننا " ؟! لكن لم يستطع تشازوف أن يخلع المسئولية الكاملة عن نفسه.

بعد رودبونوف أصبح ميخائيل كوساروف الطبيب الشخصي لبريجنيف، وهو طبيب شاب وصاحب مبادئ، لم يعط بريجنيف تسهيلات وحذرنا بحزم: إذا حدث شيء ستكونوا مسئولون.

بريجنيف قبل النوم كان يستدعى كوساروف ويطلب منه منوم، فكان يجيبه: ارقد وستنام.

بعد عدة دقائق كان يستدعيه من جديد، وكان الطبيب لا يستجيب له ويصمم على عدم إعطائه ويقول له: ممنوع، ممنوع يا ليونيد إليتش، هذا خطر على صحتكم.

بريجنيف كان يغضب ويبدأ في السباب بأقذع الألفاظ ويقول له: سأطردك! أنا لست في حاجة إليك! أنت يجب أن تساعدني وليس... اتصل بتشازوف.

الدكتور كان يتصل برئيسه المباشر يفجيني تشازوف، فكان تشازوف يطلب من الدكتور أن يعطيه حبوب إضافية، وقد يكون الأمر مدهشاً ولكنه حقيقة، كوساروف لم ينحن وأصر على موقفه وقال: لا لن أعطيه، أنا أملك الحق. لقد أعطيته ما هو مفترض. أحضر بنفسك وقرر بنفسك.

تشازوف طائعاً أتى وطائعاً كتب له على حبوب إضافية. كان يخاف على الكرسي؟ لماذا لم يخف كوساروف؟ لأنه بالنسبة له قسم أبقراط هو شرف الطبيب، وببساطة وبشكل أكثر تحديداً يمكن القول إن صحة وأمان المريض كانا أغلى عنده من المنصب والدرجة.

كان تشازوف يبلغ بريجنيف عن الحالة الصحية لكل أعضاء المكتب السياسي، ويبلغ أندروبوف أيضاً عن الجميع بالإضافة للحالة الصحية للسكرتير العام، لكن هذا لم يكن كافياً، مجرد إعلام فقط. هنا واضح أن هذا اهتمام الموظف بتأمين نفسه أكثر من اهتمام الطبيب بالمريض.

للحق أقول نحن كنا نقوم مع تشازوف بنفس العمل لأن الصحة تدخل في صميم مكونات الأمن، الحراسة الجسدية جبهة أولى، الحفاظ على الصحة جبهة ثانية. أنا لا أستطيع تصور شخص يوجه سلاحه للسكرتير العام من مخبأ، وأنا أعرف ذلك وأراه وأصمت خوفاً من أن أفقد منصبي .

ماذا كان يجب أن يفعل تشازوف؟ كان عليه أن يذهب للسكرتير العام ويقول له كل شيء دون تزييف: أنا كطبيب أرى أنك تهلك نفسك وأنا كطبيب لا أستطيع مساعدتكم لأنكم لا تريدون أن تستمعوا لنصائحي، لقد خرجتم من تحت سيطرتي، أنا لا أستطيع أن أكون مشاركاً فيما يحدث...... أرجو قبول استقالتي.

دواء يخلف دواء، مكان نوكسيرون ظهر سبيدا، آتيفان (أدوية منومة كان يتناولها بريجنيف) وغيرها، أنا وزملائي كان علينا أن ندرس كل مرة من جديد الشكل الخارجي للحبوب الدوائية والجرعات لكي لا نخطئ وأن نعطيها كما وصفها الطبيب. نحن أبعد ما يكون عن أن نكون أطباء، لقد كنا نمارس قضايا مجهدة وخطرة. بريجنيف للأسف كان

يعتقد أنه بصحة جيدة بما فيه الكفاية ولم يكن يرغب في أن تكون له علاقة بالأطباء وكان
يثق فينا نحن الحراسة فقط.
أثناء خدمة الطبيب الشريف كوساروف لم يقل احتياطي الحبوب المنومة بل أصبح
أكثر. بريجنيف كان يذهب إلى زملائه أعضاء المكتب السياسي ويسأل: "كيف تنام؟ هل
تستخدم المنوم؟" ثم يسأل: "أي نوع؟ اعطني أجربه"، ولا واحد منهم رفض بل كانوا
يحاولون خدمته، كانوا يوصلون له الدواء من يد ليد، لم يكن بينهم رفاق بل كانوا كلهم
سياسيون في أجّل مظاهرهم بشخصياتهم المتملقة المداهنة، وبخدمتهم لرئيسهم أهلكوه، في
حقيقة الأمر أنهم كانوا مضطرين أن يطلبوا الدواء من أطبائهم، والأطباء كانوا يخطرون
الطبيب الشخصي لبريجنيف، لكن هذا لم يغير من حيث المبدأ من الأمر شيء.

ألاعيب قاسية.

كان تشيرنينكو وتيخونوف الأكثر سعياً لخدمة بريجنيف، فقد كان كلاهما شغوفا بالمنومات. أندروبوف كان يعطى حبوبا غير ضارة، تشبه جداً الأدوية الحقيقية، ولم نكن نطلب صناعتها خصيصاً، فقد كانت هناك في الخارج صناعة كاملة تقوم على هذا، ونحن كنا نحصل عليها. يبدو أن فكرة استخدام أشباه الأدوية تنسب لتشازوف.

كان النائب الأول للكي جي بي تسفيجون بين نارين، فقد كان يعرف أن رئيسه أندروبوف يعطى شبيه دواء،، وأندروبوف نفسه كان يحذره من مسئولية إعطاء دواء، لكن لم يكن لديه الشجاعة الكافية ليرفض للسكرتير العام " طلبا شخصيا"، فكان تسفيجون يعطي لبريجنيف حبوبا منومة قوية التأثير. انظر كيف يتذكر تشازوف هذا: " بريجنيف كان يعتبره شخص مقرب منه وأهل ثقة، وقد أهلكه بريجنيف بطلب الأدوية المهدئة. تسفيجون احتار لا يعرف ماذا يفعل: وفي نفس الوقت الرفض غير ممكن، وإعطائه ما يطلب يعني زيادة شدة المرض. هنا عرف الحالة أندروبوف فحذره قائلاً " كف عن هذا يا سيميون (الاسم الأول لتسفيجون) كل شيء ممكن أن ينتهي بشكل سيء جداً، ربنا يستر ولا يموت بريجنيف ولو بسبب آخر غير الدواء، ببساطة يموت في الوقت الذي تلقى فيه دواء منك، سوف تلعن نفسك ساعتها".

في يناير عام ١٩٨٢ بعد أن تناول بريجنيف آتيفان الذي ليس له مضار تقريباً زاد النهجان عنده، وكما تحدث أندروبوف أنه قبيل تراجيديا ١٩ يناير كرر تحذيره لتسفيجون، فقد كنت في المستشفي ظهر يوم ١٩ يناير عندما رن تليفون طبيب " الإسعاف " الخاص بنا والذي أخبرنا بتوتر بأنه ذهب إلى البيت الريفي بناءً على استدعاء فوجد تسفيجون منتحراً، هذا الخبر فجعني، فقد كنت أعرف تسفيجون جيداً، ولا أستطيع تقبل أبداً فكرة أن هذا الشخص القوى الإرادة، والذي عركته مدرسة الحياة الكبيرة من الممكن أن ينهى حياته بنفسه.

تغيير الدواء الحقيقي زاد من درجة الخطورة على المريض وجلبت لنا نحن
كحراسة المعاناة. ليونيد إليتش كان يبتلع كمية كبيرة من الدواء المزيف، لكن لم يستطع
النوم، فكان يعثر على الحبوب الحقيقية ويبتلعها بكميات كبيرة. كان من الممكن أن يقتل
نفسه بنفسه. كنا نضطر لإظهار أقصى درجات التحايل لكي نضع له في كل مكان حبوبا

مزيفة مكان الحبوب الحقيقية، فيما بعد غيرنا كل المجموعات التي كان قد جهزها لنفسه في وقت سابق.

أحد أعضاء المكتب السياسي نصح بريجنيف أن يبتلع الدواء... بالفودكا: يمتص بشكل أفضل. سأل بريجنيف تشازوف: هل هذا صحيح؟ أجابه تشازوف: هذا حقيقي. ولكن حذره بأنه يجب استخدام هذا نادراً وبحرص. هذا التحذير بدا للسكرتير العام كأنه تصريح أدبي، خاصة بالنسبة له كإنسان قادر، ليس لديه حدود. الاختيار وقع على فودكا " زوبروفكا". ذات مرة ذهبنا إلى غابة بيلوجيفسكايا في بيلوروسيا (هذه الغابة التي تم فيها توقيع ما عرف فيما بعد باتحاد الجمهوريات المستقلة الكومنولث الذي أنهى وجود الاتحاد السوفييتي – المترجم) وقام قادة بيلوروسيا بدعوتنا على الفودكا المحلية والتي تحتوى على أعشاب، في زجاجات مضلعة جميلة أعجبته، ومنها بدأت متاعب جديدة في التزامات الحراسة: أن تكون في أي وقت سواء بالليل أو النهار تحت يد السكرتير العام "زوبروفكا"، بحيث يشربها في أقل الحدود، وبحيث يعرف أقل عدد من الناس عن هذا الموضوع، حتى من المحيطين به.

كنا نحمل في الحقيبة قارورة "زوبروفكا" إلى أي مكان نذهب إليه، وفي أي مكان نكون فيه – سواء حفل استقبال على مستوى رفيع في الكرملين أو في مصنع– وكنا نحرص على ألا نترك بواقي في الزجاجات أو زجاجات فارغة.

كان بريجنيف يقول: لا بأس، إنه حتى من المفيد أن نشرب، كان على ما يبدو يكرر كلمات شخص ما.

" زوبروفكا " أصبحت بالنسبة له كالمخدرات، كان يشرب بكميات قليلة، كانت الزجاجة الواحدة تكفيه لعدة أيام، لكن الجسم كان متهالكا ومتداعيا منذ فترة عمله في كيشينيوف عندما كان سكرتير أول للجنة المركزية للحزب الشيوعي المولدافي، وتعرض لانسداد في الشرايين.

الحاجة أم الاختراع ، لقد توصلنا إلى إضافة الماء المغلي إلى الفودكا "زوبروفكا". قررنا هذا نحن نواب رئيس الحراسة الشخصية فيدوتوف وفولوديا سوباتشنكوف وأنا، اجتمعنا وقررنا هذا. لم يكن هناك من نستشيره، وعندما أحطنا ريابينكو وكوساروف وتشازوف علماً بهذه الخدعة، ولا واحد منهم قال لا "نعم" ولا "لا"، وقد فهمنا بأنه لو حدث أي شيء فإن المسئولية كاملة في المحصلة النهائية ستقع علينا نحن فقط.

بريجنيف بعد أول كأس من الفودكا المخلوطة بالماء بدا متشككاً وقال: لا أدرى غير مؤثرة... أخفينا هذه الملحمة بعناية عن السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف (الموضوع ليس بسيطاً – المؤلف).

على التوالي، للمرة الثانية قبل النوم، طلب بريجنيف كأس "زوبروفكا" ثاني أو لا أذكر ثالث، فأجبته بأنه لا يوجد رغم أن الفودكا كانت موجودة، وقد حاول بريجنيف أن يجادل ولكني صممت على موقفي.

في الصباح اتصل بي مساعد أندروبوف وطلب مني الحضور قائلاً: لدينا شيء ما يجب أن تأخذه.

فهمت عن أي شيء يدور الحديث.

في الساعة المحددة كنت أجلس في غرفة الاستقبال بمكتب أندروبوف، أعترف: لأول مرة أجد نفسي هناك. من غرفة الاستقبال قادوني إلى غرفة ليست كبيرة فيها مكتب وكرسي وكنبة، ولم يكن فيها على يبدو نوافذ، انتظرت حوالي عشر دقائق، كنت أتوقع بالطبع أن يدخل أندروبوف من نفس الباب الوحيد الذي دخلت منه، لكنه ظهر فجأة وبدا لي أنه دخل من خلال الحائط. لم أفهم شيئا، قمت ومد هو يده: أهلا فولوديا أسف لأني تأخرت. بريجنيف اتصل وقال إن عندكم مشكلة مع هذا المشروب. ومد أندروبوف يده إلى بلفافة: سأعطيكم هذه، ولكن لي رجاء، وهو أن يستخدمه قليلاً. الكثير يعتمد عليك في هذا الموضوع.

حكيت له أننا نضيف لهذا المشروب ماء وأننا نخاطر بأن ينكشف أمرنا، وأن الأحداث تتطور بشكل خطر على صحة السكرتير العام.

لا أستطيع التأكيد، لكن يبدو لي أن الدواء المزيف بدأ يصل إلينا بالتحديد بعد هذا الحديث، على أية حال لم يحدث انقطاع لهذا الدواء المزيف كما كان يحدث في السابق.

أي توتر كنا فيه، كم من القوة والانفعال والأعصاب بذلنا على هذا الخداع والكذب الشريف، كم من الأزمات الصحية تعرض لها ليونيد إليتش، فقد خلالها وعيه بما في ذلك أثناء سفريات خارج البلاد في زيارات رسمية.

الحديث مع أندروبوف أستمر حوالي ثلاث دقائق لا أكثر.

ولتنظيم عملية تناول الدواء قرر تشازوف، على ما يبدو ليس بدون نصيحة أندروبوف، عمل نقطة طبية ملحقة بمنزل السكرتير العام، وكانت فكرة جيدة بتنفيذ سيء أتت بنتائج عكسية. في البداية تم عمل ورديتين من الممرضات، لكن كما يحدث دائما: إحداهن أجبرت الأخرى على ترك المكان. ومن جديد وكما في مرات عديدة خدع بريجنيف الجميع وفرض رأيه، وكان يعمل حسب إرادته هو فقط، ونشأت بينه وبين الممرضة الجميلة علاقة، كما يقولون " علاقة خاصة" وقال بريجنيف: دعوها تعمل بمفردها.

كانت امرأة صغيرة السن ذات مظهر جذاب، ربما كانت من الممرضات الجيدات في الإدارة الطبية الرئيسية الرابعة. فقد كانت تعرف عملها وكانت تؤدي ما عليها من التزاماتها بسهولة. في البداية حافظت على تواضعها، وتمسكنت حتى تمكنت وعرفت ماذا تأخذ من أين وتحمله إلى أين، لكن وبدون أن يلحظ أحد حازت على السلطة. جاءت أثناء فترة عمل الدكتور روديونوف، الذي كان بطبعه كسولاً في عمله والذي كنا دائماً نبحث عنه والذي كان دائما يكذب على بريجنيف عن أسباب تغيبه. الآن أعطى كل مجموعة المنومات للممرضة، وعملياً أصبح لا يحضر إلى العمل، هذا كان أكثر من مناسب له

ومناسبا للممرضة التي أصبحت متحكمة في الأمور بالكامل، وكان هذا مناسباً لبريجنيف، حيث كانت تنفذ له كل نزواته وطلباته. بالطبع لم يكن في استطاعتها الحصول على الدواء من أماكن أخرى لأنها كانت تعرف أنه إذا حدث مكروه لبريجنيف فإنها ستكون مسئولة عن ذلك، لكنها كانت تطلب دائماً من الدكتور روديونوف الذي كان بدوره يطلب في حالة الاحتياج من تشازوف المطيع.

ارتبط بريجنيف بمن تعطيه الدواء، لدرجة أنه لم يكن يخطو خطوة بدونها، وكان يخاف من أن يفصلوها من العمل معه. كانت تتدخل في عمل طبيب التغذية كصاحبة شأن، تحدد نوع الطعام، وتوصي الطباخين كيف يعدونه، والسفرجية متى وماذا يقدمون.

السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف كانت ترى كل هذا وتتوتر أعصابها. بالطبع أتلفت لها الممرضة أعصابها وقصرت من عمر بريجنيف كثيراً. كان عندها أسرة وطفل وعندها مشاكلها المنزلية، ولذلك كانت تضيف إلى الجرعة المعتادة حبة أو حبتين من الحبوب المنومة، فكان بريجنيف ينام لمدة ساعتين زيادة، تذهب خلالهما إلى المنزل لقضاء أمورها الشخصية وتعود.

كان بريجنيف يأخذ معه الممرضة في رحلات الصيد إلى "زافيدوفو"، وكان يجلسها على طاولة واحدة مع أعضاء المكتب السياسي، وفي وجودها كانت تناقش أهم مشاكل الدولة والقضايا الدولية.

بعد إحدى هذه المناقشات اتصل أحد أعضاء المكتب السياسي، يدعى بوليانسكي، برئيس أطباء الكرملين، ووصف حضور الممرضة لمثل الاجتماعات الرفيعة المستوى بأنه فضيحة. ماذا تعتقدون كان رد فعل رئيس أطباء الكرملين على ما عرف بخصوص أحد مرؤوسيه وهى الممرضة، ممرضة طبية. هل قرر أن يقيلها؟ أو حتى وعد بأنه سيفعل شيئاً من هذا القبيل؟ لا، كتب فيما بعدٍ في مذكراته " لقد اهتممت بالموضوع وقلت هل قال عضو المكتب السياسي نفس الكلام لصاحب المكان، يقصد بريجنيف".

لكن بوليانسكى تحديداً لم يخف وقال لبريجنيف ما يعتقد بهذا الخصوص، وهو ما دفع ثمنه، حيث قطع بريجنيف علاقته به.

وطلب أندروبوف من تشازوف إقالة أو نقل الممرضة. تعتقدوا بماذا أجاب تشازوف؟ قال: " أنا اهتممت بالأسباب وأنا أرى أنه من السخف ومن غير المعقول أن يمارس رئيس الكي جي بي قضايا صغيرة مثل تنظيم عمل الممرضات..".

هكذا بشجاعة تصل لحد الجسارة، الطبيب يفحم أعضاء المكتب السياسي واحد وراء الآخر، وليس أي شخص لكن رئيس الكي جي بي نفسه، من هو تشازوف؟، إنسان ذو شجاعة نادرة؟ وفق كلماته " أنه يعمل حسب الحالة، زيارتي لبريجنيف لم تأت بأية نتائج، فقد رفض رفضاً باتاً وبلهجة عنيفة في صوته نقل الممرضة، ورفض الحديث عن الريجيم وعن ضرورة تنظيم الوسائل الدوائية وعن نوع الإشراف الذي تقوم به الممرضة".

من "اللهجة العنيفة " لبريجنيف، خاف تشازوف، بعد ذلك اصطاد بريجنيف وهو في حالة مزاجية عالية، وفتح معه الموضوع بطريقة هادئة ولطيفة، بريجنيف بطريقة لطيفة كذلك أجابه " لا فائدة من مهاجمتك "ن" (يرمز للممرضة بحرف "ن" – المترجم) فهي تساعدني وليس كما تقول، فهي لا تعطيني أي دواء زيادة عن حاجتي الفعلية. وعلى العموم شكراً على اهتمامك بي وبمستقبلي ".

حديث لطيف لشخصين لطيفين، فقط أحدهما يموت ولا يدرى هذا والثاني يعرف كل شيء.

الكرسي الكرسي... المهم البقاء على الكرسي.

التاريخ يوماً ما هو الذي سيحكم وسيضع الأمور في نصابها الصحيح بالتأكيد، من أي شيء وماذا فعل وكيف مات سكرتيري الحزب الشيوعي السوفييتي على مدى أعوام وببطء، أين كان رؤساء أطباء الكرملين، وكيف وصل سكرتيري العموم للسلطة وهم مرضى بشدة وغير قابلين للعلاج. وعندما أجبروا تشيرنينكو المريض جداً والراقد في فراش المرض وقبل وفاته بعدة ساعات أن يصعد لكي يظهر على شاشات التليفزيون لكي يراه الشعب، " يظهر للناس".

أنا الآن أعتقد أنه كان من الممكن التأثير على بريجنيف. كيف؟ لا أعرف، أنا لست طبيباً. كان ممكن بث الرعب في قلبه: سوف تمرض بكذا وكذا، سوف يتعطل عمل العضو الفلاني. كان ممكن خداعه طبياً، فهو لم يكن يعترف بكونسلتو الأطباء، لكن ماذا إذا حضر عالم من الخارج وجلس مع السكرتير العام شخصياً على انفراد. أعتقد أن الأمر لم يكن بدون أمل، لكن انظروا: ألم يمتنع عن التدخين في نهاية الأمر؟، بالرغم من أن ذلك تم بصعوبة، خوفاً على صحته، فهو إذا كان يخاف المرض.

في محاولة لتفريق بريجنيف عن الممرضة، أصبحوا يكذبون عليه: غداً لن تأتى: زوجها مريض، طفلها مريض، أو عندها مشكلة عائلية لن تحضر. في نهاية الأمر ذهبت لبعيد، ولكي يفرقوهما نهائياً تطلب الأمر القيام بعملية كاملة بمشاركة قيادة الكي جي بي ووزارة الداخلية ووزارة الصحة، وكأنها ليست ممرضة ولكنها ماتا هاري (إحدى الجاسوسات الشهيرات إبان الحرب العالمية الأولى وكانت تعمل راقصة واسمها الحقيقي مارجريتا جيرترودا زيللي – المترجم).

والآن عندما يقوم تشازوف بامتعاض نبيل باتهام الممرضة بكل شيء، فهو بذلك يقدم نفسه كشخص بعيد عن المهنية، كما أن هذا ليس من الرجولة.

أنا لن أذكر اسم عائلة الممرضة نظراً لأن لديها ابنة شابة ولأن زوجها كان يخدم في قوات حرس الحدود وخلال أعوام اقترابها من بريجنيف تمت ترقيته من نقيب ليتدرج إلى رتبة لواء، وقد لقي مصرعه في حادث طريق عام ١٩٨٢، نفس عام وفاة بريجنيف، وربما تكون الممرضة قد عانت الكثير من المتاعب بعد ذلك.

بعدها أصبحت الأمور أسهل، فقد امتنع بريجنيف عن بلع الأدوية بالفودكا "زوبروفكا"، وهو لم يكن يشرب كثيراً من الأصل حتى في صدر شبابه،و في أخر عامين

من حياته لم تلامس الخمور شفتيه. أثناء الصيد وعندما لم تعد لديه القدرة على القنص والرماية وكان يراقب عملية الصيد فقط، وعندما كنا نشعر بالبرد كنا نسمح لأنفسنا قبل الأكل بفنجان كونياك. وكان يسأل: ماذا تشربون؟ فنرد: قهوة فيقول: لماذا هكذا تشربون القهوة في البداية؟ فأرد: كانت لدى الرغبة في أن أشرب. فيقول: آ. آ . ويبتسم الجميع، هو وحده الذي لم يفهم. أحيانا كان هو بنفسه يقترح علينا أن نشرب الكحوليات فيقول: أنا ممنوع من الشراب، تناول كأسا أنت والدليل.

لا يجب ألا أذكر إحدى الملاحم المتعلقة ببريجنيف، وهى مرتبطة بطقم الأسنان. هنا عدم التوفيق في تشخيص الأطباء وعذاب السكرتير العام، يختلف عن حكاية المنومات، فهذه كانت ظاهرة للعالم كله لأنها أدت إلى عدم قدرة بريجنيف على الحديث بصورة طبيعية أمام العالم. وبسبب أطقم الأسنان أصبحت عدم قدرته على الكلام مصدر إلهام للكثيرين لتقليده والسخرية من طريقة كلامه، فقد كان من غير الممكن إخفاء ذلك . أفضل العاملين في مجال الأسنان الصناعية في الإدارة الرابعة لوزارة الصحة السوفيتية كانوا يعدون قالب طقم الأسنان، إعداده كان يستغرق وقتاً طويلاً لما بعد منتصف الليل. لا أدرى أي تغيير حدث في فك السكرتير العام خلال هذا الوقت، أي صعوبات ظهرت، لكن ما حدث بالفعل كان قياس عشر نماذج من الأطقم ولم تكن تتناسب.وكان بريجنيف يغضب ويخرج عن وعيه.

كنا في كازاخستان واقترح كونايف (السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الكازاخستاني ــ المترجم) بعد أن عرف المشكلة، اختصاصي الأسنان الخاص به، وهو – حسب أراء كثيرة – شخص موهوب جداً. المختصون في موسكو نظروا بشك وعدم ثقة لهذا الاقتراح، لكنهم لم يعيقوه، لأن هم أنفسهم احتاروا. مرة أخرى، نماذج. وغادر ليونيد إليتش كازاخستان راضياً، لكنه لم يرتد أطقم الأسنان هذه ولا مرة. الاختصاصي الذي صنع أطقم الأسنان كان جيداً، ولكن زملائه الموسكوفيين كان عندهم حق، المنتج الجيد ممكن أن تحصل عليه إذا كنت تملك معدات وخامات درجة أولى.

تشازوف كان يبحث عن اختصاصيين، اتصل بكل المدن الكبرى على أمل أن يجد في المدن اختصاصي موهوب ماهر. إلا أن كل الموظفين الكبار في المدن لم يستطيعوا مساعدته، فهم أنفسهم كانوا يستخدمون إدارة تشازوف.

اقترح تشازوف على بريجنيف أن يلجأ للاختصاصيين في ألمانيا الغربية، الاقتراح قوبل بسعادة، أعطيت الأوامر، وفي اليوم التالي وصل الاختصاصيون الألمان إلى موسكو، وعلى التوالي: قالب، طقم، استعجال. الألمان اقترحوا منتجا سهلا جديدا من خامات خاصة، كانوا حريصون على الدقة، إلا أنه بعد مرور أسبوع واثنين لم يعد المقاس مناسباً. في نهاية الأمر زرعوا له أسنانا، لكن ليونيد إليتش لم يستطع الأكل أو التحدث بصورة طبيعية، ومرة أخرى حدث التهاب وتهيج في اللثة، ومرة ثانية تم استدعاء الألمان لموسكو. بريجنيف دعاهم للصيد في زافيدوفو، وأرسل لهم إلى ألمانيا غنائم الصيد. أحد الأطباء أعجبته شجرة شوح لونها سماوي، فتم نزعها، ومع التربة تم إرسالها لألمانيا.

استمر هذا لفترة طويلة إلى حد ما، وانتهى بأن الجميع ضجروا من كل شيء، ومن جديد لجأوا لأطباء موسكو، الذين بدأوا معه هذه الملحمة من البداية .

آخر عامين كنت معه لا أفارقه، في المنزل كان يتحرك دون الاعتماد على أحد، ولكن حيث يوجد درج كنت أساعده. في زافيدوفو لم يعد يصعد إلى غرفته بواسطة الدرج الرخامي على قدميه ولكن بالمصعد فقط.

في العمل كان يحرج ويقول " أنا بنفسي، أنا بنفسي...."، لكن فيما بعد تعود على مساعدتي الدائمة، وتوقف عن الحرج.

الأوراق التي كانت تحضرها السكرتيرة، كان يوقعها دون الخوض في محتواها. كل القضايا – السياسية والاقتصادية والعسكرية– كان يقوم بالبت فيها آخرون بدلا عنه. ذات مرة دار الحديث عن مساعدة فيتنام وكوبا ودول أخرى كثيرة. فقال جريتشكو (وزير الدفاع) " يوم واحد حرب سيكلفنا أكثر ". بعدها، لم تتقلص المساعدات، بل على العكس زادت.

يبدو لي أن بريجنيف اختار لمنصب النائب الأول لرئيس مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي ف. ف. كوزنتسوف (كان أكبر سناً من بريجنيف) لكي يشعر على خلفيته بأنه أخف وأصغر سناً. على العموم عندما كان يشاهد أناس أكبر منه سناً ومازالوا أقوياء كانت معنوياته ترتفع، وكان يقيس عمره مع عمرهم، وتحدث عن إ.ب. سلافسكي وزير صناعة الماكينات الخفيفة، والذي كان على وشك إتمام عامه التسعين، والذي كان يستطيع شرب كأسين كبيرين من الكونياك حتى آخرهم. وقال عنه: أتراه، ها هو، جدع! قالها بسرور.

إلا أن هذا "العلاج النفسي" لم يساعده كثيراً.

إحدى صفاته التي أدهشت الجميع، سواء المحيطين به أو الأجانب. أنه كان يتحرك ببطء وتشعر أنه بحالة سيئة للغاية، وبعد عشرين دقيقة تراه فجأة نضراً وبكامل قوته وفتوته، يقوم من خلف المكتب ويتحرك بخفة ونشاط. هذه التغيرات من النقيض للنقيض لاحظها حتى من كان يشاهده على شاشة التليفزيون.

في أكتوبر عام ١٩٧٩ توجهنا لألمانيا الشرقية للاحتفال بذكرى مرور ثلاثين عاماً على قيامها. الاحتفالات جرت في صالة رياضية، ليونيد إليتش كان يجب أن يلقى خطابا في الصباح لمدة نصف ساعة، قبيل ذلك في المساء تناول جرعة كبيرة من الحبوب المنومة (أحد الزملاء الحق به الضرر – المؤلف) وفي الصباح لم يستطع النهوض. بقي على موعد الخطاب أقل من ساعة وهو لا يستطيع المشي ولا حتى الوقوف. الوفد السوفييتي ذهب للحفل ونحن بقينا مشغولين بالسكرتير العام. تشازوف كان يعرف ماذا يفعل. بعد قليل وبعد أن أعطى له حقنة، بدأ ليونيد إليتش يستيقظ وذهبنا إلى مكان الاحتفال. احتياطي الصحة والقوة الداخليين على ما يبدو كانا ضخمين.

في الطريق إلى منصة الرئاسة كان يجب أن يمشى عبر الصالة كلها، أنا صحبته وأوصلته، والسكرتير الأول للجنة المركزية لحزب العمال البولندي المتحد إدوارد جيريك

ساعد بريجنيف في الصعود على المنصة، وأنا انتظرت بجوار المنصة. أثناء إلقاء بريجنيف لخطابه كنت أقف بجواره من الخلف تحسباً لأن يبدأ في الوقوع، فأتلقفه. كنت شديد القلق سيقع، لن يقع... بعد الخطاب صحبته أيضاً.

بسبب حالة ضعف بريجنيف، غير واضعو برنامج الاحتفال موعد المسيرات الاحتفالية، بعد ذلك تمت إقامة مأدبة غداء رسمية. مكان القادة كان مميزاً في موقع خاص وراء الجميع. عندما دخلنا صفق الجميع. ليونيد إليتش ذهب إلى السفرة، لكن لا أذكر إن كان رفع كأسا مع الجميع أم لا، في المقابل أذكر جيداً ماذا حدث في الدقيقة التالية. أدار السكرتير العام رأسه إلى اليسار وإلى اليمين ثم قال بصوت عال: ماذا نفعل هنا؟ هيا بنا. لم يشرح لأحد أي شيء، وحتى لم يودع الناس، تحرك إلى المخرج.٠موقف محرج ويجلب الخجل، الجميع ينظر إلينا،مكثنا ربما لمدة خمس دقائق في هذا الموقف المحرج.

مثل هذه الإخفاقات كانت تحدث أكثر فأكثر سواء في الخارج أو في داخل البلاد. بعد كل زيارة متوترة، تأتى فترة انفراج وتفريغ الشحنة، ثم من جديد إحباط، ثم غيبوبة. لقد أصبح من غير الممكن إخفاء حالة السكرتير العام عن أحد.

هل كان هناك قادة في تاريخ الدول المتحضرة مثل هذا؟ لا أعرف، وغير محتمل. بومبيدو حضر إلينا، وكان مريضاً جداً، والتقى بريجنيف في بيتسوند. عاد إلى بلاده وتوفي بعدها بوقت قليل، لكنه كان متماسكا ويبدو بشكل لائق. من الممكن أن نتذكر روزفلت على الكرسي المتحرك، لكن ذهنه كان صافياً.

فكروا في تطوير نظام كامل لتسهيل حياة وعمل القادة كبار السن.

وتاريخ إنشاء سلم طائرة مخصوص متحرك يعمل بالكهرباء لرفع السكرتير العام إلى الطائرة أصبح حالة فريدة، لا يوجد مثلها.

في أحد أيام الجمعة من شهر سبتمبر عام ١٩٧٩ تلقى مدير المصنع التجريبي رقم ٨٥ لصناعة الطائرات المدنية إ. أفاناسيف، مكالمة تليفونية مفادها أن يحضر بسرعة إلى موسكو. لم ينتظر حتى يوم الاثنين، طار إلى موسكو قبل عطلة نهاية الأسبوع، وهناك أخبره نائب وزير الطيران المدني يو. مامسوروف، أن الوزير بوجايف تسلم تكليفا عاجلا بإعداد سلم متحرك يعمل بالكهرباء للطائرة " إل ــ٦٢ ". لم يذكر لقب السكرتير العام، لكن الزائر بالإيحاء فهم أنه لليونيد إليتش بريجنيف.

– المهمة يجب أن تنفذ في أقل وقت.

– في كم شهر.

– في أسبوعين!

اندهش مدير المصنع ولم يتمالك نفسه. قال: أسبوعين؟ هذا عبث.

– سوف تبلغنا بمراحل التنفيذ كل يوم. أجابه نائب الوزير.

يوم الاثنين، في الصباح، عقد مدير المصنع اجتماعا مع رؤساء الأقسام والورش والمصممين والتقنيين، لا توجد لديهم أية خبرة عن الموضوع، لا رسومات ولا تصاميم.

وعلى وجه السرعة تم عمل دراسة عن السلالم المتحركة في مسارح ومحلات ليننجراد، عرفوا أن في مدينة دنيتسك (في أوكرانيا – المترجم) يوجد مصنع ينتج هذه السلالم المتحركة.

أرسل المنفذون في لينينجراد طلب تمكنوا من خلاله من الحصول على سلمين متحركين جديدين للرفع للطوابق، واحد منهم للاستخدام في موسكو. لكن الحقيقة كانا لاستخدام المواطنين العاديين، لرفع ركاب الطائرات من الطابق الأول إلى الطابق الثاني في المطارات، وبعد ذلك للخروج إلى الجلوس في الطائرة في الصالة رقم ٢ في مجمع مطارات فنوكوفو.

قال ف. إتشكالوف كبير مهندسي مصنع ٨٥ في ذلك الوقت: السلالم المتحركة للرفع بين الطوابق التي تسلمناها لم تكن صالحة، من الصعب تصور كم كانت صدئة... فككناها بأنفسنا ونظفناها وشحمناها، حاولنا تجربتها في العمل، لكن الجنازير كانت تخرج عن التروس، وكانت السيور المطاطية التي يمسك بها الراكب أثناء الصعود تنزلق عن البكر، وكان علينا أن نقوم بأيدينا بتوصيل مفاصل السلالم المتحركة هذه، ولم يكن هناك وقت لنشكو المورد لعدم الجودة ....

و قال إ. سيريكوف النائب السابق لكبير المصممين في مصنع ٨٥: لم يكن على الإطلاق في الوجود أوراق تصاميم فنية لتصنيع هذا المنتج، لكن العمل على تصنيعه كان يسير على قدم وساق في كل مكان. السلم المتحرك العادي يتحرك بسرعة متر واحد في الثانية، الرفاق المتخصصون اعتقدوا أن هذا يعتبر سريعا جداً! اضطروا لخفض السرعة خمس مرات..، ولحالات الحوادث الطارئة أدخلوا نظام يوقف السلم المتحرك لحظياً.... وتم إعداد جدول تسليم رسومات التصميم للورشة، حيث تم تخصيص جزء خاص أحاطوه بسور لهذا العمل، المهام وزعت على كل واحد حسب دوره: ستفعل كذا وكذا، على سبيل المثال ليوم غد حتى فترة الغداء سنفعل كذا وهكذا!.... إذا لم تأت الرسومات أو خرجت إلى الورشة متأخرة، كان لهذا رد الفعل المناسب من قبل اللحامين، والذين يجمعون الأجزاء. يجب أن نؤكد على أن الكل كانوا إختصاصيين على أعلى مستوى! لقد وثقوا في الأفضل لتنفيذ هذه المهمة الخاصة. وهكذا تم استدعاء عشرين من المصممين، كانوا يعملون على ورديتين، بدون عطلات في وقت حرج وأكثر من حرج، باختصار لم يعملوا حسابا لأي شيء. لكن دائماً ما كانت تتغلب فكرة وسط هذه البهرجة: على الله ألا يفوتوا شيئا، فقد كانوا يدركون ثمن هذا.

يقول ف. شفيتس المصمم الرئيسي السابق في تجميع سلالم الطائرات المتحركة: هذا الطلب الخاص أجبرنا على ترك خطة إعداد قطار للمطارات يسع ١٧٠ راكباً. بدأ الجميع يسافر إلى المدن المختلفة – بما فيها المدن البعيدة – لحل مشكلة استعجال أشرطة السلم المتحرك، وإلى خاركوف لكي يتم دهان درجاته، لا أستطيع حصر كل شيء...

و يقول ب. مينوكوفسكي المصمم الرئيسي السابق للجزء الكهربائي: تغذية السلم المتحرك بالكهرباء كان يجب أن تكون أوتوماتيكية من مولد منقول على عربة بجرار من

طراز " زيل – ١٣٠ ". بالمناسبة: على هذه السيارة تم تحميل السلم المتحرك، وعندما بدأت تجربته، تبين أن حركة الجنازير لا تتحقق إلا مع دوران محرك السيارة دورات سريعة جداً. المشهد كان خيالياً في تلك اللحظة، زمجرة الموتور، دخان متصاعد، المنتج يهتز، تتأرجح كل الأجزاء على بعضها!.. حينها أطلق عليه المصنعون اسم " ديناصور ". اضطروا لإعادة تصنيع مصدر الكهرباء...

مر ليس أسبوعان، ولكن أربعة أشهر، ووصلنا لعام ١٩٨٠.

قال ف. يتشكالوف: لقد خلق الاستعجال لنا المتاعب عندما أردنا تحميل أول مُنتج لمحطة البضائع لإرساله إلى موسكو بالقطار! تحركنا على الطريق بدون مرافقة رجال المرور، وارتفاع السلم الكهربائي المتحرك كان غير مناسب للطريق الذي نسير عليه، لهذا اضطررنا للعودة من الطريق، والتوجه لمحطة القطارات عبر الغابة، من طريق زراعي! الوقت كان نهاية يناير والبرد شديد..، لكن بالنسبة لي كمسئول عن الإحضار كان الطقس حاراً بالمعنى الحرفي والمجازى، فقد كان " الديناصور " الذي يزن ١٦ طن يتأرجح، بشكل تشعر معه كأنه سينكفئ ويقع. توقفنا غير قادرين على الحركة في الجليد، واضطررنا لدفعه بالأيدي. بصعوبة وصلنا للمكان المحدد.

و بمجرد أن وصلنا للرصيف قال العاملون في محطة السكة الحديد:توقفوا الأمر لن يمر هكذا! الحجم كبير من حيث الارتفاع، اضطررنا أن نشرح لهم لمن خصوصية هذه الشحنة. وقد أتى الحديث ثماره وأعطونا الضوء الأخضر.

وصلنا إلى مطار فنوكوفو، لا أحد يريد استلام السلم المتحرك. وجدوا له مكان في المطار فقط بعد أن لجأنا لنائب الوزير، وخصصوا لنا مكان لوضعه في أرض مكشوفة...

هذا السلم المتحرك المتعوس، كما هو مفترض، تسلمته لجنة. أعضاء اللجنة كانوا يهزون رؤوسهم: الأمر لن يمر، لن يمر... أول خمس درجات من السلم المتحرك كانوا لا يتحركون، لن يمر، يجب أن يرفع السلم ليونيد إليتش بريجنيف من الأرض، فهو لن يستطيع أن يصعد أول خمس درجات، ودرجات السلم مرتفعة... قائمة ملحوظات اللجنة على السلم المتحرك بلغت ٢٤ نقطة:

- بحث إمكانية خفض ارتفاع درجات السلم المتحرك إلى ١٠٠ مم.
- لا يوجد تأمين ضد حوادث الكهرباء.
- عند درجة حرارة ٥ درجات وأقل، لا يتحرك الدرابزين الخاص بالسلم (تتحرك فقط درجات السلم).
- موديل السيارة المستخدمة لنقل السلم المتحرك (زيل – ١٣٠) يعتبر قديم.

إحدى الملحوظات تستحق اهتماما خاصا: الأخذ في الاعتبار سن وحالة المسافر الرئيسي في البلاد.

- لوحظ عدم ثبات السلم المتحرك عند وصول المسافرين إلى البسطة العليا، وإمكانية أن يكون التأرجح بسبب عدم وجود دعامات إضافية....

من عام ١٩٨٠، لقد مر عام على بداية العمل! وتم إنفاق ربع مليون روبل! من الروبلات القديمة، التي كان لها قيمة، لو حولناها للنقود الحالية لبلغت عشرات كثيرة من الملايين.

في نهاية الأمر قررت اللجنة: أن السلم المتحرك لم ينجح في التجربة، ويجب أن يخضع للتكهين.

الملحمة لم تنته عند هذا الحد، ووزارة الطيران المدني لم تهدأ بسبب الخمس درجات الأولى غير المتحركة، وقررت أن تصل بالأمر إلى نهايته فاشترت من الخارج سلما متحركا يرفع من الأرض، المصاريف هنا أصبحت بالعملة الصعبة، لكن لم يتمكن أحد من استخدام هذه التقنية العجيبة، القادة العواجيز واحدا وراء الآخر توفوا بسرعة، وجاء عام ١٩٨٥.

" الديناصور" أصبح خردة، والسلالم الكهربائية المتحركة تم وضعها في المخازن.

في هذه الحكاية ظهرت جليا أخلاقيات أواخر الثمانينيات، من قرر هذا الأمر على مستوى المكتب السياسي بالتحديد؟ لا أعرف، لكن المنفذ الرئيسي كان المطيع وزير الطيران المدني ب.ب. بوجايف، الطيار الشخصي لبريجنيف سابقا. أثناء عمله الطويل حصل على الكثير من الأوسمة: حصل على جائزة الدولة وجائزة لينين، مرتين بطل العمل الاشتراكي، ثلاث مرات ميدالية لينين، مرتين الراية الحمراء، ولقب مارشال الطيران الرئيسي.

كم من التطويرات المشابهة ابتدعها الخدومون المجتهدون المخترعون؟!

في المبنى الأول للكرملين في قاعة الاجتماعات العامة تم تركيب درابزين، لكي يستند إليه القادة الحزبيون أثناء صعودهم إلى المنصة.

تم تركيب مصعد إضافي في قصر المؤتمرات من الطابق الأول في الأسفل إلى غرفة الرئاسة، مقابل المخرج المؤدى للمنصة مباشرة.

من ناحية سور الكرملين تم تركيب سلم متحرك، ليصعد به المسئولون إلى أعلى ضريح لينين. صدق أو لا تصدق من أرض الكرملين إلى المنصة الحكومية، بارتفاع منزل مكون من أربع طوابق. لم يلحق بريجنيف بهذا السلم المتحرك (أخر عيد من احتفالات شهر نوفمبر قبل ثلاثة أيام من وفاته صعد إلى المنصة على قدميه)، واستخدمه السكرتيران العامان المرضى جداً أندروبوف وتشيرنينكو.

في عهد أندروبوف بتوصية من الأطباء تم تغيير نظام الاستقبالات والوداعات الرسمية : من مطار فنوكوفو كانوا يحضرون الزائر للكرملين على النمط الأمريكي. ونظراً لغياب الحديقة الصغيرة الجميلة كتلك التي أمام البيت الأبيض، كان قادتنا يستقبلون الضيوف ذوات المستوى العالي عند مدخل الكرملين الكبير، لكن ذات مرة أثناء فترة حكم جورباتشوف وأثناء الاستقبال الرسمي لراجيف غاندي(رئيس وزراء الهند – المترجم)، هطل المطر واختبأ الجميع تحت ممر المشاة. منذ ذلك الوقت تم تحويل الاستقبالات والوداعات الرسمية لتتم في قاعة جيورجي في الكرملين.

أندروبوف طلب بنفسه أن تكون منصة الخطباء في المبنى الجديد للجنة المركزية ليست أسفل منصة الرئاسة، كما خطط المصممون، ولكن قريباً من منصة الرئاسة مباشرة، لكي لا يهبط ويصعد سلما صغيرا. توفي أندروبوف، وطلبه لم ينفذ.

تصلب الأوعية الدموية بالمخ جعل من بريجنيف شخصا غير كامل الأهلية، ليس فقط جسمانياً، ولكن أخلاقيا، حيث فقد القدرة على تقييم حرج تصرفاته وأصبح ينساق وراء كل أنواع التفاهات. في الخمس – ست سنوات الأخيرة، كان المدير الإداري في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي يتصل قبل أية زيارة لبريجنيف لأي جمهورية سوفيتية ويتحدث إلى نظيره، ويتفق معه على الهدايا التي سيقدمونها للزائر الرفيع: خاتم، سلاح، وهكذا.

أصيب بحالة من الهوس بالأوسمة والنياشين نتيجة كبر السن وفقدان الذاكرة. كل هذا التحول الأهبل حدث خلال عامين بالضبط. في البداية كان بريجنيف يقاوم مقاومة ضعيفة رغبة زملائه، ففي عام ١٩٧٨ رفض وسام النصر، فقد كان يدرك أن هذا الوسام يمنح فقط لمن حقق إنجازا عسكريا، لكن المغنيين من الزملاء الحزبيين في صوت واحد وعلى رأسهم وزير الدفاع المارشال أوستينوف أقنعوه بسهولة: أنت القائد الأعلى للقوات المسلحة لقوة عظمى! وتناضلون من أجل السلام في العالم! فوافق.

و عن كتابة "مذكراته": في البداية لم يكن متحمساً، وقال: وماذا تعنى مذكراتي، ليس فيها أي شيء غير عادى، الحياة هي التي رتبت كل شيء. لكن الأيديولوجيين الحزبيين تكلموا في صوت واحد: ماذا تقولون يا ليونيد إليتش، هذه الفترة من الزمن عصر تاريخي كامل! ومن الضروري أن يدرس الجميع هذا الكتاب. فقال: مادام أنتم تعتقدون هذا.....

المتخصصون المحترفون في الآداب بلا انقطاع أقنعوه: ممتاز عبقري! أوهموا العجوز المريض بسهولة أن حياته العبقرية تعتبر مثالاً لكل الأجيال.

عندما كان الممثل فياتشلاف تيخونوف يقرأ " الأرض الصغيرة " (عنوان مذكرات بريجنيف – المترجم) كان ليونيد إليتش بإخلاص كامل يندمج ويقول: جيدة، بحق تبدو جيدة، ولماذا لا تكون شيقة: الممثل المحبوب لديه، على الشاشة يتحدث عن حياته.

و كان يحب جدا أغنية " الأرض الصغيرة " بأداء صوت رجالي خاصة المطرب مسلم ماجومايف. للمرة الأولى استمع إلى هذه الأغنية في الشرق الأقصى من الاتحاد السوفييتي،حيث غناها أحد ضباط صف البحرية من الدائرة العسكرية للشرق الأقصى، وكان شاباً ضخماً ذي عضلات، وقد غناها في أحد قصور الثقافة. وكان الصوت الجهوري عميقاً، وعندما غنى اهتزت الجدران. ليونيد إليتش تأثر، بعد الحفل شكر صف ضابط البحرية وصافحه. تبين فيما بعد أن الشاب صف ضابط البحرية لديه إصرار، بعد عامين ظهر في موسكو ومن خلال ريابينكو تمكن من مقابلة بريجنيف الذي شكره مرة أخرى وأهدى له ساعة عليها صورته.

.... أنا أفكر مرة وراء مرة (بأسف ومرارة) عن أنه لماذا لم يخلد للراحة ويستقيل في منتصف السبعينيات. هل فكر بريجنيف في الخروج؟ نعم، عندما كان يشعر بالإرهاق

الشديد. أثارت السيدة فيكتوريا ذات مرة هذا الموضوع وقالت له : لونيا (اسم تدليل لليونيد اسم بريجنيف الأول – المترجم) يمكن من الأفضل أن تخرج على المعاش التقاعدي؟ أرى أن الأمور صعبة عليك، دع الأصغر سناً..... فقال لها: أنا قلت إنهم لن يتركوني.

عندما أظهروه في التليفزيون متهالكا خائر القوى، أثارت زوجته السيدة فيكتوريا نفس الموضوع من جديد.

حقيقة لم يتركوه، أثناء وجودي في منتصف السبعينيات، وبعد تقليده ميدالية من كم الميداليات الكثير التي حصل عليها، وهو إلى حد ما بحالة لا بأس بها، قال لأعضاء المكتب السياسي : أنا أشعر بالتعب، من الممكن بحق أخرج للتقاعد؟ رد الجميع في صوت واحد: ماذا تقولون، لا يمكن الحديث عن هذا. وأندروبوف حينها نصحه: لا تجهد نفسك، نحن سنأخذ على عاتقنا الجزء الأكبر من العمل.

في الحديث الذي أدلى به الكسندروف ــ أجينتوف (أحد مساعدي بريجنيف) قبل وفاته بفترة قصيرة وفي إجابته على سؤال أحد الصحفيين: "كيف كنت تعمل كإنسان متعلم مع شخصية ضيقة الأفق، كما بقي في الذاكرة عند الكثيرين: ليونيد إليتش بريجنيف؟" أجاب المساعد السابق: أنا لا أوافق أبداً على هذا التبسيط الفج لشخصية بريجنيف، فهو في الآونة الأخيرة عرض الاستقالة مرتين، لكن " العواجيز " – تيخونوف وسولومنتسوف وجروميكو وتشيرنينكو، لم يسمحوا له بذلك، بريجنيف المريض كان مناسباً لهم.

بريجنيف لم يستطع عمل أي شيء. وهؤلاء الذين كانوا يستطيعون لا يحتاجون سوى للكرسي، فقد كانوا يخافون جداً من أن يفلت أحد الشباب إلى الواجهة، في هذه الحالة ستكون نهايتهم.

في ربيع عام ١٩٨٢ جرت أحداث كانت بالنسبة لبريجنيف مميتة. فقد توجه في زيارة إلى جمهورية أوزبكستان، كانت الزيارة مكرسة لمنح جمهورية أوزبكستان الاشتراكية السوفيتية وسام لينين.

و كان عليه وفق البرنامج المعد سلفاً أن يقوم بزيارة عدة أماكن يوم ٢٣ مارس، من بينها مصنع الطائرات. في الصباح بعد تناول الإفطار جرى تبادل للآراء مع القيادات المحلية، وأشار الجميع إلى أن البرنامج مزدحم وأن زيارة مصنع الطائرات ستكون مملة لليونيد إليتش بريجنيف، واتفقوا على ألا يذهب إليه، وبالتالي رفعوا الحراسة التي نشروها في المصنع وأرسلوها لمكان آخر.

في الصباح ذهبنا إلى مصنع نسيج، ومصنع جرارات باسم ٥٠ عاماً على الاتحاد السوفيتي، حيث قام ليونيد إليتش بكتابة انطباعاته في دفتر الزوار. تمت الزيارات بشكل سريع إلى حد ما، وبقي لدينا متسع من الوقت. عند العودة لمقر الإقامة نظر بريجنيف إلى الساعة وقال لرشيدوف(السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوزبكستاني – المترجم): يوجد لدينا وقت قبل الغداء، ونحن وعدنا بزيارة مصنع الطائرات والعاملون استعدوا للقاء وتجمعوا ينتظروننا. هذا غير جيد، سيتساءلون، وتنتشر الشائعات، هيا لنذهب.

بالطبع وافق المضياف رشيدوف: هيا يا ليونيد إليتش، هيا لنذهب. دار الحديث ونحن على أعتاب مقر الإقامة وهنا تدخل ريابينكو: لا يمكن الذهاب للمصنع، الحراسة تمت إزالتها، ولإعادتها لمكانها نحتاج لوقت. بريجنيف أجاب بحسم: لديكم خمسة عشرة دقيقة لتعيدوا الحراسة.

كان اليوم جميلاً والسماء صافية، أحضرنا كراسي من مقر الإقامة، وجلس ليونيد إليتش ورشيدوف تحت أشعة الشمس، كانوا يتحدثون عن شيء ما وبريجنيف ينظر إلى ساعته، وكان عصبيا. ريابينكو اتصل بقيادة أمن الدولة المحليين، الذين قاموا بدورهم بالاتصال بالمصنع، مرت عشر دقائق لا أكثر، لم يحتمل ليونيد إليتش وقال: انتهى، سننطلق، كان لديكم وقت كاف للاستعداد.

وانطلق موكب السيارات في اتجاه المصنع.

كنا نعرف أن اتخاذ الإجراءات الأمنية الكافية خلال هذه الفترة القصيرة غير ممكن. ماذا يفعل القادة الأذكياء في مثل هذه الحالات؟ يطلبون من الجميع أن يبقوا في أماكن عملهم، دع الجميع يعمل وفق النظام العادي المتبع، وكان من الممكن عدم إخطار أحد بأننا تراجعنا وأن الضيف الرفيع المستوى سيأتي. هنا أيضاً ومن خلال البث الداخلي في المصنع أعلنوا أن هناك مقابلة في ورشة التجميع، الجميع ترك العمل وهرع للمقابلة.

نحن كنا نأمل أن تنجح السلطات الأمنية المحلية في اتخاذ إجراءات تأمين الزيارة، لكن تبين أن الحراسة القادمة من موسكو استطاعت العودة للمصنع، والمحلية لم تعد بعد. عندما اقتربنا من المصنع شاهدنا بحراً من البشر. بدأ إحساس غير طيب بالخطر، ريابينكو طلب العودة مرة أخرى.

اقتربت السيارة الرئيسية التي يستقلها السكرتير العام من مدخل المصنع بصعوبة، السيارة التالية – الأمن – لم تستطع الاختراق ووقفت إلى الجانب، لم نفتح أبواب السيارة انتظاراً لوصول سيارة الحراسة.

بعد خروجنا من السيارة تحركنا في اتجاه ورشة التجميع، كل الكتلة البشرية هرعت إلى الورشة، أحد العاملين في الحراسة تأخر في إغلاق البوابة. آلاف العمال اعتلوا الغابات التي كانت تحيط بطائرات مصنعة، وصعدوا إلى أعلى في كل مكان كما النمل. بصعوبة، منعت الحراسة هذه الكتلة الضخمة، الإحساس بالقلق لم يفارقنا، وريابينكو ونحن نوابه أصرينا على المغادرة، لكن ليونيد إليتش بريجنيف لم يكن يريد حتى مجرد سماع هذا.

مررنا تحت جناح طائرة، البشر الذي ملأ الغابة أصبح يتنقل من مكان لآخر لمتابعتنا، الدائرة المكونة من العمال ضاقت حولنا، والحراسة أخذت تمسك الأيدي لكي تمنع هجوم الكتلة البشرية. خرج ليونيد إليتش بريجنيف تقريباً من تحت الطائرة وفجأة سمعنا صريرا: العارضة والسقف الخشبي الكبير الذي يغطي الطائرة بطولها وعرض أربعة أمتار لم يتحملا، تحت وطأة الثقل غير المتساوي، وتنقل الكتلة البشرية إنهارا! الناس تحت تأثير الانحدار تدحرجوا ساقطين فوقنا مما أدى إلى دهس الكثيرين. أنا نظرت

ولم أشاهد لا بريجنيف ولا رشيدوف، ولا مرافقيهم الآخرين. كانوا مختفيين تحت المسطح الخشبي المنهار، أنا وأربعة آخرين من الحراسة بصعوبة قمنا برفعه، هرع إلينا كذلك حراس محليين. تعرضنا لتوتر ضخم، فقد تحملنا المسطح الخشبي بوزنه مع الناس لمدة حوالي دقيقتين، وكان الناس يسقطون علينا من أعلى مثل حبات الحمص.

ليونيد إليتش بريجنيف كان راقداً على ظهره، وإلى جواره فولوديا سوباتشنيكوف، بإصابة في رأسه، مسطح خشبي كبير، الحمد لله لم يدهس أحدا. وقف رشيدوف على قدميه والجنرال ريابينكو وأعضاء اللجان المحلية، وأنا والدكتور كوساروف رفعنا ليونيد إليتش بريجنيف. زاوية قمع معدني أصابته بجرح شديد في أذنه وكان الدم يسيل منـــه، وساعدنا فولوديا سوباتشنيكوف على النهوض، لم يفقد وعيه لكن رأسه كانت غارقة في الدم، قام شخص ما بوضع منديل على رأسه. جرح خطير – كما اتضح فيما بعد- أصيب به مدير الإدارة " التاسعة " المحلي، أما المضيف رشيدوف فقد أصيب بإصابة طفيفة.

الدكتور كوساروف سأل: لينويد إليتش كيف حالك؟ تستطيع المشي؟ فأجابه نعم - نعم، أستطيع. واشتكى من ألم في عظمة الترقوة.

الجمهور من جديد أصبح يضغط علينا، هذه المرة الكل كان يريد أن يعرف ماذا حدث، استدعينا السيارات إلى الورشة لكن الخروج كان غير ممكن، مما اضطر ريابينكو لأن يخرج المسدس ويلوح به واستطاع شق طريق للسيارات، المشهد كان صعباً للغاية، لا يوصف، فلم أر في حياتي شيئا مشابها. فمن ناحية تأتى إلينا السيارات مع سارينة عالية تصيبك بالطرش ومن ناحية أخرى الجنرال ريابينكو بالمسدس.

رفض بريجنيف الذهاب إلى المستشفي، ونحن انطلقنا إلى المقر بسرعة، في السيارة ريابينكو أخطر بريجنيف بما حدث ومَنْ المصابين. بريجنيف نفسه كانت حالته سيئة، فأصدر تعليمات بان يذهب فولوديا سوباتشنيكوف إلى المستشفي. اتضح أن فروة رأس فولوديا منزوعة، لم يبق سوى مليمترات قليلة في عمق الجرح ليخرج المخ من الرأس.

بالطبع لولا تحمل هذا المسطح الخشبي للناس والثقل الكبير فوقه لكان قد دهس الجميع بما فيهم بريجنيف.

في مقر الإقامة تم استدعاء أطباء الإدارة الرابعة من وزارة الصحة، الذين أتوا بمعدات كثيرة. بقية المصابين تم نقلهم إلى المستشفي بسيارات الإسعاف، فولوديا سوباتشنيكوف عاد بعد ساعة من المستشفي ورأسه ملفوفة بالشاش. الأطباء فحصوا بريجنيف وعملوا له أشعة، ووضعوه في السرير وذهبوا لتحميض الأشعة.

نتائج الأشعة كانت غير مطمئنة، فقد تبين وجود كسر في عظمة الترقوة اليمنى، لحسن الحظ وجدوا أنه شرخ لم ينتج عنه تحريك للعظمة المكسورة.

استراح ليونيد إليتش واستعاد حالته الطبيعية، وبدأت مناقشات عامة، هل يستطيع أن يلقى خطابا في اليوم التالي في الجلسة الاحتفالية للجنة المركزية للحزب الشيوعي للجمهورية ومجلس السوفييت الأعلى لأوزبكستان؟ كوساروف والأطباء المحليين كانوا

مصرين على قطع الزيارة والعودة إلى موسكو. لكن بريجنيف أجابهم بأنه لائق تماماً، وأن عودته لموسكو سوف تؤدى إلى انتشار الشائعات الكاذبة لدى جموع الشعب.

في اليوم التالي، صباح ٢٤ مارس، لم تتدهور حالة بريجنيف. من جديد طلب الأطباء منه العودة إلى موسكو، ومن جديد رفض، وطلب منهم أن يبذلوا كل ما في وسعهم لكي يتمكن من إلقاء خطابه في الاجتماع الاحتفالي. فقاموا بتثبيت يده برباط شاش.

ذهب للاحتفال، وقبل إلقاء الخطاب خلع الرباط الشاش، وقوبل بعاصفة من التصفيق، خطب لمدة ساعة! يجب إعطائه حقه الواجب لتحمله، ولو أردتم: شجاعته. كان يقلب أوراق الخطاب بحرص، نحن فقط من الجلوس في القاعة الضخمة كنا نعرف أن أي حركة حتى لو بسيطة ليده كانت تؤدى إلى آلام غير محتملة له.

الحركة كانت مقيدة والحديث بطئ. كان يشبه شخصا مخمورا جداً، هكذا كان يعتقد ليس فقط مشاهدو التليفزيون والمستمعون في القاعة، ولكن أيضاً أشخاص من الحاشية المقربة من السكرتير العام، ولم يحرجوا من السؤال عن هذا الموضوع غير المستحب، فانت لن تستطيع أن تشرح لكل واحد. مهانة.

في اليوم الذي تلاه ٢٥ مارس، وجد بريجنيف في نفسه القدرة ليخطب في لقاء مع قادة جمهورية أوزبكستان، وبعدها أن يهنئ السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي شرف رشيدوفيتش رشيدوف بمنحه وسام ثورة أكتوبر.

بعودتنا إلى موسكو، توجهنا مباشرة إلى المستشفي في شارع جرانوفسكى، تكرار الأشعة أدى للكآبة عند الأطباء، حتى أكثر الأطباء خبرة.. ما كان يعتقد أنه شرخ في الترقوة تحول لكسر وتحركت العظام عن موضعها.

أرادوا إجراء عملية جراحية لكنهم لم يستطيعوا اتخاذ قرار بهذا بسبب ضعف قلب بريجنيف.

لعلكم تذكرون عندما كان يؤدى التحية العسكرية في آخر عرض عسكري في ٧ نوفمبر ١٩٨٢، كان بالكاد يرفع يده لأن عظام الترقوة لم تلتئم.

بقى لبريجنيف على قيد الحياة أكثر قليلاً من نصف عام. وإذا كانت صحة السكرتير العام في السابق تنسحب بالتدريج ولكن بشكل مستمر، فإنها بعد حادث طشقند ببساطة انهارت تماماً.

أيام ليونيد إليتش بريجنيف أصبحت معدودة، لم نكن نحن الحاضنين له نعرف هذا فقط، لكن الحلقة الضيقة المحيطة به من العواجيز عملت بما فيه الكفاية لكي يظهروا عدم قدرة قائدهم للجميع.

مر أكثر قليلاً من شهر بعد حادث طشقند، حيث رقد بريجنيف في المستشفي بشارع جرانوفسكى، حالته كانت فظيعة، كان يتحدث بصعوبة. الترقوة لم تلتئم بعد، الجرح خطير، أعضاء المكتب السياسي كانوا يجتمعون عنده في المستشفي ليناقشوا جدول أعمال الاجتماع القادم للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي في شهر مايو: عن برنامج

الغذاء، والمهام التالية. ليونيد إليتش كما في أواخر أيامه كان يطلب مني البقاء ويقول: دخن يا فولوديا.....، جلست بالقرب منه أدخن وانفث الدخان في وجهه وهو في سرور يستنشق الدخان. في واقع الأمر هذا كان "مكتبا سياسيا متحركا". بريجنيف لجأ لرئيس الوزراء تيخونوف: يمكن يا نيكولاي أن تلقى أنت الخطاب؟ وكما حدث في ذلك الوقت المؤسف في طشقند، السكرتير العام في حقيقة الأمر لم يكن يريد إلقاء الخطاب لأنه هو بالفعل من الناحية الجسمانية كان غير قادر. فأجابه تيخونوف: لا يا ليونيد إليتش، أنت ستلقى الخطاب، أنت فقط. برنامج الغذاء كان فكرتك، ومن أعماق تفكيرك، والعالم كله يجب أن يتقبله. بريجنيف وجه حديثه للباقين: أنتم ترون حالتي، صعب على الوقوف ساعتين على المنصة. وهنا تحدث الجميع في صوت واحد: حاول أن تجد في نفسك القوة، فهذا مطلوب للمجتمع الدولي، ومن الضروري أن تصعد أنت على المنصة بالتحديد. "برطم" بريجنيف قليلاً، وقال شيئا غير مفهوم، لكنه فهم أن هذا تكليف من المكتب السياسي.

الاجتماع حدث بعد عدة أيام: ١٢ مايو، السكرتير العام حاول أن يتماسك ويبدو صلباً، بصعوبة وصل إلى المنصة، الخطاب كان طويلاً جداً، لم يستطع بريجنيف أن يقول سوى نصف الكلمات والباقي تمتمة وهكذا ......

لقد كان يُعرض ليضحك عليه الناس، كل العالم تسلى به فيما بعد، كنت أشعر بالأسى من أجله.

هذا ما كان يسمى النظام الحزبي، مادام الحزب كلّف ....

بعد الخطاب مباشرة تمت إعادة بريجنيف للمستشفى .

بعدها بوقت قصير جداً، أيقظوا سكرتير عام يموت: هو تشيرنينكو، أيضاً من السرير وألبسوه ملابسه الرسمية، وكان الباقي له على قيد الحياة عدة ساعات، عندما أحضروا له صندوق تصويت ليدلي بصوته، ولعدة ثوان وضعوه على رجليه أمام الكاميرات، ليظهروا للبلاد أن السكرتير العام على قيد الحياة، وأن كل شيء على ما يرام. لم يكن تشيرنينكو يستطيع الكلام، فهو يهمس وبالكاد صوته يُسمع، هذه كانت فعلة جريشين (أمين اللجنة الحزبية بموسكو وعضو المكتب السياسي- المترجم): أن يأخذ القائد الذي يموت من الفراش.

والأطباء إدارتنا الطبية الرابعة الشهيرة صامتين، كما لو كانوا ابتلعوا في أفواههم ماء. منتهى البربرية.

لقد ربطوا أنفسهم ببعضهم البعض، من أجل الكرسي لم يرفضوا لأحد طلب، مريض الربو تشيرنينكو، وآخرين أجبروا أنفسهم على الذهاب للصيد في زافيدوفو، والسكرتير العام بعدم رؤيته لهذا اختصر حياتهم بتسارعه. وهم قصروا من أجله هو وبدون أطباء أغرقوه بالحبوب.

هكذا عاشوا مترابطين أهلكوا أنفسهم، وبعضهم البعض.

الفصل الحادي عشر

وفاة بريجنيف

نعم، أيام ليونيد إليتش بريجنيف كانت معدودة، نحن الثلاث "حراس" كنا نعرف هذا، انتظرنا هذا اليوم المحتوم بقلق شديد، كل واحد منا كان يفكر: ربنا يستر ولا يحدث هذا أثناء مناوبتي. لم نفكر فقط بل ناقشنا هذا الموضوع فيما بيننا بصوت عال. أولاً: من الناحية الإنسانية الخالصة صعب، فهو (بريجنيف – المترجم) أصبح بالنسبة لنا واحد منا. ثانياً: الموت الطبيعي للشخصية الأولى في الدولة لكل واحد منا من الممكن أن تتحول لأي شيء في نظامنا هذا. قد نحاكم فيما بعد: ماذا وكيف وأين كنتم؟ لكن الشيء البديهي والأهم، وهو إننا سنصبح بدون عمل.

... العالم كله كان يعرف الحالة الصحية لسكرتيرنا العام، وفي البيت الريفي لم تكن هناك نقطة إسعافات طبية، ولم ينظم هذا الأمر. ولم يلحقوا ولا حتى ممرضة مناوبة، كون بريجنيف لم يشك للأطباء معتقداً أنه صحيح أي أنه بصحة جيدة، لا يغير من الأمر شيء.

هذا ليس إهمال فقط، إنها جريمة.

كنت أشعر، وقلت لزملائي: لا تقلقوا، كل شيء سيحدث أثناء مناوبتي، أنا أعرف.

وتقريباً كنت على صواب.

يوم ٧ نوفمبر ١٩٨٢: السكرتير العام من فوق منصة ضريح لينين يرحب بالعرض العسكري، من أمامه تتوالى مسيرات الرخاء. الزعيم على قيد الحياة، كل شيء على ما يرام. الزعيم يحاول تحية العرض، لكن يده ترتفع ببطء حتى مستوى الكتف فقط، كسر الترقوة مازال كما في السابق له تأثير، وحديثه عبارة عن همهمة بشفتيه دون كلمات، هذه المحاولات لأداء التحية تحولت فيما بعد إلى موضوع للتقليد والسخرية، مثل طريقته في نطق الكلمات على مقاطع.

في نفس اليوم، ٧ نوفمبر، ذهب لمدة يومين، إجازة العيد، إلى زافيدوفو " للصيد". جلس هناك دون سلاح. في السيارة كان متهالكاً، ويتابع رماية حارسه الشخصي. إنها المرة الأخيرة التي يعيش فيها الشعور المثير لمغامرة الصيد.

يوم ٩ نوفمبر وصلت للنوبتجية. ليونيد إليتش وصل للعمل حوالي الساعة العاشرة وعشرين دقيقة، استقبلته كالعادة عند المصعد في الطابق الثالث، خرج مرتديا بالطو خريفي لونه رمادي غامق مفتوح، وفي يده غطاء الرأس المصنوع من الفراء، يبتسم. مد يده: أهلا يا فولوديا. من جانبي بدأت بموضوعه المحبب: كيف كان الصيد. فرد: جيد. للوصول للمكتب ممر طوله أربعين متراً، أوصلته لغرفة الاستراحة، ساعدته على خلع الملابس. رئيس الحراسة ذهب للمنزل، أنا بقيت بمفردي، لم يأت إليه أحد في ذلك

اليوم باستثناء المساعدين والسكرتارية. يبدو كذلك أن تشيرنينكو دخل إليه لحل بعض المشاكل اليومية، في منتصف اليوم قال لي كالعادة: سأذهب للغداء الآن، هل لديك شيء؟ أحضرت له ملفا به قضايا يومية.

كل شيء كما هي العادة. بعد الغداء رقد على الكنبة ليستريح، ونحن حولنا التليفون لساعتين إلى غرفة الاستقبال.

بعد الغداء احتاج ليونيد إليتش لتصفيف شعره، لكن للأسف الحلاق لم يكن موجوداً، تولا كالعادة كان مخموراً وكنت قد طردته في الصباح.

استيقظ ليونيد إليتش في الخامسة. استدعى تولا، فقلت له: غير موجود. فقال: ما سبب عدم وجوده؟ قلت له كل شيء كما حدث، وقلت أني طردته. لم يغضب ليونيد إليتش هذه المرة وقال بهدوء: إنه مهمل. وبطريقة بيتية قال السكرتير العام كمدير بيت أعيته الحيل: ها، ماذا سنفعل؟ فقلت له: لا توجد مشكلة، اجلس. أخذت المشط، وفتحت صنبور الماء، وقمت بتصفيف شعره، فعلت كل شيء بطريقة لائقة، نظر بريجنيف لنفسه في المرآة، وأعرب عن رضائه قائلاً: هذا جيد.

آخر تصفيفة شعر في الحياة. كما لو كنت أزينه للعالم الآخر.

في الساعة السابعة رنتين في غرفة الاستقبال دخلت إليه فقال: خذ الملف والحقيبة، هيا نذهب.

في الطريق إلى زاريتشي أدخن آخر سيجارة له في الحياة (لم أتعلم التدخين
الحقيقي، وبعد وفاة بريجنيف انتهت فكرة التعفير هذه ــ المؤلف) وصلنا، قمت بمساعدته
على خلع البالطو، وفي نفس الوقت تمكنت من خلع البالطو عن نفسي. أوصلته للطابق
الثاني ووضعت دوسيه الأوراق والحقيبة على الكومودينو بالقرب منه. وأنا ممسك
بالبالطو الخاص بي على يدي، هرعت إلى البيت المخصص لنا كحراس وبالتليفون
أخطرت غرفة عمليات النوبتجية، "نحن وصلنا".
الساعة الثامنة والنصف تتصل السفرجية: "فلاديمير تيموفييتش، يدعونكم للعشاء
"كالعادة ليونيد إليتش يجلس على السفرة، ولم يلمس الطعام. ينتظر حضوري.
العشاء: جبن قريش وشاي، كما كان يتناول غالباً. طلب ليونيد إليتش لي سجق
إضافي.
في ذلك المساء اشتكى من ألم في البلعوم لأول مرة. هو إنسان شديد التحمل وشجاع
وقال: ابتلاع الطعام صعب...
لم يقل حتى كلمة "مؤلم"، لكنه قال "صعب". فسألته: من الممكن أن تكونوا ابتلعتم
قطعة جبن قريش غير مهروسة؟
فسكت ولم يرد.
يمكن من الأفضل أن نستدعي الطبيب؟ فرد: لا، لا داعي. السيدة فيكتوريا زوجته
كانت تجلس صامتة. برنامجه المفضل: نشرة التاسعة، لم يشاهده. نهض واقفاً من السفرة

وقال: تصبحوا على خير، فيت (اسم دلع لزوجته السيدة فيكتوريا – المترجم) ستذهبين معي؟ فقالت: لا يا لونيا (لونيا اسم الدلع لليونيد – المترجم) سأشاهد التليفزيون. لا يوجد شيء يدعو للقلق في خروجه، فهو في الشهور الأخيرة كان أحياناً لا يشاهد أخبار التاسعة، وهنا بعد رحلة الصيد– ١٥٠ كيلومتر سفر– ربما يكون مرهقاً.

في حوالي الحادية عشرة مساءً صعدت السيدة فيكتوريا إلى غرفة النوم.

لا أذكر: هل استدعاني في تلك الليلة لكي "أدخن" أم لا. أعتقد لم يستدعني، يبدو أن الليلة مضت بهدوء. في الصباح وصل زميلي سوباتشنيكوف، سلمته النوبتجية، وبدأت استعد للذهاب إلى المنزل، فجأة طلب منى: تعالى معي نوقظ بريجنيف ثم تذهب.

مثل هذا الطلب حدث من قبل لكن ليس كثيراً، من الممكن أن يكون زميلي محرجا من الدخول إلى غرفة النوم بمفرده، أو يكون قد قرر تأمين نفسه . لا أدرى. أنا لم أكن متعجلاً في الذهاب للمنزل فلم يكن عندي أمور مستعجلة لقضائها، وللحق أنا أحب أن أنهى عملي حتى النهاية. سلمت زميلي النوبتجية يدا بيد، بعد ذلك أنا حر من أي التزامات.

خرجنا من غرفتنا في الساعة الثامنة وثمانية وخمسون دقيقة.

مررنا بالمنزل، شاهدنا السيدة فيكتوريا في الطابق الأول، كانت تجلس على السفرة تتناول الإفطار. صعدنا للطابق الثاني. فتحت باب غرفة نوم بريجنيف. الستائر مغلقة ولكنها شفافة أي أن الغرفة مضيئة إلى حد ما، فولوديا سوباتشنيكوف زميلي ذهب في اتجاه الستائر وفتحها. فتحت بسهولة ولكنها أحدثت صوتاً، حركها بقوة. ليونيد إليتش عادة يفتح عينيه مباشرة، لكن في هذه المرة لم يتحرك، كان راقداً على ظهره، ورأسه مسدلة على صدره. كان يحدث أحياناً أن يلقى رأسه إلى الخلف، ويشخر ويمنع التنفس لمدة دقيقة تقريباً، لكن هنا ذقنه على صدره، وضع غريب للنوم غير ملائم، المخدة انحرفت إلى ظهر السرير وهو لم يقم حتى بتصحيح وضعها. هززته بلطف من الساعد قائلاً: ليونيد إليتش حان وقت الاستيقاظ. لم يكن هناك أي رد فعل. قمت بهزه بقوة حتى بدأ يتموج في السرير، لكنه لم يفتح عينيه، شعرت ببرودة تسرى في جسدي. قلت لفولوديا سوباتشنيكوف الذي أتى إلي: فولوديا، ليونيد إليتش جاهز!، فوقف في منتصف الغرفة كما لو كان مزروعا في الأرض وسأل: كيف جاهز؟ فقلت: يبدو أنه مات. شحب وجهه، كما لو كان قد أصيب بالذهول. فقلت: بسرعة إلى التليفون، اتصل بالقائد. هرع بسرعة من الغرفة إلى أسفل. بعد عدة دقائق هرع إلينا أوليج ستورونوف: القائد. حاولت إفاقة ليونيد إليتش بأن طرقت على وجنتيه، عملت له تنفسا صناعيا في فمه من خلال قطعة شاش، أوليج ضغط له على صدره ، وعمل له تنفسا صناعيا، أنا أمسكته من أكتافه وأوليج من قدميه وحملنا الجثمان المخيف ووضعناه على الأرض فوق السجادة، أوليج تصبب عرقا. يبدو أنه تسبب في ضرر لأحد أضلاع ليونيد إليتش أو شيء آخر،لأن سائلا مخاطيا دمويا طفر من فم بريجنيف. تبادلنا الأدوار في عمل تنفس صناعي. استمر هذا الأمر قرابة

النصف ساعة حتى وصل أندروبوف، دخل - كان وجهه رمادياً- وقال: ماذا حدث؟ فقلت: كما ترى، يبدو أنه مات. ثم خرج أندروبوف من الغرفة إلى الممر وأنا ورائه. قلت: حضرنا إليه ووجدناه بهذا الشكل. وحدثته عما فعلناه. كنت مندهشاً، أن اندروبوف لم يسأل أي أسئلة إضافية أو غير طبيبة وقال: نعم يبدو أنه لم يكن هناك شيء يمكن عمله له. أين السيدة فيكتوريا؟ فقلت في الأسفل في غرفة السفرة. فهبط إليها.

فيما بعد شعرت السيدة فيكتوريا بالإهانة لأننا لم نخبرها مباشرة. لكن كيف؟ أولاً لم أستطع ترك ليونيد إليتش ولا ثانية ، ثانياً ممكن أن أقول لها ثم يأتي الأطباء ويستعيد ليونيد إليتش وعيه، حينها سترقد السيدة فيكتوريا بأزمة قلبية. بعد أندروبوف وصل تشازوف. اقترب وفحص، فقلت له: كان دافئاً، حاولنا إفاقته. فقال: لقد فعلتم الصح وأين أندروبوف؟ ثم هبط تشازوف إلى الأسفل أيضاً.

آخر من وصل أطباء الإنعاش من "إسعاف" الكرملين، دخلوا مع تشازوف، وأيديهم مليئة بالأجهزة، بعدهم مباشرة دخلت السيدة فيكتوريا، كانت بالكاد تمشي، الدموع في عينيها ويديها ترتعشان. واساها أندروبوف. وعندما شاهدت زوجها على الأرض لا يتحرك بدأت في النحيب. أطباء الإنعاش سألوا: ها، ماذا نفعل؟ تشازوف قال:اعملوا. أخرجوا أجهزتهم، وبدأوا في عمل تنفس صناعي، استمر هذا الأمر حوالي عشر دقائق. الجميع كان يقف صامتاً، قطع تشازوف الصمت قائلا: توقفوا، ثم وجه حديثه لأندروبوف: لا فائدة.

وصل ريابينكو.

أنا والممرضة رفعنا الجثمان على السرير. أيدي المتوفى طاحت على الجوانب، فقمت بمساعدة الممرضة بربطهما. اليدان كانتا ثقيلتين، طاحتا مرة أخرى وقمت بربطهما من جديد.

خرج أطباء الإنعاش، وتجمعنا كلنا في الأسفل، ثم صعدنا إلى أعلى. أندروبوف وريابينكو كانا يواسيان ويهدآن من روع السيدة فيكتوريا. أخيراً قال تشازوف: خلاص... يجب حمله وإرساله. وقام بالاتصال بالمشرحة لكي يرسلوا سيارة لحمل الجثمان، وأنا طلبت مرافقة الجثمان.

في السيارة كنا نحن الاثنين، وجها لوجه، لا أطباء ولا أحد آخر، كان الجثمان مغطى بملاءة، وجهه مكشوف، السيارة كانت تهتز عند المنحنيات، أمامي كانت بطنه الضخمة تترجرج، ويداه ورجلاه كانتا تطيح على الأجناب، فقد انفلت الرباط من جديد، وكنت طوال الطريق أحاول جمعهم معاً، جثة غير مطيعة، الشخص الذي كان بجرة قلم وبكلمة واحدة يقرر مصير الملايين من البشر ليس في بلده فقط بل وفي العالم، أصبح الآن مجرد ميت عادى، فكرت، كل شيء في هذا العالم بهرجة كذابة لأننا أمام السؤال السرمدي، كلنا متساوون، بصرف النظر عن المناصب والأهمية على الأرض، لقد كنت الأول والآن أنت لا يحتاجك أحد، لا أحد.

حياتي بالقرب منه انتهت، انقطعت في لحظة، لقد كان ميتاً في الطابق الثاني، ولكني وأنا أجلس مكاني كنت أشعر بالتوتر، هذه كانت سمات حياتي الخاصة في عهده، الآن جاء الهدوء، فراغ كامل، في السيارة ظهرت فكرة: من سيحتاجني، ما فائدتي؟

للمرة الأخيرة نتحرك معاً في سيارة واحدة، ولكننا الآن متساويان.

المشرحة إلى اليمين من البوابة رقم ٢ في مستشفى كونتيوفسكي، استقبلونا بنقالة على عجلات، وفتحت غرفة الثلاجة. وضعوه على منضدة بدون ملابس، هادئا، منقطعا عن الدنيا.

أغلقوا الباب، ووضعوا عنده حرسا، وحارس آخر عند مدخل المشرحة، هذا النوع من الحرص ليس مبالغة، فنحن وصلنا إلى وقت أصبح فيه انتهاك الحرمات يشمل كل شيء، حتى للنصب التذكارية.

عدت إلى البيت الريفي، في البيت الحكومي كان يجلس ريابينكو وفولوديا سوباتشنيكوف وأوليج ستورونوف، ووصل إليهم جينادى فيدوتوف. الكل تجمع: رئيس الحراسة ونوابه وقائد المبنى الكومندان. جلسنا لفترة طويلة، عادة لا ينقطع رنين التليفون، رؤسائنا في لوبيانكا (مبنى المخابرات-المترجم) يهتمون ليس فقط بالعمل وحالة بريجنيف ولكن أيضاً بحالتنا المزاجية. والآن لأكثر من الساعة لم نسمع أي رنين للتليفون من هناك. ثم تبين أننا معزولون عن بقية العالم. كنا نجلس كما اليتامى، وأدركنا أننا أصبحنا كما مهملا تماماً. نحن لم نكن نمثل قيمة في حد ذاتها، نحن فقط كنا جزءا منه، والآن نحن متنا معه.

كل واحد منا كان يدرك جيداً أننا سنفارق بعضنا البعض إلى الأبد، بعد الآن لن نعمل مع بعضنا البعض أبداً، أو حتى متفرقين على هذا المستوى، لن نعمل.

بعد منتصف اليوم في الساعة الثانية والنصف اتصلت بزوجتي في البيت فسألتني: هل حدث شيء؟ فقلت: حدث، وذهبت للمنزل بقميصي عليه بقعة دم.

حسب اللوائح الغبية عندنا، موت بريجنيف لم يعلن عنه، البلد كلها ظلت تجهل هذا الأمر، لكن في نفس اليوم في المساء أنا وزوجتي دانا ذهبنا لشراء الخبز من متجر قريب، وإذا بامرأة كانت تقف في الطابور تقول لي: "هل تعرف؟ بريجنيف مات " سألتها " من أين عرفت؟" فقالت " الجميع يعرف، أنتم فقط لا تعرفون. وتقريباً شعرت بالإهانة. واستطردت:اسمعوا أية موسيقى تذاع الآن في الراديو.

نعم في الراديو والتليفزيون كانت البرامج الاعتيادية قد تغيرت، حيث كانت تذاع موسيقى جنائزية. وتم إلغاء حفل، بمناسبة عيد الشرطة، وألقى شيلكوف وزير الداخلية خطاباً تم بثه على شاشات التليفزيون بمناسبة عيد وزارته ولم يذكر فيه اسم السكرتير العام، لأول مرة.

عندي تفسير واحد لكل لعبة التعتيم ومؤامرة الصمت هذه مما استدعى عندي اعتراضا داخليا. فحتى من موت إنسان كانت تقتنص فوائد ومصالح لهذا الشخص أو

ذلك، تكذبون على البلد وتخفون. ها، إذا لماذا تغيرون بث الراديو والتليفزيون ولا تحافظوا على كل شيء كما هو. أن تكذبوا على البلاد فهذه حماقة كبيرة. وتظهرون السعادة والرخاء، في نفس الوقت الذي تصدح فيه موسيقى جنائزية ليوم كامل.

اللعب لعب، تكتيك، استراتيجية، هم هناك على القمة، يدركون، كيف نعلن الوفاة؟ أليس من الضروري الآن اسم رئيس اللجنة التي ستقوم بالإشراف على مراسم الدفن؟ وهو عادة الذي يصبح تلقائياً السكرتير العام القادم.

انتهت الحياة السابقة بالنسبة لنا، وحياة جديدة بدأت، عندما سقطنا من الإيقاع المستمر لأعوام طويلة تبين أننا هدف " للالتقاط". العمل كان كثيرا بما فيه الكفاية. كل الأيام الثلاثة حتى يوم الدفن، كنا نتأرجح بين زاريتشي وصالة الأعمدة في بيت الاتحادات، حيث وضع نعش فيه الجثمان. كل يوم من الساعة ١٢ ظهراً حتى الخامسة - السادسة مساءً، كان حضور ومغادرة السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف، وأقارب آخرين حضروا من مدن مختلفة، كما ظهرت وجوه كثيرة معروفة وغير معروفة، بيض وسود وصفر، وفود أجنبية أكثر من مائة وفد وصلوا.

بعد أن منعوا وصول المواطنين والوفود من الدخول إلى الجثمان بقي أقاربه لمدة نصف ساعة لوداعه.

وداع آخر جرى عند سور الكرملين، أنزلوه بصورة عادية لكن في ذلك الوقت دوي صوت رعد: أول طلقة في تحية الوداع مع الصدى الصادر من حوائط الكرملين، ترك لدى الملايين الذين يتابعون الجنازة بالتليفزيون انطباعا حزينا، بأنه تزحلق أو انقطع الحبل الذي ينزل به النعش وأن النعش بالجثمان ربما يكون قد سقط في الحفرة.

تفرق الجمع، الأقارب وقفوا عند صورته.

فيما بعد جرى عزاء في نوفو أوجاريفا، حيث تجمع الأقارب والمقربين وأعضاء المكتب السياسي وسكرتيري اللجنة المركزية، حوالي مائة شخص، جلسوا وتذكروا بريجنيف. للحراس: كانت هناك طاولة منفصلة. بالمناسبة، في نفس المكان أقيم عزاء والدة بريجنيف، والآن عزاء بريجنيف وسيأتي بعده أندروبوف، ثم تشيرنينكو.

آخر عزاء كان في هذه القاعة أيضاً بعد فترة لم تكن بعيدة بالمقارنة، وكان للاتفاق الاتحادي الذي كان جورباتشوف قد وقعه مع قادة الدول المكونة للاتحاد السوفيتي، ومات. حيث ابتدع رجال الدولة اتحادا جديدا (الكومنولث – المترجم) وفي الواقع، وكما اتضح، كان قدّاسا لميت.

في المساء، الساعة السابعة، توجه موكب سيارات إلى زاريتشي، فقد حضر إلى البيت الريفي عدد قليل إلى حد ما، دائرة ضيقة من الناس.

وصل بالمناسبة الطباخين والسفرجية وكل أفراد الخدمة في كل النوبتجيات، نحن كنا دون مبالغة مثل أفراد أسرة واحدة.

دار الحديث عن اتفاقيتي الحد من الأسلحة الاستراتيجية ١ و٢ وعن الموقف الدولي، وعن الدرع الصاروخي. لكن الأحاديث البروتوكولية توارت بمجرد أن تحدثت السيدة

فيكتوريا زوجة بريجنيف، وتذكرت كيف ظهر لونيا كخطيب عند والديها، وكيف أعجبهم، تحدث بشكل جيد ومؤثر وبدفء.

خرج من الحياة شخص قريب مني جداً، هذا الإحساس كان واستمر، بعض الشباب كانوا يلقبونه بابتسامة " الجد "، لكن أنا ولا مرة طاوعني لساني لأن أقول كلمة " جد " حتى ولو على سبيل الاستهزاء الطيب، سواء كان ذلك بتعاطف أو شفقة.

مرّ نصف عام وأنا أسمع صدى الموسيقى الجنائزية من قاعة الأعمدة. فريقنا المتآلف فرقوه، قطعوه وأطلقوه للريح. فولوديا سوباتشنيكوف عرضوا عليه منصب نائب رئيس قائد بناية، في فيلا ما، لا أعرف بالضبط، ثم تبين أنه خرج للتقاعد رغم أنه أصغر مني سناً.

جينادى فيدوتوف من جديد من الأسفل (عمل في أحد البنايات) ثم ألقى به القدر عند عضو المكتب السياسي فوروتنيكوف، نائب رئيس حرسه الشخصي، نفس المنصب الذي كان فيه أيام بريجنيف، لكنه هذه المرة يحرس شخصية ليست بنفس الحجم. بعد حادث المروحية الذي تعرض له فوروتنيكوف والذي حكيت عنه من قبل، أرسلوا فيدوتوف للعمل نائبا لرئيس قسم الحراسة في صندوق الألماس، ومن هناك في أواخر الثمانينيات "أحالوه" للتقاعد.

أما ريابينكو فقد عمل نائبا لمدير القسم ١١ في الكي جي بي، وكان يقوم بحراسة الفيلات الاحتياطية (للأعضاء السابقين في المكتب السياسي ــ المؤلف) عمل صغير بالنسبة له، لكن هذا كان إظهاراً للتعاطف، فهو كان أكبر منا كلنا سناً بكثير، ومن هناك أحالوه للتقاعد.

واتضح أنى معمر.

الفصل الثاني عشر

بين جنرالين

في أيام الدفن والجنازة، طلبتني قيادة القسم الأول للمقابلة. اقترح علي مدير القسم ١٨ أن أعمل معه نائباً، أي أنه ذكر المنصب الذي كان هو نفسه يشغله منذ فترة ليست ببعيدة، والذي تركه بعد ترقيته. أدخلوا هناك بالمناسبة قبل هذا، منصب نائب خصيصاً لمدير الحراسة الشخصية لجروميكو. الحديث كان طويلاً، عملياً بقيت على نفس الدرجة من السلم الوظيفي ، لكن بواجبات أخرى.

القسم الثامن عشر يقوم بتأمين رؤساء الوفود المختلفة، سواء المحلية أو الأجنبية. عندما كنت في السابق "حارساً" للسكرتير العام، كنت أوجه وأفتش على خدمات الأمن، أما الآن فإنني أصبحت منفذاً لهذا بشكلٍ مباشر. بعض القيادات التي كانت في السابق تحاول أن تقيم معي علاقات ثقة، اختلفت تصرفاتهم الآن.

العمل عندنا صعب، يجب أن تعرف الناس. قالوا لي هذا الكلام بتعالي، جعلوني أفهم، أنني ذو "دم أزرق"، في السابق عشت وكل شيء جاهز، كنت آخذ الحلو فقط، والآن أحرث بنفسك.

أنا أجيد العمل الشاق، ولم أكن أتجنب أو أبتعد عن العمل الشاق في السابق. أول مهمة لي كانت إعداد زيارة جيدار علييف النائب الأول لرئيس مجلس الوزراء (فيما بعد أصبح رئيساً لأذربيجان بعد انهيار الاتحاد السوفييتي وورث الحكم لابنه إلهامي الذي مازال يحكم هذه الدولة الغنية بالنفط والمطلة على بحر قزوين – المترجم) وعضو المكتب السياسي إلى فولوجودا وتشيريبوفيتس. كان المفروض أن أذهب قبله إلى مكان الزيارة وأقابل القادة الحزبيين وقادة السوفييتات في هذه المناطق، وبالطبع سلطات أمن الدولة المحلية والبوليس، وأصحاب المكان – أي حكامه– وأحصل على موافقة على فترة الزيارة وبرنامجها. أمور كثيرة وكلها مهمة، لا يجب إغفال شيء. يجب تجهيز وإعداد ساحة هبوط الطائرة، ووضعها في الجدول في المطار، تحديد نقاط الحراسة، اختيار وسائل المواصلات التي يجب أن تجيزها لجنة قبيل وصول الضيف، اللجنة يجب أن تضم ميكانيكيا وكهربائيا، وأحد أفراد عمليات الكي جي بي، ليقوموا بالكشف على وسيلة المواصلات، السيارة الأساسية، والاحتياطية، وسيارة حمل الأمتعة، ويوقعون محضرا بذلك. ثم إعداد خط السير (يقسم الطريق إلى أجزاء ويتفق على وسيلة اتصال بينهم ويختار طريقا احتياطيا) والمرافقة. بعد ذلك فحص مقر إقامة الضيف: تقوم بذلك أيضا لجنة (كهربائي، سباك، متخصص مصاعد، بناءون، وممثل الكي جي بي) ويتم توقيع محضر بذلك. أما فيما يخص خدمة الطعام فالحديث منفصل.

قابلت علييف في المطار، لكننا أجلنا الحديث ليكون في مقر الإقامة. يجب أن أخطر رئيس الوفد حسب البروتوكول: " زيارتكم جاهزة ". أحياناً هكذا. أو إذا حدث تغيير أقول

" تم تغيير خط السير "، الزائر يجب أن يعرف هذا، مخافة أن يقوم أصحاب المكان "بتوريطنا" ثم يقولون فيما بعد " كنا نريد الأفضل، لكن رجالكم وصلوا وغيروا ".

كل شيء يعمل حسابه، ليس الذوق فقط ولكن أيضاً الأهواء: أية غرف؟ والنوافذ في أي اتجاه؟ إلى الجنوب أم إلى الشمال؟ ترى النهر أم الغابة؟ أي أنواع الستائر، مظلمة أم شفافة؟ وأي إضاءة في الحمام، ساطعة أم معتمة؟ وضع السرير؟ بالطبع قبل السفر إلى المكان التقيت بالحرس الخاص بعلييف، واستوضحت منه عادات وذوق رئيسه، في السابق كانت تلك الإيضاحات توجه إلي، والآن أنا تحولت لمجرد منفذ، لدى شخصيات صغيرة.

عمل قاسي لكنه أعجبني، فهو عمل فيه حيوية أكثر من السابق، فيه ديناميكية وتنوع، مع الشخصية الأولى في الدولة أنت تسير في ممر ممهد جاهز، وكل شيء تراه عبر نوافذ السيارة، لا تتحدث مع أحد ولا كلمة واحدة حتى مجرد عادية، كأنك في حوض سمك، وفي العمل الجديد كل شيء تفعله بيديك، فقد أعددت زيارة لعلييف أيضاً إلى فيتنام. زرت محطات الطاقة الكهربائية والمصانع، ورأيت القرى، وتجولت في عموم البلاد كلها دون أن ألتقط أنفاسي، كان كل ما آكله في اليوم سندوتش واحد فقط، لكن في المقابل تعرفت على أشخاص مهمين، تعرفت على البلد ورأيت الحياة فيها على الطبيعة. فيما يخص مهمتي كانت هناك أمور كثيرة بما فيه الكفاية، وأقول بصراحة لم تكن معقدة، ففي المصانع والورش أكوام فحم، خبث، وممرات تحت الأرض، لكن لم يكن هناك لا حفر ولا وعورة. في مصنع لصهر المعادن، وبجوار أحد الأفران اكتشفت خردة عبارة عن فوارغ طلقات رصاص ودانات مدفعية فقالوا إنها " لا تنفجر " أكدوا لي هذا، ورفضوا إزالتها. لكني تمكنت من تصحيح وضع عند شاطئ أحد الأنهار– على سبيل المثل– بناءً على طلب مني تم بناء سقالة مخصوص، لمغدية، وتم تغيير أحد خطوط السير.. وهكذا.

عندما وصل جيدار علييف، أخبرته عن فوارغ الرصاص، وسألته هل ممكن إلغاء زيارته لمصنع صهر المعادن فأجاب: "غير ممكن، ينتظروننا هناك لابد من الذهاب". حينها اقترحت عليه تجنب ذلك الفرن الذي يصهر مخلفات الحرب، فوافق. يجب القول أن علييف بصفة عامة رغم شرقيته إلا أنه اتضح أنه من السهل إرضائه، كان راضياً عن تنظيم الزيارة. وبعدها في الطائرة شكرني قائلا: "كل شيء كان جيداً. شكراً ".

خلال هذه الفترة القصيرة بين بريجنيف وجورباتشوف، زرت بولندا مع رئيس الوزراء تيخونوف، هناك كنا تحت رعاية مدير إدارة أمن الدولة في بولندا، وهو جنرال عسكري، خاض الحرب، قال لنا مباشرة: " لا تقلقوا، كل شيء سيكون على ما يرام ".

سافرت إلى البرازيل مع سكرتير اللجنة المركزية ميخائيل زيمياتين، والذي كان يشرف على الإيديولوجية في الحزب، وقد استمرت هذه الزيارة حوالي عشرة أيام، بقيت في الذاكرة حتى الآن، فقد كنت أشعر خلال هذه الزيارة بالتحرر، فعلى الرغم من أني كنت مسئولا عن أمنه، فقد كان لديه أيضاً قائد "حرس"، هذا بخلاف الحراسة البرازيلية، بمعنى أن العمل كان أقل مما هو مع السكرتير العام. بالإضافة لهذا تبين أن زيمياتين

شخصية بسيطة في التعامل، مرح وذكي. طفنا نصف البلاد تقريباً بالسيارات ـــ سان باولو، بورتو ـــ ليجري، برازيليا، ريو دي جانيرو، في سان باولو مشينا لفترات طويلة على الأقدام ليلاً.

كان يقول: هيا نتمشى، نشاهد المدينة والناس. الحي الصيني، الحي الياباني، زحام، أشخاص يرتدون ملابس احتفالية.

رجل البوليس الذي عينته السلطات لنا هناك كان أوكراني الأصل (جده هاجر عام ١٩١٤ إلى البرازيل) وكان يتحدث الروسية بشكل جيد، لكنه أرهقنا بأسئلته الكثيرة واللانهائية. كان زيمياتين يستمع إليه بصبر، ثم أصبح يتفحص المواطنين العابرين. أنا والتأكد بدون أن يلاحظ أحد نحينا هذا المرافق اللحوح، فكنا نتمشى بعد العشاء لساعتين ـــ ثلاثة، ودائما ما كان يرافقنا أحد الموظفين في السفارة السوفيتية.

لا أدرى في أية مدينة، وأثناء استراحتنا في الفندق، سمحنا للحراسة البرازيلية بالذهاب. فجأة زيمياتين اقترح: هيا نذهب إلى السينما. فقلت: الوقت متأخر. فقال: لا بأس، فهممت باستدعاء الحراس فقال: لا داعي، لا داعي.

جلسنا في السيارة، وكما هي العادة استوضحت اهتمامات زيمياتين، وعرفت أي مسارح وسينمات تقع في محيط الفندق الذي نقيم فيه، اتصلت فقط بسرعة بسفارتنا، سألت متى يبدأ ومتى ينتهي العرض السينمائي. حذرته من أن الفيلم تقريباً جنسي، فابتسم وقال: هذا أيضاً يجب أن نعرفه.

دخلنا صالة السينما بعد أن انطفأت الأنوار، ومع اقتراب نهاية الفيلم نبهته، بعد خمس دقائق سينتهي الفيلم، هيا بنا، وخرجنا في الظلام، الحذر واجب، وإلا كان من الممكن في اليوم التالي تظهر الصحف بصورة الإيديولوجي الرئيسي للاتحاد السوفييتي تحت عنوان "المبشر بتحقيق الاشتراكية يفضل دوناً عن كل أنواع الفنون سينما الإغراء".

أنا شخصياً بصراحة لم يعجبني الفيلم. زيمياتين كان هادئاً لا امتدح الفيلم ولا انتقده وقال: فيلم عادى بالنسبة لهذه النوعية من الإنتاج.

في اللقاءات التي تمت مع حكام الأقاليم دار الحديث عن تطوير العلاقات الثقافية بين البلدين، زيميانين بدون أية مبالغات كلامية، وبذوق، وفي نفس الوقت بإقناع، دافع عن النظام الاشتراكي، والواقعية الاشتراكية، وكل ما هو اشتراكي، دافع وفي نفس الوقت لم يلح على أحد لقبول أفكاره.

و بسبب إضراب الطيارين أو الملاحين الجويين، تأخر سفرنا إلى موسكو. زيميانين قال: ربنا معهم. ولوح بيده في الهواء مضيفا: هيا نقوم بنزهة في المطار.

المطار مدينة كاملة، تنزهنا واشترينا سلسلة فضية للذكرى.

... هكذا سارت خدمتي الجديدة، بعد عامين ، أصبحت مشرف القسم ١٨، بنفس الرتبة عقيد، والتي رقيت إليها قبل عام من وفاة بريجنيف.

اختبار لتعيين جديد

في نهاية صيف عام ١٩٨٤ دعاني رئيس القسم الجنرال نيكولاي بافلوفيتش روجوف، وأخبرني بأنه في شهر سبتمبر ستقوم زوجة سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ميخائيل جورباتشوف بزيارة لبلغاريا وأنه قد اختارني لمرافقتها. أدهشني عدم توافق المستويات: يرسلوني مع زوجة أحد سكرتيري - لا أكثر ولا أقل - وأنا أشرف على قسم! لم يكن هذا رجاء شخصيا من جورباتشوف، فهو لم يكن يعرفني من قبل.

فيما بعد فهمت أن قيادة الكي جي بي قد قامت بحساب كل شيء خلال الثلاث سنوات الأخيرة، لقد جاء دور السكرتير العام الرابع للحزب الشيوعي السوفييتي، والمرشح له شخصية لم تكن محل شك.

عند الحديث ألمح المدير في صورة مخففة وبشكل عابر: هذه الرحلة يمكن أن يكون لها تأثير في تحديد مصيري في المستقبل. بين الكواليس دار الحديث أيضاً عن متابعتي.

سمعت كثيراً عن خصوصية شخصية السيدة رايسا جورباتشوف، وحبها لذاتها وحتى سخافاتها. والآن أصبحت بشكل مباشر أدرس شخصيتها وعاداتها وكل شيء كما هي العادة: المطبخ، العصائر،الماء،الستائر، درجة حرارة الغرفة، المنظر الذي تحب مشاهدته من النافذة. استوضحت دائرة اهتماماتها كمدرسة جامعة سابقة في مدينة ستافروبل. فهي مهتمة بالكنائس، ومجمعات الأديان. بالمتاحف، المسارح، الكتب.

رافق رايسا جورباتشوف إلى المطار كومندان وأحد مدراء القسم، وتم تقديمي لها عند الطائرة مباشرة: "ميدفيديف فلاديمير تيموفيفتش، سيرافقكم في الرحلة "، في صوفيا عاصمة بلغاريا استقبلتنا ابنة تودور جيفكوف، السكرتير العام للحزب الشيوعي البلغاري، وكانت تشغل منصب وزيرة الثقافة.

في مقر الإقامة - والتي كانت عبارة عن فيلا جميلة - أقيمت مأدبة غداء. ناقشوا أثناءها برنامج الزيارة الذي تم إعداده بعناية، والذي كان موزعاً على أيام وساعات الزيارة، والأماكن التي ستقوم الضيفة بزيارتها. طلب أصحاب المكان الكرماء من الزائرة أن تفصح عن طلباتها ورغباتها، فأجابت رايسا جورباتشوف بتواضع: ما تقترحونه سوف نشاهده.

اتضح بعد ذلك أن رايسا جورباتشوف درست البلد بعناية (كانت دائماً ما تستعد بجدية للرحلات خارج البلاد وهذه الصفة لازمتها طوال حياتها).

لقد أعجبتني رايسا جورباتشوف. فهي لبقة في المعاملة، متواضعة بما فيه الكفاية، كانت تلبس بذوق، وتغير ملابسها حسب الحالة، لكن في الحدود المعقولة. كان كل ما

ترتديه إنتاجا وطنيا. وهي نشيطة محبة للمعرفة. اندهشت عندما سمعت آراء تناقض كل هذا عنها من أنها رذلة، خبيثة. يبدو أنها روايات حسادها.

اندهشت، وأقول صراحة: سعدت. شيء طيب غير متوقع.

أول خيبة أمل خفيفة، كانت بمثابة تلميح أولي. يبدو انه لا يوجد دخان بدون نار. في الصباح وفي الوقت المحدد، انتظر المرافقون البلغار خروج رايسا جورباتشوف من مقر إقامتها. ذكرتها: أصدقاؤنا وصلوا. مرت عشرون دقيقة، نصف ساعة ولم تخرج. شعرت بالحرج، ذهبت وطرقت الباب: " أسف... " فأجابتني وهي تكظم غضبها بصعوبة: ما الذي يقلقكم هكذا لأجلهم؟ ماذا يعني وصلوا؟ لينتظروا!

كانت غير راضية عنى.

التأخير أصبح يتكرر كل يوم، كانت ترهق طوال اليوم؟ ربما، لكن كان في سلطتها أن تؤخر موعد الخروج الصباحي إلى وقت متأخر في أية ساعة تريد. أنا امتنعت عن الذهاب لإخبارها بقدوم المضيفين، كنت فقط أخبرها كما كان يقول أجدادنا " العربة في الانتظار "، أي أن الناس أتوا.

كانت تسأل في الكاتدرائيات والكنائس والمتاحف، أسئلة هي تعرف مقدماً الإجابة عليها. كانت تسأل وتصحح للمرشد السياحي، أو تضيف شيئا ما أو بعظمة توافق على ما يقول المرشد السياحي، مجرد تلميح لتظهر نفسها حتى أمام المرشد السياحي، وكل هذا التمثيل والتصنع كان مجرد حنين للمستقبل، رغم أن هذا لم يظهر للعيان بوضوح. والإشاعات عنها بدت لي كما كنت أعتقد في السابق: فيها مبالغة. لكنني أصبحت أتصرف بحذر.

كان لديها اتصال بزوجها ميخائيل جورباتشوف، لكنها كانت تسألني كل صباح: إذا ما كانت ثمة أية معلومات وردت من موسكو؟

لقد كانت تحاول استيضاح الأخبار عن طريق القنوات الخاصة بي، كما لو كانت تنتظر شيئا ما. ما هو؟ ممكن التخمين فقط: السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي تشيرنينكو آنذاك كان مريضا بمرض ليس له علاج...

كنت أجيبها: كل شيء على ما يرام، كل شيء عادى، لم يحدث شيء غير عادى.

الرحلة كانت شيقة، لقد تجولنا بالسيارة في كل مناطق المحميات البلاد، استقبلونا في كل مكان بحرارة وترحاب شديدين، تبادلنا الانطباعات عن الجبروفيين (نسبة لمنطقة جبروفا في بلغاريا، المشهور عن أهلها إطلاقهم للنكات) وعن المتاحف. في ذات مساء في أحد المطاعم غنى ورقصوا الغجر لنا. ذات مرة قالت رايسا جورباتشوف: ميخائيل سيرجييفتش جورباتشوف سيزور بلغاريا، وفي هذه الزيارة سنكون معاً.

آخر صباح مشمس استقبلناه في مدينة فارنا، حيث كان من المفترض أن نطير منها إلى صوفيا، وبمجرد وصولنا سألت رايسا جورباتشوف: هل هناك ثمة معلومات من موسكو؟

تخميني تأكد. ففي الطائرة وفي هذه الرحلة الأخيرة المشتركة معها اهتمت رايسا جورباتشوف بتفاصيل عملي مع بريجنيف، وسألت كثيراً كيف كان تنظيم الحراسة، من كان يختار الخدم، وممن يتكون أفراد الخدمة: الطباخين، السفرجية، عمال النظافة، عمال الجراج... وعن تنظيم العلاقة بين الحراسة والعاملين. وقالت: سنعود لهذا الحديث مرة أخرى، ثم لخصت محصلة الرحلة وقالت: كل شيء مر بشكل اعتيادي، كل شيء كان جيداً.

السر أصبح معلنا. تشيرنينكو كان مازال على قيد الحياة، وبقيت له ستة أشهر على ظهر البسيطة، ورايسا جورباتشوف كانت تستعد لأن تكون السيدة الأولى.

زار جورباتشوف بلغاريا بمناسبة الاحتفال بمرور ٤٠ عاماً على قيام الثورة الاشتراكية بها، قضيت معه في هذا البلد خمسة أيام. التزاماتي تجاه رايسا جورباتشوف انتهت، وكان لدى جورباتشوف حارسه الخاص وأنا انحشرت في حراسته، وقد حاولت ألا أتدخل في شئون الزملاء، خاصة وأن الحراسة كانت علاقتها بي باردة وفيها نوع من الغيرة، ربما كانوا على علم بأن القيادة أرسلتني لهذه الرحلة ليس اعتباطاً، ولكن لهدف محدد. أنا بحثت لنفسي عن عمل، متفهماً بأن وجودي عموماً زائد في هذه الرحلة، والشباب قاموا بواجبهم على أكمل وجه بدوني.

مرت ستة أشهر، وقبل عدة ساعات من وفاة تشيرنينكو، تم إنهاضه من السرير لعدة ثواني، كما لو كان قد خرج لتوه من القبر، وقف ثابتاً، كتمثال الشمع بجوار صندوق تصويت -هذا كل ما سمحت به قوته- وبصوت بالكاد يكون مسموع لملايين من مشاهدي التليفزيون قال: كله تمام.

في ١١ مارس عام ١٩٨٥ ألقى جورباتشوف خطابا في اجتماع عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي: لقد لحق بنا وبحزبنا وببلدنا مصيبة كبيرة، لقد توفي اللينيني البارز، والشخصية العظيمة للحزب الشيوعي السوفييتي والدولة السوفيتية، وللحركة الشيوعية العالمية، الإنسان صاحب الحس المرهف، والموهبة التنظيمية الكبيرة: كونستنتين أوستينوفيتش تشيرنينكو، لقد مر كونستنتين أوستينوفيتش بطريق طويل ومجيد....

الكلام يبقى كلاماً..... الحركة الشيوعية العالمية مدينة للمتوفى بماذا؟ خلال ٤٥ عام عمل حزبي أين ومتى أظهر نفسه "كشخصية عظيمة"؟

لعبة بروتوكولية، طقس من طقوس الحزب. هل من الممكن في مثل هذه الأحداث التحدث بحيث يبقى المتحدث أمينا ولا يهين المتوفى؟ ربما واحتمال كانت عند هذا المتوفى صفات حميدة. لينيني مخلص: حقيقة، إنسان ذو روح مرهفة: ماشي. وأخيراً، أثناء مرضه عمل ما استطاع وبقدر ما استطاع، أما ما قيل زيادة عن ذلك فهو نوع من البروتوكولية.

بحث اجتماع اللجنة المركزية مسألة انتخاب سكرتير عام جديد. بتكليف من المكتب السياسي ألقى جروميكو كلمة بهذا الخصوص، تقدم خلالها باقتراح انتخاب جورباتشوف في منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي.

عند الانتخاب، كما في الجنازات، كل الكلمات تشير إلى تفوق جورباتشوف:

.... هو يستحق اختياره سكرتيراً.

.... إنه أدار السكرتارية.

.... كان يرأس كذلك اجتماعات المكتب السياسي أثناء غياب تشيرنينكو، وقد أدارها بطريقة ممتازة.

.... جورباتشوف شخص ذو عقل حاد وعميق.

.... جورباتشوف دائما ما يجد تلك الحلول التي تتفق مع خط الحزب.

.... إنه يلتقط جوهر الحركة بصورة جيدة جدا.

.... أنا نفسي اندهشت من قدرته على التقاط جوهر القضايا، والقيام بالاستنتاجات الحزبية الصحيحة.

.... جورباتشوف شخصية واسعة الإطلاع.

.... هذا الإنسان لديه مدخل تحليلي للمشاكل. هذه حقيقة مجردة، قدرته ممتازة فيما يخص هذا الأمر.

.... أحكام جورباتشوف دائماً ما تتميز بالنضج والإصرار، المعنى الأفضل لهذه الكلمات، الثبات الحزبي.

.... القدرة على رؤية الحلقة الرئيسة والمهم هو توحيدها مع الحلقات الأقل أهمية من طبيعته الواضحة. هذه القدرة ميزة وميزة كبيرة.

.... نحن نرى في وجه جورباتشوف شخصية عريضة التأثير، شخصية عظيمة، ستشغل باستحقاق منصب السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي.

بعد ذلك بوقت قصير شنوا حملة شرسة للغاية لتشويه بريجنيف، صاروا يتذكرون ضعفه أمام الاسترضاء والتملق والنفاق، في الوقت الذي حاول فيه زملائه الإمعات أن يبقوا في الظل وكأنهم لا علاقة لهم بهذه الحملة، أليس بفضل هذا خرجوا من الظل فيما بعد إلى المسرح السياسي المضيء؟ تذكروا نفاق عشر – عشرين – ثلاثين عام مضت، ونسوا حديث جروميكو في شهر مارس، نسوا أنه أعلن الحرب على النفاق والتملق، ونسوا أن جورباتشوف الذي تولى منصب السكرتير العام وفي الوقت الذي كان مازال يخطو أولى خطواته على سلم الصعود لهذا المنصب، قد قبل كلمات الإطراء والتبجيل بشكل واضح، وفي الوجه كما هو معتاد. في كلمته ردا، قال جورباتشوف، وكأنه غير مستعد لقبول ما قيل ولو حتى على اعتبار أنه عربون: أعدكم أيها الرفاق أن أبذل قصارى جهدي في خدمة حزبنا وشعبنا والأفكار اللينينية العظيمة بصدق.

لاحظوا الحزب في البداية، وبعد ذلك الشعب.

وأضاف: اسمحوا لي أن أعبر عن ثقتي، قبيل المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، أن الشعب والحزب ملتفون حول اللجنة المركزية، وسيعملون كل

شيء لكي يكون وطننا السوفييتي أغنى وأقوى، ولكي تتكشف بصورة كاملة القوى الإبداعية للاشتراكية.

تصفيق طويل.

من كلمة جروميكو المختصرة، تذكرت بشكل خاص هذه الكلمات: لدى جورباتشوف مدخل حزبي إلى الشعب.

قام جورباتشوف بتغيير الحراسة بالكامل. بالطبع هذا أمر يخصه فهو حر في مع من يريد أن يعمل... لكن هؤلاء الشباب خدموه بحق وبأمانة منذ عام ١٩٧٨، سبع سنوات، لقد كنت أعرفهم جيداً، لقد تخرجوا من القسم الثامن عشر، وكانوا يفهمون عملهم جيداً، محترفون، وبعد أن أقالهم لم يهتم بأي منهم، هذا النوع من العلاقة لم يكن مقبولا عندنا، شيفاردنادزة مثلاً (وزير خارجية الاتحاد السوفييتي حينها- المترجم) عندما علم أنه من المحتمل أن يغادر منصبه، قلق على مصير ضباط الحراسة العاملين معه في وقت مبكر فأرسل أحدهم إلى أكاديمية الاقتصاد الخارجي والثاني أرسله كموظف أمن في سفارة بإحدى الدول، والثالث وجد له مكانا في وزارة الخارجية، ربما سيذكر هؤلاء الضباط رئيسهم بالعرفان بالجميل. جورباتشوف كان عنده ميزة عن شيفاردنادزة وهي أنه وصل إلى المنصب الأعلى في البلاد! الإمكانيات عنده كانت غير محدودة، ورغم ذلك ألقى بحراسته إلى مصير مجهول، لا أستطيع أن أصف هذا بشيء آخر، بالفعل ألقى بالناس الذين حرسوه. كنت أود أن أعرف: بأية كلمات يصف بها هؤلاء الضباط جورباتشوف الآن؟

لم أكن أعرف بعد أن جورباتشوف كسياسي: عادى. فهو لا يرى في الناسِ بشراً، فبعد عدة سنوات سيقوم بلا نهاية ببعثرة السياسيين المحيطين به، ويلقي بهم شمالاً ويميناً، يقرب بعضهم ثم يلقي بهم بعيداً من جديد.

في نهاية الأمر هم ألقوا به.

من المحزن تاريخياً أن كل سكرتير عام جديد يتصرف كما لو كانت الحياة في البلاد تبدأ منه، كل الحقيقة تأتي منه، كل الخير منه. قد أوافق على هذا، إذا كانوا مجرد قد نسوا السابقين، لكن كما نرى في كل مرة يدهسونهم بالأقدام ، تصرف بطريقة ليس فيها امتنان وشكر مع المحيطين والمقربين منه من النخبة السياسية، ومع الخدم والحراسة وجعلهم دون ذنب مذنبين.

لقد كان من الصعب أن افترض حتى أن يثقوا بي لحراسة سكرتير عام آخر، من ناحية هذا لم يحدث في تاريخ الدولة السوفييتية، بل على العكس حدث أن غيروا الحراسة عند زعيم واحد عدة مرات، حتى في فترات أندروبوف وتشيرنينكو القصيرة تغيرت الحراسة، لكن من ناحية أخرى يبدو أنني اجتزت الاختبار بنجاح تام أثنـــاء رحلـــة بلغاريا.

أصدر جورباتشوف أوامر لمدير الإدارة " التاسعة" يورى بليخانوف بأن يختار للحراسة أشخاص لم يعملوا في السابق مع شخصيات ذات مناصب عليا، " غير ملوثين ".

حساسية الموضوع كانت تكمن في أنه- كما قلت- هذا النوع من الحراسة كانت يختاره القسم ١٨ الذي أشرف عليه. قيادة القسم ألقت عندي بشخصين، رغم أنها لم تهتم بمستوى إعدادهم فقط، والجوانب القوية والضعيفة بهما وصفاتهما الشخصية والتفاصيل الأخرى بل حتى لم تخطرني كمدير للقسم، إلى أين ولأي غرض قبلوا هذين الشخصين. هذا يعتبر وقاحة فيما يتعلق بأشخاص يعملون معاً، وزملاء شباب. بعد مرور بعض الوقت عرفت أن هذين الشخصين معينين نوابا لمدير حراسة جورباتشوف الشخصية، وعينوا شخصا من مدينة أخرى- لم يمارس من قبل تنظيم وقيادة حراسة شخصية- مديراً للحراسة! لقد حكى لي بنفسه عن هذا، وقال أنه يشعر وكأنه قط صغير ألقوا به في الماء. لم يكن يعرف واجباته، ولا يعرف موسكو على الإطلاق ولا المباني الحكومية وهكذا. لقد كان الأمر بالنسبة له صعبا، وهذا ما رآه جورباتشوف بنفسه.

مرّ شهر.

يوم ١٠ أبريل اتصل بي مدير القسم الأول، وأمرني بالذهاب إلى مدير الإدارة بليخانوف. لم يستدعني بليخانوف أبداً من قبل، وعندما كنت على القمة كان يرأس الإدارة شخص آخر، وعندما أتى بليخانوف أنا أصبحت أقل كثيراً من أن أجلس معه. ولذلك أخذت أخمن: على ما أعرف كل شيء على ما يرام، لم يحدث شيء. يمكن مأمورية؟ لو مأمورية لقال لي مدير القسم.

خرج بليخانوف إلى غرفة الاستقبال وأشار برأسه: هيا، لنذهب.

عندما توقفنا عند مبنى اللجنة المركزية، برقت في رأسي الفكرة عن هدف الزيارة، لكن لم أكن واثقاً، فالحراسة الشخصية للسكرتير العام تشكلت. كان الجنرال صامتاً لم يقل ولا كلمة.

دخل بليخانوف إلى المكتب، بعد عشر دقائق استدعاني سكرتير جورباتشوف، في نهاية منضدة طويلة كان يجلس جورباتشوف وبجواره بليخانوف، طلب مني جورباتشوف الجلوس وسأل: كيف حالك في الخدمة؟ أجبته: كما هي العادة – على ما يرام- المكونات الشخصية على ما يرام. فقال: ماذا كنت تعمل في السابق؟ بدأت أتكلم باختصار عن أني كنت "حارسا شخصيا "للسكرتير العام، ونائب مدير الحراسة الشخصية، وعن الواجبات التي كنت أقوم بها. لم يستمع وقاطعني: أعرف كيف كانت خدمتكم هناك، كل الضباط كانوا يتعاطون الخمور باستثناء ريابينكو.

حينها، لم أكن أعرف أسلوب السكرتير العام الجديد: يسأل، ولا يسمع ويجيب هو بنفسه. كلماته أصابتني بصدمة، فأجبته: نحن كنا نعمل بقوة مثل حصان الحوذي، لم نكن نميز الليل من النهار، لم نكن نذهب إلى بيوتنا. فقال: خلاص، أنا لا أعنيك أنت. أنا بنفسي شاهدت عندما أتى أندروبوف. كل حراسه كانوا يتعاطون الكحوليات، وفرقتكم أيضاً رأيتها تتعاطى الخمور...

يبدو أنه كان يعني بحديثه رحلة استجمام بريجنيف مع أندروبوف، عندما أخذ رئيس الكي جي بي السكرتير العام بريجنيف عبر مدينة مينرالنى فودا، لكي يتوقف هناك ليقوم

بتعريف بريجنيف على الشاب جورباتشوف. هذه المقابلة لعبت دورا حاسما في تحديد مصير جورباتشوف. عموماً هو مدين في صعوده بالكثير لأندروبوف. من غير المستبعد أن يكون جورباتشوف قد شاهد شيئا غير طبيعي في حراسة الزائرين رفيعي المستوى. لكن أنا تقريباً متأكد أن بليخانوف هو الذي قال له هذه المعلومات، حيث كان يعمل سكرتيراً لأندروبوف.

- الحديث يجرى عن تعيينك مديراً للحراسة الشخصية. موافق؟ سأل جورباتشوف. فقلت إذا كنتم تثقون بي في هذه الخدمة، أنا مستعد. فقال: اتفقنا، تفضل اذهب، بليخانوف سيتحدث معك عن كل شيء بالتحديد.

أنا واثق أن بليخانوف هو من " وفقني " مع جورباتشوف، فعلى ما يبدو أن البحث عن أشخاص لهذا المنصب ذي المسئولية العالية كان يؤرق بليخانوف، بالنسبة له معي سيكون مطمئناً.

أنا خرجت وبعدى بحوالي خمس دقائق خرج بليخانوف وقال لي: سلّم عهدتك، وابدأ العمل الجديد. هكذا الأقدار، في فترة ما احتضنت عضوا صغيرا من عائلة بريجنيف، وبعد ذلك اندمجت في الأسرة، ريابينكو حافظ على كعلامة والأمور توافقت. والآن أنا مسئول عن زوجة السكرتير العام، ومن جديد ارتفعت إلى دائرتي نفسها، مجرد تطابق ظاهري. أتذكر هذا بسخرية خفيفة وحزن، ومضطر دون قصد أن أقارن بينهم وبين من كنت معهم من قبل، أي بريجنيف وعائلته والحفيد الطيب البريء، والزوجة الكثيرة الخبرة والمعرفة.

على أية حال أندريه بريجنيف كان له موقف محترم عندما ضربه رجل كبير، ولم يذهب إلى جده يبكي ويشكو، بل وجد في نفسه الشجاعة والقوة ليعتذر.

... في القرم، في الصباح، كانت تأتى إلي رايسا جورباتشوف، وبلهجة تشبه المُدَرسة التي توبخ تلميذا ارتكب خطأ تقول لي: فلاديمير تيموفييفتش أنت تعمل بشكل سيء. أندهش: ماذا حدث؟! أنا خلال ربع قرن عمل في الكي جي بي، لم يوجه لي أحد أي انتقاد جاد على أي خطأ، ولم أعرف ما هو ذنبي، أريد أن أعرف ماذا حدث. فقالت: أنا لن أقول لك أي شيء الآن. كانت تتحدث ببطء وبمعنى: الآن سيخرج جورباتشوف وأنا أريده أن يسمع. لم أفهم ماذا حدث، ولكني فهمت أنها اشتكت له بالفعل. يخرج جورباتشوف من المنزل ويمر أمامنا إلى البحر، على البلاج يكون قد نسى أنها اشتكت له، بالنسبة له الأفضل أن يذهب ليستريح.

- ميخائيل سرجييفتش! (جورباتشوف كما كانت تناديه زوجته- المترجم) مرة أخرى في صوت مهم تلفت نظره، التفت إليها وعاد، فقالت له: لقد حدثتك عن فلاديمير تيموفييفتش.. (عندما تضع حاجزا وفارقا بين الشخص الذي تتحدث إليه أو عنه تناديه باسمه واسم والده مرة واحدة وكنوع من الاحترام... هكذا كانت رايسا جورباتشوف تتعامل عن الحارس- المؤلف).

تبين أن رايسا جورباتشوف كان تحتاج إلى امرأة من أفراد الخدمة ولكن المرأة أصيبت بوعكة صحية... الآن فقط فهمت لماذا أؤدي عملي بشكل سيء، كان يجب أن أختار المرأة التي في وقت الحاجة إليها لا تمرض، والتي تعمل دون انقطاع. لكن النبرة كانت نبرة مدرس من الضولحي، وأنا أقف أمامها رجلا سليما وقويا، ذو عضلات، مر عبر مدرسة الكي جي بي الضخمة، ومن خلفي ربع قرن من الخدمة دون خطأ. أنت تؤدي عملك بشكل سيء!...

على وجهها ليس فقط رضا، ولكن سعادة، ونظرة استعلاء! ثم استدارت بعظمة ومشيا معاً. لا أدرى لماذا ولكني أعتقد– كما بدا لي– أن جورباتشوف كان يجب أن يكون محرجاً من تصرف زوجته.

بريجنيف وزوجته كانا يتحدثان أمامي كزوج وزوجة مثل كل الناس.

– لونيا أنت....

– فيتيا أنت...

أما جورباتشوف:

– ميخائيل سرجييفتش أنتم... (صيغة الاحترام في اللغة الروسية)

– رايسا مكسيموفنا أنتم.....

كما لو كانا على المسرح.

أحدهم قالها: كل سكرتير عام جديد يدهس الذي سبقه، أو بتعبير أخف ينزع عنه مجده، وأسمع من يعارض هذا: هاهو جورباتشوف يحقق ذاته دون هجوم على أحد.

وهل من الضروري الهجوم الصريح، في نظامنا القائم؟

على سبيل المثال: كنا نمر بالسيارة من خلال شارع كوتوزوف، وعلى واجهة المنزل الذي كان يعيش فيه بريجنيف، كان يوجد رف صغير. كل مرة نشاهد على هذا الرف باقة ورد جديدة. أرافق جورباتشوف في الصباح: الورود موجودة، أعود به في المساء:الورود موجودة. قام جورباتشوف برفع سماعة التليفون وهو في السيارة واتصل ببليخانوف وقال له: أنت تمر من أمام المنزل رقم ٢٦؟ أرأيت الرف الذي على واجهة المنزل؟ لم يطلب إزالة الرف هو فقط اهتم: أرأيته؟ في اليوم التالي وكل الأيام بعد ذلك لم يعد هناك لا رف ولا زهور.

هذا الاتصال كان كافياً، لكي يتحرك النظام تلقائياً.

والجميع يتذكر التحقيق الصاخب المتعلق بوزير الداخلية شيلكوف ونائبه تشوربانوف. تشيلكوف وزوجته – انتحرا في السجن، تشوربانوف قضى عقوبته. أنا لا أملك الحق في عدم تصديق سلطات التحقيق – ممكن أن يكونا مذنبين– لكن كان من الضروري فك السلسلة للآخر، فهناك آلاف المسئولين، على مستويات مختلفة، كانوا متورطين في علاقات إجرامية، لكنهم اكتفوا فقط بهاتين الشخصيتين لأنهما من الدائرة

المقربة للسكرتير العام السابق: أحدهما عمل معه منذ أن كان يعمل في مولدافيا، والثاني أحد أفراد أسرته.

مضطر أن أتذكر هنا " قضية سوكولوف" - مدير سوبر ماركت يليسييفسكى وهو السوبر ماركت الرئيسي في موسكو آنذاك- حاكموه محاكمة عاجلة، وبسرعة نفذوا فيه حكم الإعدام رمياً بالرصاص، قاطعين بذلك كل الخيوط التي كانت تصله بمسئولين كبار. هكذا دائماً يفعلون، يختارون أي شخص ممقوت، ويعلقون عليه كل المحرمات.

عندما بلغ الهوس حول شخصية بريجنيف قمتـه - مـن إطلاق النكات والتقليد الاستعراضي لبريجنيف حتى الاتهام بارتكاب جرائم-حينها شاهـدت علـى شاشات التليفزيون وجها معروفا لي:أندريه بريجنيف. شاب جميل، حزين وهو يجيب على سؤال لصحفي تليفزيوني قائلا له: لن أغير لقبي. أي لقب عائلة بريجنيف.

لم أره منذ فترة طويلة. قالوا لي أنه رجل شريف، وأنا سعيد لأجله.

درس للشعب: تشيرنوبل

عود على بدء، نفس المكاتب في الكرملين وفي الميدان القديم. نفس الاختيار: البناء الاشتراكي والانتقاص-من البناء الرأسمالي، ووعود كثيرة وخطط للمستقبل الباهر الذي حتماً سيأتي، ولكنها وهمية. نفس الخطاب ولكن مع تكرار لا نهائي لكلمة "إعادة البناء، إعادة البناء، إعادة البناء، إعادة البناء.... " (البيريسترويكا ــ المترجم).

نفس العروض المبهجة بمئات من صورهم (صور أعضاء المكتب السياسي وقادة البلاد ــ المترجم) وفوق ضريح لينين لم يتغير شيء: أناول النظارة، أدعو أحد الضيوف، منضدة وكراسي، البوفيه، السفرجيةِ، النبيذ الساخن. ها هي رايسا جورباتشوف مع زوجة رئيس الوزراء نيكولاي ريجكوف: لودميلا. يبدو أنهما شعرتا بالبرد فنزلتا معاً بود إلى أسفل.

- جورباتشوف... أورا (نداء حماسي تعبيراً عن تأييد شيء ما - المترجم).

- أورا !

مسيرات الولاء والحب اختُصرت الآن نصف ساعة، حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً فقط.

بعد الانتهاء نفس حفل الاستقبال، أنخاب، حفل فني. وإذا كانت السيدة فيكتوريا لم تحضر كثيراً حفلات الاستقبال فإن رايسا جورباتشوف كانت دائمة الحضور. تلك كما لو كانت عجوز دائماً وهذه كشابة دائماً، تحب أن تظهر "للدنيا". سؤال الحراس الشخصيين للشخصيات الأخرى مازال حاضراً بقوة أكثر مما سبق " ماذا سترتدي اليوم رايسا جورباتشوف؟ "أنا لا أعرف ماذا سيحدث. لندع كل الزوجات الأخريات، ألا يغامرن، وأن يرتدين ملابس متواضعة، إذا كن يخفن أن يتميزن ويتفوقن على السيدة الأولى.

بالقرب من رايسا جورباتشوف، دائما لودميلا ريجكوف زوجة رئيس الوزراء وزوجة كل من جروميكو (وزير الخارجية-المترجم) ويازوف (وزير الدفاع- المترجم).

وكما في السابق: أجازتي أقوم بها في الشتاء، فقط مرة واحدة. لكنى استطعت الإفلات في شهر سبتمبر، هذا الموضوع أعتقد أن من يقرره الآن رايسا جورباتشوف.

أحياناً يبدو لي أنني لو قارنت خدمتي عند السكرتيرين العامين، فإنني كنت أقل تعباً وعصبية مما أنا فيه عند جورباتشوف وأعتقد ان خيبة الأمل كانت أقل، ربما لأنني لم أجرب العمل مع آخرين، وربما اعتقدت أن التكبر، وعدم الوضوح، والانتقال الحاد المفاجئ لجورباتشوف، وتعالى ونزوائية وهوائية زوجته، أشياء لا مفر منها في العمل. من الجائز أن الحارس لابد أن يكون خادما، وبريجنيف كان يدللني. لكن بريجنيف أيضاً

كان يستدعيني في منتصف الليل فجأة لأدخن له. مخاطرة احتـكار المنومـات والفـودكا " زوبروفكا "، كل دقيقة يجب أن تحميه ليس من اعتداء خارجي ولكن من نفسه لكي لا ينزلق. ألم يكن هذا بفضلي؟ لكن لماذا لم أشعر أنني خادم، على العكس كنت مقتنعا أن الحارس الشخصي مهنة فيها الكثير من الأسرية؟

عند بريجنيف لم يهينني أحد ولا مرة أبداً.

يبدو أنني المذنب في هذا، حيث أوهمت نفسي بثقة ومبالغة أني بعد بريجنيف الضعيف، فإني مع خليفته الشاب وذي الطاقة الكبيرة سوف أمارس واجباتي الأساسية المباشرة. اهتمامي زاد بأن القائد الجديد أعلن عن تحولات ديموقراطية في البلاد، وهذا يعنى بالدرجة الأولى علاقات ديموقراطية بالأشخاص التابعين له.

أن تحترم كل الشعب أسهل وأريح بكثير من أن تحترم شخصا محددا بعينه. وأن تعلن أنك ديموقراطي أسهل من أن تكون كذلك. إنها ازدواجية الإنسان التي تابعها الناس بحزن ثم فيما بعد بغضب. لقد شاهدت عن بعد الأيدي الممدودة، والتناقض الشاسع بين الكلام والفعل.

وأن ترى هذا كل يوم هو اختبار صعب بلا شك.

يبدو أنني استبقت الأحداث.

في الأيام الأولى: شخصية جورباتشوف أثارت الإعجاب بعد سنوات كثيرة من حكم بريجنيف المريض وهو في حالة النصف نائم. فجأة: بركان طاقة. العمل حتى الواحدة – الثانية بعد منتصف الليل، وعند إعداد أي وثائق (وكانت كثيرة لا تنتهي:- للاجتماعات العادية، للمؤتمرات، للاجتماعات العامة، للاجتماعات، للمقابلات على مستوى القمة، وهكذا) في مثل هذه الظروف كان يخلد للنوم في الرابعة فجراً، وكان يستيقظ في السابعة – الثامنة. بعد ذلك تواليت ثم حمام السباحة والإفطار. في حوالي التاسعة والربع – التاسعة والنصف إلى العمل في الكرملين. السيارة من طراز " زيل". كان يجلس في المقعد الخلفي إلى اليمين. يوم العمل بدأ. في السيارة يكتب، يقرأ، يضع خطا بالقلم تحت كلمات. إلى الأمام في السيارة أنا والسائق، في السيارة جهازا تليفون. جورباتشوف يطلب منى الاتصال بشخص ما، أطلب المكالمة وأعطية التليفون. يأخذ السماعة ويرفع الحاجز الزجاجي بين مقدمة السيارة والجزء الخلفي منها للسقف، يعزل الصالون الذي يجلس فيه عنا بحيث لا نسمع الحديث، خلال المسافة القصيرة نسبياً من المنزل إلى الكرملين يكون قد تحدث إلى ثلاث أو أربع أشخاص، وفي الفترة التي يصعد فيها من المدخل حتى المكتب، يكلف شخصا بشيء ما وينصح آخرا ويعد ثالثا، لم يكن لديه دقيقة لالتقاط الأنفاس.

كانوا يصطادونه عند الخروج من السيارة، في الممر.

سأسافر غدا يا ميخائيل سرجييفتش بماذا تنصحون؟ فيرد: ليس لدى وقت الآن، رافقني وأنا ماشي. وأثناء المشي في الغابة، كان يعطي نصائح محددة وواضحة سواء للعسكريين أو المدنيين، مع من وعن أي شيء يتحدث، ويركز اهتمامه على أي شيء،

ويصر على ماذا، ويتنازل عن ماذا، ويبلغ أي شخص تحية وما شابه ذلك، كان يتحدث باختصار وبدقة.

ذات مرة قلت له وأنا في إعجاب شديد به: كأنكم ولدتم سكرتيراً عاماً، فابتسم ولم يجب بشيء. أحيانا كان يأتي أشخاص إليه لكي يظهروا أنفسهم ويتملقونه. قبل سفريات جورباتشوف للخارج كان يرسل أكاديميين وأساتذة جامعات ومساعدين لتجهيز الأرضية لزيارته. وكانوا يأتون قبل سفر جورباتشوف ويبلغونه: أنهم ينتظرونكم بفارغ الصبر يا ميخائيل سرجييفتش، إنهم يعلقون آمالا كبيرة عليكم، إنهم يحبونكم في هذا البلد، أنت وفقط أنتم تستطيعون.......

بالفعل كان الكثيرون في الغرب مفتونين بالسكرتير العام الجديد. هناك بعيداً عن الوطن كان عندي أسباب لأفتخر برئيسي. لقد كان يعد نفسه بعناية لأي زيارة خارجية. كان يطلب الكتب والأفلام، وكانت رايسا جورباتشوف تستعد، كان اهتمامها ينصب على البرنامج الثقافي للزيارة.

بعد عشرات السنين من الانغلاق ونبذ بلادنا من بقية دول العالم، وبعد عدم الثقة المتبادل والدسائس، وقف جورباتشوف أمام الشركاء الأجانب بلون جديد غير متوقع. أتذكر زيارته لسويسرا عام ١٩٨٥، عندما جلس الوفد السوفييتي مع الوفد الأمريكي معاً في غرفتين منفصلتين وكانا يستعدان لتوقيع وثائق مشتركة. قبل هذا كان جورباتشوف وريجان قد التقيا على انفراد، والآن مستعدين للمناقشة والتوقيع. توجه جورباتشوف أولاً إلى مجموعة العمل، فلاحظه وزير الخارجية الأمريكي السيد شولتز، واتجه ناحيته بوجه يملؤه خيبة الأمل والغضب وقال له: يا سيد جورباتشوف، هل من الممكن أن نصل إلى نتائج مع هؤلاء الناس؟! – وأشار برأسه في اتجاه كونيينكو نائب وزير الخارجية السوفييتي. سأل جورباتشوف: ماذا حدث؟ أتى كونيينكو الذي كما اتضح لم يكن موافقاً على تصحيح عبارة غير هامة في الوثائق التي ستوقع. وهنا قال جورباتشوف لشولتز أنه موافق على اقتراح الجانب الأمريكي. فيما بعد وبخ جورباتشوف كونيينكو وقال له: في الأمور المهمة لا يجب تصيّد الأخطاء، وأن كلمة غير جوهرية من الممكن أن تفشل مهمة كبيرة. إذا لم تخونني الذاكرة تمت إحالة نائب وزير الخارجية بعد هذا الموقف بفترة قصيرة إلى التقاعد.

وبالطبع لم يكن جورباتشوف دائماً توافقيا. ففي خريف عام ١٩٨٦ في ريكيافيك (عاصمة أيسلندا – المترجم) عقد لقاء قمة، وانتهى لجورباتشوف ولريجان بفشل ذريع: الوثائق الخاصة بالخفض المتبادل للأسلحة النووية لم توقع. وبعد انتهاء آخر اجتماع، نهض جورباتشوف ليودع ريجان إلى السيارة، وكنت قريباً منهما. وقبل أن يجلس ريجان في السيارة ودع وجورباتشوف وقال له: أنت تعمدت ألا توقع الاتفاق...

" تعمدت " كان يعنى أن الحملة الانتخابية بدأت بالنسبة لريجان، وأن القائد السوفيتي يعيق الأمور ليفقده أصوات الناخبين.

جورباتشوف بحرارة وإخلاص حاول إقناعه: لا يا سيد ريجان لا، هيا لنعود إلى القاعة ونجلس لطاولة المفاوضات. أنتم تتخلون عن برنامج مبادرة الدفاع الاستراتيجي (ما

عرف بحرب النجوم آنذاك أو مظلة الدفاع الصاروخي) وأنا سأوقع كل شيء. هيا لنعود.

سالت الدموع من عيني ريجان. نعم بكى، أنا شاهدته ولم أصدق. جلس في السيارة وذهب. اللقاء كان فاشلاً، وذهب جورباتشوف حينها إلى المؤتمر الصحفي وكأنه ذاهب إلى المقصلة. عن ماذا سنتحدث الآن؟ سأل نفسه بإحباط شديد، ولكن بمجرد رؤيته للعدد الكبير من الصحفيين، وكاميرات التليفزيون والسينما، تحول جورباتشوف، وظهر كما لو كان تقمصته روح محارب. تحدث عن الإمكانيات المتبقية، وعن المستقبل، وعن التفاهم المتبادل لرئيسي الدولتين العظميين. وهكذا رسخت، في اعتقاد حتى الصحفيين ذوى الخبرة، فكرة بأن اللقاء كان مفيداً في كل الأحوال.

علاقة جورباتشوف بالرئيس الفرنسي ميتران كسياسي مرن ودقيق كان لها احترام خاص، فقد كان يحسب الاحتمالات لعدة خطوات للأمام. كان جورباتشوف ينتظر لقاء ميتران باهتمام ويستعد له بعناية خاصة. فيما بعد يتذكر جورباتشوف هذه اللقاءات فيقول: "الجلوس معه ممتع".

وكان جورباتشوف يعتبر رئيس الوزراء الإيطالي جوليو أندريوتي من السياسيين الكبار.

ومارجريت تاتشر بالطبع، فقد حصل جورباتشوف على اعتراف دولي بعد زيارة له لانجلترا، كان هذا قبل انتخابه سكرتيراً عاماً. فقد بدا أنهما يعرفان الإجابة على أسئلة بعضهما البعض مسبقاً، كما لاعبي الشطرنج الكبار الذين يتركون في الحديث فراغات، حتى إذا بقي كل واحد منهم عند رأيه، فقد كانا يقنعان بالتعادل.

في عصر بريجنيف سبقت السياسة الخارجية نظيرتها الداخلية، وأحيانا كان يحدث العكس.

عمل الحراسة أصبح أكثر مما كان أيام بريجنيف والأهم أن الخدمة أصبحت أصعب وأكثر توتراً. ولكن الجميع كان يعمل، وكان يعمل كل شيء برغبة، ومن الغبن أن نشكو ونحن نرى السكرتير العام نفسه يعمل بجد.

لقد زادت واجباتي مرتين تقريباً عما كان في عصر بريجنيف، فلو كنت في السابق النائب الأول لرئيس الحرس، وكانت نوبتجيتي، أن أعمل يوما وأستريح يوما، فإنني الآن كرئيس حرس أعمل كل يوم، وكل المسئولية أتحملها أنا. لقد كان الأمر صعباً ليس فقط عندما كان السكرتير العام في العمل ولكن أيضاً عندما كان يذهب للاستجمام: ٣٨ يوما استجمام، ٣٨ يوما يقظة دائمة في خدمته. وإذا كان من الممكن أن آخذ زوجتي معي للقرم، حتى ولو لفترة قصيرة، لكان الأمر أسهل. لكن هذا الأمر كان ممنوعاً. من المفترض أني في مأمورية عمل، وأحصل كما يحصل الجميع على بدل سفر ٢. روبل و٦٠ كوبيك يومياً، وفي نفس الوقت مسئولياتي ليست كما مسئولية أي شخص في البلاد. كنت أحياناً أكره البحر والشمس.

بالإضافة لإحساس الإعجاب والفخر الذين كنت أكنهما لجورباتشوف، ظهر عندي إحساس بالإشفاق عليه. ماذا لو أن كل الأعمال التي يقوم بها لم تأت بنتائج إيجابية، فقد كان بعد على سبيل المثال لاجتماع عام للجنة المركزية، وبعناية يعيد كتابة خطابه، وكان يهضم كل كلمة فيه، كأي كادر حزبي نموذجي تربى ونما في أحشاء النظام السوفييتي. لقد تعود أن كلمات السكرتير العام في أي اجتماع عام كانت تعتبر شعارات تنتشر بطول البلاد وعرضها فيما بعد، وكل الصحف تأخذ منها العناوين الرئيسية، والمقاطع، حتى انعقاد الاجتماع العام التالي للجنة المركزية. أما الآن فإن الصحف كانت تتحدث عن الاجتماع في اليوم التالي فقط، ولو تذكروا الخطاب فقد كانوا يتناولونه من وجهة نظر نقدية إلى حد ما. وكان الاقتصاديون هم أساساً من ينتقدونه ويقولون " لقد مر الاجتماع ولم تتمخض عنه نتائج ملموسة".

كان جورباتشوف يشعر بالذل والمهانة: " كيف يحدث هذا! ". بالطبع كم من الوقت كان يضيع وللأسف تقريباً بلا جدوى. من المذنب في هذا؟. لا أعرف. الأشخاص الذين أعدوا هذه الخطب قالوا لي أكثر من مرة أن الخطب في البداية كانت قوية، وفي الحقيقة عملية، لكن ربما تحت تأثير الزملاء أو لأسباب أخرى كان جورباتشوف يخفف من حدتها، ويجعل الخطاب أقل حدة، ويستبدل التحديد بأمور عامة، وكان يعيد كتابة الخطاب مرتين وثلاث مرات، الأمر الذي يؤدي في النهاية لأن يصبح الخطاب بلا طعم.

الحياة لم تتحسن للأحسن، بالرغم من أنها في الأعوام الأولى لم تنهار بشكل حاد. ذات مرة في فترة عدم انتظام الخبز سألت جورباتشوف: الخبز رخيص، ممكن لو ارتفعت أسعاره سيحافظ عليه الناس أكثر. فقال: لك أن تتصور إذا رفعنا أسعار الخبز فإن أسعار المكرونة والحبوب وكل ما هو مصنوع من الدقيق سيرتفع سعره، وهذه ستكون ضربة قوية لأصحاب المعاشات، لا، ليس هذا أوانه.

وعندما يكون الشيء في متناول أيدينا ونحن في احتياج إليه يكون المحصول قليلا: شيء سيء، أو يكون المحصول وفيرا: أيضاً سيء، لأننا لا نستطيع المحافظة عليه، ويفسد. لعشرات السنين تراكمت المشاكل، وحلها مرة واحدة، وبواسطة شخص واحد غير ممكن. أنا لا أبحث عن تبرئة لجورباتشوف، ولكني كنت مشفقا عليه من المجهود الذي يبذله دون جدوى، وأحياناً كنت أشفق عليه بسبب ضعفه.

لم أر في عدم التوفيق وحسابات السكرتير العام الخاطئة أو مأساة البلاد تراجيديا. مادام البحث عن حلول سيكون بإخلاص، وإذا كان القائد مستعدا للبحث عن مخرج من الأزمة مع الشعب، ومع الشعب يتقاسم حتى لو جزءا من الصعوبات، لم نفقد شيئا بعد. كل شيء يمكن تصحيحه، كل شيء يمكن تصحيحه مادام الشعب يثق في جورباتشوف حتى الآن. ما يثير الارتباك والغضب ليس فقدان الحبوب أو قلة إنتاج الفحم وليس كذلك ارتفاع الأسعار، ولكن المكر والكذب الذين سيؤديان حتماً إلى الخيانة، لا مفر من ذلك. لم أشفق فقط على جورباتشوف، ولكني كنت أشاركه الإحساس.

كان لدى جورباتشوف صفة أخرى جاذبة. فقد منع "تنظيف" الطريق له، أي منع السيارات أثناء مرور موكبه، فهذه العملية كانت تعطل المواصلات العامة والخاصة.

وعلامات المنع، وعلامات تفادى الطرق والإشارات الحمراء خلقت نوعا من الفوضى
والبلبلة بين المواطنين العاديين، فقد كان الناس يتأخرون ويلعنون السلطة. يجب القول أن
بريجنيف قبل أن تشتد عليه الأمراض حتى ١٩٧٧، كان يمنع وقف حركة سير السيارات
من أجله. لكن فيما بعد عندما " عبر المرحلة" ورأى تكدس السيارات قال: لينتظروا قليلاً
لن يحدث شيء. وهل السكرتير العام هو الذي يجب أن ينتظر؟!

عندما كان جورباتشوف يرى الطريق خالياً كان يوبخنا بعنف، وكان كذلك يغضب
عندما يرى على الطريق رجال شرطة كثيرين أو عسكريين من الحراسة. ما كان يقلقه
ليس أنه من الممكن أن يؤدى إلى متاعب للمواطنين العاديين، بل كان يخشى كلام الناس
عنه وكان يقول: أنتم تضعونني في موقف حرج أمام الناس؟

أحياناً كنا نتحرك من مكتب جورباتشوف في اللجنة المركزية في الميدان القديم إلى
مكتب آخر في الكرملين، وأحياناً كنا نمشى جزءا من الطريق على الأقدام، وكان الناس
بمجرد أن يتعرفوا على السكرتير العام، يتهامسون، أكثر ما كان يسمع في ظهورنا
بالروسي: سباب غير لائق (سباب بالأم متداول في اللغة الروسية كثيراً – المترجم) أو:
انظر، جورباتشوف ماشى!. هناك بعض المواطنين بشكل تلقائي يحيونه فيرد التحية
بابتسامة، البعض يحاول التحدث لكن ذلك لا يتحقق، أسئلة تقليدية وإجابات تقليدية. في
ميدان إيفانوف في الكرملين قابلنا مجموعة من المواطنين، جورباتشوف سألهم: "من أين؟"
هذا من كراسنويارسك، وذاك من دنيتسك، والآخر من ليوبيرتس، الجميع غرباء عن
موسكو، أهل موسكو نادراً ما يأتون إلى الكرملين. هؤلاء كانوا واقفين جوعانين،
مطحونين، ملابسهم رثة، مطأطئي الرأس. فبادرهم جورباتشوف بالسؤال وهو منتعش:
ماذا تريدون أن تقولوا لي؟ دائما في هذه الظروف توجد سيدة شجاعة، فقالت له إحدى
السيدات: نتمنى لكم الصحة. فيما كان الباقون صامتين مطأطئي الرأس، ربما نتيجة
شعورهم بالخجل.

أمام بوابات بوكروف التقينا بعض الإيطاليين،هنا كان الأمر مختلفا تماماً: كانوا
يجرون خلفنا معجبين، طلبوا التصوير مع جورباتشوف، توقف وقال: هيا، من منكم لديه
كاميرا؟ هنا الأمر مختلف، إنهم مغامرون، أحرار. يسألون جورباتشوف: هل أعجبتكم
إيطاليا، وما الذي أعجبكم بالتحديد؟ كيف روسيا؟ وكيف العلاقة بين بلدينا؟

مواطنون أحرار من بلد حر، والأهم شبعانين، مرتدين ملابس وأحذية. مع مواطنينا
الجوعانين الأسئلة الجاهزة لا تنفع ولن تمر بسهولة، فبالإضافة إلى التعب والإجهاد فإنهم
يشعرون بالحقيقة عندما يسألونهم سؤالا زائفاً أو سؤال حقيقيا. فهم يرون السكرتير العام
في التليفزيون كل يوم، كلماته لا تتغير، فهم يعرفونها، لو كان يبحث عن أجوبة حقيقية
وفي صلب الموضوع لتغيرت الحياة ولأصبحت حياة أخرى من حولنا، إنهم يفهمون هذا.

قائد البلاد تعود أن يتحدث مع الشعب وليس مع الناس، اكتشفت هذا الأمر في أحد
الأيام في القرم. خرج جورباتشوف من البحر وقابل في طريقه مجموعة من عمال

صلاح لكبرياء الذين يعملون في القسم المحلى، تغير وجهه فجأة وقال لي بحدة: لو تكرر هذا الأمر سوف أغادر الفيلا!

لم يكن هناك حديث معهم، ولم يكن هذا ممكناً. وكانوا يرتدون ملابس لائقة، وهو كان يرتدى مثل كل المصطافين: شورتا وقميصا.

كل ما في الأمر إنهم مروا في المساحة المخصصة له والمحرمة على الغرباء. وكانوا يسيرون في مهمة عمل وليس للتنزه. لو حدث هذا في عصر بريجنيف، الذي لم يعلن أنه ديموقراطي، لكان قد سألهم ببساطة: " ما الخطب يا شباب؟". أوليس هذا هو "الشعب"؟.من الأسهل أن تكون قريباً بين الأجانب من أن تكون مقرباً بين مواطنيك.

في الغالب أكثر شعب مطحون، تبين أنه شعب وسط روسيا.

- ماذا تريدون أن تقولوا لي؟ سأل جورباتشوف وهو خارج من السيارة. فرد أحد الأشخاص الذين يضعونهم لتوجيه ناصية الحديث: ألا تحدث حرب يا ميخائيل سرجييفيتش.

نكتة، أليس كذلك؟! ليس لديه في منزله ما يقتات به، وبالكاد يصل أول الشهر بآخره. وكل العالم من حوله يعيش في كفاية وشبعان ومرح، وهو مشغول: بألا تندلع الحرب.

لكن عندما قال أحد العمال في ليتوانيا لجورباتشوف عن رغبة الشعب الليتواني في الاستقلال، أهان جورباتشوف العامل وشكك في كلامه وقال له: أنت تغنى بصوت غريب.

إلى أية درجة يمكن أن تهمل التعرف على شعبك، لكي تتخيل كل شيء بالعكس؟ فالشخص الذي يمثل ومدفوع بالحديث بما يرضى جورباتشوف يقابل كلامه وكأنه الحقيقة، والعكس. إلى أي شيء سيؤدى هذا العمى؟ واضح وهو ما أكدته الأحداث التالية، أريقت الدماء في ليتوانيا نفسها، وفي النهاية حصلت على الاستقلال.

كان سكان سيبيريا الشماليين يتصرفون بشكل أكثر جرأة، في المصانع والفابريقات، في الشوارع والميادين، الناس كانت تقول ما تفكر فيه فعلاً: لا توجد ملابس أطفال، أحذية، مواد غذائية. أشار جورباتشوف إلى سكرتير الحزب في المنطقة قائلا: ها هو، اطلبوا منه. واستدار وخرج.

خداع وسفسطة! ماذا يستطيع أن يفعل قائد محلى؟ فلكي يعيش سكان هذه المدينة بشكل جيد يجب أن تعيش البلاد كلها جيداً، لكن البلد ينهار! أحيانا كان جورباتشوف يتفهم ذلك، وكان يقول: يجرى عمل كذا، وكذا ليس كما يجب. وكان يتحدث بحماس وغضب، لكنه كان يتحدث وكأنه من خارج المنظومة وليس هو قائد البلاد.

بعد الشكاوى والطلبات، أخرج المسئولون في الإدارة المحلية جورباتشوف وشرحوا له: إن هؤلاء شكائين معروفين في المدينة، لقد استقبلناهم عدة مرات، وعملنا لهم الكثير، ولكنهم غير قانعين.

كثيراً ما كان الناس يشكون من استبداد وعسف السلطات المحلية. في خاباروفسك تحدث الناس عن تشورني السكرتير الأول للجنة المنطقة وقالوا: يجب أن يسجن، مكانه الطبيعي هو السجن! وكان الرد في صورة ديموقراطية الحزب الديماجوجية: أنتم الآن أصحاب الأمر! سيء. اخلعوه، أنتم تنتظرون كل شيء من موسكو؟ عندنا شفافية وديموقراطية، قوموا بأنفسكم بفرض النظام.

أكثر الشكاوى كانت متعلقة بموضوع الإسكان، فقد كانت عملية بناء المساكن بطيئة وسيئة في أنحاء البلاد.

وعندما يشكو المواطنون كان يقول لهم: ماذا تريدون مني؟ مسكن؟ من غير الممكن أن يطوف السكرتير العام ربوع البلاد ليوزع مساكن.

طلب العاملون في مجال النفط في تيومين أحذية طويلة شتوية من اللباد وجواكت لتقيهم من البرد، بدون ذلك لا يمكن العمل. جورباتشوف أكد لهم أنه سينفذ طلباتهم ولم يفعل شيئاً. مر عدد كبير من الشهور -عام تقريباً- حتى وصل خطاب من هؤلاء العاملين في مجال النفط يقولون فيه: الأوضاع مازالت كما هي وليس لدينا ما نرتديه لنعمل.

صراحة أقول بأنني لم أجد أية فائدة من جولات جورباتشوف هذه، المساعدة لا يجب أن تكون جزئية، يجب مساعدة البلاد ككل وليس هؤلاء المحظوظين الذين أسعدهم الحظ برؤية الزعيم. أو على الأقل معرفة مآسي الشعب والمشاكل التي يجب حلها بالدرجة الأولى، لكن المشكلة في أنه لم يستطع معرفة هذا ولم يحاول، لأنه تعود على عادة أنه يقوم بسؤال الناس، وهو نفسه يجيب على هذه الأسئلة، كان يتكلم ولا يسمع فيتحول الحوار إلى حوار من طرف واحد.

سأل بانتعاش المواطنين في مدينة سيبيرية: كيف الحالة المزاجية؟، وقام بنفسه بالإجابة: إني أرى في عيونكم أنها جيدة.

بعد ذلك بدأ جورباتشوف الحديث المعتاد له: "يجب أن نبدأ "، "حان الوقت"، "كفي". لكي تقول هذا الكلام بنفسك ليس من الضروري أن تسافر آلاف الكيلومترات مع مجموعة ضخمة من المحيطين، من الممكن أن تفعل هذا من أي مكتب في موسكو وستسمعك البلاد بأكملها.

لكن المهم كما يبدو لي أنه لم يكن لديه شيء جوهري يقوله. هذه هي أحاديثه:

" لقد حان الوقت للعمل أكثر نشاطاً، وهذا هو الأهم اليوم " (١٥ أكتوبر ١٩٨٥)

" كل شيء يعتمد علينا أيها الرفاق. حان وقت التكاتف والعمل بقوة وشجاعة وإبداع وعلم! هذه، إذا أردتم، مهمتنا الأساسية في هذه اللحظة " (٨ مارس ١٩٨٦)

" أريد مرة أخرى أن أكرر: نحتاج إلى العمل ثم العمل ومرة أخرى العمل، بنشاط العمل، فهذا أساس نجاح البيريسترويكا في هذه المرحلة " (٢٧ يناير ١٩٨٧).

" اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تدعو الجميع للعمل العمل العمل " (١١ ابريل ١٩٨٧).

الأهم بالنسبة لنا الآن: العمل العمل بقوة لتحقيق الأهداف " (١٤ يوليو ١٩٨٧).

" ليس مهم من أية ناحية نبدأ، لا يجب أن نضيع الوقت، يجب العمل، العمل بحسم، ويجب أن نرفع سقف المتطلبات لحل المشاكل العملية، ذات الطبيعة العملية والحادة." (٢٩ يوليو ١٩٨٨).

" يجب العمل الآن، العمل بحسم " (١٩ سبتمبر ١٩٨٩).

" العمل بحسم، الجميع موافق على هذا... لكن لن نحقق تغييرات ثورية ما لم نعمل بطريقة ديموقراطية كما يجب، خطوة وراء خطوة ننطلق للأمام، وألا ننحرف لا إلى هذه ولا إلى تلك الناحية، وألا نبطئ الخطوة وألا نتوقف" (١٩ سبتمبر ١٩٨٩).

" الآن كما يقولون، يجب أن يصبح الجميع ذكياً، ويفهم كل شيء، لا يجب أن نتوتر، ويجب أن نعمل بطرق بناءة، الجميع وكل واحد على حدة " (٢٨ سبتمبر ١٩٨٩).

" يعني لابد أن نعمل بشكل أكثر حسماً، وإلا فإن التباطؤ سوف يشعل الموقف في البلاد" (٢ يوليو ١٩٩٠).

" لهذا يجب العمل الآن بحيث تستغل كل الفرص لكي نكسر الحالة الحالية للأفضل، ويجب عدم السماح بامتداد التأثير السلبي في المستقبل" (١٧ سبتمبر ١٩٩٠).

هذا هو تاريخ البيريسترويكا (إعادة البناء ــ المترجم) من أحاديث مخترعها. الحياة كانت تنزلق إلى الهوة السحيقة في انهيار كارثي، والقائد صاحب الأحاديث العظيمة دون توقف كان يكرر نفس الكلمات الفارغة الممزوجة بالوحل. والناس المرهقة والهائجة كانوا بمجرد أن يسمعوا صوته يغلقون جهاز الراديو، أو يغلقون التليفزيون عندما يرونه على الشاشة.

أكثر ما كان يثير غضب الناس أنه في هذه الجولات الفارغة كان يأخذ زوجته معه. وقد أصابت الناس بالضجر رغبتها الدائمة في التميز ولفت الأنظار إليها من خلال طريقة ارتدائها لملابسها وتصرفاتها. الخطابات بهذا الخصوص كانت كثيرة إلى الصحف وإلى التليفزيون. أحد المحيطين المقربين من جورباتشوف، تشجع وحاول لفت نظره على استحياء. فقال له جورباتشوف بحسم: سافرت وستسافر معي. وإذا لم أخطئ فإن إيرينا (ابنة جورباتشوف-المترجم) تحدثت لوالدتها ذات مرة عن هذا. شعرت رايسا جورباتشوف بالإهانة وقالت لزوجها: الناس غير راضية عن أني أسافر معك. فقال جورباتشوف: ماذا نفعل، لن نرضي الجميع. هناك من هم غير راضين، وهناك من هم راضون، في الغرب يسافرون مع زوجاتهم.

"في الغرب" ! مرة أخرى أقول: لا يجب مقارنة الإنسان الجوعان والعريان بالإنسان الشبعان وعليه ملابس، هناك المشاكل أقل بكثير، إذا سافر الرئيس إلى مكان ما بمفرده أو مع زوجته فإنه يحل مشاكل بعينها.

بالمناسبة أقول أن السيدة رايسا جورباتشوف وجدت لنفسها عملاً خلال هذه السفريات، فقد كانت تقابل ممثلي الصناديق الثقافية المحلية، وكانت تزور المتاحف في

والتي مازالت لوحات وإعلانات فترة بريجنيف معلقة على الحوائط فيها. بعض المناطق مشاكل الصناديق الثقافية كانت تتمكن من حلها من خلال جورباتشوف بلا شك، يجب إعطاؤها حقها. الأمر مختلف في أنها تعودت على دور "السيدة الأولى" قبل انتقالها لموسكو بفترة طويلة عندما كانت في ستافروبل (مدينة في جنوب روسيا ينحدر منها جورباتشوف – المترجم) لم تكن تتصور لنفسها دور آخر منذ فترة طويلة، وكانت بعيدة عن المواطنين العاديين، مثل زوجها، كانت تتأنق بملابس زاهية. حدث أن غيرت ملابسها خمس مرات في اليوم (كان هذا في زيارة خارجية، لكن المواطنين السوفييت كانوا يراقبون هذا عبر شاشات التليفزيون– المؤلف) ولم تفهم أنه في الوقت الذي كانت فيه أرفف المحلات في الاتحاد السوفييتي فارغة، كان عليها أن ترتدي ملابس بسيطة ولكن بذوق على مرأى من مواطنيها الفقراء.

.... وطريقة حديثها ببطء مع الناس التي تجمع بين المعلم والحامي، وتخرج كل كلمة بحرص، ثم تتوقف لفترة طويلة بين الكلمات، كما لو كانت تؤكد معنى كل نبرة صوت، وكما لو كانت تتحدث مع شعبها من خلال مترجم: أنا أريد أن أشكركم... كان من الممكن أن تقول ببساطة "شكراً" وهل يوجد أبسط؟ إنها لم تقل مأثورات في نهاية الأمر.

في قاعدة القوات البحرية الشمالية، ألقت " السيدة الأولى " خطابا من فوق غواصة، وهو الأمر المستبعد تماماً حسب الأعراف والتقاليد والعادات القديمة لبحارة الغواصات. والمذنب هنا القيادة البحرية التي أرادت تقديم خدمة فخالفت العرف.

حدث أن رايسا جورباتشوف لم ترافق زوجها عندما لم يكن هناك مقابلات احتفالية، أو ترحيبات استعراضية. على سبيل المثال لم تسافر إلى بشكيريا (جمهورية تتمتع بالحكم الذاتي داخل الفيدرالية الروسية – المترجم) حيث تسرب الغاز من أنبوب بجوار العاصمة أوفا، وتراكم في الوادي وأثناء مرور قطار بمنطقة تسرب الغاز اشتعل، كان مشهداً فظيعاً. ولم ترافق زوجها إلى سبيتاك (مدينة أرمينية حدث بها زلزال قوى دمرها بالكامل تقريباً – المترجم) بعد زلزال حدث هناك، فقد كانت هذه كوارث شعبية.

الأوقات التي كنت أشعر فيها بالفخر بقائد البلاد تبدلت بأوقات شعرت فيها بالألم والمرارة والخجل أمام الناس.

سافرنا إلى روسيا البيضاء، ضاحية الناس الرائعة بحق، محببين للعمل وصبورين. في أنحاء البلاد توتر، إطلاق نار، دماء، نزاعات قومية. وهناك هدوء. مقابلة احتفالية في العاصمة مينسك، رئاسة احتفالية على المسرح، منضدة مغطاة بقماش قطني أحمر. الرفاق المسئولون على منصة الرئاسة في بدل أنيقة، مع شارات نواب البرلمان على ياقة سترات بدلهم. في القاعة الجهاز الحزبي ذو الخبرة، الموقف يشبه – بدقة دون اختلاف يذكر– الماضي، المعروف بزمن " الركود "الذي يتعرض للنقد من جورباتشوف الآن بلا رحمة.

نحن على أعتاب نهاية الثمانينيات، والبلاد في حالة فقر وانهيار، وبدأنا نطلب قروضا من الرأسماليين، وأصبح جورباتشوف يطوف أوروبا والعالم كله ماداً يده طلباً

العون، ليس هو فقط، بل نحن كلنا: ٣٠٠ مليون أدرنا وجوهنا صوب الغرب، واقفين وأيادينا ممدودة. والرأسماليون بما فيهم هؤلاء الذين حطمناهم في الحرب، يرسلون لنا، للفقراء، معلبات وملابس. شيء مذل ولكننا كنا نتقبل، شيء مخجل. وكنا نخفي أعيننا ولكننا كنا نأخذ. لكن ماذا في المقابل؟

في مينسك صعد جورباتشوف للمنصة وصب جام غضبه على "ما يسمى الديموقراطيين" وقال: إنهم يرفضون فكرة الاشتراكية ويؤيدون رأسمالية المجتمع!.هكذا يطلب العطف وفي نفس الوقت يهاجم الذين يعطونه، شكل جديد من أشكال نفاق الفقير. لكن كم مرة زرنا دولا رأسمالية، وعند السفر من هناك أفكر هل من المعقول أن يكون زعيمنا لم يشاهد، لم يتجول ولم ير كيف يعيش الناس هناك؟ ألا يعرف أنه لا يوجد شخص يريد أن يهرب إلينا من هناك، بينما من عندنا سيهرب العشرات إلى هناك بل مئات الآلاف؟ افتح الحدود سيهربون بالملايين. من غير المعقول ألا يرى – بلغة المدارس – أن هناك جيد وعندنا سيء، وكلما مر الوقت كلما أصبح أسوأ.

لكن ليس هذا هو الإحراج، الإحراج فيما بعد.

تجولنا في مدن روسيا البيضاء في كل البلاد، أسئلة تقليدية وإجابات من نفس النوع للضيف الرفيع المستوى، لكن في مكان ما قامت امرأة يحيطها أهل بلدها وتشجعت وسألت سؤالا كان يقلق كل جمهورية بل كل الاتحاد السوفييتي وكل العالم. قالت للضيف المنتظر والغالي والجبار أن الأرض في المنطقة التي يعيشون فيها ملوثة بالإشعاع (كان هذا بعد حادثة تشيرنوبل ـــ المترجم) لا يمكن زراعتها وأن العيش في هذه الأرض خطر، فالناس يمرضون ويموتون. بماذا تعتقدون أجابها جورباتشوف؟ هل تعرفين أنه يجب التأكد من هذا ومعرفة هل ممكن العيش هنا أم لا. يبدو أن الناس حدث لها صدمة، فقد كانوا يعتقدون أن جورباتشوف يعرف كل شيء، ولم يحضر إليهم للنزهة. لقد توجهوا إليه، إلى الرئيس، أشخاص محكوم عليهم بالموت.

تشيرنوبل كانت أول كذب كوني لجورباتشوف، وهو الأخطر بالنسبة للإنسانية جمعاء. لقد أخفينا الكارثة بقدر ما استطعنا. قادة أوكرانيا أخلوا أولادهم من كييف (عاصمة أوكرانيا – المترجم) فوراً، وأولاد المواطنين العاديين تم إخلاؤهم بعد خمسة أيام من وقوع الكارثة – أول مايو ١٩٨٥– أخرجوهم إلى ميدان مشمس في كييف ليحيوا القادة.

ربما أخفينا وسكتنا بقدر ما كان هذا ممكناً. لولا هذا " الغرب الملعون" الذي يزعجنا دائماً أثناء تنفيذ سياستنا، فقد امتدت الإشعاعات بعيداً خارج حدود بلادنا، وتبين أن إخفاء الحادث غير ممكن، حينئذ أصبحنا نراوغ ونكذب.

إذا رجعتم لعدة صفحات من هذا الكتاب ونظرتم لتعاليم رئيس الاتحاد السوفييتي للشعب بعيون مختلفة ، انظروا.

" يجب العمل، العمل، ومرة أخرى العمل – بنشاط، بشجاعة، بإبداع ومعرفة."

" اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي تدعو الجميع للعمل العمل العمل العمل، فهذا أساس نجاح البيريسترويكا في هذه المرحلة ".

" الآن كما يقولون، يجب أن يصبح الجميع ذكياً، ويفهم كل شيء، لا يجب أن نتوتر، ويجب أن نعمل بطرق بناءة الجميع وكل واحد على حدة ".

" لهذا يجب الآن العمل بحيث تستغل كل الفرص لكي نكسر الحالة الحالية للأفضل، ويجب عدم السماح بتمدد التأثير السلبي في المستقبل".

هذا ما قاله للسيدة التعيسة من منطقة جوميل، أكثر مناطق روسيا البيضاء تلوثاً بالإشعاع، لأنها تجاور محطة تشيرنوبل الكهربائية النووية التي كانت تقع في أوكرانيا.

لماذا أحمى أنا حياة شخص بحياتي، وحياة الملايين لا أحد يتحمل مسئوليتها؟

عدم رضاء الشعب عن جورباتشوف تزايد وتحول إلى غضب عام تقريباً، أخذ أشكالا عدة من صور الكاريكاتير عنه أثناء التظاهرات والمسيرات وحتى الخطابات الغاضبة والساخطة ضده نهاية بالاستفزاز والتهديد الفعلي.

ذات مرة وأثناء زيارة للعاصمة الأوكرانية كييف، وكما هي عادة الرئيس أو بمعنى أدق عادة رايسا جورباتشوف أن تظهر نفسها للناس، الحراسة كانت موزعة حسب الخطة. فجأة، طارت حقيبة دبلوماسية من الصفوف الخلفية في اتجاه جورباتشوف، التقطها ضابط الحراسة الخاصة أندريه بيليكوف، وضمها إلى بطنه وانحنى عليها مغطياً إياها بجسده وألقى بنفسه في اتجاه بعيداً عن جورباتشوف، كان أندريه يتوقع أن يكون في الحقيبة متفجرات. لحسن الحظ لم يحدث انفجار، والشخص الذي ألقى بالحقيبة لم يعثروا عليه، اختفي ، كما لو كان قد تبخر. افترض أن يكون هذا مجرد مناورة تمويه والتهديد الرئيسي من مصدر آخر. وحتى لو كان الأمر دون مصادر خطر أخرى، وإذا أصابت الحقيبة جورباتشوف في رأسه، لحققت هذه الحركة الغرض منها، وبالدرجة الأولى السياسي، هذا بخلاف الإصابة التي ربما ستكون قد لحقت بجورباتشوف.

إدارة الكي جي بي منحت بيليكوف هدية قيمة، فالحارس الذي كان يقف خلف جورباتشوف قام بعمله بدقة، بحيث أن جورباتشوف الذي كان مشغولاً بأحاديثه الجميلة لم يلحظ شيئا.

لحظة أخرى من اللحظات غير الطيبة: أثناء مسيرة في الميدان الأحمر، أخرج رجل – لا ندرى من أين ظهر– سلاحا ناريا. لكن الحراسة تحركت بسرعة وبدقة. ومرة أخرى لم يشعر جورباتشوف بشيء، سوى حركات صغيرة في زحمة الناس.

ظهور جديد للمتاعب

من جديد اضطررنا لاختيار حراس. من ناحية وكما هو مفترض لا يجب أن تكون هناك مشاكل، فقيادة الإدارة في الكي جي بي تنازلت وحققت طلباته، لكن من ناحية أخرى تخلى جورباتشوف عن حراسه، وأصبح غير راض عن هؤلاء الذين أتوا مكانهم، والآن ظهرت أنا وكان يجب أن أختار لثالث مرة من يعمل بدلاً منهم خلال فترة وجيزة، أكثر قليلاً من شهر.ساعدني جداً في هذا الأمر المعلم القديم في الكي جي بي فاليرى صمويلوف - كان حاملاً للحزام الأسود في لعبة الكاراتيه- وهو رجل مخلص جداً في عمله، هو الذي وضع برنامج إعداد الحراسة. لكنى لم أكن أحتاج إلى أشخاص متخصصين على مستوى عال فقط، ولكن لأشخاص ذوي تربية حسنة، والجانب الأخلاقي عندهم قوي، وأن يكونوا حسني المظهر بالشكل الذي يجعل السكرتير العام يتقبلهم.

اخترت شبابا بهذه المواصفات، وساعدني على ذلك أنني كنت أعرف جيداً قسم إعداد كوادرنا، والذي تدربت فيه. الجميع كانوا شباباً يتأهبون للانطلاق، كان يمكنهم الترقي لو لم يحدث ما حدث في أغسطس. بعد هذه الأحداث تفرق الشباب، وتخطفهم أصحاب المؤسسات التجارية.

للأسف في العلاقة بين جورباتشوف والحراسة حدث نوع من التنابز، لا هو ولا رايسا جورباتشوف كانا يريان في البشر بشرا، لم يهتما بظروف الحياة. كلاهما كان يقول: لو أن للإنسان حق في شقة بالقانون دعوه يأخذها. نعم عندنا ملايين من الناس يتعذبون لعشرات السنين في طابور السكن، وجميعهم يستحقون شقق " بالقانون"، ولا يستطيعون الحصول على شيء. في عملنا المتوتر، إذا كان الإنسان يعيش في شقة مشتركة، لا ينام جيداً ولا يستريح جيداً، أي عمل ممكن أن يقوم به؟ وكما قال سوفوروف (قائد عسكري روسي عظيم ــ المترجم): في البداية، البس الجندي واطعمه، ثم بعد ذلك اطلب منه.

أهم ما في الموضوع أنه بين الحراس والشخص الذي يقومون بحراسته حدث نوع من العزلة، وفي علاقته بنا كان يتصرف مثل العضو الحزبي المستعصي. كل المشاكل التي كانت تواجهه - حتى تلك العادية- كان يحلها فقط من خلال بليخانوف. شراء زهور لعيد ميلاد رايسا جورباتشوف، الأوامر من خلال بليخانوف، كي قميص من خلال مدير إدارة في الكي جي بي(بليخانوف). أنا لا أتحدث عن أشياء أكثر أهمية، تشكيل قسم، أو الاستعداد للمأموريات. قلت لجورباتشوف عدة مرات: قولوا لنا حتى قبل السفر بثلاثة أيام، إلى أين سنسافر. فقال: كثير عليكم قبلها بثلاثة أيام.

كان يحافظ على كل شيء في السر حتى عني، وهو الأمر الذي كان يصعّب من عمل الحراسة. لكن هذا كان مناسباً لبليخانوف، فقد أخذ على عاتقه بكل سرور كل ما

يتعلق بجورباتشوف من أعمال سواء الاقتصادية أو الحياتية اليومية وأصبح وكيله المفوض. في السابق كان بليخانوف يحاول من خلالي الحصول على أية معلومات عن مزاج جورباتشوف، وما إذا كان جورباتشوف في حالة مزاجية طيبة أم لا. وكان بليخانوف يحاول ألا يراني – متعمداً– إذا كان كل شيء على ما يرام. وإذا كان جورباتشوف غير راض أو غاضب، فإن بليخانوف يأتي ليراني بل ويبحث عني ليعرف ما إذا كان الخطأ من الإدارة أم منه شخصياً، الآن أصبح يورى بليخانوف يدخل لجورباتشوف لأي سبب.

وصلت الأمور إلى حد السخافة، جورباتشوف يطلب منى أي شيء من خلال بليخانوف، وهو شخص ليس صغير السن، فينسى إبلاغي، وحدث أن أبلغني عن شيء ما عبر السكرتير والسكرتير نسى أيضاً. هكذا كان مجتمع الموظفين من خلال الوسطاء، وفي المحصلة حدث أن خرج جورباتشوف من مكتبه وأتى إلي: هيا بنا. سألته إلى أين؟ لم نستدع السيارة بعد، أنتم لم تخطروني.

حماقة شديدة بالطبع: رأس الدولة يخرج إلى خارج المبنى، ولا توجد سيارة تنتظره، يحتج ويوبخني. بليخانوف بعد ذلك يقول: هيا نمشى على الأقدام لنتنزه. ثم يتضح أنه كان يريد الذهاب من اللجنة المركزية إلى الكرملين، المسافة، من مكتب إلى مكتب، ليست بعيدة بصفة عامة.

في الأعوام الأولى لحكمه كان جورباتشوف يقضى معظم وقته في مكتب اللجنة المركزية في الميدان القديم، والذي تسلمه بالوراثة عن بريجنيف. ففي هذا المكان كان يستقبل قادة الأحزاب الشيوعية القادمين من الخارج، والسياسيين الحزبيين السوفييت، لكن فيما بعد عندما تهاوت سمعة الحزب للحضيض، أصبح المكتب المحبب الذي يعمل فيه هو الكرملين، وهو المكتب الذي بقي له أيضاً من مخلفات بريجنيف. لكن جورباتشوف غير الأثاث الذي كان عبارة عن مكتب وكراسي قديمة إلى أثاث أكثر أناقة: كراسي جلد وكنبة.

عندما كنا نتوجه من اللجنة المركزية إلى الكرملين سيراً على الأقدام، كانت سيارات الرئاسة تلاحقنا على الطريق. في مكان ما في شارع كوبيشوف حدث أن جورباتشوف لم يستقل السيارة ومشينا سيراً على الأقدام، حينها حاولت أن أقول للحراسة ألا يقتربوا من الناس حتى لا يلفتوا الأنظار. بعض المارة لم يلحظونا، وآخرين عرفونا وكانوا يبتسمون، وكاد كل شيء أن يمر بهدوء. لكن الحراس الشباب الذين كانوا يسيرون في الأمام توتروا، ولم يتبعوا التعليمات بالحديث همساً للجمهور وتحدثوا كذلك بقسوة: "ابتعدوا أخلوا الطريق ". الناس ابتعدوا، وأحياناً ارتبكوا، جورباتشوف عندما رأى هذا غضب قائلاً موجها حديثه إلي: فولوديا ما معنى هذا؟

جورباتشوف مثل بريجنيف: لم يكن يحب السيارة المصفحة، لقد كانت ضيقة وسقفها منخفضا، والتهوية فيها أسوأ، والنوافذ فيها لا تفتح. لكن زجاج النوافذ جبار بسمك ٧ سنتيمتر ليس أقل، جعله غير قابل للاختراق ليس فقط للرصاص ولكن القنبلة لا تؤثر فيه.

إلا إذا كان رشاش أو مدفع يمكن أن يخترقه. كان جورباتشوف يرد على توصياتنا الخاصة بالأمن بقوله: " دعوا ما يحدث يحدث، من سيهرب من قدره ".

بعد ذلك كان يغضب عندما نصر على السيارة المصفحة، اضطررنا أحياناً لحل هذه المشكلة من خلال رئيس الكي جي بي. جورباتشوف حينها وافق على مضض لفترة محددة، وبعد فترة طلب سيارته العادية.

كل من جورباتشوف وبريجنيف أبعد ما يكون عن أنهم جبناء على المستوى الشخصي، لكن يبدو لي أن سبب عدم حب جورباتشوف للسيارة المصفحة هو عدم وجود حاجز زجاجي يفصله عنى أنا والسائق في الصالون، فهو كان يحب إخفاء كل شيء عني حتى تلك الأشياء التي يجب أن أعرفها بحكم عملي. ذات مرة طلب مكالمة ونحن في السيارة، وبعد أن أوصلته بالشخص المطلوب، حاول أن يرفع الزجاج العازل بينه وبين السائق، لكنه تعطل، ولم يستطع رفعه، فشرح لي مع السائق أنه لم يتمكن من الانفراد بالحديث وكان دائماً يقول: من يعرف أقل ينام أفضل.

بريجنيف، على ما أذكر، لم يستخدم الحاجز الزجاجي ولا مرة. فمثلاً كان يقول "اطلب لي طشقند، السكرتير الأول!" أو أي شخص آخر وكان يتحدث أمامنا. فهو أولاً: يعرف بأنه لا مني ولا من ريابينكو سوف تتسرب معلومات أبداً، هذا مستبعد تماماً. ثانياً: لم يقم بعمل اتصالات سرية للغاية من السيارة.

لا توقفوا السيارات الخاصة، لا تعطلوا المواصلات العامة على طريق سيرنا، لا تنشروا حراسة كثيرة أثناء الزيارات، كل هذه القشور الخارجية للديموقراطية التي كان يتبعها جورباتشوف، كانت تسبب للحراسة الكثير من التوتر. أحياناً كنا نضطر لخداعه، على سبيل المثال على الطريق من وإلى العمل، كل المواصلات العامة كنا نحصرها في جيوب، وحواري جانبية وشوارع مسدودة، والسكرتير العام لم يكن يرى هذا.

أثناء الزيارات الداخلية كانت السلطات المحلية تؤمن نفسها، ونحن لا نستطع فعل شيء. كنا نقول لهم " بسبب تأمينكم هذا سوف يوبخونكم ". كان الموقف يتكرر كل مرة، وكان يردون وإذا حدث شيء ألن ندفع رقابنا ثمنا لهذا. عندما جاء المستشار الألماني كول في زيارة للاتحاد السوفييتي، جرت المباحثات في ضاحية ستافروبل في أرخيز، وأصرت السلطات المحلية على إجراءاتها الأمنية، وغمرت ستافروبل بقوات من الشرطة والجيش، لحسن الحظ لم يكن هذا ظاهراً لا لكول ولا لجورباتشوف، والأهم ولا لرايسا جورباتشوف، كل شيء تم على خير وغادر الضيف رفيع المستوى إلى وطنه.

بعد أسبوع ونصف زار ستافروبل زائر آخر "رفيع المستوى" – تولا زوج إيرينا ابنة جورباتشوف، وهناك حكى له جيرانه ومعارفه وأقاربه ما حدث أثناء زيارة المستشار الألماني الغربي ، حيث كان الكثير من جنود الجيش في الشوارع، ومنعوا الشباب من الوقوف في الصفوف الأولى على الطريق، وعرضوا المحاربين القدماء ومعاقي الحرب الذين كان أقل ما يقال عنهم بأنهم ظهروا بشكل غير محترم. عندما عاد أناتولي إلى موسكو حكى ما سمعه في المنزل. احتجت رايسا، وقام جورباتشوف بتوبيخ الحراسة: كم

مرة قلت يجب ألا يكون الجنود ظاهرين.... وأنتم لا تريدون التفكير، ماذا سيقول الناس عنى. بالنسبة له الأهم المظهر وليس الواقع.

من المذنب في أن محاربينا القدماء: المنتصرين، أكرم ناس في البلاد. يظهرون بهذا الشكل الحقير، هل من غير المريح أن نظهرهم لقائد البلد المهزومة منهم؟

لكي لا نظهر الحراسة في الشوارع، اضطررنا لتشكيل قوة عمليات إضافية، كنا نخفيها في سيارات كبيرة، وتتبعنا في موكب.

أكثر ما كان يسبب لنا المتاعب هو رغبة جورباتشوف المفاجئة في الخروج من السيارة إلى "الناس". وضعت كلمة الناس بين قوسين لأنه كما قلت سابقاً هذا الخروج لم يأت بجديد لا له ولا للناس. نعم ربما زاد من شعبيته، لكن كان هذا في البداية فقط. وكما قلت من قبل طلب الخروج للناس غالباً ما كان يأتي بمبادرة من رايسا جورباتشوف، عندما كانت ترى تجمع للناس كانت تطلب من السائق التوقف وجورباتشوف يفتح باب السيارة ويخرج إليهم.

في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى أن الحراسة أكثر عدداً، فإن كل شيء منظم بصرامة، معروف مسبقاً أين سيتوقف الرئيس، وبمجرد أن تبدأ فرملة السيارة يهرع الحراس. عندنا جورباتشوف كان يستطيع الخروج في أي مكان يأتي على هوى رايسا جورباتشوف وكانت تقول له: "ميخائيل سرجيفتش يجب أن تخرج للناس". موكب السيارات كان يسير بسرعة، وكان يحيط بنا جمهرة من الناس، ويقيمون حاجزاً عن قوة العمليات الإضافية التي تسير خلفنا، سيارة العمليات في هذه الحالة تصبح في الخلف وتأتى إلينا عبر الكتلة البشرية مستخدمة السارينة، وتنشأ بلبلة. أحياناً كانت مجموعة العمليات تترك السيارات، وبالكاد بمجرد وصولهم إلينا تتحرك سياراتنا فيعودون أدراجهم جرياً إيابا لسياراتهم.

أول زيارة للسكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي لمدينة لينينجراد أجبرتنا على البحث عن حلول لتقوية الحراسة لم نفكر فيها من قبل. حينها في بداية توليه السلطة كانوا يقابلون جورباتشوف باهتمام، وابتهاج، كانوا ينتظرون كل كلمة يقولها. في ميدان النصر كعادته توقف للحديث مع الناس، إذا بكتلة ضخمة من الناس كادت أن تمسحنا من على وجه الأرض نحن والسيارات. هنا بدأت رايسا جورباتشوف الحديث مع الناس، فأخذت معها جزءا من قوة الحراسة القليلة أصلاً مما وضعنا في مأزق، وكنت قد قلت لجورباتشوف أكثر من مرة بأن خروجه المفاجئ من السيارة سيؤدى إلى خطورة غير محمودة العواقب. فقال: أنا أمارس عملي وأنتم مارسوا عملكم، هذا بالنسبة لكم مدرسة جيدة للتعلم.

حاولت الجلوس معه ومع مدير إدارة الحراسة، وكان الجواب حاداً: ما هذه الحراسة التي ستعلم السكرتير العام؟ لن يحدث هذا، لن يصير.

نفس الشيء حدث خارج البلاد. قبل زيارة مزمعة لليابان، أرسل لنا سفير اليابان اثنين من ممثلي الحراسة اليابانيين. طلبا منا بشكل حاسم، أن نرجو جورباتشوف ألا

يخرج من السيارة إلا في الأماكن المتفق عليها سلفاً، وكانا مندهشين جداً من أننا لا نستطيع التأثير على جورباتشوف. اليابانيون المنظمون لم يستطيعوا أن يصدقوا أننا لا نستطيع التأثير على رئيسنا الهوائي، حتى إذا كان الهدف أمنه الشخصي. الموقف أصبح معقداً بالنسبة لنا خاصة وأن اليابان تمنع إحضار الأسلحة إليها، وينطبق هذا على حراستنا فقد أبقينا أسلحتنا عند رجال الجمارك اليابانيين بالمطار وقال لنا زملاؤنا اليابانيون "الأمن نحن سنوفره بأنفسنا. كيف؟ هذه قضيتنا. وقضيتكم أن تقبلوا توصياتنا".

دائرة جهنمية، اليابانيون أصروا وقالوا: اذهبوا الآن وأبلغوا طلباتنا لجورباتشوف مباشرة، ونحن سننتظر الرد. نحن بالطبع لم نذهب، وحتى هذا الحوار لم نبلغ به جورباتشوف فيما بعد، فهو بلا فائدة. في نهاية الأمر اتفقنا على أننا سنتخذ إجراءاتنا لتقوية الحراسة. دار الحديث عن سيارة إضافية جيب روسي "رافيك" سترافق سيارة رجال العمليات " النيسان ". قبل اليابانيون هذا الاقتراح بعد إدخال تعديلات، وخرجوا من عندنا غير راضيين ولديهم خيبة أمل.

بعد ذلك، سار كل شيء بعدم النظام المعتاد، أثناء السير في الشارع رايسا جورباتشوف اقترحت الخروج من السيارة. اليابانيون في نفس اللحظة التفوا حولنا وأحاطونا بدائرة محكمة. بذلنا مجهوداً كبيراً لنشق طريق بين الجموع يستطيع من خلاله جورباتشوف وزوجته أن يتحركا في الشارع، مجموعة العمليات من القوة الإضافية للبوليس الياباني الذي كان يتحرك خلف الموكب هرع إلينا، ماسحا كل شيء في طريقه، هرع في البداية أفراد ثم موتوسيكلات وتلاهم سيارات. السفير الياباني الذي كان يرافقنا تعرض للدفع والاحتكاك، تارة إلى اليمين وأخرى لليسار مرة من جهة الحراسة وأخرى من جهة المواطنين المارين والذين جاءوا إلينا من الشوارع. السفير كان غاضباً جداً، فالحالة التي نشأت كانت سيئة فعلاً، من الناحية الأمنية أقل ما يقال عنها أنها فضيحة مشينة.

كثيراً ما كانت تحدث أشياء مشابهة. ففي باريس وفي ميدان الباستيل حيث الاحتفال بيوم الاستيلاء على السجن الرهيب، تبين أن بين المحتفلين مجموعة كبيرة من الصحفيين. لم يكن لدينا أي إمكانية للحركة، نشأت حالة من الممكن أن تؤدى لحادث، أصيب الكثيرون بكدمات ورضوض، الحراسة لم يكن لديها وقت للذوق والاعتذار. في هذه الفوضى، بدا جورباتشوف كما لو كان يتسلى ويلهو، كان يشعر بأنه صبي يلعب لعبة القط والفار. وبصعوبة شديدة تمكنت الحراسة من إيصال السيارة إليه، وبمجرد أن تحرك مائة متر، أمر مرة أخرى السائق بالتوقف. وفسر ذلك بأن قال : أنا قمت بخطوة، خدعت المراسلين.

بمجرد أن توقفنا لحق بنا الصحفيين وكتلة بشرية كبيرة، ومن جديد تلعب الحراسة مصارعة مع الصحفيين والجماهير.

كم مرة تفادينا حدوث كارثة، لأن الكتلة البشرية الضخمة كان من الممكن أن تمسح وتدهس الأطفال وكبار السن والنساء. جورباتشوف كان يخاطر بهم أكثر من نفسه (فهو كان يعلق آماله علينا، كما يعلق آماله على ربه – المؤلف).

أثناء زيارة للولايات المتحدة، وفي أحد الشوارع قام حارس أمريكي بتغطية جورباتشوف بجسده، الناس كانت تحاول الوصول إلى جورباتشوف من جميع الاتجاهات، وكان الرد من الحارس الأمريكي ضربة حادة بيده، ثم قام الحارس بحركة استدارة لجورباتشوف ودفعه إلى داخل السيارة، وعندما عدنا إلى مقر الإقامة أشار إلى نفسه فقد كان يتصبب عرقاً ومبتلا تماماً، ومن خلال المترجم قال: هذه ألعاب عبثية! وقد وجد كلمة صحيحة " ألعاب". أنا وصفتها بلعبة القط والفار، لكن حتى هذه لعبة سياسية. يعجب المواطنون العاديون في كثير من الدول بمثل هذه التلقائية، حيث تكتب عنهم بعد ذلك الصحف والمجلات في كل العالم. نعم، هذا يعجب الكثير من رؤساء الدول. عندما كان جورباتشوف يلتقي بوش، كان لابد أن يضع الرئيس الأمريكي في الصورة: أنا بالأمس تعرفت على المدينة والناس. فيرد بوش: نعم سمعت أنكم تجولتم، معربا عن رضائه.

نعم، هذه أيضاً سياسة كان لها تأثيرها.

كل زيارة خارجية كانت تتطلب منا إعدادا ضخما. كما في السابق كنا نرسل مسبقاً مجموعة ليست كبيرة من أقسام البروتوكول في الرئاسة والخارجية، قبل الزيارة بأسبوعين أو ثلاثة، يكون في تكوينها حراس وذلك لإعداد مكان الإقامة، وقبل السفر بساعتين أو ثلاثة يتم إرسال طائرة بالأغذية مع مرافقين وحراسة أخرى. وبشكل منفصل كنا نرسل السيارة الرئيسية لجورباتشوف وسيارة للحماية.

رحلة الرئيس للخارج كانت تتطلب أربعة وأحيانا خمس طائرات، بما فيها الطائرة "روسلان" الجبارة. لو قسنا هذا بالمقاييس الغربية، لا يعتبر كثيراً. عند القادة الغربيين الحراسة المرافقة فقط مائة وخمسون فرداً، أما عندنا فعددهم حوالي ثلاثين.

في فترة جورباتشوف أضيفت خدمة جديدة للحقيبة السرية (ما يعرف بالحقيبة النووية – المترجم) وهم رجال عمليات اتصال، كانوا يسافرون معه ومع الحراسة. في فوروس في بيت الضيوف كانوا يقومون بالخدمة على مدار الأربع وعشرين ساعة. ستة من رجال الاتصالات، لم يتغيروا، كان يقودهم عقيد متوسط العمر، وكلهم كانوا يتبعون لي مباشرة.

على ما أذكر استخدم جورباتشوف هذه الحقيبة مرة واحدة. في نيويورك وعلى رصيف بحري حيث كان يستعد لركوب عبارة لكي يتوجه إلى إحدى الجزر حيث توجد قاعدة بحرية أمريكية. ضابط الاتصالات من خلال بليخانوف نادي على جورباتشوف وانتحى به، وتحدث جورباتشوف "عبر الحقيبة"، على الجانب الآخر كان ريجكوف رئيس الوزراء. بعد أن عاد قال لنا: زلزال! هذا كان الزلزال المعروف والقوى في سبيتاك بأرمينيا. اختصر جورباتشوف حينها زيارته للولايات المتحدة ليومين.

كان هناك اتفاق مسبق ليس فقط على برنامج زيارة زعيم البلاد، ولكن على ما كنا نطلق عليه " البرنامج النسائي " أيضاً، فقد كنا نبذل فيه الكثير الجهد والأعصاب. رايسا جورباتشوف كانت دائماً غير راضية عن شيء ما: في السيارة أجلسوا معها أناسا

كثيرين، وكانت محشورة بينهم، أو عينوا لها مترجما امرأة، وهي كانت تريد أن يكون المترجم رجلا شاباً.

الزيارة الأعقد والأكثر أهمية كان من الممكن أن تكون ناجحة، لكن بسبب هوائيتها كانت تنتهي بالنسبة لي ولبليخانوف باللوم. هوائية أو غير هوائية في كل الأحوال كل ما كان يقال كان له علاقة بمهامنا المباشرة، لكن الأسوأ كانت مصاعب من نوع آخر.

أمور الحراسة والشخصيات التي يخدمونها بالنسبة لأعضاء المكتب السياسي كانت تدل على المكانة. وليس من قبيل الصدفة أن رايسا جورباتشوف تحدثت عن هذا قبل ستة أشهر من اعتلاء زوجها لمنصب الرجل الأول في الدولة. أذكر بمجرد أن اختير تيخونوف كمرشح لعضوية المكتب السياسي ، جاء إلينا أنا وريابينكو في الاستراحة أثناء اجتماع عام وبدأ يسأل بإلحاح وبالتفاصيل عن المميزات والاستثناءات التي تحق له، أية حراسة ستكون معه، عدد الطباخين أي سيارات الخ.....

اختيار أفراد الخدمة، أحد المهام الجديدة غير المحببة، والتي هبطت فوق رأسي منذ أن بدأت الخدمة مع جورباتشوف. الحاشية عنده مقارنة بمنصبه السابق كسكرتير للجنة المركزية زادت بشكل ملحوظ: زاد عدد الخدم، تم تشكيل كومندانية منفصلة لحراسة البيت الريفي.

أفراد الخدمة: ثلاثة طباخين، ثلاثة سفرجية، ثلاث عاملات نظافة، كنا نختارهم أنا والكومندان ثم نحولهم إلى رايسا جورباتشوف، تتفحص المرشحات، وتجلس معهم بذوق وأدب، ثم تتصل بي: فلاديمير تيموفيفيتش، هيا نجرب نأخذهم، الانطباع الأول طيب. أو تقول: يوجد شيء لا يعجبني، لننتظر، ابحثوا عن آخرين.

الاختيار لم يكن عملية بسيطة، نبحث خاصة عن طباخين رجال، لكي تكون النميمة أقل. رايسا جورباتشوف تطلب: لابد من نساء.، نختار، هذه غير مناسبة: سمينة أكثر من اللازم. لم تكن تحب السمان.

لكن الصعوبة الأساسية لم تكن في هذا فقط، وإنما في أن الناس لم تكن ترغب في العمل معنا، فقد سمعوا عن شخصية " صاحبة المكان". للحق أقول رايسا جورباتشوف كانت محقة تماماً في طلباتها، لكن مع عدم الانجذاب الأولي والفكرة المسبقة عنها كان من الصعب علينا خلق أجواء نوايا حسنة لدى العاملين. عمل عاملات النظافة صعب وعصبي، وفي وقت الفراغ بعد تنظيف البيت الريفي بدلاً من أن يستريحوا كانوا يقومون بتنظيف شقق الأبناء، الذين لم يتعودوا تنظيف مكانهم. الطباخين كان يمكنهم بنفس الراتب أن يجدوا عملا أكثر حرية، فلو عملوا في مطعم كانوا سيحصلون على راتب أكبر، وسيأخذون معهم ما يستطيعون حمله في المساء. كل هؤلاء الناس "بكتافات" أي أنهم يعملون في الكي جي بي، البعض منهم طلب مني السماح له بالخروج "بالحسنى"، آخرون كانوا على استعداد لتقديم استقالاتهم من الكي جي بي.

هذه الأحاديث لم تصل إلى مسامع رايسا جورباتشوف، فهي كانت تعتقد وكانت تردد بعناد أن العمل عند السكرتير العام شرف كبير، فهؤلاء الناس حصلوا على الثقة والتشريف ويجب أن يكونوا ممتنين.

للأسف، أنا أيضاً جالت بخاطري هذه الأفكار الحزينة. اضطرني إلى هذا ما يشبه ما حكيت عنه من قبل، عندما مرضت إحدى عاملات النظافة، وكانت رايسا جورباتشوف تكرره بانتظام، ولماذا كانت تعتقد رايسا جورباتشوف أن العمال الجيدين ليس لهم الحق أن يمرضوا: لماذا نقبل عندنا العاملين الذين يمرضون؟ كانت رايسا تتساءل، وكنت أقول لها: إنهم بشر أحياء. محاولاً أن أشرح لها. وكانت ترد: لا داعي يا فلاديمير تيموفيفيتش، أنا غير معنية برأيك. كنت أسكت، لكن ذات مرة قلت لها: إن هؤلاء الناس اخترناهم معاً. فردت: كل من اخترته أنا يعمل جيداً، والذين اخترتهم أنت يعملون بشكل سيء.

المشاكل أحياناً كانت تتعلق ببعض الأمور الصغيرة التافهة، لدرجة أني قلت لها ذات مرة: عندنا كومندان. أنا عندي مهام أخرى، فردت علي بصوت حاسم: كل هذا من مهامكم. والأسوأ والمذل أنها كانت لديها شهوة توبيخ الناس في وجود زوجها. كانت تقول الآن سيخرج ميخائيل سرجييفيتش وسنتحدث، تجعلني انتظر بجوارها وتصمت. يخرج جورباتشوف فتقول له: ميخائيل سرجييفتش، أنت تريد الحديث إلى فلاديمير تيموفييفيتش، فيتملص من الحديث مشيحا بيده دون اهتمام قائلاً: أيوه خلاص. تملص مرة والثانية، ثم تبدأ "تحرضه"، فيبدأ في الحديث بصوت عال، ثم يفلت الزمام من يده ويبدأ في الصياح.

هذا ما حدث أثناء الاستجمام في القرم، عندما سمحت لامرأتين من العاملات بالذهاب إلى يالطا، كان عندهم يوم أجازة وطلبوا مني أن أسمح لهما بالذهاب إلى أحد المحلات لشراء كراسات المدارس لأطفالهما. في ذلك الوقت كان من الصعب الحصول عليها من موسكو. احتاجت رايسا جورباتشوف لإحداهن في أمور شخصية، وبمجرد أن عرفت بأنني سمحت لهما بالذهاب للمحل وللاثنتين معاً، وبخت عاملتي الخدمة بعنف، وكما هي العادة استدعتني إلى مدخل الفيلا وانتظرنا جورباتشوف في صمت، وبمجرد أن ظهر قالت : ميخائيل سرجييفتش – كما كانت تناديه دائماً– كان واضحاً أنه لا يريد في هذه اللحظة الاشتراك في الحديث، فالوقت بعد الغداء وهو للهدوء والراحة، لكنها استوقفته. سألني بهدوء لماذا سمحت للعاملتين بمغادرة أرض الفيلا، شرحت له: ذهبتا لشراء كراريس المدارس لأطفالهن، كما أن العاملتين في فترة الراحة، وقد غابتا عن المكان لمدة ساعة واحدة فقط. بدأ يغضب وقال: هؤلاء الناس أعطوا لي، وبدون طلب مني لا يجب أن تسمح لهم بالخروج. فقلت له: ميخائيل سرجييفتش، كنت أعتقد أنه ليس من الأهمية بمكان أن أزعجكم لسبب صغير مثل هذا، ثم أن لدي حقوقا وظيفية استخدمتها، بالإضافة إلى أنني اعتقدت بأنه إذا لم أسمح لهن سيبلغنكم بهذا، وأنتم سوف توبخونني لأنني لا أهتم بالناس التابعين لي مباشرة.

كنت أجيبه بصراحة، لكن من الممكن أن يكون إيحائي بكلمة العناية بالعاملين فهمها ميخائيل سرجييفتش على أنها على حسابه الشخصي أو من الممكن أن يكون لسبب آخر. فقد استشاط، وبدأ يصيح في: ماذا تعني؟ العناية بالناس أمر لا يخصني؟ الدولة تعتني بالناس، ما يعنيني أن أطلب خدمة، وعدم التصرف الفردي!... عندما وصل الغضب لقمته أخذته زوجته من يده قائلة له: كفي يا ميخائيل سرجييفتش! أعتقد أن فلاديمير تيموفييفتش

قد أخذ الدرس المطلوب من هذا الحديث. وبشكل احتفالي أدارت ظهرها إلي لتعطى إشارة بأن الحديث انتهى، وأنهما ذاهبان.

مكثت لفترة طويلة لا أستطيع الهدوء. لم أفهم أشياء بسيطة، كيف لشخص أن يصبح في شخص آخر مهما كان، كيف يستطيع إنسان يفترض أنه مشغول بقضايا دولة، أن يحاسب على أمور تافهة كهذه، هو لا يجب أن يعرف عنها شيء، لماذا تتصرف زوجته هكذا وهي ربة منزل، وهكذا ......

مثل هذه الأشياء أصبحت عادية كل يوم، أحدهم قام بكي القميص ليس كما يجب: توبيخ. عندما يقول لي نوبتجي الاستقبال: "رايسا جورباتشوف طلبت أن تتصل بها" كنت أتحول إلى عصبي جداً.

أفراد الخدمة كانوا مضطرين لاسترضاء ليس فقط صاحبة المكان ولكن ابنتها وأحفادها. عندما هددت إحدى عاملات النظافة الحفيدة الكبرى لجورباتشوف بأنها ستعاقبها، طردوها من العمل مباشرة. حضرت إلى العاملة ودموعها تنهمر، وعقدت اجتماعا، هدأت من روع النساء العاملات، ورجوتهن البقاء، وأحيانا كنت أصدهن عندما يتكلمن عن أسرة جورباتشوف بعبارات حادة، أحياناً كنت أوجههن إلى قيادة الإدارة في الكي جي بي للنصيحة والمساعدة. من حيث المبدأ ماذا أستطيع أن أفعل، إذا كنت أنا نفسي في نفس موقفهن وهن رأين هذا بأنفسهن.

عرفت أن حديثاً دار بين الزوجين جورباتشوف حول الاستغناء عنى، وكما هي العادة: الاقتراح تقدمت به رايسا جورباتشوف. فقال جورباتشوف: يجب أن تعرفي، ليس هناك فرق، سيأتي آخرون مثلهم.

جورباتشوف نفسه كان نادراً ما يغضب بسبب الأمور المنزلية، رغم أن هذا حدث أحياناً على غير انتظار. في أول شهر من عملي معه، كان يستعد للقاء وفد في الكرملين بعد الغداء وقال لي: فولوديا، أنا الآن سأغير ملابسي، اعطهم البدلة للكي . الوقت يداهمنا، أحد العاملين في الخدمة أحضر الغداء لجورباتشوف وعاد للبوفيه. قمت من غرفة راحة جورباتشوف، واستدعيت السفرجي بصوت عال وباسمه وأبلغته بأن يكوي البدلة، هز رأسه وخرج، عندما عدت إلى جورباتشوف وجدته في قمة الغضب قائلاً: لماذا تصيح كما لو كنت في ثكنة عسكرية؟ فقلت له أنا آسف إذا كنت قد فعلت شيئا ليس كما يجب، لكن الوقت أمامنا قليل. فقال: سنلحق –واستدار– لا داعي للتعجل. ونصحني: لا تتباسط هكذا فيما بعد .

كان يقصد أنه يجب المحافظة على المسافة في العلاقات. وأن أعرف وأتذكر دائماً مع من أعمل. ورغم هذه الهنّات فإنني كنت على استعداد لتحمل المتاعب الشخصية، لأنني مثل كل الناس كنت أنتظر تغييرات ما هامة في البلاد، وأن شيئا هاما يجب أن يحدث للجميع في أقرب وقت.

توجه جورباتشوف ذات مرة إلى طشقند (عاصمة أوزبكستان إحدى دول الاتحاد السوفييتي وهى متاخمة للحدود مع أفغانستان – المترجم) حيث كان يجب أن يلتقي نجيب

الله رئيس أفغانستان (رئيس أفغانستان الذي تخلى عنه جورباتشوف بعد سحب قواته من أفغانستان وتركه فريسة لحركة طالبان التي أعدمته في ميدان عام- المترجم) بعد الوصول إلى مقر الإقامة قررت رايسا جورباتشوف أن تغير البدلة. استدعتني للممر وسألتني: أشياءنا لم تصل بعد؟ فقلت لها: لا، إنها في الطريق. خلال عدد محدود من الدقائق استدعتني مرتين. أخيراً وصلت الأشياء الخاصة بهم بعد حوالي ٢٥-٣٠ دقيقة. تبين أن رجال المرور ببساطة أوقفوا السيارة وبها الحقائب على جانب الطريق، ولم يدركوا أن السيارة تابعة لموكبنا، عندما وصلت الحقائب، استدعاني جورباتشوف وزوجته هذه المرة معاً، وكان من الواضح أنها عبأته من ناحيتي لدرجة أنه لم يستطع أن يسيطر على نفسه وقال: لماذا تأخروا في إحضار الحقائب؟ فقلت له: أوقف رجال الشرطة السيارة. فقال: بأية لعنة تعمل أنت هنا؟ فقلت له: إني أمارس مهام عملي. فقال: أنا لا أحتاجك هنا، كان يجب أن تحضر الحقائب! وبدأ يصيح حتى وصل صوته لآخر الممر وللدرجة التي شعرت ساعتها أنه على استعداد لأن يضربني. عندما فقد السيطرة على نفسه اكتسى وجهه بألوان. ثم قال: سنعود إلى موسكو وسأطردك! فقلت له: وأنا مستعد.

لو تحدثنا بموضوعية: الملابس كانت بالنسبة لها ضرورية لترتديها على مأدبة الغداء مع نجيب الله. لكن نجيب الله كان يقيم في مقر مجاور، وكان من الممكن تأخير اللقاء معه لبعض الوقت، فنحن على أية حال قادمون من سفر. وكان من الممكن أن تذهب للغداء في الفستان الذي أتت به، فالمقابلة ليست مناسبة عظيمة.

بعد العودة لموسكو لم يعد جورباتشوف للحديث في هذا الموضوع، هدأ، هو بالطبع كان يفهم جيداً مهام الحراسة، ومهامي الشخصية. وكان يعرف أن خدمتنا على أعلى مستوى من الاحترافية. لكن تهديداته المتعجرفة " سأطردك من العمل!" قيلت كثيراً " سأطرده من العمل " بما في ذلك لأشخاص على مستوى عال. أذكر، بعد مشاهدة فيلم، سار مع الممثل يرماش الذي لعب دور وزير في الفيلم، وقال له بصوت عال: مثل هذه القيادات يجب طردها من العمل!..

ذات مرة بعد هبة غضب منه، لم أتماسك وطلبت منه: ميخائيل سرجييفتش، إذا كنت غير مناسب لكم أقيلوني، فقال: هذا أمر لا يخصك، عندما تكون هناك ضرورة حينها سنقيلك.

متاعب من نوع خاص كانت تسببها لنا علاقة رايسا جورباتشوف بالمراسلين التليفزيونيين والفوتوغرافيين، فقد كانت تطلب الشرائط المسجلة للرحلات الخارجية لمشاهدتها بعد عودتها،كانت تطلب كل المواد التليفزيونية التي أرسلت على عجل لبرنامج الأخبار الرئيسي " فريميا" لكي تشاهدها بنفسها. تصويرها كان عملية صعبة، فهي سواء في الاستقبالات أو الوداع، أو حفلات الاستقبال كانت تقف بجوار جورباتشوف هادئة، لكن بمجرد رؤيتها للكاميرا متجهة ناحيتها، تبدأ في إظهار النشاط، توجه هذا إلى شيء ما، وترفع الشمسية وما شابه ذلك من الحركات. لم تكن تتكلم عن نفسها بصورة مباشرة، ولكنها توجه ملحوظاتها لي ولبليخانوف فتقول لجورباتشوف: ميخائيل سرجييفتش إنهم

غير موفقين في التصوير، من الخلف ومن زاوية غير مناسبة، لماذا لا تلفت نظرهم لاختيار المراسلين؟ انظر كيف يصور المراسلون الأجانب، انظر! هل معقول أن مراسلينا لا يستطيعون أن يفعلوا مثلهم؟ تحدث الحراس لبعضهم البعض: "نحن حراسة ما علاقتنا بالموضوع ". حدث أننا غيرنا مراسلي تاس المصورين بأي بي إن، وكان يقوم بهذا بليخانوف أحياناً.

بين بليخانوف وفيتالي إجناتينكو الذي كان يرأس المركز الصحفي للرئيس تعقدت العلاقات. وقتها دعى فيتالى للحديث مع جورباتشوف ويفجينى بريماكوف. لا شك أن جورباتشوف كان معجبا بإجناتينكو، حيث تناولوا طعام العشاء لمدة ساعتين، وخرج ثلاثتهم وعليهم مظاهر السرور. إجناتينكو كان يحكى شيئا ما ليدهش الجميع، وقضيا ليلة واحدة ثم غادرا، لا أنكر ربما كانوا يستجمون حينها في مصحة قريبة، " يوجنى ". بعد هذا اللقاء ترأس إجناتينكو المركز الصحفي للرئيس. أنا أعتقد أن بليخانوف الذي كان يسعى للتقرب من الرئيس أكثر كان ببساطة يشعر بالغيرة تجاه فيتالي، ولم يكن راضياً عن أن إجناتينكو يتقرب بالتملق لجورباتشوف، لدرجة أنه يكاد يمسك بيده، ويهمس له في أذنه أثناء رياضة المشي. وهنا حدث اختلاف في الرأي، كيف كان يسمح للصحفيين بدخول هذا المقابلة أو تلك؟ على سبيل الفرض إذا رفض إجناتينكو أن يضم أحد الصحفيين للقائمة التي ستحضر مقابلة مع الرئيس، فإن الصحفي كان يذهب إلى بليخانوف، وكان يسمح له. بالطبع هذا ليس عمل الحراسة أن تأمر الصحفيين.

السعي الحثيث لرايسا جورباتشوف لأن تلفت الأنظار إليها كان يضع رئيس الدولة في مواقف حرجة. أنا أتذكر زيارة لأسبانيا عام ١٩٩٠ كلنا كنا مبهورين بأسرة الملك خوان كارلوس الثاني. فهي فعلاً أسرة ملكية! الملك طويل القامة رشيق، رجل جميل يتمتع بعادات عظيمة راقية. زوجته صوفيا كذلك جميلة، مظهرها الخارجي متوافق، كانت توزع اهتمامها على جميع الضيوف، وخاصة رايسا جورباتشوف. أبناء الملك كذلك طوال القامة يتمتعون بالرشاقة والجمال. في القصر الملكي تمت إقامة حفل استقبال. جورباتشوف والملك جلسا في إحدى نهايات القاعة، ورايسا جورباتشوف والملكة في النهاية الأخرى. فجأة أدارت رايسا جورباتشوف ظهرها للملكة، وبدأت حديثا جانبيا مع إحدى سيدات سفارتنا في مدريد. ارتبكت الملكة وحاولت أن تقترب من رايسا جورباتشوف تارة من اليمين وتارة من اليسار، لكن رايسا جورباتشوف بمهارة شديدة كانت تعطيها ظهرها. بدأ هذا الموقف يثير اهتمام مدعوين آخرين، الملكة بقيت بمفردها، وكان من الواضح أنها محرجة من أن تتجاذب أطراف الحديث مع الرجال الذين كانوا في جلسات عمل، فاستدارت بشكل حاد وخرجت لمجموعة أخرى مدعوة.

وجرت العادة في أسبانيا أن يغادر أصحاب المكان والزوار المهمين قاعة حفل الاستقبال أولاً، وبعد ذلك باقي المدعوون. انتهى حفل الاستقبال فتحرك جورباتشوف بصاحبه الملك للخروج. تأخرت رايسا جورباتشوف، كانت تتحدث مع شخص ما، أعتقد أنها - كما بدا لي- تأخرت خصيصاً لكي تؤكد على أهمية شخصها الذي ينتظره الجميع.

توقف الملك والملكة وجورباتشوف على السلم، ورايسا جورباتشوف لم تعرهم أي اهتمام واستمرت في جلستها وحديثها. هذا التوقف المحرج استمر لعدة دقائق، وكان جورباتشوف بالكاد يسيطر على نفسه، ولكنه بابتسامة قال لها: رايسا مكسيموفنا هيا انضمي إلينا. لكنها استمرت في جلستها، مرت دقيقة، فكرر جورباتشوف بصوت عال وحاد: رايسا مكسيموفنا نحن ننتظركم!.

عندما شعرت بالحسم في صوت زوجها تحركت إلينا، هذا بالطبع كان عرضا، قامت فيه بدورها على أكمل وجه. حدث مثلاً نفس الشيء أثناء مقابلتها للسيدة كول زوجة المستشار الألماني، والسيدة نانسي ريجان، فكان جورباتشوف يلجأ في حديثه مع زوجته إلى الهمس الغاضب.

لقد سافرنا إلى أسبانيا عندما بدأت أحداث بريدنستروفيه (مقاطعة في مولدافيا تطالب بالاستقلال). كانت الناس تقتل. قبل هذا عندما فجعت الجميع الأحداث في وادي فرجان (وادي تتنازع السيادة عليه كل من أوزبكستان وطاجيكستان ـ المترجم) كان السكرتير العام في بون، وعندما نضجت أحداث تبليسي كان جورباتشوف في انجلترا... ثم اتضح فيما بعد أنه لم يعرف ولم يشاهد.

أعتقد أن رئيس الوزراء السوفييتي نيكولاي ريجكوف كان دقيقاً عندما قال معلقاً على أحداث تبليسي (عاصمة جورجيا – المترجم): أنا أعرف الجنرال روديونوف (قائد المنطقة العسكرية): عملي وهادئ ودقيق، بدون أوامر وزير الدفاع لما سمح في هذه الليلة حتى لدراجة أن تصل إلى الميدان، وليس دبابة. من ناحية أخرى دميتري يازوف بدون مباركة السكرتير العام، الذي يتبعه مباشرة، ما كان أعطى أمرا بإنزال القوات إلى ليل تبليسي. "لماذا صمت السكرتير العام طول الوقت والناس تنتظر ردا من الرئاسة، والنواب حققوا وبحثوا ولم يتوصلوا لمن أطلق النار؟ سؤال ريجكوف ظل معلقاً في الهواء.

أذكر عندما كان جورباتشوف ذات مرة جالساً في السيارة قال: كيف لم يتصل بي باتياشفيلي (أحد الزعماء الجورجيين– المترجم)؟ كان يتصل في كلام فارغ وهذه المرة...، قالها جورباتشوف بنبرة تنم عن الإحساس بالإهانة وقال: هاهم خذلوه... اضطروه أن يعطى "موافقة"...

كان يعرف كل شيء، وعن أحداث مبنى التليفزيون في فيلنوس، وقدم العزاء في المواطنين الليتوانيين القتلى في اليوم العاشر بعد مصرعهم... ما هذا الرئيس: حوله بحر من الدماء، وهو كما لو كان في جزيرة منعزلة لا يعرف شيئا؟

"ألاّ تعرف" أفيد وأريح. لكن الراحة والفائدة دائماً مؤقتة للسياسي، ذلك أن الأسرار طال الأمد أو قصر لابد أن تتكشف . قليل من يعرفون الآن الأسباب التي أدت لأحداث كاراباخ، التي لم تهدأ حتى الآن. في عام ١٩٨٧ أرسل أرمن كاراباخ (منطقة في أذربيجان أستقلت بأغلبيتها الأرمينية) خطاب موقع من ٧٥ ألف مواطن إلى جورباتشوف، يطلبون فيه ضم كاراباخ لأرمينيا. جورباتشوف لم يرد حتى على الخطاب. مهما كانت

رؤيتكم لهذا الطلب، فإن الرد كان ضرورياً، لكن بالنسبة لجورباتشوف عدم الرد كان أكثر فائدة.

عندما تلعب الأجهزة لعبتها، هل من الممكن المحافظة على الشرف؟ هل من الممكن لمن تجاوز الشرف في القضايا الاتحادية أن يحافظ عليه في العلاقات الدولية؟ وبماذا نسمي إذا تشيرنوبل، وهبوط روستا (طيار ألماني هاو استطاع تخطى كل الدفاعات السوفيتية المضادة للطائرات وهبط بطائرته الصغيرة في الميدان الأحمر في قلب العاصمة الروسية- المترجم)، إسقاط الطائرة الكورية (طائرة ركاب كورية أخطأت ودخلت الأجواء الروسية فقامت المقاتلات الروسية بإسقاطها – المترجم) معاهدة مولوتوف – ريبينتروب، إطلاق النار في كاتين (تم إعدام ضباط بولنديين بأيدي القوات السوفيتية أثناء الحرب العالمية الثانية ودفنوا في مقبرة جماعية بالقرب من كاتين ولم يعترف الاتحاد السوفييتي – المترجم) أليس هذا كذبا في العلاقات الدولية؟ كما قال ياروزيلسكي رئيس بولندا: كل الشعب البولندي طلب قول الحقيقة عن كاتين، الاستمرار في الكذب أصبح غير ممكن. وجد جورباتشوف حلا بأقل التكاليف بالنسبة لنا: المذنب بيريا (وزير الداخلية أثناء حكم ستالين- المترجم) تحايل. أبعد التهمة عن كل من ستالين وفوروشيلوف، ومولوتوف، وميكيان، وكالينين، كاجانوفيتش، في حين أنهم هم الذين اتخذوا قرار إعدام البولنديين، لأنه لو ذكرهم لكان هذا يعنى إدانة للسلطة السوفييتية.

كشفه شعبه بسرعة كبيرة إلى حد ما، لكن كيف استطاع الحفاظ على سمعته الدولية؟ هذا بالنسبة لي أحد الألغاز حتى الآن.

على العموم، على الساحة الدولية أيضاً لم تكن الأمور تسير بالسهولة المطلوبة.

كل العالم يذكر قرار منح الزعيم السوفييتي جائزة نوبل للسلام، في الوقت الذي كانت فيه أراضي الاتحاد السوفييتي ترزح تحت طاحونة الحروب القومية، وكانت الدماء تراق في جمهوريات كثيرة. في الاحتفال الذي أقيم في السويد بمناسبة منح الجائزة الرفيعة لجورباتشوف، ألقى خطابا. القاعة كانت مكتظة، لحظة قمة في الاحتفالية. كنت أجلس ضمن المدعوين على المنصة، ووجهي إلى القاعة. فجأة رأيت وقوف سيدة من أحد الصفوف وكانت تحمل في يدها باقة ورد، وتحركت عبر القاعة متجهة إلى المنصة، لم يوقفها أحد من رجال الحراسة السويديين، واستمرت تخطو بخطوات نشطة إلى أن وصلت إلى الصف الأول من القاعة، هنا فقط أوقفها أحد رجال الحراسة التابعين لنا وسألها إلى أين ولماذا؟! فقالت إنها تريد أن تقدم باقة ورد لجورباتشوف، قال لها حارسنا إن هذا غير ممكن الآن، جورباتشوف يلقى كلمته ويجب الانتظار، عندما فهمت المرأة أنها لن تستطيع الوصول إلى المنصة، بدأت فجأة في الصياح بصوت عال سبت خلاله جورباتشوف وصبت عليه اللعنات، في نهاية القاعة من الناحية الأخرى دعمها صوت رجالي. صمت جورباتشوف، حدثت ضوضاء وهرج في القاعة، عندها فقط تدخلت الحراسة السويدية وأخرجوا الرجل والمرأة من القاعة.

تبين أن الرجل والمرأة زوج وزوجة من أفغانستان، وأن هذا العمل كان مخططاً له من قبل، ماذا كان من الممكن أن يحدث بشكل محدد؟ أعتقد أنه في أحسن الأحوال كان ستلقى باقة الورد في وجه جورباتشوف. ماذا كان يمكن أن يكون في باقة الورد؟ غير معروف.

محاربة الامتيازات

فيلا القرم

بقدر ما تسعفني الذاكرة، كل زعماء الدولة كانوا يكافحون الامتيازات. بريجنيف فقط هو الذي لم يكافحها.

قبله كان خروشوف يكافح الامتيازات، ومن بعده جورباتشوف، لكن لماذا لم ينجح لا هذا ولا ذاك في تحقيق هذه الغاية النبيلة؟ لأنهم كانوا يحاربون نتائج الامتيازات وليس الأسباب. والسبب الأول في المنظومة التي أسموها لا أدرى لماذا: اشتراكية. إذا كانت هذه اشتراكية، فإنهم شوهوها وقبحوها إلى درجة عدم معرفتها، ولو كانت مكافحة الامتيازات حقيقية لكنا قد عشنا بشكل آخر تماماً. أعتقد أنه لا داعي لأن يحمل الاشتراكية أناس كفروا بها، فنحن لم نعش في الاشتراكية ولا نعرف ماذا تعني. السبب الثاني: أنه في كل قضية نبيلة يجب أن تبدأ بنفسك. أنا لا أتذكر أنه في وقت القرارات المجيدة للاجتماعات والمؤتمرات، والنداءات الملتهبة للحزب الخ.. أنه تم إرسال أبناء من دعا لهذه الإنجازات إلى الأرض البكر والبناء العظيم للشيوعية، إلى حرب أفغانستان، وكل عمل حربي فيه إنجاز. مكافحة الامتيازات تبدأ من هنا أيضاً.

لا أدرى إلى أي درجة كان خروشوف مخلصاً عندما بدأ يأخذ من الموظفين الكبار " الزيادة " من السيارات الخاصة، " وصادر" لصالح "الشعب "عدة فيلات مميزة ومصحات، في واقع الأمر هو ألغى هذه المصحات، وانهارت لأنها حرمت من الدعم المالي الحكومي، والقاعدة التقنية المادية، والأطباء المهرة ذهبوا إلى مؤسسات طبية أخرى أفضل. تبين أنه من السهل أن تقوم بعمل شعبي، لكن من الصعب في الواقع أن تحافظ على الاهتمام بصحة الشعب.

مع جورباتشوف كانت كل الأمور أوضح. في البداية أثبت أنه لا توجد امتيازات. يتذكر مشاهدو التليفزيون جلسته في كواليس قصر المؤتمرات، في فترة استراحة أثناء مؤتمر نواب الشعب: أية امتيازات عندنا؟ سأل في ذهول وحماس. وأجابه النواب المحيطين به في صوت واحد: لا توجد امتيازات. كذلك فعل العاملون في الجهاز الحزبي في المناطق. عملوا من أنفسهم جورباتشوف صغيرا، ودفعوا في اتجاه يتماشى مع عدم وجود امتيازات.

واستطرد جورباتشوف: المصحات والعيادات موجودة عند مؤسسات أخرى، على سبيل المثال مصنع ليخاتشوف (هو المصنع الروسي الشهير الذي ينتج السيارات الضخمة " زيل " — المترجم) عنده عيادة ممتازة، هل نعتبر هذا امتيازا؟ وافق الجميع بالإجماع على أن لديهم امتياز واحد وهو العمل أربع وعشرين ساعة في اليوم.

رد الفعل على هذه الاعترافات كان عظيماً بما يكفي، وفي أول موجة لمكافحة الاستثناءات طلب رئيس الوزراء نيكولاي ريجكوف عمل طلبات الغذاء لجهازه الإداري مثل مصنع ليخاتشوف: ليس هناك أحد أفضل من الآخر؟ في اليوم التالي تحسنت نوعية الطعام في المصنع. أعتقد أن خطوة رئيس الوزراء لم تكن مخلصة، وأكرر أنه تخلص من الأعراض دون علاج الأسباب.

مرة أخرى أقول: اتركوا الامتيازات كما هي، لكن قبل ذلك افعلوا أي شيء، حتى لو القليل لشعبكم، اجعلوا الحياة سهلة حتى لو قليلاً لشعب عانى كثيراً، وبعد ذلك اعملوا لأنفسكم.

يبدو لي أن الذي تغير هو شكل الامتيازات فقط وطريقة الحصول عليها، وما دون ذلك بقيت الطرق المباشرة للحصول عليها هي نفسها.

أنا أقصد حكاية شقة بريجنيف التي أحدثت ضجة، والتي تقع في شارع شوسيف، مسكن ضخم يشبه الحصن، أصبح أسطوريا ليس بمقاييس ذلك الزمان والتي ربما كانت طبيعية ولكن بالمقاييس الديموقراطية الحالية، حتى تم أخيراً تسكين هذه الشقة.

قد يبدو الأمر غريباً لكن بريجنيف لم يشيد لنفسه أي شيء ولا حتى متر مربع. في القرم في ليفادا كان يستجم في الفيلا التي بنيت لخروشوف في منتصف الخمسينيات. كانت مناسبة لخروشوف، لماذا إذا لا تناسب بريجنيف؟ بالطبع كانت الفيلا دون زيادات، فيها مكان للعمل وآخر للراحة وثالث لاستقبال الضيوف، والشيء الرئيسي الفخم: الطقس والطبيعة حيث زرعت بالأشجار الغنية بالأوراق. في زاريتشي- البيت الريفي الخاص ببريجنيف- تمت إعادة بنائه في نفس المكان داخل نفس السور، وكانوا قد بدأوا بناء بيت في القرم بالقرب من موخولاتكا، لكنهم لم ينتهوا منه وكان قد توفي ، إلا أنى غير واثق من أنه كان سيوافق على السكن في هذا المنزل إذا بقي على قيد الحياة، فهو لم يطلب أي شيء، وكان من الممكن أن يحدث ما حدث مع شقق موسكو.

ففي أواخر السبعينيات أرسلت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي إلى مجلس مدينة موسكو قراراً وصف بأنه " سرى "،يقضى ببناء مبنى سكني للقادة الحزبيين والحكوميين. المنطقة التي خصصت لبناء المنزل ذات طبيعة خلابة، وقريبة من نهر موسكو. وكما يتذكر رئيس مجلس مدينة موسكو السابق ف. بروميسلوف، مشروع المبنى أعد " بأمر خاص"، في الأسفل أماكن للحراسة والخدم، بعد ذلك كل شيء بمبدأ "الطابق شقتين"، من بين الذين سيسكنون هذا المبنى بريجنيف، بودجورني، جروميكو، بوليانسكي.... اسم بريجنيف دخل في الموضوع.

تم إحضار مواد بناء درجة أولى مستوردة (طوب وردى-المؤلف) وأحدث المعدات. إدارة موسكو للبناء أنجزت المبنى بسرعة شديدة، لكن الحياة حملت أحداثا سياسية متلاحقة، حيث أقيل بودجورني من منصبه كرئيس لمجلس السوفييت الأعلى،وتم تعيين بوليانسكي وزيراً للزراعة، ثم أرسل سفيراً لدى اليابان. انهارت قائمة سكان المبنى الجديد، لكن ليس هذا هو المهم، المهم أنهم أصبحوا يبحثون عن أشخاص يستحقون السكن

في المبنى الجديد. بريجنيف رفض الشفة الجديدة الفاخرة في المبنى الفاخر، عندما عرف بذلك جروميكو رفض أيضاً، وهكذا انهارت قائمة السكان المفترضين للسكن نهائياً، لكن ماذا نفعل بهذا المبنى؟ خرجت بدائل. كوسيجين نصح بروميسلوف وقال له: أكاديمية العلوم السوفيتية تحتفل باليوبيل، دع الأكاديميين يأخذون المبنى ويدفعون ما صرف عليه وليسكنوه.هكذا فعلوا بالفعل في نهاية الأمر.

المعايير المزدوجة لبناء المساكن، كانت تعكس معايير وجود البشر في البلاد. مسكن بأمر خاص " كان يسمى رسمياً على الورق باسم متواضع إلى حد ما " منزل محسن التخطيط ". أنا أعتقد أن اسم بريجنيف استخدم، عندما نما في نفس منطقة كونتسوف خلال فترة قصير حي كامل من نفس نوع المباني، سكان موسكو عمدوا هذا الحي "لينينجراد"، كما أطلقوا عليه أيضاً اسم " محمية الأونتادور " (مثل السكرتير العام والمحيطين به كانوا يرتدون غطاء رأس من فراء حيوان بهذا الاسم: أونتادور).

ثم بعد ذلك، آخذين في الاعتبار أن تكون هناك شقة لبريجنيف، بدأوا في بناء منزل آخر في وسط موسكو، في شارع شوسيف أيضاً، وتولت الأمر إدارتنا في الكي جي بي، ومدير الشئون الإدارية في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بافلوف، الذي توفي منتحراً بإلقاء نفسه من نافذة هذا المنزل فيما بعد. وكانوا يخطرون بريجنيف عن سير عملية البناء، لكن عندما علم بريجنيف بمساحة الشقق في هذا المنزل رفض الانتقال إليها للسكن. وكانت السيدة فيكتوريا أمامي ترجوه حتى مجرد أن يشاهد الشقق، لكنه رفض رفضاً قاطعاً وقال: لا!.

في مثل هذه المساكن الفخمة الواسعة بحجم مربع سكنى، كان من الممكن أن يتُوه عن زوجته ويبحثا عن بعضهما البعض أياما وأسابيع وهما من كبار السن.

لا بريجنيف ولا أندروبوف ولا تشيرنينكو ولا حتى جورباتشوف، أربع سكرتيرين عامين لم يستطيعوا اتخاذ قرار (أو لم يريدوا) بشغل هذا النوع من الشقق.

وجاءت سلطة الشعب الجديدة.

الذي لم يولد بعد أصبح ديموقراطيا كبيرا، أكبر من العبد المطيع ظهر رئيس مجلس السوفييت الأعلى الجديد (روسلان حسبولاتوف الذي تمرد على يلتسين عام ١٩٩٣، الأمر الذي انتهى بقصف يلتسين للبرلمان لإنهاء التمرد ـــ المترجم) الديموقراطي روسلان حسبولاتوف سكن هذه الشقة.

الشيء الوحيد الذي نجح فيه الديموقراطيون نجاحا منقطع النظير هو تغيير أسماء الشوارع، قلبوا أسماء الشوارع والميادين والمدن، وأي شيء، وكأنهم يصفون حساباتهم مع الماضي، ربما هذا المبدأ الكاذب شغل موسكو عن البدء باسم ساخاروف (المنشق السوفييتي الأشهر وعالم الفيزياء والذي يعتبر الأب الروحي للقنبلة الهيدروجينية السوفيتية وأول من دق مسمارا في نعش النظام السوفييتي - المترجم) في حين يوجد في عاصمة الدولة الجبارة والتي شاءت ظروفي أن أرافق اثنين من سكرتيريينا العامين، " المحافظ " و" التقدمي "، والتي نستدين منها النقود لتطوير الحرية والديموقراطية، في عاصمة هذه

الدولة هناك ميدان باسم ساخاروف، وقد سمي باسمه وهو على قيد الحياة. إذا كنا ديموقراطيين حقيقيين، لكان أول تغيير أسماء للشوارع والميادين والمدن، يجب أن يبدأ بهذا الاسم.

الحياة أجبرت الزعيم الجديد على تقديم تنازلات، وكرر نفس الشعارات الشعبوية التي قام بها خروشوف. لكن بعد أن حل مشكلاته مع الشقق والفيلات.

لم يسكن جورباتشوف الشقة الفسيحة التي كانت معدة للسكرتير العام السابق، ليس بسبب تواضعه الزائد، ولكن كسياسي محنك كان يفهم أنه في هذا السكن ستطغي عليه ظلال سلفه الذي حصل على هبات الدولة بما فيه الكفاية ولكنه في نفس الوقت رفض هذه الشقة تحديداً.

في الحقيقة عاش جورباتشوف في نفس المنزل الكائن في شارع شوسيف، كانت شقته والشقة التي تعيش فيها ابنته في نفس الطابق، ولكن بمجرد أن أصبح سكرتيراً عاماً أسس بيتا جديدا في شارع كوسيجين، وقد تم بناء شقة ليس فقط له كسكرتير العام ولكن لابنته وأسرتها أيضاً خلال عام واحد فقط! وانتقل إلى الشقق الجديدة في شارع شوسيف كل من يازوف، ليجاتشوف، بولدين، مارتشوك، وآخرين من نفس المستوى الحزبي، وسكن جورباتشوف وابنته في طابق واحد متجاورين من جديد في بناية جديدة.

في أول صيف له في الحكم ذهب جورباتشوف وأسرته للاستجمام في فيلا ليفادا التي كانت مناسبة لخروشوف وبريجنيف من بعده. كانت السلطات تقوم بإجراء إصلاحات وإدخال تحسينات على الفيلا كل عام،فكانت كل عام تبدو أحسن من سابقه. من منهما لم ترق له هذه الفيلا؟ لا أعرف: هل هو جورباتشوف أم زوجته رايسا جورباتشوف؟ حتى تظهر فكرة إنشاء فيلا جديدة في فوروس. من استطلع المكان؟ لا أعرف . فالمكان كان عبارة عن منظر طبيعي خال من الجمال: صخور عارية، بدون خضرة، تيار هواء شديد، ولكي يتغير المشهد ويتوحد مع الطبيعة بذلت جهود جبارة، وأموال ضخمة.... بدت فيلا ليفادا بالمقارنة به مثل السندريللا.

بعد عام من الانتهاء من فيلا فوروس، بدأوا إنشاء فيلا أخرى على البحر الأسود أيضاً في ميوسيورى، بالقرب من بيتسوندا، مبنى جبار من ثلاث طوابق كاملة. كان المبنى يطل على كروم العنب وتم حفر نفق يصل الفيلا بالبحر... كل هذا تم إنشائه ليس ببعيد عن فيلا ستالين. الفيلا الستالينية كانت تبدو بجانب المباني الجديدة وضيعة.

أنشأوا كذلك فيلا في ضواحي موسكو، في حي أرخنجل، على شاطئ نهر موسكو. مثل الاثنين الذين ذكرناهم من قبل، بدأ البناء بمجرد أن أصبح جورباتشوف سكرتيرا عاما، وانتهوا منه في زمن قياسي أيضاً.

السلطات كانت تبرئ نفسها بشيء وحيد أن هذه المباني ليست شخصية، بل هي حكومية تابعة للدولة، تعطى مؤقتاً للشخص أثناء شغله منصبه. نعم هذا كلام صحيح، لكنها تبني قصور محددة الهدف لتناسب هذا الشخص أو ذاك. وهى ليست مؤقتة ولكن

مدى الحياة لأن كل القادة عندنا كلهم يبقون في مناصبهم حتى الموت باستثناء خروشوف الذي خدع.

كل شيء كان يبنى لجورباتشوف وليناسب جورباتشوف، كما هي العادة للاستخدام مدى الحياة، لكن تبين أن عصره قصير في المنصبين الذين شغلهما وهما منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي ومنصب رئيس الاتحاد السوفييتي رغم مناوراته بين اليمينيين واليساريين والبيروقراطية الحزبية والديموقراطيين، ولم يتمكن من العيش في الفيلا التي شيدت في ميوسيوري ولا يوم.

قد أكون شديداً في انتقادي؟ جائز. لكن توجد تصرفات شخصية تفضح السلطة الديموقراطية الجديدة أكثر من كل إصلاحاتها الفاشلة، وأكثر من المشاكل التي لم تحل، والوعود التي لم تنفذ. حيث أني على استعداد " للصبر "، وأن "أعانى من صعوبة الفترة " باسم المستقبل، وهذا ما يدعونني إليه، لكني أرى السلطة الجديدة لا تريد أن " تصبر" ولا أن "تعاني" معي ومع الشعب، ولن تفعل، السلطة الديموقراطية التي لم تتقاسم معي المعاناة ولا حتى عدم الراحة أبداً.

بدأ جورباتشوف الحرب على الامتيازات التي يتمتع بها الآخرون فقط بعد أن بنى لنفسه كل ما هو ممكن، فقد اتخذ القرار بتوزيع المصحات وفيلات اللجنة المركزية على " الشعب". أنا أضع الأقواس هنا لأن الشعب لم يحصل تقريباً على شيء من هذه الممتلكات التي كانت بحوزة السلطات، كل شيء في لحظة ذهب ضحية للإهمال، حتى الحوائط ، هدمت وسرقت. وكما حدث في عهد خروشوف لم يهتم أحد بالشعب. المصحات التي أصبحت شعبية، تركت لقدرها : لا تمويل، ولا أية وسيلة لها للاستمرار والتواجد.

من السهل أن توزع ما لا تملكه شخصياً، خاصة وأنه بلا أية ضمانات للحفاظ على أو حماية هذا القربان. تصرف قيصري أمام البلاد، لكن قليل من يعرف أن وراء كل هذا: فراغ وإفلاس.

الفيلتان رقم ١ و٢ تم منحهما للمسنين. ماذا حدث؟ في السابق وعلى مدار أعوام كثيرة كانت هاتان الفيلتان تحت خدمة العشرات من الإدارة التاسعة المحلية من الكي جي بي، والآن هذه الأراضي التي تعتبر لؤلؤة شواطئ القرم مهملة تماماً. لجنة العاملين القدماء لا تستطيع المحافظة على ما حصلت عليه لا من الناحية الصحية ولا المالية. الفيلا رقم ٣ - قصر الكسندر سابقاً،- والتي كانت تعتبر متحفا يمثل عمارة القرن التاسع عشر، تم منحها للقصر الشتوي بلينينجراد (ما يعرف بمتحف الأرميتاج ــ المترجم)، كمعرض لوحات فنية. مر عامان، وبقي القصر مهملا لا حياة فيه ولا فائدة منه فليس هناك تمويل لإعداده للاستخدام الجديد.

الفيلا الحكومية في كيسلوفودسك، والتي كان يستجم فيها أعضاء المكتب السياسي وسكرتاريي اللجنة المركزية، تم إعطائها لمجلس المدينة، الذي باعها بدوره إلى أحد المليونيرات برخص التراب (صرفت مبالغ طائلة على هذه الفيلا وقت إنشائها) من أصبح أفضل؟ هل الشعب؟ فيلا المليونيرات هذه بعيدة أيضاً عن الشعب البسيط، كما في أوقات الزعامات الحزبية.

فيلا بريجنيف القريبة من موسكو في زاريتشي، بقيت لفترة طويلة فارغة حتى نمت فيها الحشائش. حينها قرروا منحها للجامعة. لماذا؟ فلا يوجد فيها مكان يصلح للدراسة. وفيما سيحتاج طلاب الجامعة لجراجين، أو وحدة اتصالات حكومية، أو خندق للوقاية في حال الغارات الجوية، أو حمامي سباحة؟ ربما سيحصل عليها أحد المديرين في الجامعة، وكان من الممكن الإبقاء عليها كمقر حكومي.

ماذا حدث مع فيلا ليفادا التي كان يستخدمها خروشوف، بريجنيف،ثم جورباتشوف؟ بعد انتقال جورباتشوف إلى فوروس، أعطيت للمحاربين القدماء، ونظراً لعدم وجود موارد مالية لديهم، كل شيء فيها أصابه التلف. الأمثلة كثير لا تعد.

أين المنطق؟ مستعدين لهدم ما خلقته الطبيعة بمجهود غالى. وفي نفس الوقت ينفق ملايين الشعب على إنشاء بيوت وقصور أرستقراطية لنفسه شخصياً، في نفس القرم وعلى مشارف موسكو وفي القوقاز.

السلطة نفسها ترسخ مفهوم: أن الشعبي يعنى مشاعا.

الأمثلة الشبيهة كثيرة وتعود لعام ١٩١٧، ببساطة هدموا القصور والعزب، وما بقي انتقل إلى "الشعب" وأصبح مشاعاً.

المشكلة ليست فقط في التمويل المالي. وإنما في انهيار نظام الخدمات الطبية، الذي أنشأه تشازوف، وهو نظام قائم على الدعم المالي الحكومي، وقاعدة تقنية مادية حديثة، وعلى التأهيل العالي ومسئولية العاملين في المجال الطبي. فقد ترك الاختصاصيون الممتازون المصحات التي تخلت عنها الحكومة، وانتشروا بحثاً عن عمل في أماكن أخرى، وفقدوا الإحساس بأهمية وفكرة البحث العلمي والتشخيص ومراكز النقاهة. ومن ناحية أخرى كان العلاج الفئوي يثير غضب الشعب، فما معنى توسيع الفئات: علاج العلماء، العاملين في مجال الثقافة، الكتاب، الرياضيين، الأمهات كثيرات الأطفال، معاقي الحرب، الأصدقاء من الأجانب، ولا أدرى من بقي كان يجب التفكير فيه.

الهدم أسهل من ليس فقط الإنشاء، ولكن حتى من الحفاظ على ما كان موجوداً.

حسناً فعل بريجنيف أنه لم يعلن الحرب على الامتيازات، ولم يخض في هذا الأمر، ولم يعلن نفسه ديموقراطياً. ربما لذلك كانت خيبة الأمل فيه أقل.

تقرر بناء فيلا في فوروس لجورباتشوف، وفوروس تعنى في اللغة اليونانية " هبّة ". يبدو أنها سميت هكذا بسبب الرياح القوية غير الطيبة التي تهب على المكان على مدار العام، باستثناء شهور الصيف، شهرين أو ثلاثة. الأمواج العالية الناجمة عن الرياح والمد كانت أيضاً على مدار العام باستثناء شهرين أو ثلاثة في الصيف. الأرض عبارة عن صخور عارية. أي أنه لا توجد أرض لا بالمعنى المجازى ولا حتى الحرفي، ولهذا لا توجد نباتات، لهذا السبب كان المكان خالياً ولم يحاول أحد تعميره. حوله مباني في كل مكان وهذا المكان بالتحديد لا يوجد به أي شيء. لمصلحة من؟ من أجل أن يقيم السكرتير العام لمدة شهرين في العام؟

من أشار بإصبعه الهوائي المتقلب على هذا المكان؟ أكرر: لا أعرف. لكن من الذي أشار إلى هذا المكان الذي يبدو شكلاً جميل بالفعل؟ في المحصلة بدأ عدد لا نهائي من شاحنات القلاب في نقل التربة إليه من المناطق الغنية، ووضعوها على الأحجار. أحضروا أشجارا من سلالات نادرة، منها أشجار العرعر، لكي يحموا المكان من الرياح الشديدة. شقوا الجبل وتعمقوا، ولهذا اضطروا إلى استخدام المتفجرات... الجبل بعدما أصبح كما لو كان مغطى ببعض الشيء، وبمجهود كبير شقوا التربة، ووصلوا الماء وأسلاك الكهرباء والاتصالات.

اتفق أن الفيلا في ليفادا فجأة أصبحت غير مريحة، لكن في القرم عدد كبير من الفيلات الجميلة والجاهزة، يبدو لي أن كل الناس بطول البلاد كانوا يعرفون بأمر بناء فيلا للسكرتير العام، كانوا يعرفون لكن دون تفاصيل، فمن ناحية لم يصدقوا أن هذا يحدث، هذه إشاعات، لا يمكن أن يحدث هذا. ومن ناحية أخرى وبخيبة أمل وتراكم للغضب كان الجميع ينتظر كيف ستتطور الأحداث، ماذا يحدث هناك في واقع الأمر وعلى أي شيء سينتهي. أول ديموقراطي في البلاد! قام المعبد بأعجوبة.

فعلاً معبد، السقف مثل القباب ارتفعت إلى السماء، السطح بيضاوي على الطريقة الهولندية، ومغطى بألمرنيوم جميل على شكل قرميد، شكل السطح كله خفيف وهوائي.

في الطابق الثالث مكتب وغرفة نوم جورباتشوف ورايسا جورباتشوف، وغرفة سفرة تسع حوالي ١٢ شخصا.

البلكونة تطل على البحر، حيث كان يحتسى جورباتشوف وزوجته عادة الشاي، البلكونة الثانية كانت تطل على الجبال، قبلها توجد صالة أو غرفة للراحة، كان فيها تمثال من الرخام لساق امرأة، جميلة جداً لدرجة أن رايسا جورباتشوف قررت إزالتها. في هذه الصالة تحديداً جلس أعضاء لجنة الطوارئ الذين انقلبوا على جورباتشوف، عندما كانوا ينتظرون أن يستقبلهم.

توجد كذلك غرفة نوم أخرى فيما بعد عدلوها لتصبح غرفة مساج. الحوائط مغطاة بالخشب، عاليا تحت السقف يوجد مشغول على القماش (أعمال تريكو على صورة رسم - المترجم)، لا أدرى إن كان هذا رسم أولى لمدن القرم- يالطا، ألوشتا، الوبكا، جورزوف أم شيء آخر..

من الطابق الثالث للأسفل يقودنا سلم خشبي بالدرابزين، ومغطى بسجادة بلون القهوة. في الطابق الثاني غرفة نوم للأطفال، للأحفاد، وغرفة سفرة أخرى. إلى اليمين من المدخل مكان لأجهزة الاتصالات. الطابق الثاني يعتبر كذلك إذا نظرنا إليه من ناحية البحر، ونظراً لأن المنزل مبنى فوق صخرة، فإنه من ناحية الجبل، تعتقد أنه الطابق الأول، وكان هناك المخرج إلى جهة الجبل، ويوجد المدخل الرئيسي. من هنا الممرات التي تؤدي إلى أماكن الخدمات حيث كانت توجد الثلاجات والمواد الغذائية، وغرف معيشة لأفراد الخدمة، وفي الطابق الثاني المطبخ.

وأخيراً، يشغل الطابق الأول لهذا المعبد صالة كبيرة، بحديقة شتوية، ومخرجين إلى البحر أحدهما لأفراد الخدمة - منفصل - والآخر لأصحاب المكان.

من المخرج حيث السلالم الحجرية يتفرع الطريق إلى طريقين. إلى اليمين يؤدى إلى صالة عرض سينمائي، إلى اليسار يؤدى الطريق إلى شاطئ البحر. إلى صالة العرض الصيفية، المغطاة بسقف من الألمونيوم الخفيف، كان يؤدي طريق من الحصى. الصالة عبارة عن: شاشة، مكان تشغيل الأجهزة، وستة كراسي فوتيل للمشاهدين، على مدخل الصالة يقوم بالحراسة حارس.

ليس بالضرورة أن تمشي في الممر المزروع بالهور لتصل إلى البحر، فمن الممكن أن تصل إليه مباشرة عبر سلم متحرك من مرحلتين يوصل مباشرة إلى البحر. على البلاج كان هناك مبنيين أحدهما تواليت والآخر غرفة استراحة بها تليفونات، في مكان أقرب إلى الماء هناك كابينتان لتغيير الملابس، موصل لهما دوش ماء بارد وساخن، كما توجد أسرّة خشبية، وكراسي استلقاء شيزلونج.

ليس ببعيد كان يوجد منزل من الخيام، كنا نجلس فيه نحن الحراسة والطبيب. وأيضاً تليفونات واتصال لاسلكي.

هذا بالإضافة إلى حمام سباحة طوله أربعة وعشرين متراً، بأربع أو خمس حارات لا أذكر، كل ثلاثة أيام كان يملأ بماء من البحر. ولكي لا يكون المكان أقل شأنا من أماكن السكرتيرين العامين السابقين تم عمل مغارة صناعية خلف حمام السباحة، على طريقة فيلا ليفادا، بالتكييف للحفاظ على درجة حرارة ثابتة. للحق المغارة كانت دائماً فارغة لوجود مكان مريح لاستقبال الضيوف في المنزل نفسه. جورباتشوف وزوجته تناولا الشاي في تلك المغارة مرة واحدة فقط.

خلف المغارة كانت توجد محطة غواصات، هناك توجد إحدى نقاط الحراسة. إلى الشمال من الكرمة وعلى بعد حوالي خمسين متراً يوجد منزل للضيوف، مكون من طابقين، هناك كان يوجد مكتبي وغرفة للضيوف، وأيضاً نوابي والطبيب وضباط اتصال وزارة الدفاع، وأفراد الخدمة. بالإضافة إلى: غرفة نوبتجية، نقطة إسعاف، ثلاجة. كان المبنى يتسع لكل هذا.

أبعد، على بعد مائتي - ثلاثمائة متر، كان هناك مبنى من ثلاث طوابق، فيه توجد غرف تتسع لشخصين من خدمة الحراسة، ومطعم لهم، وصالة سينما، وفي الأسفل جراج. ويبعد المبنى عن بوابات الخروج حوالي كيلومتر.

يبدو أنني لم أترك شيئا، إلا إذا تغافلت عن التيرينكور (ممر تحيط به النباتات والزهور على الجانبين- المترجم) الجميل بطول كيلومتر، وطرق الزهور المريحة، وحبيبات أحجار الزلط الصغير، ورائحة العرعر الطيبة خاصة عندما ترفع الشمس درجة حرارة الهواء.

... كم من أموال الشعب طارت؟ لا تتخيلوا. في بقية الشهور حيث موسم الرياح العاتية مع السيول والأمطار،تكون التربة التي أحضروها والأشجار قد محيت عن التربة

الحجرية، وعند وصول جورباتشوف يعيدون الكرة من جديد، يحضرون التربة، مع العرعر النادر والصنوبر، ومن جديد يثبتونها بالأحجار، مثل الديكور على المسرح.

الرياح الممطرة، كانت تتجاوز فتحات السقف الخفيف، المطر كان يسقط على السطح، كان الماء يتسرب إلى سقف المباني، بقيت آثار ذلك في شكل خطوط سوداء، لدرجة أنهم كانوا يضطرون لوضع طشت في السطح لمنع تسرب المياه، لكن يتم إصلاح كل شيء مع بداية موسم الصيف الجديد.

يجب القول بأن تنفيذ الفيلا من الناحية المعمارية كان امتحانا. فمن ناحية كانت توجد الجبال، ولذلك من على الطريق العمومي كانت تظهر وكأنها من طابقين، ومتواضعة تماماً، والطابق الثالث وأرض الفيلا كانا في الأسفل، كما لو كانا تراسا غير مرئي. من ناحية البحر يمكن رؤية الفيلا من بعيد، كما لو كانت قطعة من الجبل، مفلطحة، فيلا فاقت بسحرها الخطوط الواقعية والمقاييس. خداع بصري حقيقي لمن لا يزورها.

هكذا كانت تبدو من بعيد الفيلا الواقعة بالقرب من موسكو، لكن هناك تم إبعاد حمام السباحة إلى الجانب بحوالي ٣٠ مترا، فبدا وكأنه مختف ومنفصل عن مجمع المباني.

في أوائل التسعينيات أخذت الأحاديث عن الامتيازات والاستثناءات طابع الصوت العالي. الإشاعات عن فوروس انتشرت بين الناس، وإلى الصحف المركزية ووصلت خطابات احتجاج ـــ ليس فقط من القرم حيث يرى الناس بأعينهم ولكن عن بعض أشياء نشرها الصحفيون الفضوليون. رايسا جورباتشوف أصدرت أوامرها بخلع ثريا كريستال ضخمة وفخمة من الطابق الثاني، وفي عام ١٩٩١- بأوامر منها- تم خلع ثريات كريستال من المباني التي تقع على البلاج، على أساس ليس مهما أن تكون في الجوهر متواضعا، لكن المهم أن يكون مظهرك متواضعا.

عندما أصبحت فيلا فوروس جاهزة، كنت أريد أن أذهب إليها قبل أول زيارة لجورباتشوف للاستجمام، وذلك لفحص "المكان"، والتعرف على أفراد الخدمة مباشرة، ومشاهدة وضع الغرف، والأرض المحيطة مع رجال الحدود البحرية ورجال الكي جي بي في القرم، وتحديد أماكن نقاط الحراسة والاتصالات وهكذا....، لكن جورباتشوف لم يسمح لي بالسفر وقال لبليخانوف: إذا كان هذا ضرورياً سافر بنفسك.

بالفعل سافر وأحضر لي رسما تخطيطيا، لكن كل هذا أنا كنت أعرفه بدونه، قبل أسبوع من هذا كان الشباب الذي يعملون معي قد سافروا بالفعل إلى هناك وكانوا يهاتفوني من هناك للنصيحة.

أخيراً توجهت أسرة جورباتشوف إلى الفيلا الجديدة في فوروس لأول مرة: جورباتشوف وزوجته وابنته إيرينا وزوجها أناتولي، والحفيدة الاكبر كسينيا (يبدو أن الحفيدة الصغيرة ناستيا لم تحضر معهم) عندما انعطف موكب السيارات من طريق سيفاستوبل إلى الطريق المتجه إلى الفيلا، انفتح أمامنا منظر جميل: ألوان السقف الزاهية، والأشجار الكثيفة الخضراء، ومن بعيد بدت الفيلا صغيرة، لكن عندما وصلنا إلى الحديقة

الملحقة بها، وجدناها قصراً كبيراً بكل جمالياته، على المدخل وقف الكومندان وأفراد الخدمة، وقدموا لجورباتشوف وزوجته باقات الورود.

قال جورباتشوف قبل أن يغير ملابسه: دعونا نشاهد الفيلا. بدأ هو وزوجته برفقة بليخانوف ومدير الإدارة "التاسعة" في يالطا في التجول.بليخانوف تحدث عن الصعوبات التي واجهت عملية البناء، وعن مواد البناء وأية مادة من أين أحضروها وعن التربة التي أحضرتها عشرات من سيارات القلاب، وعن الأشجار التي أُحضرت. الفيلا لم تبد فقط جميلة ولكن أيضاً أخذت مظهرا احتفاليا.

وعلى الرغم من تحفظ جورباتشوف وزوجته إلا أنهما هتفا في صوت واحد: جميلة جداً، لقد بذلوا مجهوداً. وأمن على كلامهم مدير الإدارة " التاسعة "المحلية قائلاً: نعم بُذل مجهود فعلاً، كم من التربة فرشوا.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة وقليل من الدقائق، أصحاب المكان انصرفوا لتغيير ملابسهم، ورايسا جورباتشوف اقترحت على المرافقين الجلوس قليلاً وقالت: اغسلوا أيديكم وتعالوا نجلس للاحتفال بالسكن الجديد. هذا كان في العصر، في أيام بريجنيف كانوا يحتفلون بكل انتقال للاستجمام، لقد أصبح عادة، في السابق كانت الأمور أريح وفيها مرح. هذه المرة جلسنا إلى المائدة عشرين دقيقة وعلى الأكثر ثلاثين.

كل هذا حدث في بلد منهار، وتتسارع فيه وتيرة الفقر بسرعة رهيبة.

الفصل السابع عشر

فوروس. أغسطس ١٩٩١

(انقلاب أغسطس – المترجم)

أغسطس ١٩٩١. آخر استجمام لرئيس الاتحاد السوفييتي في فوروس، فبعد عدة أيام سينقشع كل شيء كما ينقشع الدخان، ويتبخر الرئيس والاتحاد السوفييتي نفسه. لا نحن، الحراسة، ولا هو كنا نتخيل هذا.

أغسطس، واحد من أكثر الأشهر تراجيدية في حياتنا، الصيف كله كان مقلقاً جداً. جورباتشوف كان يستعد لتوقيع الاتفاق الاتحادي (اتفاق مع الدول المكونة للاتحاد السوفييتي – المترجم) عقدت اجتماعات لا نهائية، في يونيو ويوليو كان الموقف في العاصمة متوتراً. بدأ أقوى هجوم على الحزب. مؤتمرات جماهيرية صاخبة واحدا وراء الآخر. في كل مكان كانوا يتحدثون بصوت عال عن الامتيازات.

كنا نعيش في ذلك الوقت في قرية الفيلات التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. في المساء كانت هذه القرية تتعرض للهجوم من شباب مخمور، كان يدخلون إلى أرض القرية ويسرقون محتويات الفيلات، كانوا يكسرون زجاج نوافذ المنازل ويثقبون إطارات السيارات. من بلكونة فيلتنا تمت سرقة كل ما كنا نحتفظ به من المخللات والمربات التي أعدتها والدة زوجتي دانا المسنة ذات ٧٨ ربيعاً. بصفة عامة كان يعيش في هذه القرية كبار السن من النساء والأطفال، الخوف كان مسيطراً على جميع سكان الفيلات. تبين أن إدارة القرية عاجزة عن اتخاذ أي إجراء، وبدت كما لو كانت تتملق وتستعطف الأشقياء واللصوص. فقد أصدرت أوامرها بعدم إغلاق بوابات الدخول، وشرحوا لنا نحن سكان القرية: "المهم ألا نتسبب في غضب الشعب". دانا زوجتي كانت طوال الوقت تنتظر شيئا ما فظيعا، وعندما كنت أعود في وقت متأخر، أحياناً في منتصف الليل إلى البيت كانت تسألني: كيف الأوضاع هناك؟ كيف جورباتشوف؟ أنا من جانبي لم أكن أتحدث عن أي شيء بالتفاصيل على الإطلاق فكنت أرد عليها: لا تقلقي كل شيء على ما يرام.

لكن زوجتي كانت تشعر وتعرف ماذا يحدث حولها. فقد ذهبت على سبيل المثال إلى حمام السباحة، والإدارية قالت لها: أتمنى أن يظهر شخص من بين الشعب يقتل جورباتشوف، أنا أكرهه، لكني بحق سأشفق على زوجك.

بدأ الاستيلاء على الشقق في موسكو، في الأساس استهدفت "البيوت المحسنة التصميم". عمليا كان يتم هذا بتصريح غير معلن ناجم عن عدم اتخاذ إجراء من جانب سلطات الأحياء. هذا الاستيلاء تم أيضاً في المنزل الذي نعيش فيه، وتحت ادعاء أن الدور

جاء عليهم في الحصول على مسكن، استولى مجهولون على شقة. تغير الحال في منزلنا، فأصبحنا نسمع سباب السكارى، وأصوات العراك في الشقة، كسروا زجاج باب المدخل، وكتبوا على الحوائط في المدخل وفي المصعد.

زوجتي كانت تأمل، بل كانت متأكدة، أن يلغى جورباتشوف أجازته المزمعة في شهر أغسطس في هذا الوقت المضطرب، أو يؤجلها لوقت آخر. وفيما ذكرت: هل من المعقول أن يكون جورباتشوف لم يشاهد ما حوله، لم يعرف، لم يفهم ماذا يحدث في البلاد التي يحكمها؟ أنا رأيت وعرفت وفهمت، وهو لا؟ ما هذا؟ عدم فهم كامل لحياة مواطنيه، أم أنها ثقته المعتادة في النفس؟ ماذا لو بقي هذه الفترة في موسكو وماذا سيحدث؟

كل أجازة كانت زوجتي دانا تحاول أن تنتقل مع البنات إلى شاطئ البحر، وبالطبع رتبت نفسها بحيث يكون ميعاد سفرها هو ميعاد مأموريتي إلى القرم. هذا المرة طارت مع ابنتي إلى المصحة في فوروس يوم ٢ أغسطس، لأنها كانت تعرف بأنني بعد عدة أيام سوف أحضر إلى فيلا الرئيس مع جورباتشوف.

مصحة فوروس تقع في خور تيسيلي، على بعد ثلاثة كيلومترات من فيلا الرئيس، وكانت زوجتي تعرف أن مقابلاتي معها ستكون نادرة،مرة في الأسبوع وقصيرة جداً، لكن حقيقة أني موجود بالقرب منها كانت تسعدها وتجعلها مطمئنة، بالإضافة إلى أنه من الفيلا إلى المصحة يوجد طريق للمشاة على شاطئ البحر، ودانا كانت تعرف بأنه كما هي العادة في المساء ستتنزه مع ابنتينا حتى بوابات فيلا الرئيس، حيث يخدم حراس لا يمكن تخطيهم من قوات حرس الحدود المحلية. وهي بذلك ستكون معي كل مساء حتى ولو بالأفكار.

... ليس فقط الإحساس النسائي الداخلي لدانا، بل كل البلد كان يتوقع كيف ستتطور الأحداث. خاصة وأنه تم عمل بروفة عامة منذ فترة قصيرة حيث قامت قوات المظلات وأنواع أخرى من القوات بالزحف إلى قرب العاصمة موسكو، وقد حذر النواب جورباتشوف، لكن وزير الدفاع يازوف من منصة نواب الشعب شرح الحالة بطفولية قائلاً: إن الجيش اقترب من العاصمة للقيام ببعض الأعمال المرتبطة بالزراعة في ريف موسكو.

لم يكن من الضروري أن يسافر جورباتشوف للاستجمام، فقد تحدد ٢٠ أغسطس لتوقيع الاتفاق الاتحادي. يازوف نفسه يوم ١٧ أغسطس وبعد لقاء مع كريوتشكوف (رئيس الكي جي بي أثناء حكم جورباتشوف- المترجم) في أحد الأماكن السرية التابعة للكي جي بي، وعند الخروج في الساعة السادسة والربع ألقى بعبارة ذات دلالة في السيارة: "كان يجب أن يوقع الاتفاق الاتحادي، وبعد ذلك يقوم بأجازته وكل شيء كان سيكون جيداً"، تبدو كلمات مشاطرة غريبة، ما قيل يبدو أنه من شخص مشارك في مؤامرة رغماً عن إرادته.

كل البلد كانت تشعر بالرعد القادم، والشخص الوحيد الذي لم يتوقع شيء ولم يفهم هو الذي وضعوا له على المكتب كل شيء، كل المعلومات دون استثناء. حتى لو كنت

تعرف المعلومات من خلال الفراشين كان من الممكن أن تكون في قلب الأحداث. لكن الثقة الزائدة في النفس وحب الذات، والرعونة في صورتها المجرّمة، كل هذا تجمع لدى جورباتشوف في آن معاً.

ربما كان من الصعب الشك والريبة في أن هناك مؤامرة ستأتي من الأشخاص الذين اخترتهم، ودفعتهم إلى أعلى المناصب، أحيانا بعد عدة محاولات وبالتعارض مع إرادة نواب الشعب. من الصعب تصديق المؤامرة، عندما يودعك رجالك الذين تعودت عليهم في المطار، بنفس التشريف ويقولون لك نفس الكلمات، وعند الوصول يقابلونك كذلك بالود كما هو معتاد.

في مطار بيلبيك استقبلت النخبة الأوكرانية الرئيس وكانت تضم جورينكو السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوكراني، كرافتشوك السكرتير الثاني للجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوكراني، جالوشكو رئيس الكي جي بي في أوكرانيا، قيادات القرم، باجروف رئيس مجلس السوفييت الأعلى في القرم، كوراشيك رئيس مجلس الوزراء في القرم، جراتش السكرتير الأول للجنة الحزب في جمهورية القرم، خرونوبولو قائد أسطول البحر الأسود، يرماكوف رئيس اللجنة التنفيذية لمدينة سيفاستوبل.

رحب المستقبلون بحرارة بالضيف ذي المستوى الرفيع، وكما هي العادة دائماً هنا وفي مطار بيلبيك، تم تنظيم مائدة. أنخاب الشخصيات الحزبية والحكومية، في جوهرها لم تختلف كثيراً عن سابقتها القديمة، للحق بدل الأنخاب من أجل الحزب، هذه المرة شربوا نخب الاتحاد الواحد المتجدد، إلا شخصا واحدا فقط في هذه المجموعة، وجهه غير معروف لي من قبل، رجل في الأربعين من عمره، هو ليونيد إيفانوفيتش جراتش أصغر واحد سناً وسط الجالسين والذي انتخب منذ فترة وجيزة سكرتيراً أول للجنة الحزب في جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي. اقترح بطريقة بيتية أن يشرب الجميع في صحة رفيقة وشريكة الرئيس في الرأي. هنا اختفت الحالة الرسمية التي كانت تسود، وجورباتشوف المرهق انتعش، وحلت الكلمات الإنسانية محل الرسمية المنمقة. جورباتشوف تذكر أيام أن كان طالباً، وكيف تم تعارفه على زوجته، والحياة الأكثر من متواضعة بعد ذلك، والعرس...

جورباتشوف وزوجته كانا راضين عن المقابلة. في الطريق إلى الفيلا كان يتذكران،إنه صغير السن! كل شيء كان يسير كما المعتاد دائماً. نفس الاتصالات من نفس الأشخاص من موسكو، والزوار هم أنفسهم. في منتصف أغسطس حضر لفترة قصيرة إيفان سرجييفيتش بولدريف السكرتير الأول للجنة ضاحية ستافروبل وهو من نفس منطقة جورباتشوف.

إنها العادة والتعود، عندما يكون محيط الدائرة مترا واحدا من حولك، لا يتغير أي شيء، كل شيء يبدو سرمديا، وعندما يكون أكثر شيء باق هو كرسيك، فإنك لا تريد التفكير في أي شيء خطير، أو النظر إلى خارج هذا المتر الواحد المحيط. ورغم أنني بعيد عن الدسائس السياسية، ولا أعرف إلا مهامي المباشرة، فقد كنت أستطيع دون صعوبة أن أتنبأ بما سيحدث في النصف الثاني من رحلة الاستجمام.

يوم ١٩ أغسطس عدنا إلى موسكو. يوم ٢٠ أغسطس تم توقيع الاتفاق الاتحادي، عدنا إلى القرم ٢٢ أغسطس، يوم ٢٢ هو عيد ميلادي... كنت أعرف كيف سيمر.

كل عام أحتفل بعيد ميلادي في مأمورية عند الزعماء الذين يستجمون. في عهد بريجنيف كان عادة ما يحل وأنا في ليفادا، وأحياناً في أستراخان في غابات الصيد. عادة في منتصف النهار يدعوني أحد السفرجية أو الخدم: "فلاديمير تيموفييفتش، ليونيد إليتش يدعوك "، لكن غالباً ما كان ريابينكو يقول لي: " فولوديا اذهب" . كان بريجنيف يصافحني ويقول: فولوديا أهنئك! أتمنى لك النجاح، والصحة. وهنا يضيف: الصحة كما يبدو لي عندك على ما يرام. للحقيقة الصحة كانت موجودة دائماً وبقيت لم تتغير. كان بريجنيف يهديني أشياء ليست ثمينة، وهى غالباً ساعات يد أو ساعات جيب أو منبه، كانت تهنئني أيضاً كل مرة السيدة فيكتوريا زوجته.

ذات مرة كان موجوداً بوجايف، فأهداني ساعة.

الشباب أيضاً يجمعون نقوداً من بعضهم ويحتفلون لتهنئتي في المساء، في البيت الخاص بالحراسة كنا نتجمع نحن الحراس ونجلس للاحتفال. طوال اليوم أتلقى التهاني من الزملاء في الإدارة " التاسعة ": أهلا فولوديا...، عند أحد الزملاء عيد الميلاد ٢٣ أغسطس، وعند ريابينكو ٢٥، في هذا اليوم كان بريجنيف يسأل: أين ريابينكو؟ فيقولون له: أنهم يجلسون يحتفلون، فيقول: آآ. دعوه دعوه لا تستدعوه.

نفس العادة استمرت في فترة جورباتشوف، فقد كان جورباتشوف وزوجته يهنئان جيداً وبدفء، بالإضافة إلى أن الهدايا كانت متنوعة: طقم سفرة، أو طقم شاي، وإذا كان بريجنيف ينسى أحياناً عيد ميلادي وكان ريابينكو يذكره، فإن جورباتشوف وزوجته كانا يتذكران، أنا كنت اندهش من هذا. ذات مرة كنت أسبح مرافقاً لجورباتشوف في المساء، وفجأة قال لي: ماذا تفعل هنا؟ اليوم عيد ميلادك؟ اذهب استرح.

في أعياد أكتوبر ومايو كانت رايسا جورباتشوف ترسل إلى زوجتي باقة ورد، فيما يخص هذه الأمور فإن جورباتشوف وزوجته كانا لطيفان ولمّاحان.

عندما أكملت رقما دائريا من عمري (الرقم الذي يقبل القسمة على خمسة) منحوني وسام النجمة الحمراء، وميدالية حربية – أنا أعتز بهما جداً.

لقد وصلنا إلى فوروس في الرابع من أغسطس، وفي اليوم التالي بدأ بليخانوف يتحدث عن حالتي الصحية: شكلك يبدو مرهقاً، كيف حالتك، كيف أعصابك؟ فقلت له: عام بدون أجازة، وكان عاماً متوتراً. فأشار على بأنني يجب أن أستريح. فاجأني مدير الإدارة بقوله.

لقد أدهشتني هذه العناية المفاجئة، فعلى مدار كل الأعوام السابقة لا هو ولا القيادات الأخرى أداروا معي مثل هذا الحوار، قبل شهر ديسمبر من كل عام لم يتحدث معي أحد عن الأجازة إطلاقاً. فقلت له: الراحة لا بأس بها لكن ليس هكذا تؤخذ الأمور. نحن بالكاد وصلنا، وبالكاد بدأت ماموريتي، وفجأة أترك كل شيء، وأذهب؟ هذا لم يحدث من قبل.

بليخانوف نفسه كان من المفترض أن يعود إلى موسكو، بعد يومين.

قال بليخانوف: سأتحدث مع جورباتشوف. فقلت له: لا داعي فأنا لا أعتقد أنه سيمنحني أجازة.

ما هذه العناية الفائقة والإصرار، فهمت كل شيء بعد أحداث ١٩ أغسطس. عندما أرسلوا جورباتشوف للاستجمام، كانت خطة المؤامرة جاهزة وأنا لم أكن ضمن هذه الخطة، وقرروا التحايل لأسافر من فوروس. أعتقد أن بليخانوف كان يريد أن يأخذني معه إلى موسكو. في اليوم التالي تحدث بليخانوف مع جورباتشوف بالفعل عن أجازة لي. لكن جورباتشوف رفض بشدة قائلا: هو ليس أكثر واحد مرهق؟، بليخانوف أبلغني الرفض بشكل مخفف وقال " جورباتشوف رفض".

جورباتشوف نفسه لم يسألني عن أي شيء، وأنا من جانبي لم أستفسر عن أي شيء، لكنه بقي غير راض عنى، أنا فهمت هذا من خلال علاقته الباردة بي . حماقة منه، خاصة وأن مشاكل من هذا النوع لم تحدث من قبل. فقد كان جورباتشوف كثيراً ما يقول لي: "لا تخطط للأجازة الآن، فأمامنا سفريات صعبة، سنعود لهذا فيما بعد". ربما لهذا السبب دخلت الشكوك لقلب جورباتشوف بأنني مشارك في المؤامرة! والزعم بأنني قد عرفت كل شيء وأردت الهروب.

لم تكن لتحدث حالة مثل هذه في أيام بريجنيف، على الرغم من أنه مثل جورباتشوف كان يمنح الأجازة دون رغبة. رئيس الحراسة كان يسأل عن الأجازة من رئيسه مباشرة، في هذه الحالة بريجنيف، هنا جورباتشوف تخطاني، وعمل من بليخانوف مفوضا باسمه في كل الأمور، بما في ذلك الأمور المتعلقة بأجازتي.كنت أبدو مسمارا صغيرا.

حكاية بليخانوف إحدى وقائع عدم قدرة جورباتشوف على فهم الناس، وعدم التمييز بينهم، بل عماه الكامل. بعد أسبوعين فقط سيظهر هذا بصورة حتمية مؤكدة.

حاول بليخانوف على أية حال أن يتقرب من جورباتشوف، وكان يقوم حتى بأبسط الأعمال الحياتية اليومية الصغيرة له، وتحول إلى مجرد مسمار رغم أنه أكبر من ذلك.

هذا هو الفرق المبدئي بين بريجنيف وجورباتشوف: بريجنيف كان أقرب للناس وأكثر مباشرة. أما أنه كان طيبا أو قاسيا، عادلا أو غير عادل، محقا أو عكس ذلك، فهذا موضوع آخر.

جورباتشوف كان ينتفخ ويغضب بطريقة استعلائية وبرود، لا يتنازل حتى لكي يشرح له رئيس الحراسة الشخصية، لو بريجنيف لكان سأل من يثق به، ريابينكو: "ما المشكلة ؟! ".

الاستجمام كان يسير كالمعتاد، كان جورباتشوف يستيقظ متأخراً إلى حد ما، الساعة الثامنة قرب التاسعة -إفطار، أول من كان ينزل البحر إيرينا وأناتولي وكسينيا. بعد العاشرة - ينزل البحر جورباتشوف وزوجته رايسا. هو يرتدى قميصا خفيفا وشورتا،

و"شبشب" وكابا لونه كاكي. على البلاج يبقى مرتدياً الشورت، وكان يأخذ معه كتابا، وأحياناً كان يأخذ حمام الشمس واقفاً. كان يتصفح الصحف، والمراسلات كانت تأتيه في الساعة الواحدة ظهراً، أما رايسا جورباتشوف فكانت ترقد على الشيزلونج بالقرب من البحر تقرأ.

كانا دائماً ما ينزلان البحر معاً، كان هو يرتدى غطاء رأس مطاطي ويسبح لفترة طويلة وكثيراً ما كان يمرح في الماء، يسبح إلى الأمام ويعود مرة أخرى إلى زوجته، التي كانت تسبح بهدوء وبطريقة أكاديمية. كل مرة عندما يخرج إلى البلاج كان يسألني كم من الوقت قضينا في الماء، عادة ما كانا يسبحان لمدة أربعين دقيقة. كان جورباتشوف يجيد السباحة، وكان يستطيع أن يبقى في البحر فترة أطول، لكن آلام المفاصل كانت تزعجه.

بعد السباحة استحمام. ثم تدليك، في البداية هو ثم تدليك لزوجته. بعد التدليك راحة، ثم عمل في المكتب. الساعة الثالثة غداء في الشرفة المطلة على الناحية الشمالية، حيث تكون الشمس قد غربت عن هذه الناحية مبقية الظل.

بعد الغداء كان يعمل، فقد كنت أحمل له الأوراق من مساعده تشرنيايف .

من الساعة الخامسة حتى السابعة كان جورباتشوف وزوجته يتمشيان على التيررنكور (طريق على جانبيه زهور)، يتمشيان في اتجاه البحر، ثم العشاء، ومن جديد يتنزهان مشياً.

كانت ملابس جورباتشوف بسيطة، كل مجموعة الملابس التي لديه عبارة عن عدة فانلات تي شيرت، جاكتات، سراويل صيفية، أحذية رياضية، وحذاء صيفي، وبالطبع شورتات. سواء كان في الفيلا بالقرب من موسكو أو في القرم كان يرتدي التي شيرت والأحذية الرياضية. في المساء إذا أحس بالبرد كان يرتدى السويتر وغطاء رأس عبارة عن كاب أو طاقية صوف رياضية. لا أدرى لماذا كان يخشى على رأسه، فقد كان يرتدى غطاء الرأس حتى في الطقس الدافئ، وفي الشتاء كان يرتدى غطاء الرأس الفرو ذو الجوانب التي تغطى الأذن، وكان يغطى أذنيه ويربط زوائد غطاء الرأس تحت ذقنه، لتغطى أذنيه تماما مع رأسه.

ورغم أنه كان متواضعاً في ملابسه، إلا أنه عندما يجرى الحديث عن بدلة جديدة يتحول إلى المتعنت الصارخ إلى درجة التماحك. الترزية من العاملين في الإدارة التاسعة في الكي جي بي، رغم أن جورباتشوف كان له العديد من الملحوظات على عملهم، إلا أنه لم يرغب في استخدام غيرهم من أي جهة كانت.. ربما كان يخشى تسريب معلومات إذا استخدم ترزية آخرين. بريجنيف كان يحيك بدله في ما كان يعرف ببيت الموديلات، ومن خامات محلية ومستوردة. اقترحت عليه كحل أن يستخدم بيت الموديلات لكنه رفض قائلاً: لا لا داعي، دع الشباب يحيكون.

الصعوبة كانت متمثلة في أنهم كانوا يقيفون لجورباتشوف بدلا مستوردة، وعملية توضيب البدلة لتلائم الشخص أصعب من حياكتها من البداية: هنا عيوب في الخياطة،

التقنية مختلفة، ومشاكل أخرى. البروفات الكثيرة، والإصلاح، لمثل هذا كان جورباتشوف صبورا، كان يذهب في الوقت المحدد للبروفة، وكان يعطي هذا الأمر الوقت الكافي ودون اعتراض.

المستلم الرئيسي للبدل كانت رايسا جورباتشوف، وكانت توبخ الترزية. لم تكن تخجل. أحيانا كان يبدو أن البداية جميلة وكلنا معجبين، وهو معجب، وهى لا. وكانت تقريباً دائماً محقة، كان ذوقها بلا شك جميلاً.

عندما كان جورباتشوف يشرع في الذهاب إلى فيلا ضواحي موسكو، أحياناً كان يرتدى البدلة ورباط العنق، لكن في الطريق وهو في السيارة، كان يخلع الجاكت ويفتح زراير القميص، ويخلع ربطة العنق. لم يكن متزمتاً في هذا الخصوص.

في دار العرض السينمائي الصيفية تحت السماء المفتوحة، كان أمامه قائمة بأسماء الأفلام، مع ملخص لمحتوى كل فيلم، أحيانا كان يحتدم الجدل بين أعضاء الأسرة حول أي فيلم يشاهدون. عادة ما كان أحد الطرفين يتنازل للطرف الآخر، أحياناً كانوا يبدأون في مشاهدة فيلم، ثم يشيرون على عامل السينما بالتوقف ويطلبون فيلما آخر.

كان جورباتشوف يخلد للنوم الساعة الواحدة – الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. أي أنه حتى في فترة الاستجمام كان ينام ست– سبع ساعات، لا أكثر.

اثنان من السكرتيرين العامين لم يكونا فقط مختلفين، ولكنهما كانا على النقيض تماماً. في العمل كان بريجنيف يثق في زملائه للقيام بحل الكثير من المشاكل خاصة في آخر أعوامه. عند جورباتشوف كان كل شيء يحمله في يده، ويعمل مثل الماكينة، حتى في السيارة ـــ يتصل، لم يكن يضيع وقت، بريجنيف كان يجهل أشياءً كثيرة، كان ينسى. جورباتشوف كل شيء كان حاضراً في رأسه.

أثناء الأجازة والاستجمام كل شيء بالعكس. بريجنيف مغامر سرعة عندما يقود سيارة، عشرات الكيلومترات وسط أحراش الغابات، أو في الجليد العميق للبحث عن حيوان مجروح أثناء رحلات الصيد، السباحة لساعات كثيرة في بحر عاتي الأمواج، وحتى عندما أصبح بريجنيف مريضاً كان يرفض التنازل عن هواياته، في آخر صيف عام ١٩٨٢ قبيل وفاته، سبح لمسافة بعيدة ولفترة طويلة، رغم سوء الطقس.

جورباتشوف شاب قوي، كانت حياته أثناء الاستجمام محسوبة، وموحشة. كل شيء كان مبرمجا. محافظ، ليس لديه الولع أو الشغف الإنساني العادي. ذهب إلى مكان الصيد في زافيدفو عدة مرات، ليتنزه. مرة واحده فقط بعد وصوله للسلطة ذهب للصيد، بدا وكأن الصيد أعجبه. لكن بدأت موجة أحاديث عن اللهو الأرستقراطي لبريجنيف، فامتنع جورباتشوف عن الذهاب إلى زافيدفو.

في القرم كان يسبح مرتين في اليوم: قبل الغداء وقبل العشاء، لمدة نصف ساعة في كل مرة، كل شيء حسب البرنامج، مبرمج. يبدو لي أنهم قليلاً ما كانا يخرجان في الهواء النقي، أو يجلس ساعة زيادة على شاطئ البحر، كنت أشاركهما الإحساس وكنت أشفق

طوال العام عمل شاق، أحياناً في المساء، يصبح كما المعصور، أو كما لو كان قد خرج من ورشة حدادة، وكان يغير قميصه المبتل بالعرق أحياناً، كثيراً ما كان يعود إلى الفيلا في العاشرة مساءً. كان يعمل كثيراً، ويبذل جهدا كبيراً. بعد الاجتماعات العامة والمؤتمرات كان أحياناً ينفرد بأي شخص ويبث له متاعبه. فقد كان يقرأ وهو واقف لأن ظهره يؤلمه.

كان يذهب مرتين في الشهر للمسرح، فقد كانت زوجته تتولى الأمور الثقافية. وكانت تكلفني بمعرفة العروض المسرحية وأين تعرض، وكنت أقدم لها برامج عدد من المسارح، فكانت تختار منها ما يتوافق مع ذوقها، وكانت كل الأسرة تذهب إلى العرض المسرحي معاً. في الاستراحة كانوا يحتسون الشاي وكانوا يدعونني. في مسرح البولشوي استمع إلى " خوفانشيينا" وفي المسرح الصغير شاهد مسرحية تشيخوف " ايفانوف "، وفي مسرح كيروف في لينينجراد بعد مسرحية " على القاع " التقى بالممثلين خلف الكواليس. مجموعة من النجوم: سترجيلتشيك، باسيلشفيلي، فريندليخ. في موسكو عندما غنى بافاروتي (مغنى الأوبرا الإيطالي الشهير – المترجم) ذهب إليه جورباتشوف في الكواليس. في الخارج كثيراً ما كانوا يأتون له بالممثلين في المقصورة التي يجلس فيها لتحيتهم، وكان يحدث هذا عندنا فقد أتت إليه في المقصورة راقصة البالية لودميلا سيمينياك، زار كذلك مسرح موسكو، والكونسرفتوار، لقد كان لديه تصور عام عن الحياة الثقافية في البلاد.

يبدو لي أن رايسا جورباتشوف هي التي كانت تجعله متحفظاً أثناء الاستجمام في القرم، برمجته وعدم قدرته على الخروج عن المألوف كان بمبادرة منها، فقد كان تابعاً لها. كان يسير بتعليماتها. الآخرون كانوا يلاحظون هذه التبعية، ولم يفهم أحد سبب هذا الاعتماد عليها . لأي سبب ولأية مشكلة يلجأ إليها؟ لقد كان عندها إن صح التعبير جنون العظمة. ذات مرة قامت رايسا جورباتشوف بتوجيه مخرج مسرحي مشهور، وجورباتشوف أيدها في ملحوظتها قائلاً للمخرج: لا لا أستمع إليها، إنها تعرف، إنها تعرف...

عندما يكون موعد سفرنا في مأمورية في اليوم التالي كنت أذهب إليه أنا أو بليخانوف ونسأل: متى سنسافر غداً في العاشرة أم في الحادية عشرة؟ فكان يقول: سأقول لكم فيما بعد، سأستوضح. كله مفهوم: سيسأل رايسا، ثم بعد ذلك يخطرنا. عندما كانا بركبان السيارة كانت رايسا تجلس مكانه في الخلف إلى اليمين وهو بجوارها كما لو كان تابعاً لها. عندما يكون بمفرده، يتحول إلى شخص آخر مرح، متحدث إلى الناس، منطلق، رغم أنه كان يقول لنا: إنه لشيء جيد أن رايسا تسافر معي. وإلا لكنت أجلس حتى الثالثة أو الرابعة فجراً أعمل، أنها تجبرني على النوم في الوقت المناسب، وأحياناً برغم هذا كانت توصله إلى حد الضجر وكان ينفجر، ويفترقا كل في طريق، ويعودان إلى المنزل كل على حدة.

يوم ١٧ أغسطس عادا من البلاج في المساء، ويبدو أنهما ناقشا كل شيء وقال لي: فولوديا بعد غد ١٩ أغسطس في الساعة الواحدة ظهراً سنغادر، متى يجب أن نغادر

الفيلا؟ فقلت له: الطريق يستغرق أربعين دقيقة، إذا لم يتطلب الأمر وداع أحد فيمكن أن نغادر في الثانية عشرة ظهراً. في هذه اللحظة اتصلت مع ف. جنرالوف، نائب بليخانوف في موسكو، فقال: سأحضر إليكم على نفس الطائرة، وسآتي إليكم في الفيلا. هكذا في أيام جورباتشوف، عندما كان يعود إلى موسكو من أي مكان، كان لابد أن يأتي إليه أحد قيادات الإدارة "التاسعة" من موسكو. من أي شيء كان يؤمن نفسه؟ لم أفهم، على أية حال الأمر لا يخصني، النظام يجب أن يتبع.

مساعد الرئيس أ. تشيرنيايف طلب مني الاتصال بمساعد آخر للرئيس ج. شاهنازاروف، الذي كان يستجم في مصحة "يوجنى" التي تبعد عنا مسافة عشر دقائق بالسيارة، لكي يسافر معنا إلى موسكو، فأخبرته بموعد الطيران، وأنه يجب أن يسافر مع جورباتشوف.

١٨ أغسطس كان كذلك يوما عاديا، في حوالي الساعة الحادية عشرة نزل جورباتشوف وبصحبته زوجته إلى البحر، بعد الراحة قامت هي بالسباحة، وهو كان يقرأ كتابا على البلاج، بعد أكثر من ساعة توجها إلى المنزل. أثناء الطريق كانا يؤكدان على موعد الخروج من الفيلا والطيران.

أنا عدت إلى مكتبي وأعطيت بعض الأوامر بخصوص الذهاب للمطار، وتناولت طعام الغداء. في الساعة الثانية والنصف اتصلت بزوجتي في مصحة " فوروس" واتفقت معها على أنني في التاسعة سأحاول الحضور إليها نظراً لأنني سأسافر في الغد إلى موسكو.

بعد حوالي ساعتين اتصل بي نوبتجي المبنى وقال لي: فلاديمير تيموفييفتش! لقد وصلت لرجال الحدود أوامر بعدم السماح لأحد بالخروج عبر البوابات الاحتياطية للفيلا! بدوري سألت: من أين جاءت الأوامر؟ فقال: لا أعرف، بدأت استوضح الأمر، في هذه اللحظة دخل علي في المكتب رئيساي في العمل جنرالوف وبليخانوف....

قالت دانا (عن هذا الأمر– المترجم): زوجي زارنا عدة مرات. في الظهيرة أثناء راحة الغداء، كان يأتي إلى البلاج بقارب لنش، أحيانا كان يفلت في المساء، كان يأتي لوقت قصير جداً. الطقس كان رائعاً، مشمساً، والحالة المزاجية ممتازة)

كنت قد زرت الأسرة يوم ١٧ أغسطس كالعادة وقلت لهم أنني سأطير إلى موسكو يوم ١٩ مع جورباتشوف، وسأعود بعد يوم أو يومين. واتفقنا على أن يقوم سائقي فياتشسلاف ويوري بعمل جولة للأسرة في مدينة سيفاستوبل يومي ٢١ – ٢٢.

في غرفتها بالمصحة كان لديها تليفون واتفقنا على نتصل ببعضنا ونلتقي، وعدتهم بإحضار فواكه وبطيخ، دانا أعدت طردا لوالدتها التي بقيت في قرية الفيلات بالقرب من موسكو في حالة قلق.

مساء يوم ١٨ أغسطس كان شديد الحرارة. بعد العشاء خرجت زوجتي من المبنى وانتظرت السيارة، وطال انتظارها حتى العاشرة مساءً.

لم تشعر في البداية بأي مصيبة، لكن عندما عادت إلى غرفتها اتصلت بي لكن التليفون بدون رد، فاتصلت بالضابط النوبتجي في فيلا الرئيس. لم تستخدم دانا هذا التليفون من قبل أبداً، وكنت قد أعطيتها الرقم لتستخدمه في حالة الضرورة القصوى، إذا حدث شيء لها أو للأطفال. وهذا التليفون أيضاً بقي دون إجابة.

الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة والنصف، بدأ القلق يسيطر على زوجتي. حاولت أن تطمئن نفسها: يبدو أنني سافرت مع جورباتشوف قبل الميعاد فجأة. لم تنم طوال الليل.

منذ وقت قصير تحدثت مع جنرالوف في موسكو، واتفقنا على كل شيء، وفجأة هو هنا مع بليخانوف، ألقيت عليه التحية وسألته بعدها مباشرة: من أعطى الأوامر بغلق المداخل؟ فقال: أنا. ابتسم بليخانوف، لا تقلق كل شيء على ما يرام.

عندما يصل مدير الإدارة كل مقاليد الإدارة في الفيلا تخضع له، فهو له الحق في إعطاء الأوامر لأي نقطة حراسة، من الناحية الشكلية لم يكن هناك أية مخالفة أو استغلال للسلطة، في الواقع بقيت أنا كرئيس حراسة خارج الصورة من الأحداث.

قال بليخانوف:وصلت مجموعة للقاء جورباتشوف، اذهب واخطره. سألته: من أتى؟ ما طلباتهم؟ كيف أخطره؟ فقال بليخانوف: لا أعرف... لديهم أمور ما...

لاحظت بوضوح أن بليخانوف كان عصبياً، لكنه برر ذلك بأهمية الموضوع الذي وصلت من أجله هذه المجموعة. بعد مرور بعض الوقت تنبهت لأنه كان عصبياً وقلقاً وغير هادئ، في حينها شاهدت ذلك بسرعة ومر الأمر . بليخانوف بعد فترة صمت قال: ماشي سنذهب إليه نحن. كيف ستذهبون؟ يجب إخطاره. فقال: اذهب واخطره. ذكر أسماء الشخصيات التي حضرت: شينين، بكلانوف، بولدين، فارينيكوف. قائمة الأسماء كانت بعيدة عن الشكوك، بل أكثر من ذلك تدعو للاطمئنان.

أولاً بليخانوف نفسه، أهل ثقة لدى جورباتشوف. شينين شخصية جذابة بطبيعتها، غير عادية، جورباتشوف ذهب إليه في زيارة عندما كان يشغل منصب السكرتير الأول للجنة الحزب في ضاحية كراسنويارسك، وكان اللقاء والوداع دافئ وودي. جورباتشوف استدعاه إلى موسكو ووضعه ليس في أي مكان، بل مشرفا علي قسم عمل المنظمات الحزبية، أي أنه آمنه على كل أمور الكوادر في موسكو حفاظاً على العلاقات الودية بينهما.

بكلانوف عقدت بيني وبينه أواصر علاقات طيبة. فهو شخص من حيث المبدأ ودود، عند اللقاء يصافحك بدفء، سكرتير اللجنة المركزية ومشرف على المجمع العسكري الصناعي والفضائي. كان يتصل بجورباتشوف يخبره بأية معلومات وأحياناً كان يتصل من خلالي، إذا كان جورباتشوف غير موجود كان يقول: اكتب واخطره بكذا وكذا، وأثناء الأجازة كان جورباتشوف على اتصال دائم به.

بولدين رئيس ديوان الرئاسة، جدول أعمال الرئيس طوال اليوم عنده. ولم يدخل على جورباتشوف ولا مرة من خلال السكرتير بل كان يدخل مباشرة ودون إخطار مسبق.

الجنرال فارينيكوف. أيضاً أحد المحيطين المقربين.

الجميع من رجاله، ومن أقرب المقربين له.

بليخانوف بقي عندي في المكتب، في بيت الضيوف، والباقون كانوا في غرفة الاستراحة. توجهت إلى جورباتشوف وكان يجلس مرتدياً روبا شتويا. كان يقرأ صحيفة، ومصاب منذ ثلاثة أو أربعة أيام بآلام في أسفل الظهر، ربما بسبب تعرضه لتيار هواء. وكان قد عاد من تمشيته اليومية ويتأوه أثناء صعوده السلم بصعوبة فقلت له: أتسمح لي يا ميخائيل سرجييفتش؟ فقال: ادخل ماذا حدث؟ فقلت حضرت مجموعة، وذكرت له الأسماء وهم يطلبون مقابلتكم.

اندهش جورباتشوف وقال: لماذا حضروا؟ فقلت: لا أعرف.

صمت جورباتشوف لفترة طويلة وأنا واقف أمامه لمدة دقيقة تقريباً، فقد ساوره الشك. لا أدرى لماذا لم تكن لديه الرغبة في التشاور وطرح وجهة نظره، ثم قال: فولوديا، انتظر لنتحدث. وسألني: مع من أتوا؟ بمفردهم أم مع "ألفا"؟ كيف كان حديثهم؟ لا تخرج، ابق معي، ونفذ أوامري فقط. وإذا كان الحديث سريا: خذ الشباب الذين يتبعونك، وكونوا قريبون منى على استعداد لأي شيء.

يبدو لي أنهم تحدثوا من قبل مع جورباتشوف حول إعلان حالة الطوارئ في البلاد، ومن الممكن أن يكون الحديث قد أخذ الطابع العام. فهم لم يأتوا لاعتقال الرئيس، ولكن للاتفاق معه، وليقنعوه بوضع توقيعه. ومادام قطعوا هذه المسافة فهذا يعنى أنه كان لديهم أملا في أن يوقع. لكن ربما لم يتم الاتفاق على الشكل أو الطرق للوصول لهذا.

الضيوف لم يعرفوا على أي شيء سينتهي الحديث، ولا هو كان يعرف، لهذا لم يجد ضرورة للحديث معي. هنا خذله التنازع مع: الحراسة، الحديث فقط من خلال بليخانوف، وعادته الأبدية بالتشاور مع رايسا جورباتشوف؟ بالفعل، بعد تفكير لمدة دقيقة وارتباك خفيف، ذهب إليها في غرفة النوم....

أنا توجهت إلى مكتبي . فضلت السير على نظريته: تعرف أقل، تنام أفضل...

في المكتب عندي كان يجلس بليخانوف، فأبلغته بأنني نفذت الأوامر وأخطرت جورباتشوف. لكنه لم يجب لا " بنعم " ولا " بلا ". بليخانوف حينها أخذ المجموعة التي وصلت بنفسه إلى جورباتشوف. ثم عاد بسرعة، وقال: إن جورباتشوف غير موجود في مكتبه، وطلب منى الذهاب إلى المبنى الرئيسي بحثاً عنه، فأجبت: بأنه على ما يبدو في غرفة النوم، ومن غير المستبعد أنه يقوم بتغيير ملابسه، انتظر سيخرج.

مر الوقت وجورباتشوف لم يظهر، مدير الإدارة طلب منى أن أذهب إليه وأنا رفضت من جديد وقلت: لن أمشي في البيت بحثاً عن الرئيس، فالسير في المبنى الرئيسي كان ممنوعاً بأوامر صارمة، وهو أمر طبيعي فالأسرة حضرت للاستجمام، وكل حركة زائدة تسبب الحرج، والضجر. وصل بولدين وقال: غير موجود، اذهب واعثر عليه. فقلت له: لن أذهب إلى غرفة النوم. مرة أخرى تدخل بليخانوف وانضم لصوت بولدين: انظر، الجميع ينتظر.

صعدت معهم إلى البيت من جديد، كل المجموعة كما كانت تجلس في الصالة، كانوا يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خفيض، وهادئين تماماً، ودون مظاهر للتوتر. أنا أدركت المهم، وهو شيء ما حدث في موسكو، لكن ليس له علاقة بعملنا. بولدين وبليخانوف انضما إلى المجموعة، وأنا توجهت إلى مكتب جورباتشوف مرة أخرى، ولم يكن موجوداً. وقفت لدقيقة، ثم استدرت وأمام الجميع بصمت خرجت إلى مكاني. بعدها بقليل عاد بليخانوف وسألني: ماذا حدث؟ محاولاً استيضاح الأمر. فقلت له: عندهم بعض الأمور الخاصة...

تحدثنا عن مشاغلهم اليومية. أنا تحدثت عن آلام الظهر، وكيف حدثت، وكيف استدعت رايسا جورباتشوف من قبل رئيس القسم وأصدرت تعليماتها بتغيير الثريا في المنزل الموجود على البلاج بأخرى أبسط، وفي سياق الحديث سألت بليخانوف: لماذا حضرت المجموعة، فابتسم من جديد وكرر: اهدأ، اهدأ كل شيء سيكون على ما يرام، هنا قمت برفع سماعة تليفون المنزل. عند جورباتشوف يجب أن يكون النور مضاء، إذا كان متواجدا مكانه سيرد حتماً على التليفون.. لكن بليخانوف أخبرني: لا تقترب من التليفون فهو لا يعمل.

هنا فهمت أنه ربما يكون نفس سيناريو خلع خروشوف. كل الاتصالات مقطوعة. خرجنا من المنزل وتوقفنا عند المدخل، عند مخرج بيت الضيوف ظهر الزوار. بليخانوف سأل عبر الطريق بصوت عال: هل من جديد؟ فأجابه بولدين بصوت عال: لا شيء، لا لم يوقع. كانت الإجابة تحمل خيبة أمل لكنها هادئة، كما لو كان من المتوقع أن يحدث هذا، وحدث.

تحرك بليخانوف لمقابلتهم، وجلسوا جماعتهم يتحادثون عن شيء ما،و ما إذا كان جورباتشوف يريد بالفعل تغيير الوضع الحالي السيء الذي وصلت إليه البلاد!

كان لدي عدد من الرجال تحت إمرتي، وكذلك طائرة من طراز " تو ١٣٤ " ومروحية، والأمور الفنية بسيطة: آخذهم وألبسهم القيود الحديدية وأنقلهم لموسكو. وليظهروا في العاصمة حيث يمكن هناك القبض على أي شخص. اليوم مازال ١٨ أغسطس، لماذا لم يتنبه جورباتشوف لهذا الأمر؟ ألم يكن يعرف النتيجة؟ لكن كيف لنا أن نعرف نحن الحراسة، هل نستطيع التكهن؟.

فيما يتعلق بي كرئيس حراسة، المشكلة الأساسية، هل هناك خطر على حياة أو أمن الرئيس الشخصي في هذه اللحظة أم لا؟. لكن شر البلية ما يضحك، ليس هناك ما يهدد حياته، وعن اعتقاله ما كان يمكن أن يكون هناك حديث. ودع أعضاء الوفد بعضهم البعض بالسلام باليد، الوفد خرج من عند جورباتشوف رغم أنهم كانوا متعكري المزاج إلا أنهم كانوا هادئين إلى حد ما، لم يتحقق الهدف من الحضور، لا بأس فقد كانوا يتوقعون النتيجة. ماذا سيحدث بعد ذلك، لم يكن أحد يعرف، لا جورباتشوف ولا هؤلاء الذين حضروا إليه.

على أي شيء كانوا يتشاورون بعد الجلسة غير الموفقة؟ لا أعرف. بليخانوف اتجه إلي ودعاني إلى المكتب وقال لي: جورباتشوف سيستمر في الاستجمام، جنرالوف سيبقى

كرئيس حرس في الموقع وسيحل محلك ... من ستبقي؟ وهنا دخل كليموف. هذا أوليج جنرالوف سيقوم بأعمالك، وأنت لديك ثلاث دقائق لتجمع حاجياتك وستطير معنا إلى موسكو.

أنا أعمل في الكي جي بي. جنرال كي جي بي ، ومن الكي جي بي كنت أحصل على راتبي لسنوات طويلة، أديت القسم وأنا اتبع بالكامل لهذه المنظمة الجبارة، بالإضافة إلى هذا بليخانوف هو الذي أدخلني مكتب جورباتشوف مباشرة، وهو كذلك الذي يملك سلطة إقالتي من منصبي .

منذ فترة طويلة دار الحديث عن إخراج حراسة الرئيس من تحت عباءة الكي جي بي، وأقنع الكسندر ياكوفليف(مهندس البيريسترويكا وكان يعمل سفيراً للاتحاد السوفييتي في كندا وتحوم حوله شبهات بأنه كان جاسوساً- المترجم) جورباتشوف بهذا. في كل دول العالم المتحضر الحراسة تتبع الرئيس. نحن الحراسة بما فيهم أنا كنا نؤيد هذا، لكن بليخانوف كان ضد هذا، وبرر بليخانوف حينها رفضه لجورباتشوف قائلاً: الرئيس ستحميه حراسته الشخصية لكن في الوضع الحالي الرئيس سيحميه الكي جي بي بأكمله.

في هذه اللحظة هنا دار الحديث عن النظام العسكري البديهي.

سألت بليخانوف: هذا أمر؟، فقال: نعم!، فقلت: أنتم تقيلونني من منصبي؟ لماذا؟ فقال: كل شيء يتم بالتوافق. فقلت له: اعطني أمرا مكتوبا وإلا لن أسافر، الأمر خطير ومن الممكن أن تتنصلون منه غداً،كيف سأبدو في هذه الحالة؟.

أخذ بليخانوف ورقة وقلم وجلس يكتب. فقلت له: عندي أشياء على البلاج، فقال: سيحضرونها، ثلاث دقائق لعمل كل شيء. قمت بجمع حاجياتي التي كانت قريبة مني، وبليخانوف كتب الأمر. دخل بولدين وقال: لنذهب، فقال بليخانوف: لحظة واحدة، ومد يده بالأمر المكتوب قائلاً: ها، اقرأ.

أخذت أفكر، اعتقال، ليس اعتقال؟ لم يأخذوا منى السلاح. أنا أحضرت المسدس من الخزنة، وعلقته على الحزام. عند المخرج قابلت الطبيب قلت له: لا تذكرني بسوء. إلى اللقاء.

بالطبع كان قادتي يفهمون أنهم لا يجب أن يبقوا علي في الفيلا، فأنا لن أنضم للمؤامرة معهم أبداً، وكنت سأستمر مخلصاً للرئيس، كما كنت دائماً. وهذا يعنى أنني كنت سأنظم سفر جورباتشوف إلى موسكو، وتنظيم الاتصال بكل أنحاء العالم، وأكرر أن أطقم الطائرة الاحتياطية والمروحية، وكل القوة الموجودة في أرض الفيلا كانت تابعة لي.

أنا أستطيع أن أضع نفسي في وضع كريم، قادتي يعرفونني جيداً، حتى لم يحاولوا، أن يخوضوا معي في موضوع المؤامرة.

تحركوا في ثلاث سيارات فولجا، في المقعد الخلفي إلى جواري جلس بليخانوف، وفي المقعد الأماني مدير الإدارة " التاسعة " من القرم العقيد ليف تولوستوي. لم أتحدث إلى أحد طوال الطريق.

في مطار بيلبيك اقترب مني شينين وسألني: لماذا أنت حزين هكذا؟، فقلت له: وما الذي يسعد؟ ألم يعتقلوك أبداً؟ فابتسم وقال: لا تهذي.

أخذت جانباً بعيداً عن الجميع، موقف هزلي. أشعرني بالإهانة. لقد خذلوني، خانوني. لقد فعلوا كل شيء من خلف ظهري، ولم يشرحوا لي شيء. المجموعة التي حضرت كانت متماسكة معاً، وظلوا على حالهم وكانوا يتسامرون بهدوء، على الأقل ظاهرياً. ثم أتى إلي بكلانوف، الحديث تكرر تقريباً حرفياً: لماذا أنت حزين؟ وقلت: ما الذي يسعد؟ فقال: فعلاً، تعرف إنه شعور غير طيب – قالها بصورة إنسانية تماماً.

مكثنا في المطار حوالي ١٥ دقيقة، بقي فارينكوف، والأربعة الآخرون ركبوا الطائرة.

مدير الإدارة " التاسعة "المحلية العقيد ليف تولوستوي كان يعرف وضعي. فاقترح أن يساعدني وقال: هيا هيا سأساعدك، فقلت هيا ساعدني أيها العقيد لآخر مرة، أخذ حقيبتي وحملها إلى الطائرة، وقال بعض الكلمات لتهدئتي، لا أذكر حينها بماذا أجبته، وتمنى لي السلامة، فقد كان يشعر بالأسى لأجلي، أي شخص آخر غيره ما جرؤ على الاقتراب مني. جلست في الطائرة في كابينة منفصلة وكنت أحملق من شباك الطائرة.

هبطت الطائرة في مطار تشيكالوف في ضواحي موسكو. توجه الجميع إلى الكرملين، واقترح على شينين أن أذهب معهم وقال: اجلس لنذهب. في الكرملين وجدت نفسي زائدا فليس لي عمل، فقال لي بليخانوف: اذهب، ابق في المنزل.

ذهبت إلى الفيلا الحكومية في زاريتشي، هناك استقبلتني يلينا فيودروفنا والدة زوجتي دانا، وقلت لها إنه تم استدعائي من العمل.

فيما بعد فكرت كثيراً. إذا كانوا بالفعل حضروا لاعتقال جورباتشوف بالقوة؟ ما كنا لنعطيهم فرصة لعمل هذا، ولحدث صراع. لكن إذا كان كريوتشكوف (رئيس الكي جي بي) أو نائبه أو فارينيكوف نفسه لديهم أمر اعتقال، كنا بالطبع سننصاع، إتباع الأوامر واجب، هذا هو الانضباط العسكري، هذا واجبي ، لقد أقسمت على هذا.

إذا كان من المفترض أن يحدث ما حدث بالفعل فهذا حسن، أن الأمور سارت على هذا النحو. بدون تآمر، اعتقال، تهديد، عنف، ابتزاز. أي أنه في هذه الحالة الانضباط العسكري لم يتناقض مع المفهوم الأخلاقي للواجب.

لم يكن هناك أي تهديد لحياة الرئيس... إنهم حتى لم يخلّوا بالهدوء الروحي للرئيس في ذلك اليوم. نحن طرنا إلى موسكو وذهب الرئيس إلى البلاج. أخذ حمام شمس وسبح، وفي المساء كالعادة: شاهد السينما.

بدأ جورباتشوف يشعر بالقلق بعد ذلك بكثير، بعد مرور يوم كامل عندما أعلن ينايف في مؤتمر صحفي أن جورباتشوف مريض.....

يلتسين بمجرد وصوله للسلطة، بسرعة قام بعمل خطوة هامة جداً: أخرج حراسته الشخصية من تحت سيطرة الكي جي بي، وقام بتحويلها بالفعل إلى شخصية، وتتلقى الأوامر منه فقط.

بعد ليل ١٩ أغسطس الذي لم أنم فيه في السابعة صباحاً اتصلت زوجتي بموسكو في الفيلا الحكومية، رفعت السماعة والدتها، وقالت لها بقلق: فولوديا موجود بالمنزل، وصل أمس متأخراً في المساء. وهو نائم الآن. فطلبت منها أن توقظني. حتى الآن لا أعرف شيئاً قلت لها: لم أفهم هل فصلوني من العمل أم أني تحت التحفظ في المنزل.

عندما سمعت صوتي وفهمت أنني حي أرزق، هدأت بعض الشيء. وقالت: الحمد لله أنه لم يقتلني أحد ولم أقتل أحد.

فسألتني: أين جورباتشوف؟ قلت: إنه في القرم. فبادرت بسؤال: من حل محلك معه؟ أجبتها: جنرالوف.

كانت دانا تعرف فياتشسلاف جنرالوف جيداً: رجل طويل القامة، جميل المظهر. وكانت تعرف تانيا زوجته، وأولاده. شخص تنفيذي. فيما بعد، تنفيذية جنرالوف قدرها النائب العام الروسي ستيبانكوف بشكل أكثر تحديداً وبمهنية، فقد كان من الصعب أن يجدوا شخص أكثر ملائمة لعملية عزل الرئيس. جنرالوف كان يعرف الفيلا مثل أصابع يده، فهو الذي كان يعدها لاستقبال جورباتشوف للاستجمام كل مرة. من حيث شخصيته فهو عسكري قديم. تحدث إلى العاملين في الحراسة بعد سفر المتمردين، وعبر عن وجهة نظره فيما يحدث: إذا طلبوا مني "الوقوف انتباه" سأقف " أكثر انتباهاً ". كان يعرف كيف يتواءم مع رؤسائه. يحكي بعض العاملين في الحراسة أنهم كانوا شهوداً لهذه الصورة:رئيس خدمات الحراسة يتحرك في مكتبه يدخن، ويمشي وراءه جنرالوف ممسكاً طفاية السجائر لينفض فيها رماد السيجارة.

زوجتي كانت تخشى بليخانوف، لا أدرى لماذا؟ فقد كانت تعتقد أنه يستحوذ على سلطة كاملة غير محدودة، وكانت تفهم أن ما يربطني بهؤلاء الناس ليس فقط الخدمة، ولكن أيضاً سنوات من العلاقات الشخصية، فهذا أمر لا مفر منه. وهاهم من وراء ظهري تآمروا.. في كل الأحوال ورغم أي شيء، لقد كان بالنسبة لزوجتي الأفظع أن تتخيل أنني أوجه سلاحي إليهم.. نعم زوجتي كانت سعيدة، أنني لم أقتل أحداً.

نحن كلانا أنا وزوجتي كنا في حالة عدم رؤية في تلك اللحظة، وكان فهمنا قليلاً لما يحدث. سألتني زوجتي: لا شيء يهددك؟ فقلت لها: لا، لاشيء. لا تقلقي، وابقِ في القرم، أنا ربما أذهب اليوم إلى القرية لوالدي. ثم قطعت الاسترسال في المحادثة وقلت لها: افتحي التليفزيون بسرعة! فتحت التليفزيون وسمعت عن إعلان حالة الطوارئ وفهمت كل شيء، تحت الحراسة أم لا أحضروني إلى موسكو، لكنهم بالقوة حملوني من فوروس.

زوجتي كانت تخاف الخروج خارج غرفتها، وبدا لها أن هناك من يحدث أصوات بالباب كما لو كان يريد الدخول. قررت الخروج، بالفعل كانت هناك إحدى العامـــلات - فراشة- أخبرتها بأن نائبة كبير الأطباء في المصحة تريد الحديث إليها، الوقت كان قد تخطى السابعة صباحاً بقليل. ذهبت إليها في مكتبها، نائبة كبير الأطباء نظرت إلى زوجتي نظرة متفحصة، وأعربت عن مواساتها لها وقالت: من زمان كان يجب فرض

النظام ليعود الانضباط في البلاد. إنه لشيء جيد أن وجد أشخاص مثل هؤلاء سيضعون كل شيء في مكانه الصحيح.

خرجت دانا من مكتب نائب كبير الأطباء، أول الرواد في المصحة قابلتها في الممر نظرت إليها بلوم وشماتة وقالت: كان يجب عمل هذا من فترة طويلة، كما لو كانت هي أو أنا المتهمين فيما وصلت إليه البلاد.

هكذا كان بالنسبة لها ١٩ أغسطس ١٩٩١ في مصحة اللجنة المركزية المميزة، في صباح القرم الجميل بشمسه المشرقة، وبحره الفيروزي الهادئ.

صباح يوم ١٩ أغسطس، وكما قال لي بليخانوف، حضرت إلى الكرملين، لكنه قال لي: ليس لدينا وقت لك. خرجت من عنده، وذهبت بسيارته إلى زاريتشي، ومنها جمعت حاجياتي وتوجهت إلى والدي في القرية.

عند العواجيز – هدوء لا صحف ولا راديو. التليفزيون معطل . لم أكن مهتماً بشيء.

يوم ٢٠ أغسطس. في نهاية اليوم حضر أخي: " في موسكو تحدث أشياء مهمة، وأنت تجلس هنا ".

يوم ٢١ عدت من جديد إلى موسكو. اتصلت بفيلا جورباتشوف في القرم، قام بالرد على أحد شباب الحراس (كان موجوداً كذلك الكومندان، ونائبي) من هو؟ لا أذكر. ودعاني: تعالى إلى هنا.

وصلت. عرفت أن طائرتين طارتا إلى فوروس. قررت أن أتوجه إلى المطار لأستقبلهم. اتصلت بفوروس حيث شباب الحراسة الذين كانوا يعملون معي، فقالوا لي أنهم خرجوا من الفيلا، وموعد الطيران الساعة كذا.

مساء يوم ١٩ أغسطس زوجتي دانا وابنتي، وصحفيين معارف توجهوا للتنزه حتى فيلا الرئيس خصيصاً ليعرفوا هل سيسمح لهم بالاقتراب من الفيلا. كانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً، في هذا الوقت يتم تغيير الحراسة المسائية. افترق فريقي الحراسة مغيرين بعضهم البعض في سيارتين مسقوفتين. في هذه المرة لاحقتهما ثلاث سيارات، بالإضافة لسيارة كانت متوقفة على جانب الطريق عند مفرق الطريق المؤدي إلى الفنار، وقرروا ألا يذهبوا لأبعد من ذلك. إلا أنه ولدهشتهم الشديدة، ساروا حتى بوابات فيلا الرئيس بهدوء وجلسوا هناك على دكة موجودة، ولم يسألهم أحد عن أوراقهم الثبوتية. أي أن كل الأمور كما كانت في السابق، لم يتغير شيء . في اليوم التالي ٢٠ أغسطس قاموا بالتنزه في نفس المكان، وكان الأمر كذلك دون معوقات. تنزهت كذلك بهدوء، مجموعة أخرى من المصطافين حتى المنطقة الممنوعة . إنهم لم يفهموا، إلى أية درجة تمت تقوية حراسة الهدف " زاريا " (اسم فيلا الرئيس في فوروس لدى الكي جي بي)، وما إذا كان الرئيس معزولا تماماً بالفعل أم لا، على أية حال بقي كل شيء كما كان في السابق.

يوم ٢١ أغسطس كان ضابط من الكي جي بي يبحث عن دانا زوجتي في المصحة، طوال هذه الأيام الثلاثة كان متواجداً في فيلا الرئيس، قام بإعطائها حقيبة بها أشياء خاصة

بي، ومنها الأشياء التي بقيت على البلاج. من خلال الأشياء التي أعطاها لها فهمت أنهم لم يعطوني وقتا لجمع حاجياتي. "ماذا حدث لجورباتشوف؟" سألت الضابط. فقال لها: كل شيء على ما يرام.

اتصلت دانا زوجتي بالمنزل، فقالت لها والدتها إنني عدت من القرية وذهبت لاستقبال جورباتشوف في المطار بموسكو فاغتبطت روحها، فقد كانت تأمل وتثق بأن الحقيقة ستظهر، وكل شيء سيعود إلى ما كان عليه.

بعد مغادرة جورباتشوف، سمحوا للسائقين يورى وفياتشسلاف بالخروج خارج أسوار الفيلا، وقد استطاعا أن ينظما لزوجتي جولة في مدينة سيفاستوبل بسيارتي التي أصبحت بلا عمل.

مطار فنوكوفو – ٢.

بهرجة وتململ. جنود يجرون هنا وهناك. بارينكوف، شاخراى، ستانكيفتش. وجاء أيضاً بسميرتنخ (وزير الخارجية السوفييتي آنذاك) وقد أدهشني أن بارانيكوف وزير الداخلية لا يعرف في أية طائرة سيصل جورباتشوف، سألني: في الطائرة الثانية؟ أم في الطائرة الأولى. أجبته. اقترب منى ستانكيفيتش وسألني: أنت هنا؟ كنت أعتقد أنك هناك. فقلت له لقد استدعوني.

هبطت الطائرة وبدأ العرض المسرحي.

ممكن أن أكون مخطئاً في شيء ما، لكن كإنسان مارس باحترافية أمن قادة البلاد يمكنني أن أؤكد على أنه تم إخراج مسرحية متقنة. هبطت الطائرة وتوقفت أبعد من المعتاد. وكما شرح فيما بعد روتسكوي (كان نائب الرئيس الروسي يلتسين وتآمر عليه عام ١٩٩٣، بعدها قصف يلتسين البرلمان وحاكمه ثم عفا عنه – المترجم): "إذا حدث وكان المطار محاصرا، فإنه يمكننا الطيران من جديد. غباء! فقد كان لديهم اتصال بالأرض، وكانوا يعرفون كل شيء وهم في الجو: من سيستقبلهم وأين سيقف.

تقدم سلم الطائرة وفتح الباب. من كوة الطائرة أطل رئيس الحراسة الشخصية لروتسكوي، ونزل سلم الطائرة حاملاً بندقيته الآلية بسرعة وباستعراض. ذهب إلى بارانيكوف وهمس في أذنه بشيء ما، ثم بشكل استعراضي عاد مسرعاً إلى الطائرة.

بعد ذلك فقط فتح باب الطائرة من جديد، وظهرت الحراسة الخاصة بجورباتشوف، كلهم معلقين البنادق الآلية، كما لو كانوا قد كسروا حصاراً كان مفروضاً عليهم وتخلصوا منه بعد معركة، بعدهم ظهر جورباتشوف، ثم باكاتين (وزير داخلية روسيا آنذاك، وهو الشخص الذي سلم الأمريكيين خريطة أجهزة التنصت في سفارتهم في موسكو – المترجم)، ثم رايسا جورباتشوف... بعد ذلك مقابلة صحفية، مع كلماته المشهورة، والتي ستدخل التاريخ عن أنه " كان يسيطر على الموقف " في فوروس.

أنزلوا السلم الخلفي للطائرة، هناك حراسة أيضاً.

فيما بعد حكى جولينتسوف النائب الثاني لي، والذي كان يرافق الرئيس، أنه عندما هبطت الطائرة سألته رايسا جورباتشوف: من سيكون في استقبالهم؟ عدد لها جولينتسوف

الأشخاص بما فيهم أنا فسألته: وهذا ماذا يفعل هنا. عندما هبط جورباتشوف سلم الطائرة، مر بنظره علي دون إلقاء التحية، في حين ألقى التحية على نائبي بيستوف.

سألت جولينتسوف: ما الموقف؟ فأجاب باختصار سأذهب في السيارة، الباقي سأحكيه لك في الفيلا.

فهمت أنني مفصول، وأن عظامي قد طحنت ولم يبق منها شيء. كل شيء انتهى.

ذهبت معهم على أية حال إلى فيلا جورباتشوف، ذهبت حيث الخصومة. حيث تذكروا ما حدث هناك في فوروس، وقد شرحت لهم أنني غادرت تنفيذاً لأمر كتابي .

تحادثت مع الزملاء، وذهبت، وفي اليوم التالي حضرت إلى فيلا جورباتشوف من جديد.

الكومندان بوندار لأول مرة يتحدث معي بصيغة الجمع، مما يوحى برسمية في العلاقة: ميخائيل سرجييفتش يطلب منك أن تسلم السلاح وأن تغادر أرض الفيلا.

كان هذا يوم ٢٢ أغسطس يوم عيد ميلادي وقد قضيت هذا اليوم مع حماتي وحدنا. بعد يومين وصلت زوجتي دانا من القرم قلت لها: خلاص كل شيء انتهى. فقالت: الحمد لله.

لقد استقبلت دانا في المطار. كما قالت لي فيما بعد، ويبدو أن مظهري أذهلها: كنت نحيفاً، شاحباً، والعين بها وميض.

خلال الأيام التي عشناها في الفيلا الحكومية، حدث عدد من الأحداث التراجيدية، حيث انتحر عدد من المسئولين الكبار الذين كنت أعرفهم جيداً، من الناحية الإنسانية أسفت على رحيلهم. اشتد القلق حولنا، وبدأت تضيق حولنا حلقة غير مرئية. فقد كان يتتبعني– بالمعنى الحرفي للكلمة– المصورون، والصحافة المقروءة والمرئية. لقد كانت مطاردة بمعنى الكلمة، لقد اقتحموا المنزل عندما كنا خارجه بدون خجل، في الشقة كانت ابنتي ترقد مريضة بحرارة ٤٠ درجة، وإلى جوارها حماتي، أخطأ مراسلو التليفزيون واعتقدوا أنها والدتي، فأمطروها بالأسئلة المحرجة مثل: هل كان من الممكن أن يكون ابنك خائناً؟ لم تكن حماتي تعرف بماذا تجيبهم وهم يلتقطون الصور.

ذات مرة عندما اقتربنا أنا وزوجتي دانا من الفيلا وكنا خارجها، قابلتنا يلينا فيودروفنا والدة زوجتي عند المدخل وكانت متوترة وقالت: مراسلو التليفزيون في البيت. وعندها اعتلاني الحرج، تنزهت قليلاً وفكرت: ماذا؟ إلى أين؟ ثم بعد ذلك دخلت المنزل. التليفزيون كان قد نجح في تصوير ليس فقط دانا، ولكن والدتها أيضاً والتي كانت في حالة حزن بدون هذا. الحديث معنا لم يدم طويلاً، نظراً لاستدعاء إيفانتشيكو القائم بأعمال رئيس الكي جي بي لي. حتى هناك تتبعني الصحفيون، واستطاعوا من قبل الحديث مع إيفانتشيكو وسألوه: هل ستجلسون مع ميدفيديف أم ستحققون معه؟ كشاهد أم متهم؟ فقال لهم: بالطبع سنجلس. وبالطبع كشاهد.

لكن حتى الجلسة مع قيادة الكي جي بي الجديدة عملياً لم تحدث. فقد قال إيفانتشيكو: أنا آسف ليس عندي أسئلة لكم. لكن النيابة أبدت اهتماماً بكم. يمكنك أن تذهب للنيابة الآن مباشرة.

الصحفيون والمصورون والتليفزيون، تتبعوني إلى النيابة، لكن لم يسمح لهم بالدخول.

استقبلني نائب النائب العام الروسي ليسوف باحترام، وشد على يدي مصافحاً، المحقق سألني عن وصول مجموعة لجنة الطوارئ، وعن أحاديثهم في فوروس، وعن سفري من هناك. كان ليسوف يكتب الإجابات، تحدثنا حوالي نصف ساعة تقريباً، لا أكثر.

عندما كنت أهم بالهبوط إلى الأسفل على الدرج، كانت نفس المجموعة من الصحفيين بوقاحة ودون تكليف تنتظرني عند المخرج.

تم استدعائي مرتين أخريين إلى النيابة. نفس الأسئلة عن " أحداث ووقائع ١٨ أغسطس في فوروس " لكن بصورة أكثر تفصيلاً، الأحداث بالساعة والدقيقة، في نفس الوقت حافظ المحققون على أدبهم الجم.

فيما بعد عرض التليفزيون كل ما تم تصويره، وعرضوا والدة زوجتي دانا وهى تتمتم وتهمهم... فهي سيدة مسنة رأت كل هذا اللغط، وقلقت جداً. في سبتمبر أصيبت بأزمة قلبية حادة، وفي يناير ١٩٩٢ توفيت.

النهاية

من الصعب أن ألخص حصاد ٥٦ عاماً من الحياة. خاصة وأن كل شيء لدي كما هو، لم أفقد شيئا: نفس المعرفة، الخبرة، الصحة (خلال ٣٠ عاماً عمل في الكي جي بي، مرضت مرتين ببرد خفيف أثناء حكم بريجنيف وكان ذلك أثناء رحلات صيد – المؤلف) وتميزي بأني لا أشرب ولا أدخن، باستثناء التدخين المصطنع أيام بريجنيف، ساعدني على الاحتفاظ بمظهري الرياضي. هذا على الرغم من الاستهلاك الجسماني الشديد لعشرات السنين: توتر عصبي دائم، وليالي جفاها النوم، وسفر بدون توقف، وانقطاع تام عن المنزل وعن الأسرة، وقت أجازة غير مناسب وقصير (في الشتاء، وفي الأغلب في شهر ديسمبر – المؤلف) أي أنني طوال حياتي لم أكن أملك أمر نفسي.

سافرت كثيراً خلال ست أعوام من حكم جورباتشوف، بلغ عدد السفريات للخارج أربعين زيارة رسمية، وليس من الصعب تذكر عدد من الدول تمت زيارتها عدة مرات: فرنسا أربع مرات،الولايات المتحدة وألمانيا الشرقية ثلاث مرات، بولندا والهند ورومانيا وفنلندا وألمانيا الغربية وإيطاليا وانجلترا مرتين، ست وعشرون دولة وأربعون زيارة.

هذا العدد من الزيارات ربما لم يقم به أي من قادة الدول العظمى في العالم، حتى تلك الدول المزدهرة والقوية وليست تلك المتهالكة بالحروب القومية الداخلية مثل بلدنا. حتى الولايات المتحدة الدولة المزدهرة فإن الرؤساء لا يتركون بلادهم ومواطنيهم بكثرة هكذا. وهنا، سؤال يفرض نفسه: هل من الممكن أن تقود دولة غيابياً، دولة كل شيء فيها ينهار، وتراق فيها الدماء، وشعب يزداد فقراً، وبدأ يفقد الثقة نهائياً؟

أنا أفهم أن الأمر يتطلب البحث عن جدوى اقتصادية وسياسية في الخارج، وأن العلاقات الخارجية مهمة، لكن لو وضعنا على الكفة الأخرى من الميزان الحرائق والقتل في بلادك، والانحطاط الأخلاقي للزملاء الذين يساعدونك في إدارة البلاد... على العموم يكون من الجيد أن نحسب المكسب والخسارة من بعض الزيارات. والنتيجة أن جورباتشوف كان يفهم، ويحدد توجهاته جيداً في المحيط الخارجي، لكن في المحيطين به شخصياً، كان كل شيء يمر عليه دون أن يلحظه. كان يخطئ بدقة مدهشة. جورباتشوف قاد البلاد إلى انقلاب أغسطس وقادها إلى الانهيار وإلى الإفلاس.

أعود إلى حياتي الخاصة.

لو حسبنا الأيام المخصصة للزيارات الخارجية، يمكن التخيل بوضوح، كم هو قليل الوقت الذي بقي لحياتي وكينونتي في وطني، وأسرتي التي حظيت بأيام ودقائق وساعات معدودة فقط. في الحقيقة، مثل هذه الحسابات قمت بها في عصر بريجنيف. حينها كانت الزيارات الخارجية (لم تكن قليلة وللحقيقة في ذلك الوقت كان ترك البلاد فيه نوع من

الاطمئنان) والزيارات داخل الاتحاد السوفييتي، الصيد في زافيدفو (في عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد، وتقريباً كل أجازات الأعياد) كل هذا كان يشغل ٢٧٠ يوم في العام. وفي الثلاث أشهر المتبقية كنت أذهب للبيت متأخراً، وأخرج منه في الصباح الباكر.

ماذا سيقولون لي: رأيت الكثير؟ اتضح أن الحياة لم تكن فقط مضطربة وشديدة الصعوبة، ولكنها أيضاً كانت ذات فضل علي. نعم: التقيت خمسة رؤساء أمريكيين، وثلاثة من قادة فرنسا وألمانيا وهكذا وما شابه.

لكن ماذا رأيت في الحقيقة وفي واقع الأمر؟ قصور العالم المشهورة كانت بالنسبة لي فقط مكانا لتأمين الرئيس. لم توجد كذلك بالنسبة لي حدائق مشهورة أو جنائن، ولكن فقط مصدر خطر محتمل. لم أر الناس، ولكن فقط زحمة الناس، كنت أنظر ولكن لا أرى ما يراه الآخرون.

كل العالم كان يرى وجوه الزعماء لكن أنا كنت أرى ظهورهم.

التعويض عن انشغالي وسهر الليالي ليس في هذا، أي في أنني سافرت وشاهدت، ولكن في أن الأشخاص الذين قمت بحراستهم بقوا أحياء وبصحة جيدة، ولم يهددهم أي شيء. تذكروا المصير المأساوي للرؤساء الأمريكيين، وقادة الكثير من الدول والأحزاب والحركات.

أعتقد أن حياتي قد اكتملت وحققت الغرض.

تم تعييني في الكي جي بي في سبتمبر عام ١٩٦٢، وبعد أغسطس عام ١٩٩١ انتهت خدمتي. وحتى أستطيع أن أكمل إجراءات المعاش، أخذت أجازة (جاء الشتاء) وحل مارس عام ١٩٩٢. أي أنه عملياً خدمت في الكي جي بي ثلاثين عاماً إلا عدة أشهر، وخدمت فقط في الإدارة ذات المكانة الأعلى،الإدارة التاسعة.

لا أدري لماذا أطالوا فترة إجراءات المعاش، من الممكن أن يكون ذلك بسبب أن " التاسعة " فصلتني من صفوفها بعد أغسطس مباشرة، وأعطت أوامر لإدارة الكوادر العامة: هناك معامل آخر، هناك معاش تقاعدي آخر،أقل. وعموما بالنسبة لها أنا إنسان غريب. وقد استدعوني إلى هناك وقالوا لي: نحن لا نستطيع أن نجد لكم عملا، لو استطعت بنفسك أن تجد عملا، نحن لن نعيقك. فقلت لهم لا تقلقوا أنا سأتقدم باستقالتي.

مرتان شعرت فيهما بأنه لا حاجة لي بالمرة، نهاية الخدمة كنهاية الحياة، المرة الأولى عندما توفي بريجنيف، والآن عندما انتهى الاتحاد السوفييتي، ومعه توفي سياسيا جورباتشوف. في هذه المرة سيطرت على حالة من الذهول والحيرة، والآن الاستباحة والاجتياح.

ومن جديد انقطعت الاتصالات من الزملاء الذين اخترتهم بنفسي للحراسات الخاصة ودللتهم.

الموظفون الأقل مني رتبة ومكانة والذين كانوا في السابق يتملقونني، قابلوا عزلي بشماتة، وبإحساس كما لو كان عزلي أخذا بالثأر للإهانات السابقة التي لحقت بهم، ربما كان هناك نوع من الحسد .لا أعرف، لكن القيادة العليا قدمت لي فرصة الاستمرار في الخدمة في ذلك الوقت في الكي جي بي، وفي قسم مهم وذي هيبة ونفوذ.

والآن قيادة الكي جي بي أعطتني ظهرها تماماً. وأصبحت كما لو كنت مجرد جندي شطرنج في لعبتهم القذرة، لقد تآمروا علي من خلف ظهري، وخانوني. في المحصلة بدوت وكأنني خائن في أعين الكثيرين... حالة متناقضة.

تطورت الحالة في تتابع مؤسف لأنها كان يجب أن تتطور، في بلاد الإنسان فيها غير محمي إلا بوظيفته. وإذا فقد الوظيفة فإنه يفقد كل شيء. قبل فترة طويلة من إنهاء إجراءات المعاش، بقيت كأحد العاملين في الكي جي بي، وقد حضرت من أجل الحصول على مخصصات مواد غذائية، فقالوا لي أن اسمك مشطوب من القائمة.

بالإضافة إلى ذلك، في قرية الفيلات، التي كان يهاجمها البلطجية من المناطق المحيطة، وكان من المفترض أن ينتهي الموسم كما هى العادة في شهر أكتوبر، طلبوا مني ومن المقيمين الآخرين في القرية بعد أحداث أغسطس مباشرة، أن نغادرها خلال أربعة وعشرين ساعة. اضطر كبار السن والنساء والأطفال وهم خائفون ومذلون إلى مغادرة المكان على عجل. طلب الكثيرون منهم بعض الوقت لجمع حاجياتهم، لكن الإدارة اعتبرت أن هذه أوامر من جهات عليا واجبة النفاذ دون إبطاء. كل هذا كان يذكرنا بعمليات إخلاء السكان في فترة الحرب عندما كان الفاشيون يتقدمون.

كنا قد خططنا لبناء فيلا (بيت ريفي خارج المدينة- المترجم) لأسرتنا، لكن بعد أحداث أغسطس فشل هذا التدبير، قطعة الأرض التي بدأنا بتسجيلها، لم يعطوها لنا.

هكذا كل المصائب تدحرجت في اتجاهنا الواحدة تلو الأخرى.

عندنا في جميع العهود، إذا مجدنا شخصاً فإننا نحمله لعنان للسماء، وإذا نزعنا عنه المجد فإن ذلك يكون حتى سحقه بالكامل، نضربه في غطاء الرأس، كما ندق المسمار في الخشب. كم من مصائر بشر تم تشويهها خلال هذه الأيام المعدودة بالمعنى الحرفي! في كل مكان يهللون عن انهيار الاقتصاد، والفقر، وانقسام البلاد. لكن كل هذا يمكن، طال الأمد أم قصر، أن يعود لسابق عهده. الذي لا يمكن تعويضه هو إعاقة وفقد الحياة الإنسانية. أنا تحدثت عن وفاة يلينا فيدروفنا (حماة الكاتب- المترجم) لقد كانت إمرأة قوية ورغم أنها كانت تعانى من ضغط الدم، لكن ما قصّر عمرها بالفعل هو الضوضاء والصخب الذي أثير حول شخصي، والموقف في البلاد بصفة عامة.

لم يكن قدري هو الأصعب، بل هناك كثيرين آخرين سحقتهم الحياة أكثر.

من جديد تذكرت مطار بيلبيك واستقبال جورباتشوف، عندما قرأت في إحدى الصحف المركزية عن مصير القائد الحزبي الشاب في القرم ليونيد جراتش.

عندما بدأت في البلاد الصراعات القومية، أحد الأماكن التي كان يجب أن يكون فيها صراع قومي دموي هي شبه جزيرة القرم، ازداد القلق عندما عاد رئيس مجلس القوميات

السابق رفيق نيشانوف من وسط آسيا، حيث بدأت تراق الدماء بالفعل، وشرح للنواب وللبلاد كلها من خلالهم سبب الصراعات المحلية في وسط آسيا وقال: أنهم في السوق لم يتفقوا على سعر الفراولة. هذا فقط كان بداية الحرب الدموية الشاملة، التي كان من الممكن إيقافها وتلافيها. لكنه بهذا الشرح حاز تماماً على رضا نواب الشعب.وكان السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي راضياً تماماً عن هذا الكذب البدائي على الشعب.

القوميون العنيدون، والهادمون الآخرون فهموا أن كل شيء ممكن... " على سعر الفراولة "، لم يتفقوا أيضاً في البلطيق، وناجورنو كارابخ وبرينستروفية، وفي جورجيا والشيشان وإنجوشيتيا. وفي وسط آسيا اشتعلت عدة مصادر للحريق مرة واحدة (حروب عرقية نشبت قبيل انهيار الاتحاد السوفييتي – المترجم).

تدفق التتار – بالآلاف– إلى القرم قبل اتخاذ أي قرار أو موافقة على ذلك (تتار القرم قام ستالين بتهجيرهم إبان الحرب العالمية من القرم لشكه في ولائهم ولكن بعد أن ضعفت قبضة الدولة السوفيتية عادوا إلى موطنهم مطالبين بأراضيهم وممتلكاتهم التي استولى عليها الروس والأوكران – المترجم) كيف تمكنوا من تجنب إراقة الدماء في القرم؟ حتى الآن غير مفهوم، كل هذا الأمور شهدها جراتش في البداية عندما شغل منصب رئيس قسم، ثم بعد ذلك سكرتيراً للجنة الحزبية في المنطقة. لقد تم عمل ملحق لجريدة المنطقة باللغتين الروسية والتتارية، وخصصوا وقتا للغة التتارية في البث الإذاعي، وأنشأوا مسرح درامي موسيقي مشترك تتاري – قرمي، لكن المتاعب الأساسية بقيت وكانت تتمثل في تسجيل السكان والأرض والمباني.

حينها أصيب ليونيد جراتش بأزمة قلبية حادة.

بعد ذلك ترأس ليونيد جراتش العمل للإعداد لاستفتاء " حول الوضع الحكومي والقانوني للقرم ". هذا كان أول استفتاء في البلاد قبل الاستفتاء الاتحادي (تم عمل استفتاء في عموم الاتحاد السوفييتي طرح فيه سؤال محدد حول بقاء الاتحاد السوفييتي من عدمه واختار الشعب بقاء الاتحاد السوفييتي لكن ضُرب بنتيجة الاستفتاء عرض الحائط وانهار الاتحاد السوفييتي، وافق على بقاء الاتحاد السوفييتي أكثر من ٧٠% من سكانه– المترجم) سكان القرم قبل الجميع صوتوا لصالح الحفاظ على الاتحاد السوفييتي، كان ذلك شهر يناير ١٩٩١.

في العامين الأولين سكرتير لجنة المنطقة الحزبية كان يعمل دون عطلات أو أجازات. ولم يقم بأجازته سوى بعد إجراء الاستفتاء، وبينما هو في الأجازة بعيدا عن بيته حدثت له أزمة قلبية شاملة وشديدة للغاية.

كان يجب أن يخرج من الخدمة كمعوق بعد هذه الأزمات القلبية، ولكن تم تكليفه وهو الشخص القانوني والتاريخي بتعليمه، بإعداد مشروع دستور جمهورية القرم ذات الحكم الذاتي، واختاره اجتماع اللجنة الحزبية سكرتيراً أول للحزب في القرم.

الكثيرون في البلاد –حزبيين وغير حزبيين– خدموا القضية بصدق وشرف، منهم من قدم خدمات كثيرة ومنهم من هم أقل، كل في حدود إمكانيات وضعه الوظيفي وفي

حدود إمكانياته الشخصية. في المحصلة النهائية أصبح معيار التقدير ثلاثة أيام من شهر أغسطس: هل دافعت عن البيت الأبيض (البيت الأبيض هو مبنى البرلمان الروسي وهو بناية بيضاء ضخمة سميت بهذا الاسم ربما للونها الأبيض أو ربما تيمناً بالبيت الأبيض في أمريكا– المترجم)؟ إذا كان الجواب بالنفي تبرز أسئلة أخرى: أين كنت؟ ماذا! فعلت؟ في التليفزيون بشكل واضح دعوا إلى الإبلاغ عن هؤلاء الذين حتى ولو بشكل غير مباشر أيدوا الانقلابيين.

في أيام أغسطس تلك كان لدى كل جمهورية وكل مدينة وكل إنسان البيت الأبيض الخاص به.

كان القرم يقع تحت سيطرة عاصمتين. من موسكو من سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، وصلت رسالة سرية مشفرة: " تم استلام الرسالة يوم ١٩ أغسطس الساعة الحادية عشرة وواحد وأربعين دقيقة، وتم حل شفرتها في الساعة الحادية عشرة وخمسة وخمسون دقيقة. نظراً لإعلان حالة الطوارئ، اتخذوا الإجراءات اللازمة لمشاركة الشيوعيين في مساعدة لجنة الدولة للطوارئ في الاتحاد السوفييتي... "ومن العاصمة الأوكرانية كييف سكرتارية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الأوكراني أصدرت أوامرها بصورة أكثر حسماً " المهمة الأهم للجان الحزبية تعتبر المساعدة...".

الكثيرون من الذين سلموا بطاقاتهم الحزبية من قبل، وأوصدوا الباب خلفهم، الآن وفي ١٩ أغسطس أسرعوا عائدين أدراجهم إلى نفس الباب الذي أغلقوه بعنف خلفهم، وطلبوا إعادة البطاقات الحزبية إليهم، وهؤلاء الذين لم يدفعوا الاشتراك الحزبي لشهور، أصبحوا يطلبون بإلحاح أن يقبلوا منهم الاشتراكات.

كان القرم مدللا، فهو الطفل المحبوب للقادة الحزبيين والموظفين الحكوميين الكبار. إذا كان يطلب من قادة كل الضواحي والمناطق "تنجز " الخطة و" زيادة " و" قبل الموعد " وما شابه، فإن لقادة القرم المهم "تأمين" استجمام طيب للسكرتير العام والمحيطين به مرة في العام. كل نواقص الإحدى عشر شهراً الباقية من العام يمكن غفرانها والتغاضي عنها. والعكس من الممكن أن تعمل طوال العام وإذا لا قدر الله وحدث ظرف طارئ في أغسطس أو سبتمبر في الفيلات الحكومية، أو على الطرق الموصلة لها، أو إلى المطار......

إذا وقف جراتش معارضاً للانقلابيين بوضوح على طريقة تشيبايف (أحد أبطال الحرب الأهلية في روسيا بعد قيام ثورة البلاشفة ولم يكن يعرف أي شيء عن الماركسية ولكنه انحاز للبلاشفة وكان رغم عدم ثقافته كان رجلا ذي مهارة عسكرية خارقة – عندما سألوه أنت مع الجيش الأحمر أم الأبيض قال أنا مع لينين– المترجم)، لاستطاعوا محاصرة شبة جزيرة القرم بسهولة. ولأطبق طوقان من الحصار على جورباتشوف وأسرته، ولتم عزلهم وبقية قادة الدولة الذين يستجمون على الشاطئ. لم يستطع جراتش أن يؤيد الانقلابيين ولم يفعل هذا. يوم ٢٠ أغسطس في النصف الأول من النهار، عندما أصبح الانقلاب في أوجه، خطب جراتش في رئاسة مجلس السوفييت الأعلى للقرم وقال:

ممكن أن نعترف بدستورية السلطة الجديدة إذا تحقق شرطان – إذا أظهروا لنا ما يثبت مرض الرئيس وإذا قبل مجلس السوفييت الأعلى للاتحاد السوفييتي في دورته قراراً بذلك.

خلال ثلاث أيام وبعد فشل الانقلاب، نفس الأشخاص من جديد قاموا بفتح الأبواب السميكة، ومرة أخرى ألقوا بالبطاقات الحزبية.

من هؤلاء الذين رفعوا الأنخاب مع جورباتشوف في ضواحي سيفاستوبل، وأمام فوروس في صحة الحزب والاتحاد السوفييتي الموحد، هو فقط جراتش الذي اتضح انه ليس الأصغر سناً فقط، ولكنه كان الأخير، وإذا كان المعينون من الرئيس، مثل رئيس أوكرانيا وزعيم القرم شخصيات قوية ذات خبرة تقف بقوة على أرض صلبة، قد خرجوا من الحزب، واستداروا في الاتجاه المضاد، فإنه وهو الشخص الذي ألقى به هؤلاء القادة، والذي كان يشغل منصب السكرتير الأول منذ ستة أشهر فقط والبالغ من العمر أربعين عاماً قد صمد، إنها إرادة الرب.

قال جراتش بهذا الخصوص: أنا لا أستطيع هكذا أن أتخلى عن الناس. مائة وثلاثين ألف شيوعي؟ هذا ليس مزاحا، هؤلاء بشر أحياء.

بعد أسبوع من الانقلاب يوم ٢٩ أغسطس أصيب بأزمة قلبية ثالثة. حدث هذا في أيام كانت فيها المظاهرات المعادية للحزب تهلّل، وعندما كانت المسيرات والمؤتمرات المعادية للشيوعيين تجتاح البلاد.

وصلت الإسعاف لمنزله، لكنه رفض الذهاب إلى المستشفي المسجل بها بالمدينة، لكي لا يخذل الأطباء. وصمد حتى الصباح، ولحسن الحظ فرغ مكان في إحدى مستشفيات القرية وذهب بعيداً عن سيمفاروبل (عاصمة القرم- المترجم) وقال: إذا رقدت في مستشفى المدينة، لاقتحم المتظاهرون الغرفة التي أرقد بها..

ولم يشاهد في المستشفى أي من الزملاء القدامى ورفاق الدرب ولا واحد زاره! واحد فقط ذهب إلى المستشفي ولم تأته الشجاعة ليصعد إليه في غرفته، لكي لا تتعرف عليه الممرضات والأطباء. أراد أن يستدعى جراتش لينزل إلي السيارة الحكومية، لكن جراتش كان يرقد والمحاليل معلقة له.

أنا افهم جيداً الحالات المشابهة، وهذا النوع من خيبة الأمل في الأشخاص هو الأصعب. القضية ليست في خيبة الأمل الشخصية أو حتى في الدمار الروحي. لكن في خيبة آمال عموم الشعب، البلاد، الناس كان لها نظام واحد طوال حياتها، وفجأة تتحول للمعسكر المضاد دون محاولة لاستيعاب الذنب الذي ارتكبوه أو الضلال، بدون محاولة للاعتراف بالذنب والتوبة. هؤلاء الناس دخلوا مرتين للسلطة بفضل البطاقة الحزبية: أول مرة عندما تسلموا هذه البطاقات الحزبية، والمرة الثانية عندما تخلوا عنها.

أنا توقفت عند هذه الحكاية بالتفصيل، لأن القرم حالة نموذجية واضحة لما كان يحدث في عموم البلاد في أيام أغسطس تلك ومستمر حتى الآن. هناك أيضاً الشغب والعربدة من كل الأنواع، مجتمع روسي، الاشتراكيين الديموقراطيين، حزب بعث أوكرانيا، الحزب والديموقراطي الأوكراني ، وغيرهم من المنتصرين.

هل معقول أنه كان سيحدث اقتصاص منه في مستشفى المدينة؟ لم يكونوا ليقتلوني -أجاب جراتش الصحفي الذي سأله- لكن إذا اقتحم شخص الغرفة التي أرقد فيها وبصق في وجهي كنت سأموت ساعتها.

.... هل من المعقول أن نعتمد على هؤلاء البشر في إنقاذ البلاد؟... لا أستطيع أن أمسك نفسي، لكي لا أستعين بالفقرة الأخيرة من مقال عن هذا الموضوع نشر في صحيفة "الإزفيستيا"، لأن هذه السطور ستظل لفترة طويلة تمس المواطنين. لفترة طويلة، طويلة لعشرات السنين القادمة.

" لا يكفي أن تنتزع الحرية. لكن يجب أن تستحقها. الآن عندما انهار قانون الحزب الحصين والكل انطلق إلى الصفوف الأولى، يسعون للصياح في بعضهم البعض، أريد أن أقول: تحدثوا بهدوء، أنتم غير مسموعين ".

الجبناء المحترفون والحساد هم الأكثر صياحاً من الآخرين.

وقت الفوضى باسم الحرية مناسب لكل أنواع تحقيق الذات، كما الليل للسرقة. مقاييس الأخلاق في العالم دائما كانت السلطة، حيث الحقيقة والزيف منذ فترة طويلة قد تبادلا الأدوار. لا العقل ولا الموهبة ولا الضمير ولا حتى النقود، إنها السلطة. من كان بالأمس أكثر من الآخرين يتذلل ويتزلف أمام السلطة، هو اليوم الذي يصيح بحماس أكثر من الآخرين، ليأخذ بثأره من المستبد للذل الذي رآه، يأخذ بالثأر من نفسه، ليعيد لنفسه ديونه.

حتى لو كان (جراتش- المؤلف) مجرد عامل وسيط، لو كان حتى أذنب في أيام الانقلاب - أكرر "لو " - فإنه حتى وقتها لم يكن ليستحق الإعدام على سرير المرض.

هذا موجود عندنا في الدم وفي الحياة اليومية، كنا نلاحق شخصا ما: المناشفة، الاشتراكيين الثوريين،، الفلاحين، المثقفين، الكنيسة، العلم، الحروب، اليمينيين، اليساريين. تذكروا فقط من عندنا لم يتعرض للملاحقة؟.

نحن لا نستطيع العيش بدون أعداء، كيف نعيش هكذا ": فجأة لا يوجد من نلاحقه....."

بعد ذلك حدث شيء غير متوقع. فقد عرفت أن جراتش خرج من المستشفى، ضعيفا، بدون عمل. رقد في بيته، عندما رن التليفون باتصال من موسكو: أهلا يا ليونيد إيفانوفيتش، أنا رايسا جورباتشوف. كيف صحتكم؟ هذا كان أعلى درجات التصرف الأخلاقي.

بالطبع جورباتشوف لاحظ حينها قائد حزبي شاب لا يشبه الآخرين. ومن غير المستبعد أنه ضمه لاحتياطي الحلقة المقربة منه. لكن كما نرى خلال عام انقلبت الأمور رأساً على عقب، الرئيس نفسه اهتز، وأصبح معرضاً للسقوط.

لا شك أن هذا كان تصرفا لطيفا. تذكرت رايسا جورباتشوف حتى بعض التفاصيل التي تبدو غير مهمة حيث قالت له: في الصحيفة خطأ، مكتوب أنك مرشح للدكتوراه. لكن

أنا وميخائيل سرجييفتش حينها اهتممنا، وقالوا لنا أنك دكتور. فقال لها: في الصحيفة كل شيء صحيح، فقد كنت حينها قد كتبت رسالة الدكتوراه، لكن لم أكن قد ناقشت الرسالة بعد.

طرق بشرية غير معترف بها، كما أعمالهم وتصرفاتهم.

أعتقد أن هذا الاتصال مع التمنيات بالشفاء، لم يكن أقل من الدواء بالنسبة للمريض.

على مدى تاريخ السلطة السوفيتية، كل سكرتير عام تم إعطائه ما يستحق بعد وفاته، ولكني متأكد أن جورباتشوف، سيحصل على تقييمه بما يستحق وهو على قيد الحياة. من الممكن أن يكون ليس اليوم وربما فيما بعد، لكن سيكون هذا أثناء حياته. الأحداث تتطور وتتصاعد بسرعة شديدة لدرجة أن "محكمة التاريخ" تعطى تقييم لأحداث ما بعد جورباتشوف.

موضوعياً، ساعد جورباتشوف على هدم نظام شمولي قديم، هذه حقيقة ستبقى للتاريخ. من الممكن ألا يحتاج التاريخ إلى تفاصيل، أن النظام تعفن، انتهى، وكان قابلا للانهيار في أية لحظة، وهذا ما لم يتوقعه جورباتشوف نفسه. فهو بدأ يعمل مثل كل سابقيه، منتقصاً من شأن السلطة التي سبقته. كان يريد كالعادة أن يعمل ما كان يفعله من كانوا مكانه، عمل إصلاح شكلي ظاهري، لكن الحياة لم تعد كما كانت في السابق، وأخذته وقادته وأصبح هو منقاد خلفها. هو يعتبر آخر سكرتير عام للحزب الشيوعي وأول رئيس للبلاد، لم يختره الشعب، ولكن اختارته نفس الأسماء القديمة، جرى خلف الحياة، ولم يستطع ملاحقتها وكان يقفز كل مرة إلى العربة الأخيرة من القطار، غير راغب في مفارقة الكرسي العالي، وكان يلقي أثناء سيره باليساريين واليمينيين، حتى بقي وحيداً. وحتى تخلى عن الحزب الحبيب غيابياً، ولم يدع لمؤتمر عام، ولم يحاول النظر في عيون أصحاب الفكر المشترك، الذين كانت تربطه بهم عشرات السنين من العمل المشترك.

هكذا كانت تتطلب الأوضاع، تبرأ مبكراً، فقد كان يأمل أن يحافظ له على مكان في هرم السلطة، لدى السلطة الجديدة، بدون الحزب.

انظروا ماذا قال سكرتير الدولة جينادى بوربوليس عن جورباتشوف: شيء سيء أن الناس بالنسبة له لا تعنى الكثير، أنه يفضل فقط أيديولوجية ضمان أن يبقى حياً على السطح.

من الممكن أن أكون متحاملا. ربما. سأترك المتذكرين الآخرين يكتبون سطورا أخرى مضادة، سطور مختلفة، وستولد حينها الموضوعية، التي من الممكن، أن تعطى القارئ البعيد عن السلطة فكرة صحيحة موضوعية دون تحامل .

أنا الآن ورغم عدم هدوء أحاسيسي بعد، لكني أقل تحاملاً مما سبق، عندما كنت أنام ومسدسي تحت الوسادة، أشهد، لقد كذبوا علينا دائماً، طوال حياتنا، في واجباتنا، في عاداتنا تحت اسم "المصالح العليا". لكنهم لم يكذبوا علينا في السابق من منصات الديموقراطية وهم يرتدون قناع النبيل والمحب للحقيقة. فقط في سنوات البيريسترويكا، كذبوا علينا عن حادثة تشيرنوبل، وعن أحداث تبليسى وعن روست، وعن باكو، وعن

ناجورنو كاراباخ، وعن إسقاط طائرة الركاب الكورية " بوينج " وعن معاهدة مولوتوف - ريبينتروب، وعن يلتسين، وعن المواد الغذائية التي كانت توزع، عن الفيلات، وعن المستشفيات الخاصة، وعن الميزانية العسكرية، وعن التعذيب وانتهاك الكرامة من الأقدم للأحدث في الجيش، وعن عدد الجيش، عن عدد المعتقلين، وعن كاتين، وعن عدد الذين ماتوا في الحرب العالمية الثانية، وعن نزع السلاح الكيميائي. كذبوا علينا عندما وعدوا بعدم رفع الأسعار ورفعوها. الكذب كان أساسا في عدد كبير من مراسيم رئيس الاتحاد السوفييتي، بما في ذلك ما هو مقدس للجميع عن أنه أثناء الاحتفال بيوبيل النصر عام ١٩٩٥ سيتم جمع رفات من سقطوا في الحرب، ومقابر المحاربين المهملة والمهدمة في عموم روسيا سيتم تنظيمها وإصلاحها. وهذا لم يحدث. كله كذب.

من الأسهل أن نتذكر عندما لم يكذبوا علينا.

في الحقيقة كل شيء بدأ بالكذب:

"المجتمع السوفييتي اليوم- هذا مجتمع شديد التطور اقتصادياً...

المجتمع السوفييتي اليوم- هذا مجتمع نمو مستمر لرفاهية الشعب....

المجتمع السوفييتي اليوم- هو مجتمع الشعب المتعلم والمثقف، والغنى بحياته الروحية...

المجتمع السوفييتي اليوم- هذا مجتمع حلت فيه المشاكل الاجتماعية الأكبر...

المجتمع السوفييتي اليوم- هذا مجتمع الديموقراطية الحقيقية، واحترام كرامة وحقوق المواطن .....

نجاحاتنا واضحة "

متى عشنا حياة جيدة، ليحسدنا كل العالم عليها؟ ومن صرح لنا بذلك أو أعلن لنا عن هذا؟

جورباتشوف القائد الجديد، قال هذا بحماس عام ١٩٨٥، في نفس الوقت الذي أعلن فيه عن البيريسترويكا. لماذا البيريسترويكا إذا كنا نعيش حياة جيدة؟

وها هي حياته على قمة هرم السلطة يبدأها بكذب، كذب طفولي، يخدع كل الصحف. فهو عمليا من شكل لجنة الطوارئ (تذكروا ممن تتكون- المؤلف) (لجنة الطوارئ هي المجلس الذي كان منوطا به إعلان حالة الطوارئ في البلاد بموافقته وعلمه لكنه تخلى عنها وادعى أن انقلابا ضده قامت به اللجنة- المترجم) مدعياً لكل العالم أنه منقطع عن كل الأحداث، ويظهر بعد ذلك في موسكو تحت حراسة من يحملون البنادق الآلية. لم يأت كالعادة ولكن تم شحنه، كطرد قيم. شاحب مرهق. أول كلماته في المطار كانت: أنا أسيطر على الوضع.

لم يستخدم كلمة "المصالح العليا" هنا كالعادة للكذب. هذا كذب بالتعود، تعمق ووصل للدم.

بعد الانقلاب حدث، انقلاب ثاني. خلال هذا الوقت حدثت أحداث كثيرة لو حدثت في وقت آخر لما كفتها عشرات السنين. أعلنت عن استقلالها جمهوريات الاتحاد السوفييتي الواحدة تلو الأخرى، توقف نشاط الحزب الشيوعي السوفييتي، تم فرض ثم إلغاء ثم فرض حالة الطوارئ في الجمهوريات الجديدة، ومناطق الحكم الذاتي داخل الفيدرالية الروسية، وبدلا من اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية، يظهر اسم ثالث جديد لاتحاد جديد - ليس اتحاد الجمهوريات ذات السيادة، ولكن اتحاد الجمهوريات المستقلة، في محلات روسيا تحرير للأسعار، في أوكرانيا ظهرت عملة محلية تسمى كوبون، الأحداث في ناجورونوكاراباخ وأوسيتيا تتصاعد وتتحول لحرب حقيقية، إضرابات جماعية كثيرة الواحد تلو الآخر، تقسيم أسطول البحر الأسود وهكذا وما شابه ذلك. التطور الطبيعي لهذه الأحداث: كان أن يقدم الرئيس جورباتشوف استقالته في ديسمبر ١٩٩١.

الآن ولأول مرة في الحياة، عندي إمكانية متابعة الأحداث، وقراءة الصحف. لقد تعودت على وتيرة الحياة، والأحمال السابقة، وقلة وقت الفراغ. أصبح متوفرا الآن. "فوروس بدون جورباتشوف" إعلان " فيلا للإيجار في فوروس " - كل هذه عناوين تزين مانشيتات الصحف. تدعى موسكو أحقيتها في هذا المكان الخلاب، فهي التي عمرت هذه الأرض، والقرم وفق قرار البرلمان الذي أصدره والذي أعلن عنه أن كل ما هو واقع على أرض شبه الجزيرة يعتبر ملكية للقرم، وكييف التي لم تترك القرم يفلت تحت سيطرتها، فقد كان يحرس الفيلا من الخارج حراسة أوكرانية ومن الداخل حراسة روسية. عشنا ورأينا قطعة أرض تحرسها مخابرات دولتين مستقلتين.

وأقرأ كذلك: "هنا كان يستجم السكرتير العام" الحديث. هنا كان يدور عن فيلا حكومية لسكرتير عام آخر هو بريجنيف. فيلا زاريشى بعد جدل ومناقشات كثيرة قرروا إهدائها إلى الجامعة الدولية المنشأة حديثاً. لكن هذه الفيلا ليست مناسبة لتعليم عدد كبير، وهذا يعنى أنهم تحت غطاء هدف نبيل، منحوها لشخص. وأجهزة الاتصالات التي بها لا تحتاجها الجامعة، ولا الجراج الخاص، ولا المخبأ الكبير للحماية من القنابل، وغيرها من المباني.

الحالة تبدو شبيهة بما حدث عام ١٩١٧، عندما خربوا وحرقوا عقارات أقل (مباني اللجنة المركزية لم تحرق ولكنها أرهبت ونهبت بما فيه الكفاية) أما الأشياء الكبيرة فقد أمموها ولم يكن لديهم أي فكرة ماذا يفعلون بها ذلك.

سلسلة أخرى من عناوين الصحف " قضية لجنة الطوارئ، المتهمون يطلعون على الوثائق ويؤلفون الكتب عن قضية لجنة الطوارئ. رؤية المحققين في محاضر التحقيق بيعت، ونمت أجور وكلاء النيابة من تحقيق لتحقيق ".

ما كتبه ويكتبه المتهمون ليس مأساة، هذا حقهم، الحياة مستمرة بالنسبة لهم أيضاً. قام الجنرال فارينكوف بكتابة هوامش عبارة عن ملاحظات على كتاب جورباتشوف، كال فيها اللوم للرئيس، بما في ذلك اتهامه له بالكذب وقال أنه لم يوجه أي نوع من الإنذار لجورباتشوف في فوروس، وأن الحديث دار بتوتر، لكن في إطار " مجلس الأسرة ". ولم

أحد مكتب الرئيس، وأكد الجنرال على أنه لم يحدث ما قاله جورباتشوف في كتابه يقتحم عن أنه قال لنا في نهاية الحديث" اذهبوا إلى...". على العكس يؤكد فارينكوف على أنه بنهاية اللقاء قام جورباتشوف وصافح الجميع مودعاً. ووصف فارينكوف الرئيس السابق بشكل حاد عندما قال إن "خيانة" جورباتشوف هي التي أدت للنهاية المعروفة هذه.

مما شاهدت وعرفت أستطيع أن أؤكد أن الجنرال يقول الحقيقة.

الكتابة ليست مأساة، لكن المأساة في أنه بدون علم المتهم ومحاميه، الكتابات تسربت للصحف اليابانية. الصحفي الذكي استطاع أن يكسب من هذا مبالغ كبيرة بالعملة الصعبة.

في غضون ذلك، وكما قال رئيس قسم إدارة التحقيقات في النيابة العامة الروسية فلاديمير كازانكوف: في ملاحظات فارينيكوف بعض الوقائع، يجب على المحكمة أن تقيمها، ثم بعد ذلك تعرض على محكمة المجتمع.

أي أن الحديث يدور واقعياً عن إفشاء أسرار التحقيقات.

المصالح المالية تنتزع من قدس الأقداس، من المحاكم، والمحزن أن الذي أعطى الفرصة لهذه الطريقة غير الشرعية لكسب العملة الصعبة الرئيس السابق للنيابة الروسية.

أول تسريب للمعلومات كان لصحيفة " شبيجل" الألمانية وكان بموافقة النائب العام الروسي السابق. جريمة من هذه؟ من؟ حتى الآن غير معروف. تمت إقالة الثلاث محققين الذين حققوا مع بافلوف. إلا أن نتائج التحقيق حتى الآن غير معروفة، ولم يتم تحديد المذنبين حتى يومنا هذا.

ماذا حدث بعد ذلك؟ وماذا نستخلص؟ ف. ستيبانكوف (النائب العام ــ المترجم) يجري مقابلة مع صحيفة " شتيرن "، فيعرف القراء الألمان تفاصيل ما يحدث عندنا من أحداث.....

لكن حتى هذا بدا وكأنه مجرد أمر بسيط.

فقد ظهرت فجأة عوائق في التحقيقات، فنجد ف. بافلوف ومحاميه، وبالرغم من تحذير النيابة لهما مرتين، يرفضون دراسة الأوراق الجديدة للقضية، ما السبب؟ قيام النيابة بنشر صور: ليسوف مع بافلوف، وتارة بافلوف مع كريتشكوف يتنزهان، مع أنهم شرحوا للمحامى أن الصور ضرورية لأوراق القضية. بعد ذلك حدث أكثر من هذا: النائب العام بالاشتراك مع كبير المحققين كشفوا فجأة عن ماهية التحقيقات أمام العالم كله، ليس قبل المحاكمة فقط بل قبل انتهاء التحقيقات بفترة كبيرة. حدث مفضوح ليس له مثيل! " مؤامرة الكرملين، رواية التحقيقات " هكذا سمي الكتاب المخصص للقارئ الألماني، الكتاب ملئ بالشهادات الموثقة، معلومات عن حياة المتهمين، وفضائح غير متوقعة وشواهد مثيرة للاهتمام من حياة المتهمين والشهود في قضية لجنة الطوارئ.

من المثير جدا فعلا أن نعرف، متى وفي أية مرحلة؟ كانت التحقيقات قد أغلقت مبكراً! تم الاتفاق على نشر الكتب في الداخل والخارج، وأية مبالغ دفعت كأجر على النشر والتوزيع في مجلة " أوجنيوك "، وهل تم دفع ثمن الصور التي طبعت؟ على مدى

تاريخ السلطة السوفيتية لا أتذكر أن بيعت وثائق التحقيق على المكشوف هكذا، وخاصة أنها تتعلق بأكبر قضية صاخبة ومبدئية مرتبطة بقيادات الدولة.

ولم يكن هناك رد فعل من أي شخص، بأي شكل.

الخدعة كلها في أن المادة ١٣٩ من قانون العقوبات الروسي تنص على أن "معلومات التحقيقات الأولية ممكن أن يعلن عنها بموافقة المحقق والنيابة". أي أن كل واحد حر، هو يحقق والقانون يسمح له.

هناك لحظة هامة في عمليات التحقيق بين المتهمين والنيابة. شخصية جورباتشوف لم تظهر كضحية وبطل تعرض لخطر الموت. لا، ومرة أخرى لا ولم يكن هذا ممكناً، في النهاية، هكذا رمزت للأحداث التي حدثت بعد أغسطس ١٩٩١، والتي مستني ومست جورباتشوف والبلاد كلها. توفي الكثيرون ممكن كنت أعرفهم. مشهورين وذوى مناصب "مرموقة"، كتبوا عنهم أنهم انتحروا. لقد شاءت الظروف أن أتحدث مع كل واحد منهم، لا أعتقد أن أي منهم أنهى حياته خوفاً من المسئولية، لا. المارشال أخروميف (مارشال سوفييتي حارب الحرب العالمية وانتحر حزناً على انهيار الدولة السوفيتية وهو الذي قال عبارته المشهورة: إذا كان الاتحاد السوفييتي إمبراطورية الشر، فلماذا لم نتخلص من الشر فقط وما ذنب الإمبراطورية لنتخلص منها- المترجم) على سبيل المثال، شخص قوى الإرادة بما فيه الكفاية، وليس جباناً، ولكنه فقد الثقة في كل شيء، وشعر أن حياته ذهبت هباءً. تم تخريب قبره والعبث به فيما بعد؟ واقعة مثل هذه تدل على حالة المجتمع الأخلاقية المتدنية والتي تعد أخطر من الانهيار الاقتصادي ومستوى المعيشة، وما شابه ذلك. السقوط الأخلاقي هذا هو الأهم، الباقي يمكن تعويضه وإنتاجه من جديد.

بعد أحداث أغسطس بفترة قصيرة جداً، وفي خلال عدة أيام توفي عدد من زملائي من الشباب. ساشا سوكولوف الحارس الشخصي لليجاتشوف، حيث تحركت جلطة من مكانها وسدت أوعية القلب. وتوفي فولوديا تاراكانوف الذي عمل كومندانا مع تشيرنينكو، توفي بعد إجراء عملية جراحية.

كل هؤلاء تخرجوا من القسم ١٨ في الكي جي بي، وعملوا ٢٥-٣٠ سنة، بدأوا ينفرطون ولم يكمل أي منهم عامه الخمسين.

أجرى اليونسكو دراسة عن قصر عمر الإنسان من مختلف المهن، كان سيكون جميلاً أن يضمونا لتلك المهن لكنا قد عرفنا أي مكان نحتل نحن في قائمة قصيري العمر؟

بالإضافة إلى الحالة العامة في البلاد، كانت الأجواء المؤسسية الداخلية، والعلاقة بالناس. فإذا كان سابقاً في الكي جي بي يحاولون الإبقاء على العاملين القدماء ذوى الخبرة، فإن القادة الشباب الجدد غير مكترثين بهذا الأمر. وعندما قلت لهم: سأخرج على المعاش، ردوا مباشرة: اخرج.

بديل للخاتمة

مر بعض الوقت، وأدركت أنه مادام الإنسان على قيد الحياة، فإن شيئاً لم ينته. وليس كل الرفاق تخلوا عني، فهذا لا يمكن أن يحدث، أن يتخلى الجميع عن الإنسان حتى ولو كان مذنباً، فما بالك إذا كان بدون ذنب. هناك من يبقى إلى جوارك دائماً، دع المحيطين يصبحون أقل، لكن هنا يصبح الوفاء أكثر.

لقد شعرت فجأة بالحرية، من الاستدعاءات المفاجئة الكثيرة في الليل، كما كان في الزمن السابق، ومن هوائية النساء الغريبة بالأمس القريب، تحررت كذلك من النظام القاسي والجدول المقسم بالدقائق، كما شعرت بالراحة الداخلية. رغم أنني أتعود عليها بصعوبة.

لم أكن أعتقد على الإطلاق أنني يجب أن أتعود على الحرية، وأن رد الفعل الوظيفي قوى لهذه الدرجة، من الممكن أن يصاحبني هذا طوال العمر.

في مايو عام ١٩٩٢ بعد مرور أقل من عام على أحداث أغسطس قمت برحلة للولايات المتحدة بدعوة من إحدى الشركات. زيارة عمل، أنا حر نفسي. قبل هذا زرت الولايات المتحدة ثلاث أو أربع مرات، ولم أر المواطن الأمريكي البسيط إلا الآن. ففي مدينة شارلوت بولاية كارولينا الشمالية شاهدت سباق السيارات، وزرت نادي رعاة البقر ومدينة الملاهي وساحات الرقص. كما شاهدت البحيرة حيث أنشئت مدينة ملاهي ممتعة للأطفال وللكبار. المدينة نفسها شيقة وجميلة، لا توجد بها أرصفة، في كل مكان سيارات. ذهبت إلى خارج المدينة حيث الضواحي، وشاهدت كيف يعيش الناس هناك: المنازل من طابق واحد مع حدائق كثيفة النباتات، حشائش مشذبة، الجراجات بالقرب منها، وهى أيضاً خضراء.

الآن فقط شاهدت كيف يعيش الأمريكيون.

هنا خطرت لي فكرة: لقد سافر سكرتيرينا العامين إلى الخارج كثيراً، ولم يعرفوا ولم يشاهدوا كيف تعيش الشعوب هناك. لقد تعودوا في وطنهم على " القرى المظلمة "، وتعودوا أن يقودوهم فقط إلى الممرات الحية، وربما اعتقدوا بل وكانوا متأكدين أنهم يشاهدون الواجهة فقط، والتي تخفي خلفها الفقر والسرقة والقتل. أقول لكم بصراحة: لم يكن لدى السكرتيرين العامين الوقت ولا الرغبة للتعمق واكتشاف الحياة الحقيقية سواء عندنا في الوطن أو في الخارج.

ورغما عنى كنت أشاهد في الشوارع الأمريكية " حالات خطر "، وهى تمثل خطرا لأحد ما، وأثناء النوم أسترجع ما شاهدت وأفكر، إذا حدث معي كذا وكذا، ماذا يجب أن أتخذ من إجراءات؟

في المساء في الفندق عندنا كنت أرقد استعداداً للنوم، كنت أرتب ملابسي على الكرسي، وعلى مسافة بحيث تكون في متناول يدي، لكي أتمكن في الليل من أخذها وارتدائها خلال ٧-٨ ثواني. أضبط المنبه على الساعة السابعة صباحاً. فقط فيما بعد استوعبت: لماذا؟ من سيحتاجني في منتصف الليل؟ والإفطار من التاسعة حتى العاشرة، ممكن أن أنام بهدوء دون مشاكل.

لكن الآن أنا لا آخذ المنبه معي أبداً. خلال عملي لعشرات السنين في الكي جي بي، تعلمت أن أختار بنفسي وقت الاستيقاظ، إذا كان يجب أن استيقظ الساعة السابعة يكفي أن أقول لنفسي " في السابعة "، وأستيقظ بدون منبه.

إذا كانت هناك إمكانية للنوم أثناء النهار، أطلب لنفسي راحة عشرين دقيقة، وبعد عشرين دقيقة، كما لو كان هناك شخص يدفعني من جانبي، وأستيقظ. المنبه عندي صغير ياباني في حجم علبة الثقاب، كنت أحمله معي في السابق كنوع من التأمين خوفا من أن يخذلني حدسي لا أكثر.

هذه المرة، أنام في الطائرة، وأي استدعاء للمضيفة عن طريق الزر، زن زن، أجدني أنهض مسرعاً ومستعد للجري، وعند عودتي على الطائرة من أمريكا نفس الشيء.

من فترة قصيرة مرت الذكرى العاشرة على وفاة بريجنيف، كل الحراس الشخصيين " المرافقين " من فريقنا المتآلف أحياء وبصحة جيدة، توفي فقط رئيس حراسة بريجنيف، الأكبر سناً وخبرة منا جميعاً: الكسندر ريابينكو.

للأسف أنني لا أستطيع رؤية السيدة فيكتوريا زوجة بريجنيف، والتي لازلت أكن لها نفس الاحترام السابق . أعرف وسمعت أن حالتها الصحية متأخرة، وأنها أصيبت بالعمى. وأعتقد أن ذهابي إليها في المنزل أو حتى الاتصال لن يكون من دواعي سرورها وهى في هذه الحالة. نعم أنا خدمت بصدق وحق، وكنت دائماً قريباً من زوجها، ولم أتركه لا وهو حي ولا وهو ميت. لكن وبعد أن كنت عملياً أحد أفراد الأسرة، بعد ذلك خدمت مع شخص آخر. وهى شاهدتني في صور الصحف وفي التليفزيون قريباً من الشخص الذي تم تشويه اسم زوجها أثناء سلطته. ربما لو كان رئيسي شخصا آخر.....

اتضح أنى رهينة ، هنا حتى في علاقاتي الشخصية الطيبة السابقة.

أنا الآن سواء في جلسة أو احتفال لا أسمح بأن يستهزئ أحد ببريجنيف.

أنا كما في السابق أعمل في تخصصي.

الحياة في روسيا للأسف تجعل من الأشخاص الذين يعملون في مهنتي ولديهم التأهيل الذي لدى مطلوبين أكثر من اي وقت. حيث أصبح القتل والاغتصاب، وخطف الناس، وسرقة الشقق ظاهرة يومية معتادة، والناس تعودت عليها. تعودوا على أنه ممنوع ارتداء المجوهرات الثمينة في الشارع، وعلى أنه بعد الثالثة مساءً الظهور في الشارع منفرداً خطر.

على أية حال الخطر أصبح في أي وقت وفي أي مكان، في الشارع في المنزل في العمل.

الصراعات القومية، وتباين الطبقات في المجتمع، وتصاعد التوتر الاجتماعي، والفقر والبطالة، كل هذه الأسباب أدت إلى انتشار الجريمة. في مثل هذه الظروف تنمو ليس فقط الجريمة ذات "الهدف" (الابتزاز، السرقة، الفساد)، ولكن يمكن القول "دون هدف" عنف، مجتمع يتوحش. بعد شرب زجاجة خمر جار يقتل جاره أو ابن يقتل أبيه. أخبار الحوادث تشغل أماكن أكثر فأكثر في كل الصحف والتليفزيون.

كميات من السلاح تتحرك بحرية في عموم البلاد، عشرات الآلاف من البنادق، القنابل اليدوية، معدات الرؤية الليلية. أية أسلحة لا تراها إلا في الجيش يمكن شراءها وبيعها بحرية.

وإلى جانب الحراس المحترفين ظهر القتلة المحترفون وهو الأمر الذي لم يكن موجوداً من قبل على الإطلاق. ممكن أن تطلب قتل شخص والأسعار مختلفة حسب أهمية الضحية، وقدرات المنفذ، وفرص عدم اكتشاف الجريمة.

هذا في الوقت الذي لا توجد فيه قاعدة قانونية لمكافحة الجريمة. حتى الآن لم يتم سن قوانين لمكافحة الجريمة المنظمة والفساد، والسلاح، والحماية القانونية للعاملين في أجهزة حفظ النظام والأمن.

الفوضى القانونية صارت حافزا جبارا للمجرمين، وسيتطلب الأمر قريباً تعيين حارس لكل مواطن.

أن تجد عملاً في هذا المستنقع المائي العكر، لم يكن يشكل أية صعوبة. الصعوبة كانت في أن أجد العمل الذي يتناسب مع مستوى العلم والخبرة الذين لدى. وأنا وجدت العمل هذا، حيث رأست الحراسة في إحدى الشركات الصغيرة التي كانت تقوم بحراسة السياح الأجانب ورجال الأعمال. عملياً بدأت من الصفر، وهذا شيء جيد حيث كان تنظيم العمل بمبادرة مني. فقد دعوت للعمل عاملين سابقين خدموا معي في الكي جي بي، والذين كنت أعرفهم جيداً وقد وافقوا دون تردد على العمل معي، الكثير منهم من أصحاب الرتب العالية، الآن نحن معاً.

من الآن أستطيع أن أخطط لقضاء وقتي، المساء أقضيه في المنزل مع أسرتي، يومين أجازة في الأسبوع، ملكي .

وأخيراً لأول مرة أسافر مع أسرتي في أجازة، وكذلك لأول مرة مع زوجتي قمنا في الصيف بزيارة كبار السن أي الوالدين في القرية، كنا نذهب في عطلة نهاية الأسبوع، السبت والأحد.

قريتي تقع على بعد ساعتين من موسكو بالسيارة، ورغم ذلك تعتبر في أعماق البلاد، فالناس تعيش حياة قروية بسيطة روسية حقيقية دون خبث، وبدون بيروقراطية.

الهواء أنقى من هواء المدينة، والناس أنقى. بعد توترات العاصمة، الروح ترتاح في هدوء القرية. والأهم أنهم يسعدون برؤيانا، فأنا هنا الابن الغالي دائماً والجار الطيب.

قريتنا تعيش ولم يلحقها العطن بعد، لكن للحق لا يوجد شباب، حيث اجتذبتهم المدينة. لكن مصير القرية ليس حزينا وبدون أمل، كما هو الحال بالنسبة لآلاف القرى الروسية الأخرى، والتي ماتت تماماً، حيث الشباب وحتى الكبار هجروا منازلهم، وأغلقوا أبوابهم ونوافذهم بالمسامير إلى الأبد. بوبوفو (قرية المؤلف– المترجم) لم تلق هذا المصير ولن تلقاه أبداً، لأن موقع القرية مناسب فهي تقع في مكان ليس ببعيد عن موسكو، الطرق جيدة. بقيَت كل المراعى وأراضى الغابات، رغم التجارب العديدة التي مرت بها حيث زادوا المساحات المزروعة ثم قللوها، والآن ينتظر الفلاحون نظام الفلاحة. سيطبق، هذا جيد.

بالطبع على مدار خمسين عاماً تغيرت القرية، لكنها احتفظت بشكلها المعروف إلى حد ما. فقط كل شيء أصبح أقل، والشوارع أضيق، والحدائق أمام المنازل أقل، والسقف في العزب أكثر انخفاضاً. هكذا نرى الأشياء الآن ففي الصغر يبدو كل شيء كبيراً.

هنا جذوري، كل ما هو موجود بداخلي سيء أو جيد فهو من هنا. هنا قضيت طفولتي العادية وصبايا، مثل أبناء القرية: لعب الكرة، والرقص، والمشاجرات، قرية ضد قرية. نعم كنا نتشاجر ولكن ليس بقسوة هذه الأيام، لم نكن نتجمع سبعة لنضرب شخصا واحدا، ولم نكن نضرب من سقط على الأرض.

تصاحبنا، وتعادينا، وتصالحنا كما البشر.

في نهاية كل أسبوع كنت أعود من القرية إلى موسكو بقوة جديدة.

أحياناً عندما أتنزه بجوار بيتنا، من ناحية شاطئ لوجينسكي تهب فجأة الريح، يبدو أنه على الجانب الآخر يوجد مخبز: حتى الهواء الخفيف يحمل رائحة الخبز، الذي يعيدني كل مرة إلى وقت الطفولة التي لن تعود.

الناس الغرباء يمرون سريعاً من أمامي. يشير الناس إلى بأصابعهم في الشارع، في المحلات، في السينما، في المترو وأسمعهم خلفي يتهامسون " هو؟ "، " ليس هو؟ "، الناس تنظر إلى كما لو أنى هبطت من كوكب آخر. أحياناً يتوقفون: أنت؟ نعم أنا. اقتربت منى سيدة مسنة في المترو ورسمت علامة الصليب بيدها لتباركني....

أحدث إصدارات
« دار الثقافة الجديدة »

م	اسم الكتاب	اسم المؤلف / المترجم	الصنف	السعر
١	مأزق الاقتصاد المصري وكيفية الخروج منه	عبد الخالق فاروق	اقتصاد	٣٠,٠٠
٢	الثورة المغدورة (قصة كومونة باريس في شرائط مصورة)	برنار فيسك ترجمة وتقديم: راوية صادق	سياسة	٣٠,٠٠
٣	العمامة والقبعة (الطبعة الثانية)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٥,٠٠
٤	الحرب الأهلية في فرنسا مع مقدمة لفردريك إنجلز وبفهرست للأعلام	كارل ماركس	سياسة	٢٥,٠٠
٥	الإمبراطور الأخير قصة آخر إمبراطور للصين من مذكراته	إعداد: فتحي خليل	سيرة ذاتية	٢٠,٠٠
٦	أمريكانلي (الطبعة الثالثة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٥,٠٠
٧	لينين الدولة والثورة	تدقيق وتقديم: سعد الطويل	سياسة	٢٠
٨	رشدي سعيد ١٩٢٠-٢٠١٣ قراءة معاصرة لبعض أعماله	د. فكري أندراوس	دراسة	٢٠,٠٠
٩	مدخل إلى المنطق الصوري	د. سهام النويهي	فلسفة	٢٠,٠٠
١٠	ثورات وتمردات المصريين منذ الاحتلال العثماني حتى عام ١٩٥٢	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١١	ثورات المصريين حتى المقريزي	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١٢	يوحنا النقيوسي (أول من كتب عن دخول العرب مصر) تاريخ مصر والعالم القديم	عبد العزيز جمال الدين	معارف	٤٠,٠٠
١٣	خمسون عاماً من الفوضى في مصر	د. البهي عيسوي	تاريخ	٣٠,٠٠

١٤	اللجنـــــة (الطبعة العاشرة)	صنع الله إبراهيم	رواية	١٥٫٠٠
١٥	(حدتو) وثائق من باريس وسجن الواحات حول ثورة ٢٣ يوليو وعن الإخوان المسلمين	تحرير وتقديم د. أحمد القصير	سياسة	٢٠٫٠٠
١٦	حكايات إنسان في سلام مع نفسه .	علي نجيب	مقالات	٢٠٫٠٠
١٧	وردة (الطبعة الرابعة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠٫٠٠
١٨	الصندوق الأسود قصــة حســين سالـــم	كارم يحيى	سياسة	٢٠٫٠٠
١٩	يوميات الدولة الإسلامية في الســـــودان	إعداد عبد الماجد عليش تقديم: د. حيدر إبراهيم علي	سياسة	١٥٫٠٠
٢٠	تغريبـــــة (الجزء الثاني) من رواية مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	١٥٫٠٠
٢١	نظرتان على تونس (من الديكتاتورية إلى الديموقراطية)	كارم يحيى	سياسة	٢٥٫٠٠
٢٢	م الدار للنار	فؤاد حجازي	سيرة ذاتية	٢٠٫٠٠
٢٣	طعامك علاجك	تأليف: فكري اندراوس/د. أليسون أور– اندراوس	علوم	٢٠٫٠٠
٢٤	دليل الاشتراكية العلمية لشباب الثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٥٫٠٠
٢٥	رمال ناعمة	درية الكرداني	رواية	٢٥٫٠٠
٢٦	ذات (الطبعة الخامسة)	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠٫٠٠
٢٧	المسلمون والأقباط في التاريخ ط٣	فكري أندراوس تقديم المستشار/ محمود الخضيري	دراسة	٣٠٫٠٠
٢٨	حرفوشيات (ديوان شعر)	د. فؤاد طيرة	شعر	١٥٫٠٠
٢٩	الجلـــــــــيد	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠٫٠٠

٣٠	أحمد حسنين ودوره في السياسة المصرية ١٩٤٠-١٩٤٦	د. ماجدة محمد حمد	دراسة	٣٠,٠٠
٣١	شـــــرف	صنع الله إبراهيم	رواية	٣٠,٠٠
٣٢	أيقونة الجسد	جورج البهجوري	رواية	٢٠,٠٠
٣٣	الرئيس البديل	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٣٤	مهاجر غير شرعي	جمال عمر	رواية	٢٠,٠٠
٣٥	جمهوركية آل مبارك	محمد طعيمة	سياسة	٢٥,٠٠
٣٦	حدتو ذاكرة المقاومة في بورسعيد ١٩٥٦	د أحمد القصير	سياسة	١٠,٠٠
٣٧	أفريقية عربية – ١١ مختارات العلوم الاجتماعية	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٣٨	حوار مع اطروحات حزب التجمع (والبحث عن برنامج يعالج قضايا واقع جديد)	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٣٩	جماعات الإسلام السياسي واليسار المصري	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٤٠	حركة التاريخ قضايا ومفاهيم	فوزي الإخناوي	تاريخ	١٥,٠٠
٤١	الثقافات المحلية والعولمة	د إيمان يوسف البسطويسي	سياسة	٢٥,٠٠
٤٢	استراتيجية للثورة المصرية	بهيج نصار	سياسة	٢٠,٠٠
٤٣	أحوال الصين (دراسات نقدية)	مجموعة من العلماء الصينيين	سياسة	٢٠,٠٠
٤٤ ٤٥	سياسية القوة البريطانية في مصر ١٩٢٤-١٩٤٢	د ماجدة محمد حمود	تاريخ	١٥,٠٠
٤٦	التفكير الناقد	د سهام الهويني	فلسفة	٢٠,٠٠
٤٧	حدتو ذاكرة وطن ط ٢	د أحمد القصير	سياسة	٢٥,٠٠
٤٨	أفريقية عربية – مختارات العلوم الاجتماعية ١٠	مجموعة من الكتاب	سياسة	١٥,٠٠
٤٩	الناس بين الكهنة والمؤسسات	حسني فرجاني سلامة	اجتماع	٢٠,٠٠
٥٠	التجربة الأنثوية (طبعة ثانية)	صنع الله إبراهيم	قصص	٢٥,٠٠
٥١	المثقفون	حمزة قناوي	أدب	١٥,٠٠
٥٢	أزمة مصر الحقيقية	عيداروس القصير	سياسة	١٠,٠٠
٥٣	سِفر الحياة (رؤي وتأملات)	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
٥٤	سِفر الحياة (وكان شتاءً دافئًا) شعر	فكري باسيلي	أدب	١٠,٠٠
	العراق بين صراعات في الداخل والخارج	حسين عبد الرازق	سياسة	٢٥,٠٠

٥٥	الأيام الأخيرة	عبد الحليم قنديل	سياسة	٢٥,٠٠
٥٦	ذكرى عاهراتي الحزانى	جابرييل جارثيا ماركيز ترجمة: د أحمد يونس	رواية	٢٠,٠٠
٥٧	اشتراكية القرن	سمير أمين	سياسة	٣٠,٠٠
٥٨	استراحة الشيخ نبيل	عبد الستار حتيتة	رواية	٢٠,٠٠
٥٩	العمال وتحديات القرن الواحد والعشرين	إشراف: سمير أمين	سياسة	١٥,٠٠
٦٠	الطريق نحو عولمة بديلة	بهيج نصار	سياسة	٥,٠٠
٦١	المرسى	نجوى شعبان	رواية	١٥,٠٠
٦٢	حوارات ساخنة بين اليسار العربي والأوروبي	سمير أمين وآخرون	سياسة	٢٠,٠٠
٦٣	مدخل إلى دراسة "رأسمالية الريع"	علي نجيب	اقتصاد	١٠,٠٠
٦٤	كتابات في الاقتصاد والمجتمع - مصر	علي نجيب	اقتصاد	٢٠,٠٠

(توزيع) إصدارات دار المستقبل العربي

١	القانون الفرنسي	صنع الله إبراهيم	رواية	٢٥,٠٠
٢	التلصص	صنع الله إبراهيم	رواية	٢٥,٠٠
٣	الثورة العرابية	صلاح عيسى		١٥,٠٠
٤	قبة الإمام الحسين	د. نعمات أحمد فؤاد		١٢,٠٠
٥	الاشتعال السريع	نبيل السلمي		٢٥,٠٠
٦	الشيخوخة وقصص أخرى	د. لطيفة الزيات		٨,٠٠
٧	على جناح التبريزي	الفريد فرج		٦,٠٠
٨	الفن الفارسي	د. ثروت عكاشة		٦٥,٠٠
٩	وعليكم السلام	محمود عوض		٢٥,٠٠
١٠	مذكراتي في سجن النساء	د. نوال السعداوي		١٢,٠٠
١١	صحراء	لوكليزيو - ترجمة أحمد كمال يونس		١٥,٠٠

١٢	ميت بوتيك	فؤاد حداد		٢٠,٠٠
١٣	حرب أكتوبر – دراسات ودروس	الفريق أول محمد فوزي		٢٠,٠٠
١٤	معارك المياه	د. محمود سمير أحمد		١٢,٠٠
١٥	الكتابات الكاملة	يحي الطاهر عبد الله		٣٠,٠٠
١٦	أربعون عاماً من النقد التطبيقي	محمود أمين العالم		٣٠,٠٠

كتاب مثير للحارس الشخصي لزعماء الاتحاد السوفييتي قبل سقوطه.
شاهد عيان علي شخصيتي بريچنيف وجورباتشوف وحياتهم الخاصة.

فلاديمير ميدفيدوف الجنرال بالمخابرات السوفيتية كي چي بي، قاد الحراسة الشخصية لكل من ليونيد بريجنيف وميخائيل جورباتشوف لسنوات طويلة، ورافقهما في كل رحلاتهما داخل البلاد أو خارجها ولم يفارقهما ليلا أو نهارا.

يتناول المؤلف أخطاء الزعماء وهزائمهم، ونقاط الضعف في شخصياتهم وارتكابهم للمحرمات وأمراضهم وعيوبهم. ويكشف عن السقوط الأخلاقي لبريچنيف وعن ضعف شخصية جورباتشوف وتردده.

يركز الكتاب كذلك على مسألة هامة، وهي: من يحمى الشعب من هوائية الحاكم الشخصية إذا كان ينفرد بالحكم؟ ومن يعوض الشعب عن أن الحاكم مريض وحالته المزاجية ليست على ما يرام، وما يمكن أن يترتب على هذا من قرارات قد تكون مصيرية ؟

تصميم احمد مراد



حكم العواجيز اللحظات الأخيرة من حياة الا
00 35856
0 000000 358569

دار الثقافة الجديدة


فلاديمير ميدفيديف
حكم العواجيز
دار الثقافة الجديدة